

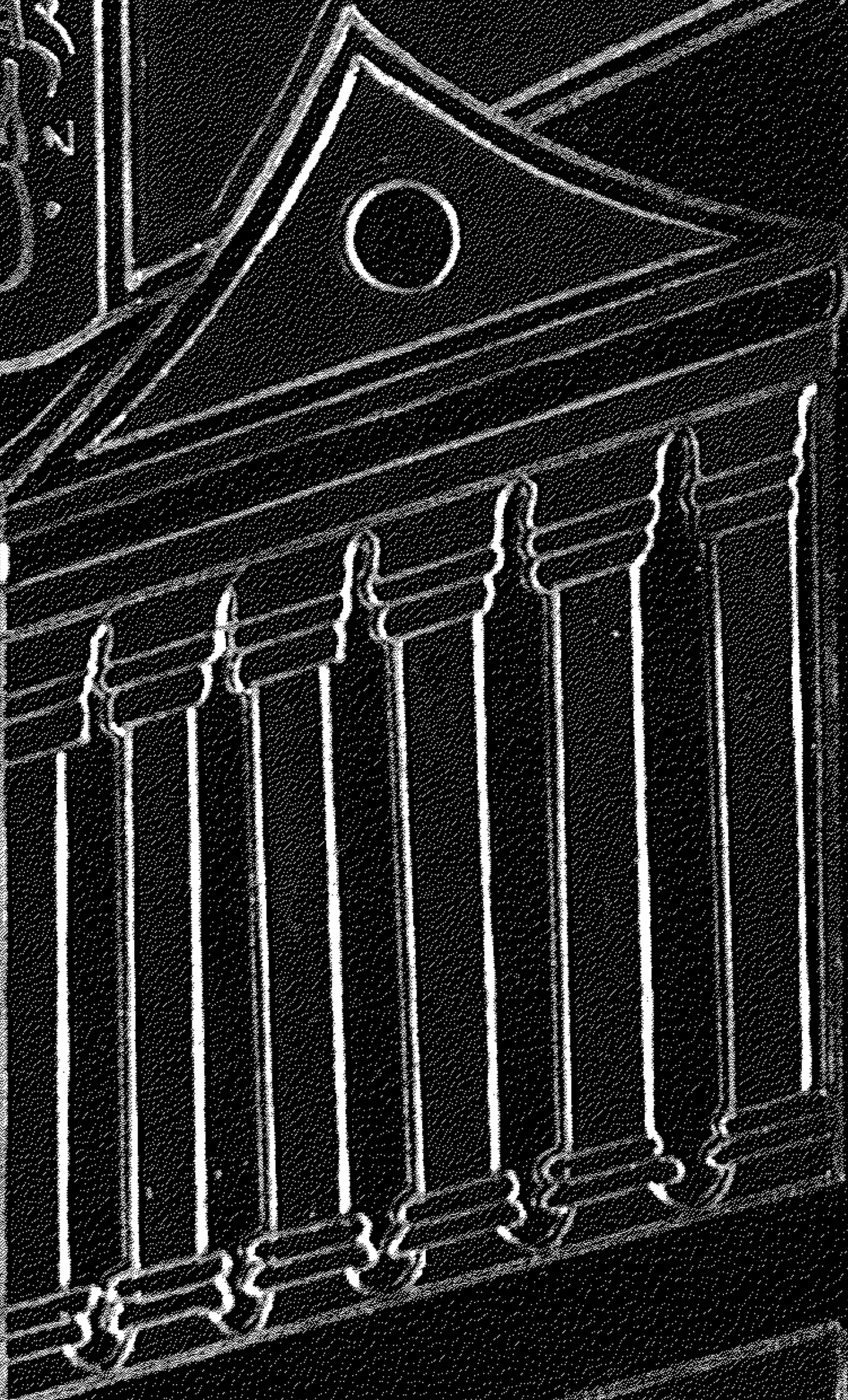
من
الفلسفة
اليونانية

الذي هو من عمل
ابن رشد

من
الفلسفة
اليونانية



موسى
فلسفة
ملا



النشر والطباعة

دار الكتب



1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

21

22

23

24

25

26

27

28

29

30

31

32

33

34

35

36

37

38

39

40

41

42

43

44

45

46

47

48

49

50

51

52

53

54

55

56

57

58

59

60

61

62

63

64

65

66

67

68

69

70

71

72

73

74

75

76

77

78

79

80

81

82

83

84

85

86

87

88

89

90

91

92

93

94

95

96

97

98

99

100

101

102

103

104

105

106

107

108

109

110

111

112

113

114

115

116

117

118

119

120

121

122

123

124

125

126

127

128

129

130

131

132

133

134

135

136

137

138

139

140

141

142

143

144

145

146

147

148

149

150

151

152

153

154

155

156

157

158

159

160

161

162

163

164

165

166

167

168

169

170

171

172

173

174

175

176

177

178

179

180

181

182

183

184

185

186

187

188

189

190

191

192

193

194

195

196

197

198

199

200

201

202

203

204

205

206

207

208

209

210

211

212

213

214

215

216

217

218

219

220

221

222

223

224

225

226

227

228

229

230

231

232

233

234

235

236

237

238

239

240

241

242

243

244

245

246

247

248

249

250

251

252

253

254

255

256

257

258

259

260

261

262

263

264

265

266

267

268

269

270

271

272

273

274

275

276

277

278

279

280

281

282

283

284

285

286

287

288

289

290

291

292

293

294

295

296

297

298

299

300

301

302

303

304

305

306

307

308

309

310

311

312

313

314

315

316

317

318

319

320

321

322

323

324

325

326

327

328

329

330

331

332

333

334

335

336

337

338

339

340

341

342

343

344

345

346

347

348

349

350

351

352

353

354

355

356

357

358

359

360

361

362

363

364

365

366

367

368

369

370

371

372

373

374

375

376

377

378

379

380

381

382

383

384

385

386

387

388

389

390

391

392

393

394

395

396

397

398

399

400

401

402

403

404

405

406

407

408

409

410

411

412

413

414

415

416

417

418

419

420

421

422

423

424

425

426

427

428

429

430

431

432

433

434

435

436

437

438

439

440

441

442

443

444

445

446

447

448

449

450

451

452

453

454

455

456

457

458

459

460

461

462

463

464

465

466

467

468

469

470

471

472

473

474

475

476

477

478

479

480

481

482

483

484

485

486

487

488

489

490

491

492

493

494

495

496

497

498

499

500

501

502

503

504

505

506

507

508

509

510

511

512

513

514

515

516

517

518

519

520

521

522

523

524

525

526

527

528

529

530

531

532

533

534

535

536

537

538

539

540

541

542

543

544

545

546

547

548

549

550

551

552

553

554

555

556

557

558

559

560

561

562

563

564

565

566

567

568

569

570

571

572

573

574

575

576

577

578

579

580

581

582

583

584

585

586

587

588

589

590

591

592

593

594

595

596

597

598

599

600

601

602

603

604

605

606

607

608

609

610

611

612

613

614

615

616

617

618

619

620

621

622

623

624

625

626

627

628

629

630

631

632

633

634

635

636

637

638

639

640

641

642

643

644

645

646

647

648

649

650

651

652

653

654

655

656

657

658

659

660

661

662

663

664

665

666

667

668

669

670

671

672

673

674

675

676

677

678

679

680

681

682

683

684

685

686

687

688

689

690

691

692

693

694

695

696

697

698

699

700

701

702

703

704

705

706

707

708

709

710

711

712

713

714

715

716

717

718

719

720

721

722

723

724

725

726

727

728

729

730

731

732

733

734

735

736

737

738

739

740

741

742

743

744

745

746

747

748

749

750

751

752

753

754

755

756

757

758

759

760

761

762

763

764

765

766

767

768

769

770

771

772

773

774

775

776

777

778

779

780

781

782

783

784

785

786

787

788

789

790

791

792

793

794

795

796

797

798

799

800

801

802

803

804

805

806

807

808

809

810

811

812

813

814

815

816

817

818

819

820

821

822

823

824

825

826

827

828

829

830

831

832

833

834

835

836

837

838

839

840

841

842

843

844

845

846

847

848

849

850

851

852

853

854

855

856

857

858

859

860

861

862

863

864

865

866

867

868

869

870

871

872

873

874

875

876

877

878

879

880

881

882

883

884

885

886

887

888

889

890

891

892

893

894

895

896

897

898

899

900

901

902

903

904

905

906

907

908

909

910

911

912

913

914

915

916

917

918

919

920

921

922

923

924

925

926

927

928

929

930

931

932

933

934

935

936

937

938

939

940

941

942

943

944

945

946

947

948

949

950

951

952

953

954

955

956

957

958

959

960

961

962

963

964

965

966

967

968

969

970

971

972

973

974

975

976

977

978

979

980

981

982

983

984

985

986

987

988

989

990

991

992

993

994

995

996

997

998

999

1000

الموسوعة الفلسفية الشاملة

من الفلسفة اليونانية
إلى الفلسفة الإسلامية

الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا

دكتوراه دولة في الفلسفة من جامعة باريس

الموسوعة الفلسفية الشاملة

من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية

المجلد الثاني

عويذات للنشر والطباعة

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولدار
عوييدات للنشر والطباعة
بيروت — لبنان

الطبعة ٢٠٠٠م — ١٤٢٠هـ

الفصل السادس

ابن سيفنا

(٣٧٠ - ٤٢٨ هـ / ٩٨٠ - ١٠٣٧ م)

لقد خبا بريق الفارابي وذهب نوره على يد مريد من اعظم مريديه هو ابو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا الملقب بالشيخ الرئيس . ولعل هذا اللقب بسبب الوزارة التي شغلها او لعله بسبب رئاسته على الاطباء . ولد بأفشنه من قرى بخاري . وكان ابوه من بلدة بلخ . نشأ في بيت عريق في خدمة الدولة ، إذ كان ابوه والياً على سامان . وهناك تمهده أبوه بالتعليم والتثقيف وأحاطه بالأساتذة والمربين يعطونه معارف اهل زمانه . فحصلها في وقت مبكر ، على ما يقول هو . فقد تحدث عن نفسه حديثاً اقرب الى الخيال نقله تلميذه ابو عبيد الله الواحد الجوزجاني . إذ يزعم انه أتم دراسة الأدب واللغة وتعلم القرآن وهو في سن العاشرة . ودرس الفقه وقرأ المنطق والهندسة وانتقل الى المجسطي واشتغل بالعلم الطبيعي والإلهي وكذلك مارس صناعة الطب وذاع له صيت واسع فيه حتى لقد بدأ فضلاء الأطباء يقرأونه عليه ، كل ذلك وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، على ما يقول .

واستهوته دراسة الفلسفة فانصرف اليها سنتين كاملتين باحثاً مستقصياً ، وكان كلما حز به أمر أو استعصى عليه مشكل ، يدخل المسجد ويبتهل

الى الله ان يهديه وينير له الطريق، فيستجيب الله له ويكشف ما به من ضرر. وكان يقضي الليالي الطوال ساهراً ، فكان اذا غلبه النعاس أبعد عنه بكأس من الشراب . فاذا استسلم للنوم تكشفت له حلول ما اعتاص عليه من مشاكل ومعضلات أجهدته في عالم اليقظة، وانفتحت عليه مغاليقها. وقرأ كتاب (ما بعد الطبيعة) لأرسطو فما كان يفهم ما فيه والتبس عليه غرض واضعه ؛ حتى أعاد قراءته اربعين مرة وصار له محفوظاً ، وهو مع ذلك لا يفهمه . الى ان حضر ذات يوم في (الوراقين) ويبد دلال مجلد ينادي عليه ، فعرضه على ابن سينا ، فردّه هذا رد متبرم ، فقال له البائع : « أبيعك بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج الى ثمنه » ، فاشتراه ابن سينا على مضض ، فاذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في (أغراض ما بعد الطبيعة) . فأسرع في قراءته ، فانفتح عليه في الوقت أغراض كتاب ارسطو ، وتصدق في اليوم التالي بشيء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى .

وفي هذه الأثناء - وكان في السابعة عشرة من عمره - استدعاه نوح بن منصور سلطان بخارى لمعالجته من داء ألمّ به أعجز 'نطس الأطباء' ، فشفاه ابن سينا وصارت له عنده حظوة . وعرفانا بفضل فتح له خزائن كتبه ومكنه منها ، فقرأها ابن سينا وظفر بفوائدها . ثم احترقت هذه المكتبة لأسباب مجهولة ، فأشاع قالة السوء انه هو الذي أحرقها ، قائلين انه انما فعل ذلك لينفرد بما حوته المكتبة من نفائس الحكمة وذخائر العلم والفلسفة .

ولما بلغ ثمانية عشرة سنة من العمر فرغ من هذه العلوم كلها كما يقول ، فكان اذ ذاك للعلم أحفظ ، ولكنه بعد أن تقدم في السن كان العلم معه أنضج ، وإلا لم يتجدد له شيء بعد ذلك .

هذه هي المرحلة الاولى من حياة ابن سينا ، وهي مرحلة تتسم بالاقبال على مناهل الحكمة ، أما المرحلة الثانية من حياته فهي مرحلة

المطاء والانتاج ، وهي تبدأ في الحادية والعشرين من عمره . وفي هذه الاثناء مات والده ، فتصرفت به الاحوال وتقلد شيئاً من اعمال الدولة دون ان ينقطع عن مهمته . ولم يكن من السهل على رجل من غير معدن ابن سينا ان يواصل التأليف والكتابة رغم كثرة أعماله وفي عصر تتنازع الخلافات السياسية والمذهبية وتضطرب فيه الفتن . وكان ذبوع صيته في الطب كفيلاً بإبعاده عن جو الكتابة والانتاج ، ولكنه استطاع وسط مختلف الأعاصير أن يخلو الى نفسه ساعات طويلة ينجب لنا فيها أعظم آثاره ، فالمشاكل الكثيرة وشؤون الحياة المضطربة لا تعوق انشغال المعاني على القرائح المتدفقة والعبقريات السامقة .

وقد تأثر ابن سينا كثيراً بوفاة والده ، فغادر بخارى الى جرجان حيث تعرف بتلميذه وصديقه ابي عبدالله الجوزجاني الذي اصطحبه ابن سينا طوال حياته وأملى عليه جزءاً من سيرته . ثم تعرف هناك ايضاً بابي محمد الشيرازي الذي خصص له داراً يلتقي فيها مع تلامذته ويعقد لهم فيها جلسات العلم والحكمة .

ولم تلبث أعاصير السياسة ان هبت على جرجان فغادرها الى همدان حيث استوزره اميرها شمس الدولة بعد ان شفاه ابن سينا من القولنج . ولكن عسكر الامير ثاروا على الفيلسوف وأغاروا على داره فنهبوا وزجوه في السجن ، وسألوا الامير قتله فامتنع منه وعدل الى نفيه عن الدولة طلباً لمرضايتهم ، فتواري ابن سينا اربعين يوماً . فعاود القولنج الامير شمس الدولة وطلب الشيخ الرئيس ، فاعتذر الامير اليه وأعيدت اليه الوزارة ثانية بعد ان عاجله ابن سينا وشفاه . حتى اذا توفي الامير رفض فيلسوفنا الوزارة في بلاط خلفه تاج الملك الذي اتهمه بمكاتبة علاء الدولة سرّاً . فتواري عنه ابن سينا ، فدلّ عليه بعض اعدائه وأخذوه الى قلعة يقال لها فردجان ، وهناك انشأ قصيدة منها هذا البيت المزوج بالفلسفة :

دخولي باليقين كما تراه وكل الشك في امر الخروج

وبقي فيها اربعة أشهر . ثم افرج عنه ابن شمس الدولة وورده الى همدان . ثم عنّ له التوجه الى اصفهان فخرج متنكراً ونزل في كنف اميرها علاء الدولة الذي اكرم وفادته . وهناك ادركه مرض القولنج الذي طالما شفي ابن سينا منه الآخرين ، ولكنه لم يستطع شفاء نفسه . ولما يش من الحياة قال : « المدبر الذي كان يدبر بدني قد عجز عن التدبير . والآن فلا تنفع المعالجة ، ثم نقض يديه من الدنيا وانصرف الى العبادة وقراءة القرآن وتصدق بما معه على الفقراء ، ورد المظالم الى من عرفه واعتق بماليكه ثم مات وله من العمر خمسون عاماً .

شخصيته

ومن خلال ما وصل الينا من تراجمه ندرك انه لم يكن بالفيلسوف الزاهد المنطوي على نفسه كالفارابي ، بل كان يؤثر الاختلاط بغيره ولا سيما اهل الطبقة الارستقراطية . وكانت حياته صاحبة زاخرة بالنشاط والعمل حافلة باللهو والمتعة وغشيان بمجالس الشراب والطرب . لقد كان مقبلاً على الحياة بقدر اقباله على العلم ، وكان يهمه ان ينال منها اكبر حظ مستطاع قبل ان يدركه الأجل . لقد انتشى من الكأس المترعة واستمتع بالغيد الأماليد ، ولكنه ايضاً عكف على الكتاب يلتهمه ولجأ الى الله يستغفره . فقد كان يؤثر الحياة العريضة القصيرة على الحياة الطويلة الضيقة ، وبذلك فهي تكون - بحكم مزاجه - ادعى لأن تعاش .

برع في جميع معارف عصره وكانت له شهرة واسعة في الطب ، فعالج تأدياً وتكسباً . وكان جيد الحفظ سريع التأليف ، فاذا عزم على السفر حمل أوراقه قبل زاده ، واذا دخل السجن طلب الكاغد والمداد قبل الطعام والشراب ، فجوع العقل كان ينال منه قبل جوع المعدة . وكان اذا تعب من القراءة والكتابة جلس يفكر ويقلب في خاطره وجوه الرأي فتنتال عليه المعاني وينطق بالحكمة .

ومع يقيننا بأنه قد أخذ بمجموع فلسفته من الفارابي الذي مهد الطريق

وحدد القضايا ، الا انه تمكن بما أوتي من قدرة فذة على البيان والايضاح والاستطراد الجميل . ان يحمل فلسفته هو تنتشر بين الناس . فقد 'قدر' مؤلفاته أن تعيش وتغزو العقول والقلوب ، حتى لقد 'نسبت' اليه آراء هي في الحقيقة للرائد الاول أبي نصير الفارابي . ولم يقتصر أثره على الشرق وانما امتد الى الغرب ايضاً . بل ان الغرب الذي كان على أبواب نهضة عظيمة كان اكثر اهتماماً به من الشرق الذي كان قد آتى أكله واستفرغ امكانياته ، فأخذ يلهث ويتردى في الطريق المحتوم . فقد عرف الغرب منزلة ابن سينا وقدره حق قدره ، بل لقد ظلت كتبه تدرس في الجامعات الاوربية حتى عصر النهضة .

ولئن كان فلاسفة الاسلام لم يُدرّسوا بعد دراسة كافية ولم ينالوا في سلسلة الفكر الانساني المنزلة اللائقة بهم ، فان ابن سينا يعد من هذه الناحية اكثرهم خطأ بما لقي من البحث والدراسة واكثرهم شهرة سواء في الشرق أم في الغرب . كما حظي علم النفس عنده على وجه الخصوص بمزيد من عناية الباحثين واهتمامهم .

آثاره

تعددت كتب ابن سينا وتنوعت موضوعاتها . فقد ذكرت له مؤلفات كثيرة زعم البعض انها تزيد على المئتين ، وقال آخرون انها لم تتعد المئة كتاب .

وأهم ما وصل إلينا من كتبه :

(كتاب الشفاء) : وهو اشبه بموسوعة فلسفية يقع في ثمانية عشر مجلداً ويبحث في المنطق والطبيعيات والرياضيات والالهيات .
(كتاب النجاة) : وهو مختصر (كتاب الشفاء) في بعض المواضع ونقل حرفي في بعضها الآخر . وهو في ثلاثة اقسام : المنطق والطبيعيات والالهيات .

(الاشارات والتنبيهات) : وهو آخر ما صنف ابن سينا في الحكمة

وأجوده كما يقول ابن أبي أصيبعة . وقد أورد المنطق في عشرة مناهج ،
والطبيعيات في ثلاثة أنماط ، والإلهيات والتصوف في سبعة أنماط .
(القانون في الطب) : كتاب ضخيم في أربعة عشر مجلداً صنفه ابن
سينا في الطب وتناول فيه قوانينه الكلية والجزئية وجمع فيه الاختصار
الى الشرح والايجاز ، الى ايفاء البحث حقه من البيان .
(كتاب الحكمة المشرقية) : لم يُعرف مضمونه على وجه الدقة إذ لم
يصلنا منه سوى المنطق .

(كتاب السياسة) : في اصل الاجتماع واختلاف مراتب الناس وسياسة
الانسان نحو نفسه وأهله وولده وخدمه ودخله وخرجه .

(تسع رسائل في الحكمة والطبيعات) .

(جامع البدائع) .

(سبع رسائل) .

(أحوال النفس) .

(رسالة اضحوية في امر المعاد) .

(التعليقات على كتاب النفس لأرسطو) .

(رسالة في إثبات النبوات) .

عشر اراجيز في الطب مجموعها الفان وخمسة بيت .

اسلوبه

يتفق ابن سينا مع الفارابي في جوهر فلسفته وفي العناصر التي تتكون
منها والاتجاه الذي تسير فيه والغاية التي تهدف اليها ، ولكنه يختلف عنه
في قدرته الفذة على التوضيح والبيان والدقة في تقرير المطلوب قارة ، وعلى
التعليل وطول النفس وكثرة الاستطراد قارة اخرى .

ولكن هذه الميزات في اسلوب ابن سينا لم تتوفر له جملة واحدة ،
بل على درجات . فعبارته في كتبه التي صنفها في اوائل حياته ليست
في متانة عبارة كتبه الاخيرة ولا في وضوحها وقوة بيانها . فكان كلما

تقدمت به السن وازدادت خبرته العلمية ونضوجه الفلسفي صقلت عبارته واتضحت ألفاظه وازدادت حسناً وصفاء ونصوعاً وبلغت من الإيقاع وقوة التعبير والدلالة ما لم يكن لها من قبل . وبهذا فإن كتاب (الإشارات والتنبيهات) أجود كتبه وأكثرها سلاسة ومتانة . أما كتاب (الشفاء) فأقلها جودة وأكثرها غموضاً وتعقيداً ، ومع ذلك فإن أسلوبه في هذا الكتاب الأخير يظل أفضل من أسلوب الفارابي الذي لم يطرأ عليه تغيير يذكر طوال حياته الفلسفية كلها ، أو كاد .

وينحو ابن سينا أيضاً في بعض رسائله منحى رمزياً شعرياً للتعبير عن آرائه ، فيرمز بالمرأة إلى الشهوة ، وبالطير إلى النفس ، وبالبرق إلى الخطفة الإلهية ، وبجحي بن يقظان إلى العقل الفعال الخ . وبذلك يضيف على كتاباته جمالاً رائعاً وسحراً اخاذاً ورونقاً قلما نجد له نظيراً في الآداب العالمية كلها .

فلسفته

الفلسفة عند ابن سينا هي - كما كانت عند الفارابي - العلم بالوجود بما هو موجود^(١) ، وعلم المبادئ التي تقوم عليها العلوم الجزئية .

والغاية منها هي - كما كانت عند الفارابي أيضاً - تهذيب النفس الانسانية واستكمالها لتحصل لها السعادة . يقول ابن سينا في كلامه على الغاية من الفلسفة انها « صناعة نظرية يستفيد منها الانسان تحصيل ما عليه الوجود كله في نفسه وما عليه الواجب بما ينبغي أن يكسبه فعله » لتشرف بذلك نفسه وتستكمل وتصير عالماً معقولاً مضاهياً للعالم الموجود وتستعد للسعادة القصوى في الآخرة ، وذلك بحسب الطاقة الانسانية . ولما كان الفارابي هو الذي وضع القواعد وأقام البناء وقرر المذهب الفلسفي في الاسلام فقد كان على ابن سينا ان يترسم خطاه ويسير في

١ - اي العلم بالوجود المطلق دون نظر الى نوع هذا الوجود .

الطريق الذي مهده ، لكن بأداء اوفى وبيان اتم وسبك أجمل ونصوغ اجلى ، وشرح اكثر تفصيلاً . اذ تعود شهرة ابن سينا الى غزارة انتاجه وسهولة اسلوبه ووضوح عبارته واشراق ديباجته ، وقدرته على الجمع والتنسيق والكتابة الموسوعية ، مما اكسبه شهرة واسعة وممكن القراء من فهمه وتذوق آرائه ، ومعظمها ورد غامضاً مستغلقاً عند الفارابي .

وليس معنى ذلك ان ابن سينا اقتصر على النقل والشرح ، نقل فلسفة الاوائل وشرح فلسفة الفارابي . فهو لم يحذ حذو افلاطون وأرسطو شأن المقلد الأعمى ، بل لقد جمع بينها ومزج تعاليمها رغم امتزاجها قبله خلال الافلاطونية المحدثه ، وأخرج تعاليمها في حلة جديدة اضاف اليها تجاربه الخاصة . فهو لم يقيد نفسه بذهب فلسفي يعينه وإنما كان ينتقي خير ما تطمئن اليه نفسه عند الاقدمين ، بل كثيراً ما ناقش آراءهم وندد بها حق لقد قال اكثر من مرة : « حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء . فقد آن لنا ان نضع فلسفة خاصة بنا » . وكذلك لم يتقيد بالفارابي نفسه بل لقد خرج عليه واختلف معه في مواضع كثيرة من فلسفته كما سنرى في حينه .

وفلسفة ابن سينا فلسفة عقلية في اصولها ومبادئها ، صوفية في ألفاظها وتعبيرها ، توفيقية في غاياتها وأهدافها . فهو كالفارابي يؤمن بالعقل الفعال مصدراً للعلم والمعرفة كما يؤمن به ايضاً مصدراً للالهام والوحي . وهو لا يقل عنه ايماناً بإمكان التوفيق بين الفلسفة والدين .

ولكي نفهم فلسفة ابن سينا على حقيقتها يجب ان نفرق بين ما يمكن تسميته (مذهب ابن سينا في ظاهره) و (مذهب ابن سينا في سره وباطنه) (١) . فأما مذهب ابن سينا في ظاهره فهو المذهب الذي أذعن فيه لمطالب المشائين ، فليخص مبادئهم في (الشفاء) و (النحاة) وفي اجزاء من (الإشارات) . ولا حرج عليه فذلك كانت فلسفة العصر ومذهب المثقفين الاسلاميين ،

١ - اخذنا هذه التسمية عن ابن طفيل في نقده لفلسفة ابن سينا .

وأخص ما يميز هذا المذهب الخلط بين افلاطون وأرسطو من خلال (تأسيغات) افلوطين وآثار الشراح . ومن هذه الجهة لا يعدو ابن سينا ان يكون أشبه بالمعلم القدير الذي يعرض الآراء ويحسن سبكها وصياغتها بأداء افضل يساعد على فهمها واستيعابها ، دون ان يحدث تغييراً ذابال في مضمونها وجوهرها . فالفارابي قبله قد شق الطريق ومهد السبيل ، فما على ابن سينا من بعده إلا ان يمضي فيه قدماً وبزيل ما عسى ان يكون فيه من اشواك وحشائش ضارة .

وأما مذهب ابن سينا في سره وباطنه فيتبدى لنا في اقوال متفرقة وردت في الجزء الأخير من (الإشارات) وهو الجزء المعروف بتقامات العارفين من النمط التاسع ، وكذلك في رسائله الصغرى التي يمكن القول انها تعبر تعبيراً تاماً عن مذهب ابن سينا الحقيقي . وفي هذه الاقوال نراه يهاجم المشائين ويشنع عليهم ويسفه آراءهم ويقول انه إنما صنف كتبه المشائية استجابة لطلب جماعة من المشائين العرب . ومن شاء ان يظفر بالفلسفة ، الحقيقية فعليه بقراءة كتاب (الواحق) ، وهو كتاب وعد بكتابته بعد (الشفاء) وقال في الغرض منه ان يكون كالشرح لكتاب (الشفاء) . وأغلب الظن انه لم ينجزه .

وإذا كان ابن سينا لم يتم كتابه (الواحق) الذي وعده به فهناك كتاب آخر اتته بالفعل لكنه لم يصل الينا ، وهو كتاب (الحكمة المشرقية) الذي يحيل عليه كل من يريد الوصول الى فلسفة ابن سينا الحقيقية . فلإبن طفيل الذي تنبه الى هذه التفرقة بين مذهب ابن سينا في الظاهر ومذهبه في سره وباطنه ، يقول في قصته المشهورة (حي بن يقظان) :

« وأما كتب ارسطوطاليس فقد تكفل الشيخ ابو علي بالتعير عما فيها وسلك طريق فلسفته في كتاب (الشفاء) ، وصرح في اول الكتاب بأن الحق عنده غير ذلك ، وانه إنما الف ذلك الكتاب على مذهب المشائين . وإن من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بكتابته في (الفلسفة المشرقية) .

ومن عني بقراءة كتاب (الشفاء) وبقراءة كتب ارسطو طاليس ظهر له في اكثر الأمور انها تتفق وإن كان في كتاب (الشفاء) أشياء لم تبلغ اليها عن ارسطو . وإذا اخذ جميع ما تعطيه كتب ارسطو وكتاب (الشفاء) على ظاهره دون ان يتفطن لسره وباطنه لم يوصل به الى الكمال حسبما نبه عليه الشيخ ابو علي في كتاب الشفاء ،^(١) .

ولقد قام جدل عنيف حول كتاب (الحكمة الشرقية) الذي لم يصل اليها منه سوى الجزء الخاص بالمنطق . وأغلب الظن ان ابن طفيل اطلع على هذا الكتاب فوقف رسالته (حي بن يقظان) على بث ما يمكنه بثه من « اسرار الحكمة الشرقية التي ذكرها الشيخ الرئيس ابو علي بن سينا . فاعلم ان من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بطلبها والجد في اقتنائها »^(٢) .

فإذا صح ظننا كانت قصة (حي بن يقظان) هي التعبير التقريبي - اذا لم تكن التعبير الحقيقي - عن (الحكمة الشرقية) لابن سينا ، وبالتالي عن فلسفته الحقيقية .



هذا والطابع العام لفلسفة ابن سينا - سواء في مظهرها او مخبرها - هو - كما كان الحال عند أستاذه الفارابي - طابع التوفيق بين الحكمة والشريعة ، بين تعاليم ارسطو الممتزجة بتعاليم افلاطون والافلاطونية المحدثه ، وتعاليم الاسلام المتأثرة بالتشيع والمتسمة بالتوسع في فهم النصوص والبعد عن التزمّت والتشدد وعن التزام الحرفية . فالمعلوم ان ارسطو لم يصل الى ابن سينا - كما لم يصل الى استاذه - خالصاً نقياً ، وإنما وصل اليه مختلطاً بتعاليم الافلاطونية المحدثه التي أضافها تلاميذ افلوطين الى مؤلفات ارسطو في شروحهم لها وتعليقاتهم عليها .

١ - ابن طفيل : حي بن يقظان ، ص ١٣ - ١٤ مكرر .

٢ - المصدر السابق ص ٤ مكرر .

ومحاولة التوفيق هذه لا تظهر عنده - كما ستظهر عند ابن رشد من بعده - في صورة نظرية كاملة قائمة بذاتها وإنما هي تظهر عنده - كما عند الفارابي من قبله - في مفردات المسائل والقضايا التي عالجها بروح توفيقية يقرب فيها المسافة بين الدين والفلسفة ، بحيث يجعلها قريبة من الدين بعد تجريده من كثير من حساسياته ، كيلا يفترط في اتجاهها العقلي ، وبذلك يجعلها مقبولة في اوساط المثقفين وذوي الميول العقلية من المتدينين المتسامحين . أما المتزمتون من اهل السنة فلا سبيل الى اقناعهم بها ، ولذلك فقد أعلنوا النكير عليه ونددوا به وصرخوا بكفره . ولا نود أن نستطرد هنا فيما يمكن ان يؤخذ على نظرية التوفيق هذه من مآخذ وفي ردنا على هذه المآخذ ، فذلك أمر قد فرغنا منه حين الكلام على الفارابي ، فلا نعود اليه ، فالفارابي وابن سينا من هذه الناحية سواء .

تصنيف العلوم

تعرض ابن سينا لتصنيف العلوم في عدة مواضع من كتبه وكان تصنيفه لها في موضع غيره في موضع آخر . فهو لم يلتزم تصنيفاً واحداً لها في جميع كتبه بل كان هذا التصنيف يختلف باختلاف تجربته الفلسفية ونمو استقلاله الذاتي . في (عيون الحكمة) مثلاً يتبنى ابن سينا التصنيف الارسططاليسي الذي يقوم على التفرقة بين العلوم النظرية والعلوم العملية ، ولكنه في اواخر ايامه وفي (منطق الشرقيين) بصورة خاصة ، يصنف العلوم تصنيفاً آخر ، إذ يقسمها الى قسمين :

أ - علوم لا يصح ان تجري احكامها الدمر كله بل في طائفة من الزمان ثم تسقط بعدها ؛

ب - علوم متساوية النسب الى جميع اجزاء الدمر ، وهذه العلوم أولى بأن تسمى حكمة .

وهذه الاخيرة منها اصول ومنها توابع وفروع .

فأما التوابع والفروع فهي كالطب والفلاحة وبعض العلوم الجزئية

المتعلقة بالتنجيم وبعض الصنائع الأخرى التي لا حاجة إلى ذكرها .
وأما الأصول فهي المقصودة هنا ، ويرى ابن سينا أنها تنقسم
قسمين أيضاً :

قسم هو آلة ينتفع بها لما يُرام تحصيله من العلم بالأمور الموجودة في
العالم وقبله ، كالمنطق ؛

وقسم ليس بآلة ينتفع بها في أمور العالم الموجودة وفيها هو قبل العالم .
وللقسم الثاني من الأصول فرعان : أحدهما يسمى إلى معرفة الحق
والآخر يسمى إلى معرفة الخير .

أحدهما غاية تركية النفس بالمعرفة ، وهو العلم النظري ويشتمل على
أربعة علوم هي : العلم الطبيعي والعلم الرياضي والعلم الإلهي والعلم الكلي .
والآخر غاية العمل وفقاً لهذه المعرفة ، وهو العلم العملي . ويشتمل
هو أيضاً على أربعة علوم هي : علم الأخلاق ، وتدبير المنزل ، وتدبير
المدينة ، والنبوة .

ونحن هنا في عرضنا لفلسفة ابن سينا لن يمكننا بالطبع أن نتكلم
على هذه الأقسام جميعاً بل سنقتريء ببعضها . فضلاً عن أن هناك مسائل
في فلسفته لم ترد في هذا التصنيف وإنما هي تُستخلص استخلاصاً من
أقواله المتفرقة هنا وهناك . لذلك فإننا في عرضنا لفلسفته سنسير بحسب
التقسيم التالي ، لأنه في رأينا يُلم بنواحي فلسفته إلاماً واسعاً يكفي
لإعطاء فكرة شاملة عنها :

- (١) نظرية المعرفة (٢) المنطق (٣) الواجب والممكن (٤) الفيض
- (٥) الطبيعة (٦) النفس (٧) النبوة (٨) التصوف (٩) الأخلاق
- (١٠) السياسة .

١ - نظرية المعرفة

لا يكاد رأي ابن سينا في مصدر المعرفة وآلياتها يختلف عن رأي
الفارابي ، فهو يذهب مثله إلى أن مصدر المعرفة الإنسانية هو فيض

العقل الفعال . فالمعقولات انما تفيض من العقل الفعال الذي تنتهي اليه صور الماهيات من مبدع الكل ، وليس البدن وحواسه إلا وسائل تهيه العقل الانساني لقبول فيض العقل الفعال . فالمحسوسات شأنها عند ابن سينا ثانوي اذن خلافاً لأرسطو الذي يؤكد ان المعقولات انما تستمد من المحسوسات . وقد اشار ابن سينا في كتابه (التعليقات على كتاب النفس لأرسطو)^(١) الى هذا الرأي ولكنه لم يقبله بل جاء برأي مشرقى مغاير له بسطه في جميع كتبه ، من شأنه ان يدفع بنظرية المعرفة وعلم النفس الى مجاهل الإلهيات . فهو - كالفارابي - يجعل المعرفة العقلية مطابقة للماهيات الأزلية التي لا تتغير . فالمعقولات كما قلنا تفيض عن العقل الفعال الذي تنتهي اليه صور المعقولات من مبدع الكل . وما البدن والحواس سوى وسائل تهيه العقل لقبول فيض العقل الفعال .

وينتج عن ذلك ان الكلي عند ابن سينا - كما كان عند الفارابي - يوجد مستقلاً عن وجود الاشخاص المتكثرة ، كصورة معقولة بالذات ، في عقل الله وعقول الملائكة (العقول الفلكية) فتفيض هذه الكليات عن عقل الله وتتصل - بتوسط العقول المفارقة - بالاشخاص من جهة ، وبالعقل الانساني من جهة اخرى ، وهو العقل الذي ترد فيه الكثرة الى تصور كلي . فابن سينا أميل الى عد هذا التصور صادراً عن العقل الفعال اكثر منه نتيجة لقوة التجريد الخاصة بالعقل الانساني^(٢)

هذا وتنقسم المعرفة عند ابن سينا الى ثلاثة انواع : معرفة بالفطرة ومعرفة بالفكرة ، ومعرفة بالحدس .

فأما المعرفة بالفطرة فهي معرفة المباديء الاولى كقولنا : الكل اعظم من الجزء ، و ان الواحد نصف الاثنين ، و ان الاشياء المساوية

١ - مخطوط في القاهرة ص ٦٩ - ٧٠ . نقل عن دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ص ٣٢٤ .

٢ - انظر دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ص ٣١٩ .

لشيء واحد متساوية » الخ ..

واما المعرفة بالفكرة فهي معرفة مكتسبة وتكون بإدراك المجردات المعقدة والكليات العامة والانتقاش بها ، ويحتاج المرء فيها الى مجهود اكبر من مجهود النوع الاول . ولا يدركها الا من وصل الى مرتبة العقل المستفاد .

وهناك نوع ثالث من المعرفة هو المعرفة بالحدس . فمن الناس من لا يحتاج في ان يتصل بالعقل الفعال الى كبير عناء وإلى تخريج وتعليم ، بل تراه كأنه يعرف كل شيء بنفسه حدساً ، بلا قياس ولا معلم ، وكأن فيه روحاً قدسية لا يشغلها شأن عن شأن ولا يستغرق الحس الظاهر حسها الباطن^(١) .

وهذا الاستعداد الحدس ليس على درجة واحدة في جميع الناس وإنما هو يتفاوت تفاوتاً لا ينحصر في حد . فهو يقبل الزيادة والنقصان دائماً . ففي طرف النقصان ينتهي الى من لا حدس له البتة ، وفي طرف الزيادة ينتهي الى من له حدس في كل المطلوبات او اكثرها او الى من له حدس في اسرع وقت وأقصره . فيمكن ان يكون شخص من الناس مؤيد النفس بشدة الصفاء وشدة الاتصال بالمبادئ العقلية الى ان يشتعل حدساً ، اعني قبولاً لإلهام العقل الفعال في كل شيء ، فترتسم فيه الصور التي في العقل الفعال من كل شيء ، أما دفعة وأما قريباً من دفعة . وهذا ضرب من النبوة بل أعلى قوى النبوة . وينبغي تسمية هذه القوة قوة قدسية . وهي أعلى مراتب القوى الانسانية^(٢) .

وهكذا ، فمن الناس من يكون من اصحاب المعرفة بالفكرة وحدها ، ومنهم من يكون من اصحاب المعرفة بالحدس الى جانب المعرفة بالفكرة .

١ - انظر (النجاة) ص ٢٧٢ - ٢٧٣ و (الاشارات) القسم الثاني ص ٣٦٨ وما بعدها .

٢ - النجاة ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

ومنهم من يكون علمه كله حدساً ، وهؤلاء هم الانبياء . ويسمى العقل عندئذ عقلاً قدسياً .

٢ - المنطق

يحتل المنطق مكاناً بارزاً في فلسفة ابن سينا . فقد صنف في هذا العلم واحداً وعشرين كتاباً فضلاً عن ابحاثه المنطقية المتفرقة في كتبه الاخرى^(١) يضاف الى ذلك ان ابن سينا قد سما بالمنطق الى قمة النشاط الانساني فجعله ممثلاً للعقل العملاق .

ويعرف ابن سينا المنطق بأنه آلة قانونية عاصمة للذهن عن الخطأ فيما تتصوره ونصدق به وموصلة الى الاعتقاد الحق بأعطاء أسبابه ونهج سبله^(٢) وهذا ما يردده ابن سينا في اكثر كتبه . فهو يعدّه مجرد آلة لكنه في (الشفاء) يذهب الى انه قد يكون آلة وقد يكون جزءاً من الفلسفة^(٣) . وهذه الآلة لا يستغني عنها الانسان «إلا ان يكون مؤيداً من عند الله تعالى»^(٤) .

وقد اعتمد ابن سينا - كغيره من فلاسفة الاسلام - على منطق ارسطو وسلك في كلامه مسلك الفارابي ، لا سيما في بداية حياته الفلسفية . فبحث في التصور والتصديق وأقسامها وفي فائدة المنطق وعلاقته مع اللغة وغير ذلك بما لا حاجة الى ذكره لأنه تكرر لما جاء عند الفارابي . لكنه عندما نضج تفكيره وأحسن باستقلاله الذاتي - وبسبب اشتغاله بالطب - وجد نفسه مسوقاً الى تعديل رأيه في المنطق ، او «شق عصا الطاعة» على حد تعبيره .

فهناك إذن تطور في الحياة العقلية لابن سينا ، كما تلاحظ بحق الآنسة

١ - انظر مؤلفات ابن سينا للأب قنواي ص ١٠١ - ١١٦ .

٢ - انظر النجاة ص ٣ والاشارات القسم الاول ص ١٦٧ .

٣ - الشفاء - المنطق (المدخل) تحقيق الاب قنواي وآخرين ، المقدمة ص ٥٢ - ٥٣ .

٤ - النجاة ، ص ٦ .

غواشون المتخصصة في فلسفة الشيخ الرئيس^(١) . فإلى جانب كونه فيلسوفاً فهو أيضاً عالم له شغف بالدراسات التجريبية وحرص على استخدام المنهج العلمي في بحوثه . ويمكننا بالرجوع الى مقدمة (الشفاء) ومقدمة (منطق المشرقيين) وتحليل مذهبه في القياس ، ان نقسم حياته العقلية الى ثلاث مراحل : مرحلة الشباب ، وتنتهي بفهمه لإلهيات أرسطو في ضوء ما كتبه الفارابي . وفي هذه المرحلة حصل جميع العلوم المعروفة في عصره ، ثم انكب على دراسة الطب ومعالجة المرضى .

مرحلة النظريات الكبرى ومحاولة توضيح العالم توضيحاً شاملاً متأثراً بأفلاطون وأرسطو معاً ، وذلك عندما بلغ سن التاسعة عشرة او سن العشرين من عمره . وهنا نفذ الى اغوار المنطق الأرسططاليسي القائم على اليقين القياسي ، فقبله قبولاً حسناً .

مرحلة الخلق والإبداع مستقلاً عن أرسطو . وهذه المرحلة يصعب تحديد تاريخ دقيق لها . فقد اندفع فيها شيئاً فشيئاً عندما بدأ يحس تدريجياً بأوجه النقص في ثقافته اذا ظلّ دائماً على طريقة التأمل الفلسفي العميق الذي لا تدعمه التجربة والملاحظة . ولا غرو في ذلك ، فهو انسان طبع على الربط بين المجرد المعقول والعيني المحسوس ، وعلى السعي الى تحصيل المعرفة بوسائل اخرى غير اقيسة المنطق الأرسططاليسي وإن كان لا ينكر اهميته في تحصيل المعرفة ، غير انه لا يكفي وحده بل يجب ان تتضمن اليه نتائج التجربة . لقد رأى انه قد تعجل كثيراً في قبول هذا المنطق على علاقته ، فكان واجباً عليه ان يحصه في ضوء الخبرة العلمية التي اكتسبها باشتغاله في علم الطب ، وبعد ان وصل الى النضج الفكري . فأراد ان يعبر عن استكمال مذهبه في البحث بصياغة منطق جديد هو (منطق المشرقيين) . وقد نجد بعض اثار هذا المنطق في (الإشارات) . وأهم مميزاته الدعوة

١ - انظر كلمتها (بالفرنسية) في الكتاب الذمي للمهرجان الالفي لذكرى ابن سينا من صفحة ٤١ - ٥٨ والمخلص بالعربية ص ٢٤٦ .

الى تحصيل المعرفة بوسائل اخرى غير الاقيسة الارسططاليسية ، وإن كان ابن سينا لا يحدد اهمية هذه الاقيسة من الوجهة النظرية ، إلا انها غير كافية ، وإنما يجب ان يدعمها عنصر جديد مستمد من البحث العفوي وعمله في ميدان الطب ، إلا وهو عنصر التجربة المحسوسة والواقع المشاهد . وهذه الوحدة بين الفكر والواقع ، وهذا التعاون بين التجربة المحسوسة والقياس النظري هما ما قصد الى التعبير عنها في منطق الجديد .

ويظهر تطور تفكير ابن سينا المنطقي اكثر ما يظهر في دراسته للتعريف ، وهو الموضوع الذي طالما احبه وعكف على تعمقه . فهناك طريقتان لدراسة التعريف سار فيها تفكير ابن سينا : احدهما استنتاجي ارسططاليسي هابط ، يبدأ من المقولات المجردة وينتهي بالموضوع المحسوس ،

والآخر استقرائي سيناوي صاعد ينطلق من الخواص المحسوسة في الموضوع الى الماهية المعقولة . فأما الطريق الاول فقد سلكه ابن سينا في مبدأ حياته الفلسفية عندما كان خاضعاً لأرسطو .

وأما الطريق الثاني فقد استقر عليه بعد تمام نضجه واحساسه باستقلاله عن المعلم الاول وشق عصا الطاعة عليه .

فالبداء بالخواص يمكن الانسان من اقتناص ماهية الشيء والوصول الى حقيقته المبنية . لا شك في انه لا يصل اليها كاملة ولا يعبر عنها في تمامها ، ولكنه على يقين من انه انما يتناول شيئاً واقعياً دون ان يخلق في عالم المجردات . وبعد ان كان أرسطو يجعل معيار الحقيقة في المعقول المجرد ، فان ابن سينا يجعله في المحسوس العيني والواقع المشاهد ، ذلك بأن اكبر هم في أواخر حياته كان يقين العلماء ، لا يقين الفلاسفة وحدهم . ان الامة التي يضيفها ابن سينا على الواقع المحسوس من شأنها ان تحدث تغييراً عميقاً في القياس . فالعناصر المطلوبة في القياس بالنسبة الى

ارسطو ، اي العناصر التي لا بد منها لاقامة الدليل والبرهان ، يجب ان تكون دائماً من الذاتيات ، اي بما يعبر عن الماهية ، وبالتالي فإن المعرفة التي يُتوصل اليها بطريق القياس هي معرفة كلية عامة تعطي الصفات المشتركة ولا تخوض في خواص الجزئي المحسوس .

واما ابن سينا ، فانه لما كان طبيباً يعنى بالجزئيات اكثر منه بالكليات^(١) ، فانه يقتنص الجزئيات اولاً ثم يعمم القانون بعد ذلك اذا عرف علتها ، وهذه العلة لا تسمى علة بمقتضى الماهية ، بل بمقتضى علاقتها مع مرض معين .

ان هذا التحول الجديد في النظر الى البرهان قد شغل ابن سينا طويلاً . ففي فصل من فصول (النجاة) درس ابن سينا كيفية حصول العلم لا بالضروريات كما كان يفعل ارسطو الذي لا يكون العلم عنده علماً حقيقياً الا اذا كان مستنداً الى الضرورة ، وانما درس كيفية حصول العلم بالممكنات^(٢) التي تتسع للاستثناء وتراعي شرائط الزمان والمكان والاحوال الخاصة ، رغم ما في الممكنات من نقص او ضعف ، فحسبها انها انما تعبر عن الواقع المحسوس ، ولا تخلق في عالم من المجردات البعيدة عن الحس ، مهما يكن من كمال هذه المجردات وشرقها وعلو منزلتها . ان هذا التحول كبير للغاية ، ولو اننا نزهد به اليوم بحكم إفتنا له ونراه شيئاً عادياً جداً : لقد اعترف ابن سينا بنظام الواقع والحاجة الى الاهابة به والرجوع اليه في اقامة البرهان ، وعدم الاكتفاء بنظام الماهية الكلية المجردة . فالواقع اصبح موضوعاً للعلم بعد ان كان مهجوراً قروناً وقروناً . وهكذا فبعد أن كانت العلة الميتافيزيقية هي العامل الحاسم الاول بالنسبة الى ارسطو ، اصبحت العلة التجريبية

١ - ما سبب هذه الحمى التي اصابته فلاناً مثلاً ، يوم كذا وفي مكان كذا ؟ هذا غلط من عنايته بالجزئيات .

٢ - صفحة ١١٧ من (القانون) .

هي هذا العامل بالنسبة الى ابن سينا ، واصبح اليقين مبنياً على الوقائع الممكنة المحسوسة بعد ان كان قائماً على الماهية الضرورية المعقولة . لقد فتح ابن سينا الباب على مصراعيه ليقين خصب مليء بالمفاجآت والعناصر الجديدة وتخلّى عن يقين عقيم لا يغني من الحق شيئاً . وهكذا تم الانتقال من مرحلة العلم القديم الى مرحلة العلم الحديث .

ويزداد منطق ابن سينا قريباً من التفكير الحديث في نص من نصوص قانونه^(١) يذكر فيه سبع قواعد ينبغي مراعاتها لاستخلاص قوى الادوية من طريق التجربة الطبية ، منها ثلاث تسمى في مناهج البحث الحديثة طريقة الاتفاق (concordance) وطريقة الاختلاف (différence) وطريقة التغيرات المصاحبة (Variations concomittantes) والقواعد السبع او الشرائط التي يطلب ابن سينا مراعاتها في النص المذكور هي :

١ - يجب ان يكون الدواء نقياً خالياً عن اي كيفية مكتسبة او عارضة .

٢ - يجب عزل فعل الدواء عن الشرائط الاخرى للتأكد من انه هو السبب الوحيد للنتيجة التي تم الوصول اليها .

٣ - يجب تجربة الدواء في أمزجة متضادة وأحوال متباينة ويتبع فعله فيها .

٤ - قوة الدواء يجب ان تقابلها ما يساويها من قوة العلة .

٥ - ان يراعى الزمان الذي يظهر فيه أثره وفعله ، فان كان مع اول استعماله كان ذلك دليلاً على انه انما فعل ذلك بالذات ، وإن تأخر فهو موضع اشتباه ، عسى ان يكون قد فعل ما فعل بالمرّض ، اي بأسباب خارجة عنه طارئة عليه لا جوهرية فيه .

٦ - ان يراعى استمرار فعله على الدوام او على الاكثر ، وإلا فصدور

١ - صفحة ١١٥ - ١١٦ من طبعة روما سنة ١٥٩٣ نقلاً عن كلمة غواشون في الكتاب الذهبي ص ٥٥ - ٥٦ .

الفعل عنه انما كان بالمرّض .

٧- يجب ان تكون التجربة على بدن الانسان ، فما يصلح للانسان قد لا يصلح للأسد مثلاً ، بل ان بعض الادوية كالبيش مثلاً له بالقياس الى بدن الانسان خاصية السمية وليست له بالقياس الى بدن الزراير . ولذلك فانه ان جُرب في غير بدن الانسان جاز ان يتخلف فعله .

هذه هي الشرائط المطلوبة في استخراج قوى الأدوية من طريق التجربة . ومع ان ابن سينا لم يستعمل كلمة (فرضية) هنا فإنها هي التي توجه تفكيره في هذه التجارب . انه يلجّ على التجربة - وهي ملاحظة مستثارة - ويؤكد اهميتها هي ، بينما كان ارسطو يكتفي بالملاحظات المتكررة . وبعبارة اخرى ، ان ابن سينا قد انتقل بذلك من فكرة الاستقراء الارسططاليسي الى فكرة القانون بالمعنى الحديث ، أي الذي يعبر عن قيام علاقات ثابتة بين الظواهر لا تتبدل ولا تتخلف .



هذه ترجمة موجزة للبحث القيم الذي ساهمت به الآنسة غواشون في المهرجان الألفي لذكرى ابن سينا . وهي تعترف انه غيض من فيض هذا الفيلسوف العملاق الذي شق عصا الطاعة وتقدم عصره قروناً طويلة . فجمع الى المزاج الميتافيزيقي الحاجات العميقة لرجل العلم . ان شرائط التفكير التأملية البحث لم تكن لتسفي غليله ، فإن اتزانه الباطني لم يتحقق إلا بعد ان قدم التبرير المنطقي لقيمة اليقين الذي ظلّ يسعى في طلبه وبذلك يمكن القول انه شق الطريق وأضاء المحجة ومهد السبيل .

٣- الواجب والممكن (الله والعالم)

يفرق ابن سينا في الاشياء - كالفارابي من قبله - بين الماهية والوجود ليجعل من الله علة فاعلة تمنح الماهيات وجودها ، بعد ان كان الله عند ارسطو علة غائية لا عمل لها ولا شأن إلا ان تعقل ذاتها بذاتها ولذاتها . فمن الكائنات ما لا يؤخذ في حده معنى الوجود إذ ماهيته غير

وجوده ، كالمثلث مثلاً لا يلزم عن تصورنا له في الذهن انه موجود في الواقع . وهكذا سائر الاشياء . ومن الكائنات ما يجب ان يدخل في حده معنى الوجود . وهو الله تعالى ، إذ لا تنفصل فيه الماهية عن الوجود . فليست الماهية والوجود شيئاً واحداً إلا في الله ، أما فيما هو خارج عنه فالوجود معنى زائد على ماهيته ، عارض من عوارضها . فهو إذن يحتاج في وجوده الى علة . ولما كانت العلة لا يمكن ان تمر بلا نهاية لامتناع الدور والتسلسل ، فلا بد من الانتهاء الى علة اولى ماهيتها عين وجودها . وهذه العلة لا يمكن تصور عدم وجودها لأن ماهيتها الوجود نفسه ولأنها مبدأ كل وجود ، وكل ما عداها فيمكن تصور وجوده او عدم وجوده على حد سواء ، لأن الوجود فيه غير الماهية . وهكذا يؤدي التمييز بين ماهية الشيء ووجوده الى التمييز بين الممكن والواجب .

فكما ان الفارابي في بحث الوجود يقول بقسمته الى واجب وممكن وبارتباط احد طرفيه بالآخر ، كذلك ابن سينا . فهو يتفق معه في جوهر الفكرة وفي العناصر التي تتكون منها والاتجاه الذي تسير فيه والغاية التي تهدف اليها ، ولكنه يمتاز عنه في تفاصيل هذه الفكرة والدقة في تقريرها والقدرة على عرضها بزيادة من الشرح والايضاح والتبسيط والانة وطول النفس . فابن سينا كالفارابي من اصحاب المذهب الثنائي في الوجود ، ومن اصحاب التعبير عن احد طرفيه بواجب الوجود وعن الطرف الآخر بممكن الوجود . وواجب الوجود « هو الموجود الذي متى 'فرض غير موجود عرض منه محال » وان الممكن الوجود هو الذي متى فرض غير موجود او موجوداً لم يعرض منه محال . فالواجب الوجود هو الضروري الوجود ، والممكن الوجود هو الذي لا ضرورة فيه بوجهه ^(١) .

ولعلنا نلاحظ هنا فرقاً طفيفاً بين ابن سينا والفارابي في تعريف الممكن . فقد وصف الفارابي الممكن - كما مرّ معنا - بالحكم عليه ببناء

١ - الشفاء ، الالهيات ، مقالة ١ ، فصل ٦ والنجاة ، الالهيات المقالة ٢ فصل ١ .

على شق واحد من شقيه فقط ، فقال : « اذا فرضناه غير موجود لم يلزم منه محال » مع ان المحال لا يلزم كذلك عند فرض وجوده ايضاً ، وهو الشق الآخر . فربطُ حكم عام للممكن بأحد شقيه فقط « اذا فرضناه غير موجود » دون الشق الآخر « او اذا فرضناه موجوداً » فيه ايدان برجحان الشق الاول على الشق الثاني ، مع ان طبيعة الممكن لا تتحقق إلا في مساواة احد طرفيه للآخر ، في مساواة فرض وجوده لعدم وجوده . وأما ابن سينا فقد كان اكثر دقة في تقرير طبيعة الامكان فلم يرجح شقاً على آخر .

والخلاصة ان ممكن الوجود ما يستوي فيه الوجود وعدم الوجود . وأما واجب الوجود فهو بحكم التعريف ما يجب له الوجود او ما يكون وجوده ضرورياً .

وهناك واجب الوجود بذاته ، لا بسبب آخر ، وهو الله تعالى ، ثم واجب الوجود بغيره ، وهو العالم . وأما اعيان الاشياء فممكنة الوجود قبل ان توجد ، فاذا وجدت كانت واجبة الوجود بغيرها . ان اصلها الامكان ، فهي مفتقرة اذن الى ما يرجح وجودها ويحققه بالفعل ، وبعبارة اخرى الى ما يوجب وجودها ، فاذا حصل لها الوجود كانت واجبة الوجود بغيرها ، اي بذلك الذي افادها الوجود . فالأربعة مثلاً واجبة الوجود لا بذاتها ، بل باجتماع اثنين واثنين معاً . وهاك مثلاً اوضح ، وهو مثل الاحتراق : فالاحتراق واجب بغيره ، اي عند التقاء النار بالجسم القابل للاحتراق ، بمعنى انه اذا مست النار جسماً قابلاً للاحتراق فمن الواجب ان يحترق بهذه النار ، فالاحتراق ليس له من ذاته (وإلا لما توقف عن الاحتراق منذ الأزل) بل من غيره وهو النار . فهو اذن واجب بغيره ، وإن كان في الاصل - اي قبل ملاقات النار - ممكناً في ذاته ، اي قابلاً للاشتعال في اي وقت تقترب منه النار . وهكذا فما دام الممكن غير متحقق بالفعل ، فذلك يعني ان لا قدرة له على الوجود ، فاذا وجد

فذلك لأن وجوده أصبح واجباً بالعلّة التي اوجدته ، ومن ثم فلا يمكنه الا يوجد وقد وجدت علته . وهذا معنى قولنا انه واجب . ولما كان وجوده منوطاً بغيره قلنا انه واجب بغيره لا يتخلف عنه .

الاثبات وجود الله . - مما تقدم نستطيع ان نستنتج دليل ابن سينا على وجود الله . فالطريق الذي سلكه الى ذلك هو طريق القسمة العقلية الى الواجب والممكن . فالموجود إما ان يكون له سبب في وجوده او لا سبب له . فان كان له سبب فهو الممكن ، سواء كان قبل الوجود اذا فرضناه في الذهن او في حالة الوجود . لأن ما يمكن وجوده فحصول الوجود له لا يزيل عنه وصف الامكان . وان لم يكن له سبب في وجوده بوجه من الوجوه فهو واجب الوجود .

والدليل على ان في الوجود موجوداً لا سبب له في وجوده ان هذا الوجود إما ممكن الوجود او واجب الوجود . فإن كان واجب الوجود فهذا هو المطلوب . وإن كان ممكن الوجود فممكن الوجود لا يحصل له الوجود إلا بسبب يرجح وجوده على عدمه . فإن كان سببه ايضاً ممكن الوجود تعلقت الممكنات بعضها ببعض ، فلم يكن موجوداً البتة ، لأن هذا الوجود الذي فرضناه لا يدخل في الوجود ما لم يسبقه وجود ما لا يتناهى . وهو محال فإذا كانت الممكنات تنتهي بواجب الوجود^(١) . وهذا الواجب موجود بالضرورة . وهو علة لكل وجود ، ولعلّة حقيقة كل وجود في الوجود^(٢) .

فقد صح إذن ان كل جملة تتألف من مجموعة من الاشياء كل واحد منها معلول ، فإنها تقتضي علة خارجة عن آحادها ، وهذه العلة هي الله تعالى . وهذا الطريق العقلي البحت الذي سلكه ابن سينا لإثبات وجود الله مكتفياً بتحليل طبيعة الإمكان دون اعتبار للأشياء الممكنة المحسوسة هو

١ - انظر الرسالة المرشدة ، صفحة ٢ - ٣ (ضمن سبع رسائل) .

٢ - الإشارات القسم الثالث صفحة ٤٤٦ .

في نظره « أوثق وأشرف » من أي طريق آخر . أنه طريق الخاصة الذين لا يحتاجون الى ان « تقرر عصام » حتى يتنبهوا الى حقيقة الوجود . فهو يرى انه ينبغي ألا نلتبس البرهان على وجود الله مستدلين عليه بشيء من خلقه . وفي هذا تعريض للمتكلمين الذين يتخذون من حدوث العالم دليلاً على وجود محدث له ، بل ينبغي ان نستند الى تحليل طبيعة الإمكان فتستدل على الواجب الذي وجوده عين ماهيته بإمكان الممكن الذي يفتقر الى الوجود ، لأن تعلق المفعول بفاعله يكون من جهة وجوده بغيره ، أعني الإمكان ، لا من جهة الحدوث . إذ ان ارتباط الوجوب بالإمكان أقوى من ارتباطه بالحدوث ، بل تكاد لا توجد أي علاقة بين الوجوب والحدوث .

يقول ابن سينا في (الإشارات) بعد إثبات الواجب وبيان ان العالم ممكن يحتاج الى علة تخرجه الى الوجود لأن وجوده ليس من ذاته :

« تأمل كيف لم يحتج ببياتنا لثبوت الأول ... الى تأمل لغير نفس الوجود »^(١) ولم يحتج الى اعتبار من خلقه وفعله ، وان كان ذلك دليلاً عليه ، لكن هذا الباب أوثق وأشرف ، اي اذا اعتبرنا حال الوجود ، فشهد به الوجود من حيث هو وجود ،^(٢) . وفي هذه المسألة يتفق ابن سينا مع الفارابي ولكنه اكثر منه شرحاً وإيضاحاً وأسهاباً .

صفات واجب الوجود . - هذا ولا تختلف صفات واجب الوجود عند ابن سينا عنها عند الفارابي . لكن بينما يتناول الفارابي هذه الصفات بأسلوبه المعقد المعروف بالاجمال والتركيز ، يتوسع ابن سينا كمادته في الشرح ويطيل في التعليل . فواجب الوجود له من الصفات البساطة والكمال والخير المحض ، وهو واحد في العدد لأنه لا يمكن ان يكون غيره

١ - اي لم يحتج الى شيء آخر غير تحليل طبيعة الوجود دون نظر الى الموجودات ، او طبيعة الامكان ، دون نظر الى الاشياء الممكنة .

٢ - الإشارات ، القسم الثالث ، ص ٤٨٢ . انظر ايضاً النجاة ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

سبباً له ، وهو ليس بجسم ولا مادة جسم ولا صورة جسم ، ولا انقسام في ذاته ولا اشتراك لغيره معه في ماهيته ، ولا يجوز ان يكون له مثل أو ند أو ضد أو شريك ، ولا اشارة اليه الا بصريح العرفان العقلي ، ووجوده عين ماهيته ، وهو وحده الذي يمنح الممكنات وجودها ، وهو عقل محض ، وعقل ذاته ومعقول لذاته ، فهو اذن عقل وعقل ومعقول ، وهذا لا يجب الكثرة فيه لأن صفاته عين ذاته . فاذا قلنا انه عقل وعقل ومعقول لا نعني في الحقيقة الا وجوده مسلوباً عنه جواز مخالطة المادة وعلائقها . وكذلك اذا قلنا عنه انه واحد لا نعني إلا الوجود نفسه مسلوباً عنه القسمة بالكم او مسلوباً عنه الشريك ... وهذه الطريقة في فهم الصفات على انها لله على جهة السلب اخذها ابن سينا عن الممتزلة ، ونجدها عند فلاسفة المسيحية الذين تأثروا به « كتوما الاكوييني » مثلاً^(١) .

العلم الالهي . - لقد كان إله ارسطو لا يعلم إلا ذاته ، فهو منشغل بها عاكف عليها دون سواها . ثم جاء الفارابي فقال ان الله يعلم غيره وهو يعلم ذاته ، ولكنه لم يبين صفة هذا العلم . ولما جاء ابن سينا اضاف الى مقالة استاذة مقالته هو بأن واجب الوجود انما يعلم كل شيء على نحو كلي ، ومع ذلك فلا يعزب عنه شيء شخصي ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض . « فهو يعلم الاسباب ومطابقتها ، فيعلم ضرورة ما تتأدى اليه وما بينها من الأزمنة وما لها من العودات ، لانه ليس يمكن ان يعلم تلك ولا يعلم هذه ، فيكون مدركاً للامور الجزئية من حيث هي كلية »^(٢) .

اما كيف يعلم الله الجزئيات المتغيرة بمعرفة كلية فهذا ما يشرحه ابن سينا معتمداً على فكرة العلية ، فيقول ان الله يعلم الاسباب التي تؤدي الى كل أحداث هذا العالم الأرضي ، فيكون بالضرورة عالماً بتلك الأحداث

١ - انظر الاشارات القسم الثالث ، ص ٤٨١ .

٢ - انظر المصدر السابق ص ٧٠٩ و ٧١٧ و ٧٢٠ والنجاة ٤٠٤ - ٤٠٥ .

نفسها من حيث هي معلولة ، أعني من حيث هي خاضعة للقوانين العامة .
فعله يحيط بكل شيء ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في
الأرض ، وهذا العلم تابع لارتباط الأسباب بالمسببات . فمق تقرر
الأسباب والمسببات فقد تقرر العالم بنظامه ، وتقرر ما يترتب على هذا
النظام وتقرر العلم به . وبذلك يحيط علم الله بكل ما في الوجود من
غير أن يخرج من ذاته ، ويدرك جميع الجزئيات المتغيرة من غير أن
تتغير ذاته .

وبعبارة أخرى ، أن علم الله بالأحداث الجزئية في هذا العالم لا
يكون عن طريق وقوعها في آياتها وأزمنتها ، بل عن طريق مبدأ كل
لها ، أي من حيث تجب بأسبابها ، كالكسوف الجزئي ، فإنه معلوم
للعلم الإلهي بسبب توافي علله واحاطة العلم بها ، وذلك كعلم الفلك : فإنه
إنما يتوصل إلى إدراك الكسوفات الجزئية لاحاطته بأسبابها واحاطته بكل
ما في السماء والعلم بها علماً كلياً ، فإذا وقعت الاحاطة بجميع الأسباب
في الأشياء ووجودها انتقل منها إلى جميع المسببات . وكذلك الله .
فإنه يعلم كل كسوف يحصل وزمان حصوله ، والمدة التي تفصله عن
كسوف سابق أو لاحق ، حتى لا يبقى عارض من عوارضه إلا يعلمه .
وهذا العلم يحوز أن يحمل على كسوفات كثيرة كل واحد منها تكون
حاله تلك الحال . إنما لا يعلم الله هذا الكسوف أو ذاك حين حدوثه
وفي عوارضه الحسية المميزة له عن أي كسوف آخر ، لأن هذا علم زمني
لا أزلي ، مرتبط بالحس لا بالعقل ، فنصر الزمن - وهو سبب التغير
والتجدد - ليس داخلاً إذن في العلم الإلهي وإن دخل في متعلق علمه
وموضوعه . فإنه لا يدري بالكسوف الذي حدث يوم كذا ورؤي يوم
كذا في مكان كذا ، لأنه لو درى به لكان علمه ناقصاً كعلمنا نحن
ولاقتضى أن يكون من قبل جاهلاً بحدوثه .

وقد يقال أن هذا العلم يخرج الواجب عن بساطته ووحدته . لكن

ابن سينا ينفي ذلك بشدة : فعلم الله بغيره هو نفس علمه بذاته دون ان يكون في ذلك تغير او كثرة . انه كما تقدم عقل وعقل ومعقول ، وهذا لا يوجب تعدداً فيه ، لأن كونه عقلاً واتخاذ ذاته موضوعاً لتعقله لم يخرجها عن بساطته ، لان علمه بغيره لا يختلف عن علمه بذاته . فهو اذا عقل (علم) ذاته وعقل انه مبدأ كل موجود ، عقل اوائل الموجودات عنه وما يتولد عنها من الأمور الجزئية . فجميع الموجودات معلولة - بتسلسل ضروري - عن الواجب ، وهي كذلك معلومة له علماً ازلياً . وبعبارة اخرى ، ان ذاته هي مبدأ علمه بالغير وليس هذا الغير مصدر علمه . فهو يعقل ما بعده من حيث هو علة لما بعده ومنه وجوده ، ويعقل سائر الاشياء من حيث وجوبها في سلسلة الترتيب النازل من عنده طولاً وعرضاً .

فهو لا يعقل الاشياء من الاشياء ، وإلا لكان علمه معلولاً بها ؛ وهو لا يعلم الاشياء عند حدوثها ، وإلا لحدث علمه معها ولتغير بتغيرها .

فحسبه ان يعقل ذاته علة كل موجود ليعلم كل موجود . وهذا لا يثلم الوحدة في ذاته ولا تأثير له فيها .

العناية الإلهية . - العلم الإلهي المحيط بكل الوجود والعناية الإلهية كلمتان مترادفتان . فالعناية كما يقول ابن سينا هي « احاطة علم الاول »^(١) بالكل وبالواجب ان يكون عليه الكل حتى يكون على احسن النظام ، ويأن ذلك واجب عنه وعن احاطته به . فيكون الموجود وفق المعلوم ، على احسن النظام ، من غير انبعاث قصد وطلب من الاول الحق . فلم الاول بكيفية الصواب في ترتيب وجود الكل منبع لفيضات الخير من الكل ،^(٢) .

١ - الاول اي الله .

٢ - الاشارات ، ص ٧٢٩ - ٧٣٠ .

فاذا كان الله خيراً محضاً واذا كان قد ابدع الموجودات على ما يقتضيه نظام الخير فمن أين تسرب الشر الى العالم؟ والجواب عن ذلك بأن طبيعة العالم الامكان . فهو اذ كان ممكناً كان بعيداً عن الكمال المطلق ، وبالتالي كانت فيه نقص وشر . هذا هو تعليل دخول الشر والنقص الى العالم .

وعلى كل حال ، فاذا كان في العالم شرور فإن الخير هو الغالب ، وما نرى من شر فلأنما وجوده لحكمة قد تظهر لنا حيناً ولكنها تخفى علينا احياناً كثيرة . وهذه الحكمة منوطة بمعرفة الاسباب والمسببات في العالم . فاذا كنا لا نحيط علماً بجميع الاسباب والمسببات في العالم فكيف نطمح في معرفة ما فيه من حكمة ؟ ان العالم خاضع لأسباب ، وبذكر هذه الاسباب « يظهر اثبات الحكمة الإلهية في وجود هذه الموجودات ، وانها وجدت على أكمل ما يمكن ان يكون ، وانه لم يختلف عنها شيء من كمالها الممكن لها في نفس الأمر ، ولو كان في الامكان وجود أكمل مما هي عليه لما وجدت على غيره . وان هذه الشرور الحاصلة في بعض الموجودات ، وان كان حصولها على سبيل الواجب واللزم ، لكنها غير خالية عن حكمة تامة بها يكون قوام العالم . ولولا تلك الحكمة لما وجدت هذه الشرور ، لأن الخيرات هي مباديء الشرور . فعند استيفاء الخيرات وانتهائها ربما ظهرت الشرور وربما خفيت ... ولكنها نادرة جداً بالاضافة الى الوجود ، اذ هو خير كله او الغالب خيره . واما الشرور فيجب اضافتها الى الاشخاص والازمان والطبائع ، على حد تعبير ابن سينا^(١) ويقول ايضاً :

« ان العالم يحملته وأجزائه العلوية والسفلية ليس فيه ما يخرج عن ان يكون الله سبب وجوده وتقديره وعلمه واراادته ... ويمكن ايراد الأدلة على ذلك : فلولاً ان هذا العالم مركب مما تحدث فيه الخيرات

والشرور ويحصل من اهل الصلاح والفساد جميعاً ، لما تمّ للعالم نظام ،
إذ لو كان العالم لا يجري فيه إلا الصلاح المحض لم يكن هذا العالم عالمنا
بل عالماً آخر ،^(١) .

ومثّل الشر في العالم كمثّل الماء والمطر والنار . فجميع ما في الكائنات
من الخير لا يأتي بدون الماء . لكن اذا وقع فيه ناسك غرق . وكذلك
المطر ، فانه ينبت الزرع ويكون مصدر الحياة للنبات والحيوان . ولكن
قد يقع من السيول المتدفقة أضرار . غير ان هذه الأضرار يسيرة الى
جانب الخير الكثير . فلو امتنع نزول المطر لأصاب الارض جـدب
وامتنعت الحياة . وكذلك النار ايضاً وما فيها من المنافع وصلاح العالم
مع احراقها ما تقارنه . وعلى هذا جميع ما في العالم .

فقد ثبت اذن ان الخير مقصود بالقصد الأول وبالذات وان الشر
داخل بالعرض والقصد الثاني ، وان كان كلُّ بقدر . فالشر المطلق إذن غير
موجود ، وإنما الموجود شر بالاضافة والعرض . لذلك لا بد من احتمال الشر اليسير
من أجل الخير الكثير^(٢) . فليس في الامكان ابدع مما كان . أو قل إن
عالمنا هو أفضل العوالم الممكنة على حد تعبير الفيلسوف الالماني لينتز الذي
يقول بالتناسق الأزلي .

قدم العالم : لقد افضنا في الكلام على الواجب وصفاته وما يثبت له
وما يُنفى عنه وآن لنا ان نوفي الممكن (العالم) نصيبه من البحث
والدراسة . فما هي علاقة الممكن بالواجب ؟ وكيف تحقق ؟ ومتى برز
إلى الوجود ؟

لقد كان ابن سينا - كالفارابي - يذهب مذهب أرسطو في أن
واجب الوجود جذاب ومعشوق لما له من كمال تام وبهاء مطلق ، وان
العالم منجذب عاشق لما له من نقص وقبح ، ولهذا يسمى لأن يكون شيئاً

١ - رسالة في سر القدر (ضمن سبع رسائل) ص ٢

٢ - انظر الرسالة العرشية ص ١٨ .

به . ولكن ابن سينا - كالفارابي أيضاً - لا يقر أرسطو أبداً على أن التحريك مقصور على الجذب والانجذاب فحسب ، بل هو يراه عبارة عن فعل أو ابداع أو إيجاد ، وان صاحب الفعل والابداع والإيجاد هو الواجب ، وان وقوع الممكن نتيجة لفعله أو ابداعه أو ايجاده . وبذا فقد أمال ابن سينا الفلاسفة نحو الدين ، فأصبح الواجب لذاته في نظره فاعلاً بعد أن كان في نظر أرسطو معشوقاً فحسب . وهو هنا ان أقر أرسطو في ناحية وخالفه في ناحية أخرى على هذا النحو ووافق بذلك فيما أقره وخالف فيه الفارابي قبله ، فميزته من استاذة العظيم انما تتجلى هنا - كما تجلت من قبل - في التعبير والصياغة وزيادة الإيضاح والتقرير للمطلوب بأوجه مختلفة وطرق متبانية دون أن يخرج في ذلك عن دائرة استاذة .

لقد كان أرسطو يقول ان العالم قديم بالذات وبالزمان قدم الله . ومعنى ذلك ان الله لم يخلق العالم . وهذا أيضاً مما لم يقره الفارابي ولا تلميذه ابن سينا من بعده . فمثل هذه الاثنيانية لا توافق عقيدة المسلم الذي يردد دائماً ان الله كان ولم يكن معه شيء ، ثم كان الله وكان العالم معه . قاله هو الفاعل المطلق ابداع على غير مثال وهو على كل شيء قدير . والحل الذي يراه ابن سينا هو حل وسط ، كما كان الحال عند الفارابي . فهو كأستاذة يفرق بين القديم بحسب الذات والزمان والقديم بحسب الزمان فقط دون الذات . فالقديم بحسب الذات هو الذي ليس لذاته مبدأ هي به موجودة ، والقديم بحسب الزمان هو الذي لا اول لزمانه^(١) . فالعالم قديم بحسب الزمان دون الذات ، اي هو قديم بالزمان حادث بالذات او الوقوع ، بمعنى ان وقوعه (حصوله) ليس من نفسه كما يقول ارسطو ، بل من قبل علته . فلولا علته لم يحدث . فهو دون علته شرفاً ورتبة وان كان مصاحباً لها زماناً . وهذا ما يقول به

١ - النجاة ، ص ٣٥٥

الفارابي وما يقول به ابن سينا ايضاً . ولكن اذا قورنت نصوص ابن سينا بنصوص الفارابي في هذه الناحية امتاز عنه بالوضوح في الشرح واستخلاص المطلوب . فالعالم متأخر عن الله في الذات وان كان مصاحباً له في الوقوع في الزمان . وخوفاً من ان يؤدي القول بقدم العالم ومصاحبته في الحصول لواجب الوجود ، الى الظن بأن العالم مكثف بذاته غير محتاج الى خالق فاعل له - وهو مذهب ارسطو - بين ابن سينا ان ذلك لا يعني مطلقاً استغناء العالم عن الله وقدرته على القيام بذاته دونه ، بل ما زالت حاجته ماسة اليه وذلك لأن طبعه الامكان كما تقدم معنا مراراً ، فلا يستفيد الوجود إلا من واجب الوجود . ولئن اصطحبنا في الوجود زماناً إلا ان ما يجب بغيره فوجوده بالذات متأخر عن وجود ذلك الغير متوقف عليه لأنه معلول ، فهو لما كان واجباً بغيره اختلفت ماهيته عن وجوده ، فكان لا بد له من علة خارجة عنه تجمع فيه الوجود الى الماهية ليبرز العالم الى الوجود بالفعل بعد ان كان بالقوة ، وهذه العلة هي الله .

فوجود الله علة لوجود العالم ، ووجود العالم معلول عن وجود الله . والعلة تتقدم معلولها ، والمعلول يتأخر عن علة . فالعالم اذن متأخر بذاته عن ذات موجد . وهكذا فقد جمع ابن سينا بين قدم العالم قدماً زمانياً وحدوثه حدوثاً ذاتياً رغبة منه في التوفيق بين الفلسفة والدين . وامعناً منه في هذا التوفيق فانه يستعمل كلمة (ابداع) علة لوجود الكائنات عن واجب الوجود . فالابداع هو ان يكون من الشيء وجود لغيره متعلق به فقط ، دون متوسط من مادة أو آلة أو زمان . وما يتقدمه عدم زمني لم يستغن عن متوسط . فالإبداع أعلى رتبة من التكوين والأحداث ،^(١) اذ التكوين هو ان يكون من الشيء وجود مادي ، والأحداث هو أن يكون من الشيء وجود زمني ، واما الابداع فهو أن

١ - الاشارات ، ص ٥٢٤ - ٥٢٦ .

يكون الشيء لا من مادة ولا في زمان سابق عليه . وهو ليس بجيء ، أحداث لشيء لم يكن ، وإنما هو أيضاً إعطاء الوجود الأول لا عن شيء . فإله قديم أزلي لا يحصل عنه وجود مادي لم يكن ، كما أنه ليس بين الله والعالم زمان لم يكن العالم فيه موجوداً ثم وجد . وإنما العالم قديم بقدم علته . فإله الذي هو واجب الوجود علة ضرورية من شأنها أن تفعل منذ القدم ، ومعلولها الذي هو العالم لا بد أن يكون كذلك قديماً مثلها . وتقدم الله عليه تقدم بالذات لا بالزمان . والمثال الذي يضربه ابن سينا على ذلك هو : « حركت يدي فتحرك المفتاح » ، أو ثم تحرك المفتاح ، ولا نقول تحرك المفتاح فتحركت يدي ، أو ثم تحركت يدي ، وان كنا معاً في الزمان . فهذه بعدية بالذات ،^(١)

ان الإيجاد والصنع والفعل كل أولئك « يرجع إلى انه قد حصل للشيء من شيء آخر وجود بعد ما لم يكن » ،^(٢) أو وجود من العدم . وهذا الوجود اقل من الابداع في نظر ابن سينا . لأن الوجود غير الاستمرار في الوجود ، ولأن تعلق العالم بالله تعلق ذاتي لا زمني . والتعلق الذاتي أدل على الله من التعلق الزمني . فالتعلق الزمني إنما يعني احتياج العالم إلى الله في ابتداء وجوده بعد عدم ، وليست له بعد ذلك حاجة إليه . بحيث لو فقد الفاعل جاز ان يبقى المفعول موجوداً . كما يشاهد من فقدان البناء واستمرار قيام البناء بعده . وأما التعلق الذاتي فإنه يعني استمرار حاجة العالم إلى الله . ومن هنا كان ادل عليه .

وهكذا فان الابداع لا يعني الخلق في الماضي ، وإنما هو يعني مجرد الامكان . فالامكان الذي هو في اصل تصور العالم صفة لا شأن لها بالزمان ، إنما هي تتصل بماهية العالم وحقيقة وجوده . اما انه قد وجد في يوم كذا وسنة كذا فمسألة تخرج عن مفهوم الامكان . وهذا ما يميز

١ - الاشارات ، ص ٥١٧ .

٢ - المصدر السابق ص ٤٨٥

الامكان عن الحدوث . فاذا كان الامكان لا شأن له بالزمان فان الحدوث وثيق الصلة بالزمان مختلط به معبر عنه ، وبقدر ما يكون الحدوث متصلاً بالزمان يكون اتصال الممكن بالواجب . وهذا ما يفسر لنا قول ابن سينا السابق بأن تعلق المفعول بفاعله يكون من جهة وجوده بغيره ، اعني الامكان ، لا من جهة الحدوث . فالامكان - لا الحدوث - إنما هو علة الحاجة الى وجود الواجب الوجود .

٤ - الفيض

فاذا لم يكن الابداع زمانياً ولا عن مادة فان سبيل وجود الموجودات عن الله هو الفيض . ونظرية الفيض تدین بنشأتها للفارابي كما نعلم ، ولكنها تدین لابن سينا بنموها وتفسيرها وانتشارها . ولذلك فهي تحمل في الغالب اسمه لا اسم استاذه . ولا يختلف جوهر النظرية عند ابن سينا عما كان عند الفارابي . فهما متشابهتان جداً ، ولا يزيد ابن سينا على نظرية استاذه إلا كثرة الاستطراد والشرح وعرض الفكرة في صور مختلفة ، مما هيا لها حظاً اكبر من الذیوع والانتشار .

فالاول (الله) يعقل ذاته ويعقل نظام الخير الموجود في الكل وكيف يكون . وذلك النظام لأن الاول يعقله ، مستفيض كائن موجود . فالموجودات كلها إنما وجودها عنه .

وليس كون الكل عنه على سبيل قصد منه ، فليس مراده على نحو مرادنا حق يكون عنه قصد وغرض . وكذلك ليس كون الكل عنه على سبيل الطبع ، بأن يكون وجود الكل عنه لا بمعرفة ولا رضاه منه . وكيف يجوز هذا وهو عقل محض يعقل ذاته . فيجب ان يعقل انه يلزمه وجود الكل عنه . فتعقله علة للوجود على ما يعقله ، ووجود ما يوجد عنه على سبيل لزوم لوجوده وتبع له . وهو فاعل الكل ، بمعنى انه الموجود الذي يفيض عنه كل وجود فيضاً تاماً مبانياً لذاته ، وإن كون ما تكون عنه إنما هو على سبيل اللزوم ، إذ ان واجب الوجود بذاته

واجب الوجود من جميع جهاته^(١).

ولما كان الاول واحداً ليس يحسم ولا في جسم ولا ينقسم بوجه من الوجوه ، فلا يجوز ان يكون اول الموجودات عنه ، وهي المبدعات ، كثيرة ، لا بالعدد ولا بالانقسام الى مادة وصورة . فالواحد من حيث هو واحد انما يوجد عنه واحد فقط ، واذا وُجد في العقول المفارقة شيء من الكثرة فانما هي كثرة اضافية اعتبارية او كثرة بالعرض . بمعنى ان العقل الاول الذي صدر عنه ، يمكن الوجود في ذاته واجب الوجود بالاول . وهو يعقل ذاته ويعقل الاول ضرورة . فيجب ان يكون فيه من معنى الكثرة :

اولاً عقله لذاته من حيث انها كانت ممكنة الوجود في الاصل ؛
ثانياً عقله لذاته بأنه واجب الوجود من الاول المعقول بذاته ؛
وثالثاً عقله للأول .

وليست هذه الكثرة فيه بسبب الأول ، فان امكان وجوده أمر له بذاته لا بسبب الاول ، بل له من الاول وجوب وجوده . ثم ان الكثرة الحاصلة عن انه يعقل الاول ويعقل ذاته هي كثرة لازمة لوجوب حدوثه عن الاول . فليس يمتنع ان يكون عن شيء واحد ذات واحدة ثم يتبعها كثرة اضافية^(٢).

وهذه الكثرة الاضافية في العقل الأول تصبح كثرة حقيقية بعده . وبما ان تحت كل عقل عقلاً آخر وفلكاً بآدته وصورته التي هي نفسه ، فتحت كل عقل ثلاثة أشياء في الوجود . فعن العقل الأول ينشأ عقل الفلك الاقصى ونفسه وجرمه . وعن العقل الثاني ينشأ كذلك عقل فلك الثوابت ونفسه وجرمه . وهكذا الى ان يصل التدرج والصدور الى عقل فلك القمر ونفسه وجرمه .

١ - انظر النجاة ، ص ٤٤٨ - ٤٥٠ .

٢ - المصدر السابق ص ٤٥٠ - ٤٥٤ .

وكيفية الصدور تتمثل في العلم أو التعقل . فعلم الأول لذاته ينشأ عنه العقل الأول ، وهو علم واحد لا كثرة فيه . اما علم العقل الأول الذي يتلوه فتعدد : علمه لموجده وعلمه لنفسه . وعن أشرف العطين فيه ينشأ اشرف الموجودات عنه . فعلمه بالموجد الأول إذاً كان اشرف من علمه بنفسه كان سبباً في صدور العقل الثاني عنه ، بينما علمه بنفسه كان سبباً في صدور نفس الفلك وجرمه . اي ان ذات العقل 'تلاحظ' باعتبارين اثنين : اعتبار كونها في نفسها ممكنة الوجود ، واعتبار كونها بنسبتها إلى الاول واجبة الوجود . ولما كان احد الاعتبارين اشرف من الآخر كان علم العقل بنفسه من حيث الاعتبار الاول سبباً في صدور جرم الفلك عنه ، بينما كان علمه بنفسه من حيث الاعتبار الثاني السبب في ان يصدر عنه نفس الفلك . وهكذا ثلاث جهات مختلفة في الافضلية ينشأ عنها وجود ثلاثة اشياء مختلفة في الشرف والرتبة ايضاً : علم بالموجد الأول - وهو اشرف انواع علم العقل - ينشأ عنه عقل مفارق آخر هو اشرف الموجودات الصادرة عنه ؛ وعلم العقل بنفسه من حيث اعتبار ذاته الممكنة - اضعف مراتب علمه - ينشأ عنه جرم الفلك الذي هو اضعف الموجودات الصادرة عنه وأقلها درجة . وبين هذا وذاك في الرتبة علم العقل بنفسه من حيث كونه واجب الوجود بالأول ، وينشأ عنه ما هو بين العقل المفارق للفلك وبين جرمه في منزلة الموجودات الناشئة وهو نفس الفلك . وكذلك الحال في عقل عقل وفلك فلك حتى ينتهي الفيض إلى العقل الفعال الذي يدبر انفسنا . وليس يجب ان يذهب هذا المعنى إلى غير نهاية حتى يكون تحت كل مفارق مفارق ، بل يتوقف الفيض عند عقل فلك القمر ، المتولي تدبير العقل الانساني في العالم الارضي^(١) .

ثم يبتدىء بعد ذلك عالم العناصر ووجود المادة القابلة للصور . وتتدرج المادة في الترتي في عالم العناصر يسيراً يسيراً ، فيكون اول

١ - انظر المصدر السابق صفحة ٤٥٤ - ٤٥٥ .

الوجود فيها أحسنّ وأرذل مرتبة من الذي يتلوه ، فيكون أحسنّ ما فيه
المادة المطلقة ثم الاسطقات ثم المركبات الجهادية ثم الناميات وبعدها
الحيوانات ، وأفضلها الانسان ، وأفضل الناس من استكملت عقلاً بالفعل .
وأفضل هؤلاء المستعد لمرتبة النبوة .

وعلى هذا النحو تتصور الكيفية في نشأة كل عقل مفارق لفلك ونشأة
نفسه وجرمه من عقل مفارق سابق عليه . وصدور الموجودات بهذه
الكيفية وعلى الترتيب السابق دون ان يكون هناك فجوة بين العالمين
الأعلى والأسفل ، لا يخرج الموجود الاول عن كونه موجداً للكل ومؤثراً
في الكل .

ولعلنا نلاحظ هنا ان ابن سينا اخذ نظرية الفيض هذه عن الفارابي
فحافظ على المبادئ والطريقة وعدد العقول والأفلاك وطبيعتها .. ولكنه
وضع بعض النقاط وعمّقها فجاءت اكثر انسجاماً وتماسكاً . فقد جعل
الفارابي الفيض يصدر مثنى مثنى ، وأما ابن سينا فقد جعله يصدر اثلاثاً اثلاثاً .
إذ ما دام التعقل والإحداث شيئاً واحداً فينبغي ان يصدر عن كل عقل
ثلاثة فيوضات متدرجة في الشرف والرتبة ، لا اثنان فقط ، كما كان الحال
عند الفارابي .



لقد اكتملت الآن نظرية الفيض وتمّت آخر حلقة منها ، وحلت مشكلة
نشأة الكثرة من الوحدة حلاً تختلف الاقاويل في قيمته ، ولكنه على كل
حال ساهم في تفسير الكون واكتناه سره . نعم هناك اكثر من مأخذ على
هذه النظرية . فليت شعري أي نظرية في الفلسفة خلت من المآخذ ؟
ايتوني بفلسفة سلمت من التناقض والتعارض ، او على الأقل من التمعثر ؟
هل خلت فلسفة افلاطون وأرسطو — وكلتاها فلسفة فذة عملاقة — من
المآخذ ؟ هل خلت فلسفات القرون الوسطى كلها — اسلامية ومسيحية
ويهودية — من المآخذ ؟

ان الفلسفة عمل عقلي يساهم في تفسير العالم ومعرفة اسرارهِ وحل غوامضهِ . وفي هذا العمل يكن سحر الفلسفة وفشلها في آن واحد . فاما سحرها فيتجلى في وحدتها وترباط اجزائها وجمال بليانها وتليينها لحاجات عميقة الجذور في الانسان . واما فشلها فيتبدى في كبريائها وغرورها ودعاواها العريضة ؛ فهي إذ تتصدى لتفسير الكون لا تقبل بأقل من النظرة الشاملة والفكرة الكلية . انها لا تقنع بالعمل في نطاق الجزئيات ، بل انها لتربأ بنفسها عن ان تخوض في الجزئيات وتلطخ بها يديها وتزري بكل محاولة تتحط الى مستواها . وكل من يعم النظر في الفلسفة ولا سيما الفلسفة اليونانية ، وفلسفة العصور الوسطى ، يجد فيها تقريباً وشعوراً بالاثم ، تقريباً للنفس ، تقريباً للمادة ، تقريباً للعالم الارضي ، عالم الكون والفساد ، الذي تدل مجرد اطلاق هذه التسمية عليه على مدى ما سيطر على الاقدمين من الشعور بالاثم والمذلة والصفار بأزاء العالم الأعلى .

وقد قامت اليوم عدة دعوات لتصحيح اتجاه الفلسفة ودفعها في الطريق القويم بصرفها عن الاهتمام بالكليات وحصرها في نطاق الجزئيات وجعلها خادمة للعلم ، ولكنها لم تنجح واغلب الظن أنها لن تنجح ، بل لو نجحت لاقام الانسان على انقاضها فلسفات جديدة على نمط الفلسفات القديمة ، بل ان مجرد اعجابنا بفلسفة أفلاطون وأرسطو - رغم خلوها من كل قيمة علمية - انما يعبر عن تعلقنا بالكلي وشغفنا بالنظرة الشاملة . وكأنّ لسان حالنا يقول : إن الفلسفة لا تكون فلسفة الا اذا اشترأبت الى الكلي ونسجت على منوال الكلي . ماذا أقول ! إن العلم نفسه أخذ اليوم يتجه اتجاها فلسفياً بدلاً من ان يتجه الفلسفة اتجاهاً علمياً ! ولئن دل هذا على شيء فانما يدل على ان للفلسفة جذوراً عميقة في حياتنا لا يمكننا اقتلاعها بسهولة ، فهي من الاغراء وقوة التعبير عن الذات الانسانية بحيث لا يمكن الاستغناء عنها .

ان المآخذ لم تكن يوماً ما سبباً يعوق تقدم الفلسفة او يضعفها او

على الأقل يدعو الى الزراية بها ، فضلاً عن ان تكون خالية منها .
والعبرة الوحيدة التي يمكن استخراجها من هذه المآخذ انما هي ان يستدرك
اللاحق كبوات السابق وينتفع الخالف بعثرات السالف محاولة لبناء فلسفة
جديدة لا كبوة فيها ولا عثرة . ولكن هيهات . فكلما اقيلت عثرة
انكشفت عثرات وكلما ارتفعت لبنة سقطت لبنات . فالفلسفة لا تعيش
إلا على العثرات ولا تتغذى إلا بالسقطات . هكذا تتقدم الفلسفة وهكذا
تنمو ويشمخ بناؤها على تعاقب العصور وكر الدهور .

تلك هي طبيعة الفلسفة وهذا هو شأنها . فما من فلسفة حققت ما تصبو
اليه من نجاح . ففي نجاحها موتها وموت الفكر معها ، وفي فشلها حياتها
وحياة الفكر معها ، على ما في ذلك من غرابة . فما دامت تنسج على
منوال العقل وحده دون نظر الى الواقع ، بل اذا نظرت اليه فانما تنظر
اليه شزراً وفي قلبها منه غصّة - ولا يمكنها الا ان تكون كذلك والا
فقدت متعتها واغرامها - اقول ما دام هذا حالها ، فلن ينعقد عليها
اجماع وستبقى مذاهب وشيعة ، كل حزب بما لديهم فرحون .

وفلسفة الفارابي وابن سينا وغيرهما من فلاسفة الإسلام ومفكره كانت
- على علاقتها - في الرعيل الاول بين انظار القوم وامكانياتهم العقلية
وأدوات تفكيرهم . وكانت نظرية الفيض على ما فيها من مأخذ وعثرات
غنى من حاجة كبيرة ، تؤدي وظيفة هامة في التخفيف من عطش العقل
وجوع النفوس ، فلم يكن في خزانة الاطباء ما يشفي الغليل ويروي
الظما مثلها . فقد اضطلعت بنصيب كبير من مسؤولية المعرفة في عصرها
وادت واجبها كاملاً أو شبه كامل . وحسبها أنه ليس فيها عنصر غير
عقلي وانها نظرية منسقة مترابطة يأخذ فيها السابق بعنق اللاحق في نظام
منطقي متسلسل معقول .

فلننظر اليها من هذه الوجهة ، من وجهة ما هو كائن لا ما يجب ان
يكون ، ولنعاملها على هذا النحو ، ولنقلع عن ترديد كليشيات اصبحت

محفوظة لا يخلو منها كتاب « روتيني » في تاريخ الفلسفة الإسلامية . فنحن الى الخلق والتجديد احوج منا الى الحفظ والترديد . أفكلما نطق بالغرب ناعق إستارعنا الى نقل صدهاء دونما تبصر او حكمة ؟ وحبذا لو اننا بدلاً من التشكيك وإثارة الغبار ونقل الصدى سبرنا افكار القوم وفهمنا دلالتها ووظيفتها ووضعناها في سياقها التاريخي وإطارها الحضاري ، إذن لكنا اسدينا الى الجيل الذي ننتمي اليه وإلى الأجيال القادمة خير خدمة وأعم نفع . فالدراسة المعيارية للفلسفة لا تجدي ، إنما يجدي الدراسة الوضعية ، دراسة ما هو كائن علته وفي عثراته . أما دراسة ما ينبغي ان يكون فقد مضى عهدها . او على الأقل هذا ما نرجو ان يكون !

٥ - الطبيعة

تبحث الطبيعة - وبتمبير أدق علم الطبيعة - في « الاجسام الموجودة بما هي واقعة في التغير وبما هي موصوفة بأنحاء الحركات والسكونات »^(١) المادة والصورة . - هذه الاجسام جميعاً مركبة من مادة هي محل ، وصورة تحمل في هذا المحل . ونسبة المادة الى الصورة هي كنسبة النحاس الى التمثال^(٢) .

وفكرة المادة والصورة فكرة قديمة كما تعلم اخذها ابن سينا عن ارسطو من خلال استاذة الفارابي ، لكن ارسطو لم يبين كيف تتدخل الهوى في تكوين الصورة . وكل ما قاله في هذا الصدد أن الهوى تقبل الصورة وانها حامل لها . وهذا ما يقوله ابن سينا ايضاً ويعبر عنه بطرق مختلفة . لكنه يضيف إلى ارسطو فكرة الامتداد . فما من جسم من الأجسام إلا يمكنك أن تفرض فيه امتداداً اولاً وامتداداً ثانياً مقاطعاً له على زاوية قائمة ، وامتداداً ثالثاً مقاطعاً للامتدادين على زاوية قائمة أيضاً . فهذا معنى كون الجسم ذا اقطار (ابعاد) ثلاثة وان كان في نفسه

١ - النجاة ، ص ١٥٨ .

٢ - النجاة ، ص ١٥٩ .

شيئاً واحداً^(١) .

فالامتداد اذن صفة راسخة ، من صفات المادة لا تخص جسماً دون جسم بل تعم جميع الأجسام ، اذ لا تتصور المادة بلا امتداد . فطبيعة الامتداد في نفسها واحدة .^(٢) وهذا ما سيقول به ديكارت فيلسوف عصر النهضة بعد ابن سينا بستة قرون ، عندما حصر الموجودات في قسمين هما الامتداد والفكر . وسنجد بين ديكارت وابن سينا وجوهاً أخرى للشبه مما يرجح تأثره به في مواضع مختلفة من فلسفته .

والامتداد لا يمتد الى غير نهاية ، اللهم الا في الوهم ، اذ لكل جسم حدود ينتهي إليها . ولذلك يقول ابن سينا : « فلقد بان لك ان الامتداد الجسماني يلزمه التناهي ، فيلزمه الشكل ، اعني في الوجود »^(٣) . ومعنى هذا ان الجسم لا يكفي أن نقول فيه كما قال أرسطو بسذاجة انه مركب من مادة وصورة ، بل يجب أن نبين كيف يكون ذلك ، وهذا ما استدركه ابن سينا . فالجسم لا يحصل له الوجود الا اذا كانت له ثلاثة ابعاد وكانت هذه الابعاد متناهية ليرتب عليها شكل من الأشكال . واما هيولى ارسطو فهي كما مر معنا استعداد محض ومجرد قوة لقبول الصور لم تقوم بأي امتداد ، فضلاً عن ان تكون متناهية او ذات شكل . والجموع المؤلف من الامتداد والتناهي والتشكل هو ما يسميه ابن سينا (الصورة الجسمية) أو (الصورة الجرمية أو الجرمانية) وهو ما لا يعرفه ارسطو .

والاقطار الثلاثة الملازمة لكل جسم انما تقوم في المادة الموضوعة لها بطباعها . غير ان هذه الاقطار ليست جزءاً من وجود المادة ولا تؤخذ في حدها ، بل هي خارجة عن ذات المادة وان كانت حالة فيها

١ - النجاة ، ص ١٥٩ .

٢ - انظر الاشارات القسم الثاني ص ١٥١ .

٣ - الاشارات ، ص ١٦٢ .

مقارنة لها . فليس للمادة بذاتها مقدار وقطر وانما هما يطرآن عليها من غير ذاتها لأنها مستعدة لقبولها . والدليل على ذلك ان المادة الواحدة تذنقل من حجم الى حجم دون ان تضيق به ^(١) .

وفي مادة الجسم الطبيعي صور أخر غير الصور الجسمية التي تقدم ذكرها . فللأجسام الطبيعية — إذا أخذت على الإطلاق — من المبادئ المتارنة التي لا تنفك عنها مبدآن فقط هما المادة والصورة . ولها ايضاً ما يسميه ابن سينا (لواحق الاجسام الطبيعية) وهي الاعراض العارضة من المقولات التسع . والفرق بين الصور والاعراض ، ان الصور تحل مادة غير متقومة الذات ، واما الاعراض فانها تأتي بعد تقوّم الجسم الطبيعي بالمادة والصورة ^(٢) .

والصورة لا تفارق المادة . فاذا زايلتها منها واحدة وجب ان تخلفها غيرها . اجل ان المادة لا تتمرئ عن الصورة . فاذا حصلت للجسم صورة ثانية محل الاولى سمي هذا الفعل بالنسبة اليه كوناً ، كما يسمى انعدام الصورة الاولى عنه فساداً . وقسط الصورة في الوجود أوفر من قسط المادة لأنها علتها المعطية لها الوجود ، ويليهما الهيولى ، ووجود الهيولى انما يكون بالصورة .

القوى السارية في الاشياء . — هذا والاجسام لا تتحرك بذاتها ولا تسكن بذاتها ولا تتشكل من ذاتها ، ولا تقوم بفعل من الافعال من ذاتها ، وانما هي تقوم بذلك كله بفعل قوى مغروزة فيها ، وهذه القوى على ثلاثة أقسام :

فمنها قوى سارية في الاجسام تحفظ عليها كالاتها من اشكالها ومواضعها الطبيعية وأفاعيلها . فاذا زالت عن مواضعها الطبيعية وأشكالها وأحوالها ردتها اليها ومنعتها عن الحالة غير الملائمة . وهي إذ تفعل ذلك انما تفعله بلا معرفة ولا روية وقصد اختياري ، بل بتسخير من الاجسام الساوية .

١ — انظر النجاة ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

وليس شيء من الاجسام الطبيعية بخال عن هذه القوى^(١) .
والنوع الثاني قوى تفعل في الاجسام افعالها من تحريك او تسكين
وحفظ نوع وغيرها من الكالات بتوسط آلات ووجوه مختلفة ، فبعضها
يفعل ذلك دائماً من غير اختيار ولا معرفة ، فيكون نفساً نباتية ؛
ولبعضها القدرة على الفعل وتركه وادراك الملائم والمما في ، فيكون نفساً
حيوانية ؛ ولبعضها الاحاطة بمخائيق الموجودات على سبيل الفكرة والبحث
فيكون نفساً انسانية^(٢) .

والنوع الثالث قوى تفعل في الاجسام الطبيعية ما تفعله النفس الانسانية
وهي انما تفعل مثل هذه الأفعال لا بآلات ولا بأنحاء متفرقة ووجوه
مختلفة ، بل بارادة متجهة الى سنة واحدة لا تتعداها ولا تحيد عنها .
ويطلق ابن سينا على هذه القوى اسم النفس الفلكية^(٣) .

مراتب الموجودات . - يذهب ابن سينا في مراتب الموجودات وتأثير
الاعلى منها في الادنى مذهباً شبيهاً بمذهب الفارابي نجده منشوراً في
(النجاة) و (رسالة في العشق) وغيرهما .

فالوجودات على مراتب : أعلاها واجب الوجود وأدناها الهيولى .
والموجود الاول فعل خالص ووجود محض ، وكل ما عداه ممكن الوجود ،
حتى تنتهي الى الهيولى وهي امكان خالص ، وهي من اجل ذلك عدم .
وهكذا تتدرج الموجودات من الوجود الى العدم .

ولكل موجود كمال ، وسعيه الى الكمال تحقيق لخير . ولكل جسم
مكانه الطبيعي وغاية ينزع اليها لتمام وجوده وقوى غريزية تساعد على
بلوغها على خير وجه وأفضله . وجميع الاشياء الطبيعية تنساق في
الكون الى غاية وخير ، وليس يكون شيء منها جزافاً ولا اتفاقاً
الا في السدرة . بل لها ترتيب حكيم وليس فيها شيء معطل او

١ - انظر النجاة ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

٢ - انظر المصدر السابق ص ١٦٢ .

٣ - انظر المصدر السابق ص ١٦٢ .

لا فائدة فيه (١).

ويبين ابن سينا - كالفارابي - تأثير الأجسام السماوية في العناصر الأرضية ، اذ هي تحركها وتخلطها فتنشأ عن ذلك موجودات شتى مختلفة الدرجات خاضعة لتأثير الأفلاك والعقل الفعال . فكل شيء في عالم ما تحت فلک القمر انما يتكون من امتزاج العناصر الأربعة بفعل الكواكب . فاذا امتزجت العناصر امتزاجاً أولياً تولدت الاجسام الجامدة ؛ واذا امتزجت امتزاجاً اكثر اعتدالاً نشأ بسبب الجسم السماوي نبات ؛ واذا زاد اعتدال المزاج استعد الجسم لقبول النفس الحيوانية ، بعد ان يستوفي درجة النفس النباتية ؛ حتى اذا أمعن في الاعتدال قبل النفس الانسانية التي تهيئ وحدها للرجوع الى العالم العلوي وتحصيل السعادة فيه .

سريان قوة العشق في هويات الاشياء . - ولابن سينا فوق ذلك نظرية فيها سحر واستهواء عليها مسحة افلاطونية هي بحق قطعة من الأدب الرفيع ، يصف بها انتظام الموجودات وتزوعها الى الكمال والخير . وقد عرض ابن سينا هذه النظرية بتفصيل في رسالته المشهورة (رسالة في العشق (٢)) كما أتى عليها باختصار سريع في اواخر النمط الثامن من (الإشارات) . ولكننا سنقتصر هنا على (رسالة في العشق) لأنها تجزيء عما ورد في (الإشارات) .

العشق كما يعرفه ابن سينا هو استحسان الحسن والملائم جداً . فكل واحد من الموجودات يستحسن ما يلائمه وينزع اليه اذا 'فقد' ، والخير الخاص هو الملائم للشيء في الحقيقة والحسبان . وعلة العشق هي ما قد نيل او ما سينال منه . وكلما زادت الخيرة ازداد استحقاق المعشوقية وزادت العاشقية للخير (٣) .

١ - انظر النجاة ، ص ١٦٤ .

٢ - رجعنا في تلخيص هذه النظرية الى (رسالة في العشق) تحقيق الدكتور محمد علي ابو ريان . وتوجد بكاملها في قراءات في الفلسفة ص ٦٣٧ - ٦٦٠ .

٣ - رسالة في العشق ص ٦٤١ .

وهكذا فقد اوجبت كلمة الله ان يفرز في الموجودات عشقاً طبيعياً
يتزعم بها الى الكمال والوجود . فان لكل واحد من الموجودات شوقاً
طبيعياً وعشقاً غريزياً هو سبب لوجوده . والموجودات لا تعرى عن
ملازمة كمال ما ، وملازمتها له بعشق وتزوع في طبيعتها الى ما يجعلها
ملازمة له ^(١) .

وجميع الكمالات مستفاعة من فيض الكامل بالذات . فقد اقتضت
حكته وحسن تدبيره ان يفرز في كل موجود عشقاً كلياً يصير به
مستحفظاً لما نال من فيض الكمالات الكلية ونازعاً الى الابدان لها عند
فقدانها . فواجب اذن وجود هذا العشق في جميع الموجودات وجوداً غير
مفارق ، وإلا لاحتاجت الى عشق آخر يستحفظ هذا العشق الكلي عند
وجوده اشفاقاً من عدمه ، ويسترده عند فوته قلقاً لبعده ، ولصار أحد
العشقين معطلاً . ووجود المعطل في الوضع الإلهي باطل .

وليس يعرى شيء عن عشق غريزي فيه ، سواء كان من البسائط
غير الحية او الكائنات الحية .

فأما البسائط غير الحية فكل واحد منها قرين عشق غريزي لا يخلو
عنه البتة ، وهو سبب له في وجوده . وهذا العشق يظهر في الهوى
والصورة والاعراض .

فأما الهوى فلديمومة نزوعها الى الصورة مفقودة ، وولوعها بها موجودة .
ولذلك تلقاها متى عثرت عن صورة بادرت الى ان تستبدل بها صورة
اخرى ، اشفاقاً من ملازمة العدم المطلق . فالهوى مقر للعدم ، انها
كالمرأة اللائمة الدمية المشفقة من استعلان قبحها : فكما انكشف قناعها
غطت دمامتها . فقد تقرر بهذا ان في الهوى عشقاً غريزياً .

وأما الصورة فالعشق الغريزي فيها ظاهر ايضاً بوجهين : احدهما
ما نجد من ملازمتها موضوعها ومنافاتها لما يسحبها عنه ؛ والثاني ما نجد

١ - المصدر السابق صفحة ٦٣٩ .

من ملازمتها كالاتها ومواضعها الطبيعية متى حصلت فيها وحركتها الشوقية اليها متى باينتها^(١) .

واما الاعراض فعشقها ظاهر بالجد في ملازمة الموضوع ايضاً . وذلك عند ملابتها الاضداد التي تتعاقب على الموضوع .

فاذن ليس يعرى شيء من هذه البسائط غير الحية عن عشق غريزي في طباعه^(٢) .

وكذلك الحال في الكائنات الحية . فالعشق الخاص بالقوة النباتية يظهر في شوقها الى حضور الغذاء والى تحصيل زيادة مناسبة في اقطار الجسم المفتدي والى تهيئة كائن مماثل لها^(٣) .

واذا كان العشق ظاهراً في النبات فهو في الحيوان أظهر . فلكل قوة من قوى الحيوان تصرفٌ يحثها عليه عشق غريزي ، وإلا لكان وجودها في البدن معطلاً ولتساوت العوارض الحسية عند الحيوانات . فالجزء الحاس يعشق المحسوسات ، والجزء الغضي يعشق الانتقام والتغلب والفرار من الذل والاستكانة وما ضار ذلك ، والجزء الشهواني يعشق لذة المطعوم الذي يُبقي الكائن حياً كما يعشق لذة المنكوح بضرب من العشق الغريزي الذي لا بد منه لتوليد المثل واستبقاء الحرث والنسل . والفرق بين عشق القوة النباتية وعشق القوة الحيوانية ، ان عشق القوة النباتية لا تصدر عنه الافاعيل الا بنوع طبيعي وبنوع أدنى وأدون ، واما عشق القوة الحيوانية فانما يصدر بالاختيار وبنوع أعلى وأفضل وبأخذ أطف وأحسن^(٤) .

واما الانسان فان نفسه الحيوانية لما اكتسبت من البهائم بمجاورة القوة الناطقة تفعل هذه الأفاعيل بنوع أشرف وأطف ايضاً . فهو اذن

١ - صفحة ٦٤١ - ٦٤٣ .

٢ - صفحة ٦٤٤ .

٣ - صفحة ٦٤٥ - ٦٤٦ .

يعشق كما يعشق الحيوان ، لكن الحيوان يعشق بنوع توافيق طبيعي ،
ويعشق الانسان بالروية الناطقة ، فيسعد بتصور المعاني السامية ويعرف
انه كلما قرب من المعشوق الاول زادت بهجته وسعاده . ان من شأن
العاقل الولوع بالمنظر الحسن من الناس ، وقد يُعد ذلك منه في بعض
الأحيان تطرفاً وفتوة ، لكن لا يجوز أن يستغوبه هذا العشق فيتناول
الشهوات تناولاً حيوانياً يجعله مستحقاً للعلامة والإثم . فلن يخلص العشق
النطقي ما لم تنمق القوة الحيوانية غاية الانقياع . فمهما (كلما) احب
الصورة المليحة باعتبار عقلي عد ذلك وسيلة الى الرفعة وزيادة في الخيرية ،
وذلك مما يؤهله لأن يكون ظريفاً وفقاً لطيفاً . فلا يكاد اهل الفطنة
من الظرفاء والحكماء ممن لا يسلك سبيل المتعسفين والاقحاح يوجد خالياً
عن شغل قلبه بصورة حسنة انسانية ، وذلك لأن الانسان مع ما فيه
من زيادة فضيلة الانسانية اذا ظفر بالصور الحسان التي هي مستفادة من
تقويم الطبيعة واعتدالها وظهور اثر إلهي فيها جداً استحق لأن ينتحل
من ثمره الفؤاد مخزونها ، ومن اصفى صفاء الوداد أطيبه ومكنونه .

وعلى كل حال ، ان القوى النفسانية مهما (كلما) انضم اليها قوة
اعلى منها في الشرف اجتازت بانضمامها إليها وسريان البهاء فيها زيادة
صقولة وزينة حتى تصير بذلك افاعيلها البارزة عنها زائدة على ما يكون
لها بانفرادها ، اما بالعدد واما بحسن الاتقان ولطف المأخذ والرجاء في
الانتهاء إلى الغرض . اذ كل واحدة من عاليها لها قوة على تأييد السافل
وتقويته ودفع الضرر عنه تأييداً ودفعاً يوفيهما من جهة قبولها زيادة بهاء
وكمال . فالادنى من قوى النفس يخدم الاعلى ، والأعلى يزداد قوة بالادنى .
وبذلك تنتظم أمور الإنسان وتطيب شمائله وسجاياه ^(١) .

هذا ولا يقتصر العشق على ما تقدم فقط ، فهناك عشق النفوس الإلهية
من البشرية والملكية . فهي لا تستحق اطلاق التأله عليها ما لم تكن

فائزّة بمعرفة الخير المطلق ، ولا توصف بالكمال إلا بعد الإحاطة به . إن من أدرك خيراً فانه بطابعه يعشقه . فالعلة الأولى معشوقة للنفوس المتألّهة لأنها أدركت خيرية هذه العلة وسمت إليها . وأيضاً فان النفوس البشرية والملكية - لما كانت كالاتها بأن تتصور المعقولات على ما هي عليه بحسب طاقتها تشبهاً بذات الخير المطلق ولتستفيد بالتقرب منه الفضيلة والكمال ، فواجب ان يكون الخير المطلق معشوقه لها ، اعني لجملة النفوس المتألّهة . ان الخير المطلق سبب لوجود ذوات هذه الجواهر الشريفة ولكالاتها فيها ، اذ كمالها إنما هو بأن تكون صوراً عقلية قائمة بذواتها ، وانها لن تكون كذلك الا بمعرفته وهي متصورة لهذه المعاني منه . ولذلك فان الخير مطلق معشوق لها ، اعني لجملة النفوس المتألّهة . وهذا العشق فيها غير زائل البتة ، وذلك لأنها لا تخلو من حالة الكمال والاستعداد : فأما من حيث الكمال فالسبب واضح . فالنفوس الملكية لا يزول عشقها وذلك لفوزها بالكمال .

وأما من حيث الاستعداد فان النفوس البشرية - دون النفوس الملكية - لها شوق غريزي إلى معرفة المعقولات التي هي كمالها ، وخاصة المعقول الاول المطلق الذي هو أفيد للكمال عند تصوره واهدى الى تصور ما سواه ، والذي هو علة لكون كل معقول سواه معقولاً في النفوس وموجوداً في الاعدان . ولا محالة إن لها عشقاً غريزياً في ذاتها للحق المطلق أولاً وسائر المعقولات ثانياً ، وإلا فوجودها على حالة الاستعداد يظل معطلاً .

فإذن المعشوق الحق للنفوس البشرية والملكية إنما هو الخير المحض (١) . والخلاصة ان كل واحد من الموجودات يعشق الخير المطلق عشقاً غريزياً ، وإن الخير المطلق يتجلى لعاشقه ، الا ان قبولها لتجليه واتصالها به يتفاوت من موجود الى آخر ، وان غاية القربى منه قبول لتجليه على

اكمل ما في الامكان ، وهو المعنى الذي يسميه الصوفية بالانحاد . ولا ينال جودة تجليه الأعاشق وان وجود الاشياء انما كان بتجليه . فلولا تجليه لم يكن وجود ، فتجليه علة كل وجود . واذاً هو بوجوده عاشق لوجود معلولاته فهو عاشق لنيل تجليه . وكون أكثر الاشياء غير عارف به لا ينفي وجود عشقه الغريزي في هذه الاشياء لكمالاتها . فالخير الأول بذاته ظاهر متجلٍ لجميع الموجودات ، ولو كان محتجباً عنها غير متجلٍ لها لما عُرف . بل ذاته بذاته متجلٍ ، ولأجل قصور بعض الذوات عن قبول تجليه محتجب عنها . فلا حجاب في الحقيقة الا في المحجوبين . والحجاب هو القصور والضعف والنقص ، وليس تجليه الا حقيقة ذاته ، إذاً لا يتجلى بذاته في ذاته الا هو صريح ذاته .

وأول قابل لتجليه هو الملك الإلهي الموسوم بالعقل الكلبي او العقل الفعال . وهو يقبل التجلي بغير توسط ، ثم تناله النفوس الإلهية بلا توسط ايضاً عند النسل ، ثم تناله القوة الحيوانية ثم النباتية ثم الطبيعية . وكل هذه الموجودات يسوقها ما نالته منه الى التشبه به بطاقتها . فان الاجرام الطبيعية انما تتحرك حركاتها الطبيعية تشبهاً به في غايتها وهو البقاء على اخص الأحوال . وكذلك الجواهر الحيوانية والنباتية انما تفعل أفعالها الخاصة بها تشبهاً به في غاياتها ، وهي ابقاء نوع او شخص او اظهار قوة ومقدرة . وكذلك النفوس البشرية انما تفعل أفعالها العقلية والعملية الخيرية تشبهاً به . والنفوس الإلهية الملكية انما تحرك تحركاتها وتفعل أفعالها تشبهاً به ايضاً في ابقاء الكون والفساد والحركة والنسل ، اذ هي عاقلة له ابدأً وعاشقة له لما تعقله منه ابدأً ، ومتشبهة به لما تعشقه منه ابدأً . وولوعها بأدراكه وتصوره يكاد يشغلها عن ادراك ما دونه او تصور ما سواه من المعقولات ، او قل انها تتصوره قصداً وولوعاً وتتصور ما سواه تبعاً .

فاذن الملك الاعظم رضاه ان يُتشبه به وان كان ما يرام من التشبه

به لا يؤتى على غايته (١) .

٦ - النفس

كان ابن سينا إمام فلاسفة الاسلام في دراسة النفس . فهو أول فيلسوف مسلم اهتم بها اهتماماً لا نجد له مثيلاً لدى احد من الفلاسفة السابقين ، حتى اننا لا نكاد نجد كتاباً من كتبه يخلو من ذكر النفس والبرمنة على وجودها وخلودها وبيان طبيعتها وقواها . واذا كان قد اخذ كثيراً من آرائه النفسية عن افلاطون وارسطو والفارابي فليس ثمة شك في ان النتائج التي وصل اليها تختلف عن نتائجهم اختلافاً يذناً سواء من حيث العمق والاستقصاء او من حيث الاتساع والشمول او من حيث الغرض والغاية .

النفس هي الانسان على الحقيقة . فليس الانسان هو الهيكل الجسماني المحسوس ، وانما هو الجوهر السامي الذي يقطن هذا الهيكل ويضفي عليه قيمته . والنفس الانسانية عالم قائم بذاته يشبه الكون في تنظيمه وإحكامه . ولهذا يردد ابن سينا مخاطباً الانسان منبهاً اياه الى سمو جوهره وعظم شأنه :

أتحسب انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر ؟
فالنفس اذن عالم مستقل قائم بذاته ، هو في ترتيبه ونظامه صورة مصغرة عن العالم بأسره . انها العالم الأصغر في مقابلة العالم الأكبر . فهي صورة الكل ومرآة الكل .

النفس هبة السماء . - فالاجسام قبل ان تظهر عليها ظواهر النفس يجب ان تمر بمراحل متعددة تهيئها لهذا الحدث الكبير . فالعناصر الاربعة كما نعلم انما تكونت بتأثير العقل الفعال والقوى الفلكية ، وتأثير العقل الفعال والقوى الفلكية ايضاً وبفعل القوى السارية المفروزة في هذه العناصر وامتزاجها ببعضها امتزاجاً اولياً تكونت المعادن . ثم امتزجت

العناصر بطريقة اقرب الى الاعتدال فحدث عنها بتأثير القوى الفلكية نبات . ثم زاد اعتدال المزاج في بعض الاجسام فاستعدت لقبول النفس الحيوانية بعد ان استوفت درجة النفس النباتية . وهكذا فكلما زاد الاعتدال في الجسم ازداد قبولاً لقوة نفسانية اخرى ألطف من الاولى^(١) . فالاختلاف اذن بين الاجسام - سواء كانت اجساماً طبيعية او اجساماً حية - انما يرجع الى مزاج العناصر بتأثير القوى الفلكية ، وهو كما نرى اختلاف يشبه ان يكون في درجة الاعتدال اكثر منه في النوع .

على انه كلما ابتعدنا عن الاجسام الطبيعية قل فعل القوى السارية في الاجسام وازداد فعل القوى الزائدة على الجسمية بل وعلى طبيعة المزاج نفسه . فكان هناك مبدأ جديداً يأخذ طريقه الى الظهور في الجسم الطبيعي بعد ان يستكمل اسباب الوجود المادي . هذا المبدأ هو النفس .

تعريف النفس . - والنفس كجنس واحد ينقسم بضرب من القسمة الى ثلاثة أقسام :

احدها النفس النباتية ، وهي كمال اول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولد ويروبو ويفتدي . والغذاء جسم من شأنه ان يتشبه بطبيعة البدن الذي يتغذى به ، وهو يزيد معه بمقدار ما يتحلل او أكثر أو أقل^(٢) .

والثاني النفس الحيوانية وهي كمال اول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرك بالارادة^(٣) .

والثالث النفس الانسانية وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يفعل الأفعال الكائنة بالاختيار الفكري والاستنباط بالرأي ، ومن جهة ما يدرك الأمور الكلية^(٤) .

هذا وتعريف النفس بانها كمال يرجع إلى ما مر معنا في العلم الطبيعي من ان جميع الافعال النباتية والحيوانية والانسانية إنما تصدر عن قوى

١ - انظر النجاة ص ٢٥٦ - ٢٥٨ .

٢ - النجاة ص ٢٥٨ .

زائدة على الطبيعة الجسمية . وهذه القوى - كما رأينا - هي التي يستكمل بها كل من النبات والحيوان والانسان وجوده : فهي كمالات بالنظر الى انها تستكمل الجنس فيصير بها نوعاً محصلاً ، أي موجوداً بالفعل .

أما تعريف النفس بانها كمال اول فمعناه انها هي التي يصير النوع بها نوعاً بالفعل . وأما الكمال الثاني فهو ما يتبع النوع كالاحساس والروية بالنسبة الى الانسان . والنفس كمال لجسم طبيعي لا لجسم صناعي كالكرسي والسرير . ولا تكون النفس كمالاً لأي جسم اتفق ، وانما هي كمال لجسم طبيعي تصدر عنه كمالاته الثانية بآلات (او أعضاء) يستعين بها في افعال الحياة . وأول مراقبها التغذي والنمو والتوليد ، ثم ادراك الجزئيات والتحرك بالارادة ، وأخيراً الاستنباط بالرأي وادراك الأمور الكلية .

قوى النفس النباتية . - للنفس النباتية قوى ثلاث هي :

أ - القوة الغذائية ، ومن شأنها انها تحيل الأجسام الأخرى إلى مشاكلة الجسم الذي هي فيه ، فيحل محل ما انتقص من هذا الجسم .
ب - القوة المنمية ، وهي التي تزيد الجسم في اقطاره طولاً وعرضاً وعمقاً ، لتبلغ به كماله في النشوء .

ج - وأخيراً القوة المولدة ، وهي التي تولد الشبيه ^(١) .

قوى النفس الحيوانية . وللنفس الحيوانية قوتان : قوة محركة ، وقوة مدركة ، ولكل منهما قوى فرعية تنفرع عنها .

أ - فالمحركة تكون اما باعثة واما فاعلة . فالباعثة قوة نزوعية وشوقية وظيفتها ان تحمل على التحريك بالطلب او بالهرب تبعاً للصورة التي ترسم في الخيلة ، كالحركة لطلب لذة او لدفع مضرة . واما القوة الناعلة فهي قوة تنبعث في الاعصاب والعضلات تجذب الاوتار والأربطة

١ - النجاة ، صفحة ٢٥٨ .

فتشجيعها أو ترخيها وتمكن من الحركة الجسدية (١).

ب - وأما القوة المدركة فهي تطلق بمعنىين أيضاً : قوة تدرك من خارج وقوة تدرك من باطن . فالمدركة من خارج هي الحواس الخمس . وهي البصر والسمع والشم والذوق واللمس . والمدركة من باطن بعضها يدرك صور المحسوسات وبعضها يدرك معاني المحسوسات . فأما صور المحسوسات فتدركها الحواس أولاً ثم تؤديها إلى النفس : مثل ادراك الشاة لصورة الذئب ، على ان الشاة تدرك من الذئب شيئاً آخر هو المعنى الموجب لخوفها إياه وهربها منه وهذا هو ادراك المعنى ، وهو لا يتأتى عن طريق الحواس الظاهرة بل بقوى النفس الباطنة ، وهي خمس :

أحداها الحس المشترك أو فنتاسيا ، ويقبل جميع الصور التي ترد إليه من الحواس الخمس ويحس بها ويجمع بينها ويميز بعضها من بعض ، وهو مركز الحواس ، وهو في التجويف المقدم من الدماغ .

والثانية المصورة ، وتحفظ ما قبله الحس المشترك من الحواس الخمس فيبقى فيها بعد غيبة المحسوسات ، اذ القوة التي بها القبول (أي الحس المشترك هنا) غير القوة التي بها الحفظ (أي المصورة) : فالما له قوة قبول النقش وليس له قوة قبول حفظه ، بخلاف الشمع فإنه يقبل النقش ويحفظه . ولهذا فالحس المشترك يقبل صور المحسوسات ، والمصورة تحفظها . فالمصورة هي خزانة الصور ، إنها قوة حفظ فقط ، لا تدرك ولا تحكم ولا تفصل ولا تتركب . فهذا من شأن المخيلة ، وهي (المصورة) في آخر التجويف المقدم من الدماغ .

والثالثة المخيلة ، ومن شأنها ان تفصل وتتركب وتؤلف اختيارياً بين ما هو مخزون في المصورة . انها تستعرض الصور والمعاني الجزئية المخزونة في المصورة والذاكرة وفقاً لقوانين معينة (قانون التضاد ، وقانون التشابه ،

وقانون التجاور) « مبتدئة في صور محسوسة او مذكورة ، منتقلة منها الى ضد أو ند أو شيء هو منها بسبب ، وهذه طبيعتها ، كما يقول ابن سينا في (الشفاء)^(١) وهذه القوة تسمى متخيلة بالاضافة الى الحيوان ، وتسمى مفكرة بالاضافة الى الانسان . ومركزها التجويف الأوسط من الدماغ .

والرابعة الوهمية ، وتدرک المعاني الجزئية غير المحسوسة . فالشاة مثلا لا تدرک بالحس من الذئب سوى الشكل واللون ، اما كونه ضاراً مهروباً منه فمعنى جزئي لا يدرکه الحس وانما يدرکه الوم . ويختلف ادراك الوم عن ادراك العقل ان ادراك العقل انما هو ادراك لمعنى كلي مجرد من لواحق المادة ، واما ادراك الوم فهو ادراك لمعنى جزئي متعلق بصورة محسوسة . ان العقل يدرک ضرر الذئب ، واما الوم فيدرک هذا الذئب الضار او ذاك . اما كيف يدرک الوم معنى غير محسوس فبالهام يفيض عليه من الرحمة الإلهية . فبه يرى ما ينفع وما يضر ، وهو الحاكم الاكبر في الحيوان وأرقى قوى الادراك فيه . وهو في نهاية التجويف الأوسط من الدماغ .

والخامسة الذاكرة (والمتذكرة) وتحفظ ما تدرکه الوهمية من المعاني الموجودة في الجزئيات ، كما تحفظ المصورة ما احس به الحس المشترك من الصور الجزئية المحسوسة . وهي ايضاً تستعيد هذه المعاني وتذكرها . ويرى ابن سينا ان الذكر غير التذكر . فالذكر عمل تلقائي مشترك بين الانسان والحيوان ، واما - التذكر - وهو الاحتيال لاستعادة ما اندرس في النفس واستحضاره - فأمر خاص بالانسان وحده^(٢) ومركز الذكرة التجويف المؤخر من الدماغ .

قوى النفس الانسانية . - واما النفس الناطقة الانسانية فتقسم ايضاً

١ - ج ١ صفحة ٢٣٦ .

٢ - النجاة ، صفحة ٢٦٤ - ٢٦٧ .

الى قوتين : قوة عاملة وقوة عالمة . وكل واحدة منها تسمى عقلاً
بإشتراك الاسم .

فالعامة (وتسمى ايضا العقل العملي) هي مبدأ محرك الى ما ينبغي
فعله او تركه من الأفاعيل الجزئية . وبها تتعلق سياسة البدن وحسن
توجيه القوة الحيوانية النزوعية والمتخيلة والمتوهجة ، على حسب ما توجهه
احكام القوة النظرية واستنباط التدابير في الأمور الجزئية ، وإليها
تنسب الاخلاق^(١) .

واما القوة العالمة (وتسمى ايضا القوة النظرية او العقل النظري)
فهي ذلك الوجه من النفس الملتفت الى المبادئ العالية ، وذلك في مقابلة
الوجه الآخر الملتفت الى مصالح البدن . وهذه القوة من شأنها ان تنطبع
بالصور الكلية المجردة عن المادة . فان كانت مجردة بذاتها فذاك ، وان
لم تكن مجردة فانها تُصيّرُها مجردة بتجريدِها ايها ، حتى لا يبقى فيها
من علائق المادة شيء .

وهذه القوة على درجات :

أ - فهي اولاً قوة للاستعداد المطلق الذي لا يكون خرج منه الى
الفعل شيء ، ولا ايضا حصل ما به يخرج ، وهذه كقوة الطفل على
الكتابة قبل ان يتعلمها ، وتسمى قوة مطلقة هيولانية او العقل الهيولاني
مطلقاً . وانما سميت هذه القوة هيولانية تشبيهاً بالهيولى الاولى التي ليست
هي بذاتها ذات صورة من الصور ، وهي موضوعة لكل صورة . وهذه
القوة موجودة لكل شخص من أبناء النوع .

ب - ثم تصبح هذه القوة ممكنة بعد ان كانت استعداداً ، من
حيث ان القوة الهيولانية تكون قد حصل فيها عدد من الكمالات

١ - النجاة ، صفحة ٢٦٧ - ٢٦٩ .

والمعقولات الأولى يمكنها بها ان تتوصل الى اكتساب المعقولات الثانية^(١)
بلا واسطة ، كقوة الصبي - الذي ترعرع وعرف القلم والدواة وبسائط
الحروف - على الكتابة . وتسمى حينئذ قوة ممكنة وربما سميت ملكة
(أو عقلاً بالملكة)

ج - فإذا حصلت في العقل المعقولات الثانية ، الا انه ليس يطالها ويرجع
إليها بالفعل ، بل كأنها عنده مخزونة ، فمتى شاء طالعها فعقلها وعقل
انه يعقلها ، سمي كمال قوة (أو عقلاً بالفعل) لانه عقل ويعقل متى
شاء بلا تكلف واكتساب ، وذلك كقوة الكاتب المستكمل للصناعة إذا
كان لا يكتب .

د - فإذا كانت الصور المعقولة المجردة حاضرة في العقل بالفعل ، وهو
يطالها ويعقلها بالفعل ، ويعقل انه يعقلها بالفعل ، سمي حينئذ عقلاً
مستفاداً ، لانه باتصاله بالعقل الفعّال نوعاً من الاتصال ينطبع منه فيه بالفعل
نوع من الصور تكون مستفادة من خارج ، لا منبثقة من العقل الانساني^(٢).

وهذا التقسم للوظائف النفسية ولقوى العقل يعتمد عن ارسطو بمقدار
اقترابه من الفارابي ، ولعلنا نلاحظ فيه كيف يتدرج التجريد من الحيوان
الى الانسان . فالتجريد يبدأ بالمصورة التي تحفظ الصور فيرتقي الى الخيلة
التي تتصرف في الصور اختيارياً ، ثم يرتفع الى الوهمية التي تفصل بين
الصور ومعانيها ، فالحافظة الذاكرة التي تحزن المعاني غير المحسوسة ،
فالعقل العملي الذي يدفع الى الافاعيل الجزئية الخاصة بالروية ، وينتهي
التدرج أخيراً الى العقل النظري الذي ينطبع بالصور الكلية ويدرك

١ - المعقولات الاولى التي يتحدث عنها ابن سينا هنا هي المقدمات التي يقع بها التصديق
لكل واحد من غير اكتساب ، مثل اعتقادنا ان الكل اعظم من الجزء ، وان الاشياء المساوية
لشيء واحد متساوية ، واما المعقولات الثانية فهي المعقولات التي يكتسبها الانسان بالاستدلال
والقياس كقضايا هندسة اقليدس مثلاً .

١ - النجاة صفحة ٢٦٩ - ٢٧١ والاشارات ، القسم الثاني ٣٦٣ - ٣٦٧ .

ماهيات الأشياء . فمن الحواس الظاهرة التي لا تدرك المحسوس الا اذا كان حاضراً ، الى العقل الذي يدرك الصورة الكلية مجردة عن لواحقها المحسوسة ، مرحلة طويلة ذات معالم واتصيب تحدد قيم الرجال واقدارهم ومقاماتهم . فكلما قطع الانسان شوطاً فيها علا قدره وسما مقامه ، ولا يصمد للنهاية إلا قلة مختارة يستصفهم العقل الفعال لنفسه ويعهد اليهم برسالته ، رسالة العلم والنور والحكمة والسعادة . فطوبى لأصفياء العقل الفعال .

وجود النفس . - لم يتم الأوائيل باثبات وجود النفس وان اهتموا بالبحث عن حقيقتها . وكذلك الفارابي . إلا ان هذا الاخير فانه وان لم يثبت وجودها تصريحاً فقد أثبتته تلميحاً عندما ميز بين الاجسام الحية وما يصدر عنها من افعال وبين سائر الاجسام ، ثم لما أتى بالبراهين على اثبات مفارقة (النفس الناطقة) ، فقال انها تدرك المعقولات والأضداد وانها تدرك ذاتها بدون آلة ، وأن العقل الذي هو أعلاها قد يقوى بعد الشيخوخة . ولما جاء ابن سينا ، فقد أحال التلميح الى التصريح وانتقل من الإشارة الى العبارة . فهو يأخذ على الفلاسفة السابقين تقصيرهم في اثبات النفس ويؤكد في احدي رسائله ^(١) أن واجب الفيلسوف الذي يتصدى للكلام على النفس ان يعتمد أولاً الى اثباتها واثبات قواها لأن « من رام وصف شيء من الأشياء قبل ان يتقدم فيثبت أولاً إنبيته فهو معدود عند الحكماء بمن زاغ عن محجة الايضاح . فواجب علينا ان نتجرد أولاً لاثبات وجود القوى النفسانية قبل الشروع في تحديد كل واحدة منها وايضاح القول فيه » .

واذا كنا نحن هنا قد سلطنا العكس فلأسباب منهجية بحجة لا دخل لها بفلسفة ابن سينا بل قد لا يقرنا هذا الاخير عليها .
وهناك خمسة أدلة يثبت بها الشيخ الرئيس وجود القوى النفسانية ،

١ - مبحث عن القوى النفسانية صفحة ٢٠ - ٢١ .

وبالتالي وجود النفس الانسانية نجملها فيما يلي :

أ - دليل الحركة : من الاجسام المتولدة عن العناصر الاربعة ما يتحرك ضربين من الحركة بينها خلاف .

احدهما يتحرك بمقتضى عنصره لاستيلاء قوة احد الاركان (أي العناصر) عليه واقتضائها تحريكه الى حيزه المجهول له بالطبع ، كحركة الانسان بطبع العنصر الراجح الثقيل الى أسفل ، وهذا الضرب من الحركات لا يوجد الا الى جهة واحدة وسيافة واحدة (النار الى أعلا ، والتراب الى أسفل الخ) .

وثانيها يتحرك بخلاف مقتضى عنصره ، وذلك مثل حركة الحيوان الطائر يحسمه الثقيل الى العلو في الجو .

فبيّن ان للحركتين علمتين وانها مختلفتان إحداها تسمى طبيعية ، وثانيها تسمى نفساً أو قوة نفسانية .

ب - دليل الادراك . والادراك ظاهرة تبدو على بعض الاجسام دون البعض الآخر بينما صفة الجسمية مشتركة بينها جميعاً . فلا بد للأجسام الدراكة ان يكون ادراكها بقوى محمولة فيها زائدة على جسميتها صفتها الادراك . وهذه القوى بالضرورة قوى نفسانية .

ج - دليل الإنية ووحدة الذات . ان النفس رغم تعدد قواها وتنوع افعالها تظل واحدة . فإذا قبلت على العلوم سمي فعلها علماً وسميت بحسبه عقلاً نظرياً ، واذا قبلت على قهر القوى الذميمة سمي فعلها سياسة وسميت بحسبه عقلاً عملياً . وقد تستعد القوة النطقية في بعض الناس للالهام والوحي فتسمى بحسبه روحاً مقدساً . وفي هذا دلالة صريحة على وحدة النفس والترابط الكامل بين قواها المتعددة حتى لكأنها تسمى الى غرض واحد وتسير نحو غاية واحدة . فهذا النظام هو خير معبر عن طبيعة النفس . والنفس هي ما يشير إليه الانسان حيث يقول انا . وهذه الأنية لا ترجع الى الجسم وظواهره وانما ترجع الى النفس وقواها . فعندما يقول

الانسان أنا مشيت وانا أكلت فانه لا يقصد حركة رجله او فيه ، بل يقصد ذاته كلها ، فمهما تنوعت أحوالنا النفسية واختلفت فانها تصدر جميعاً عن شخصية واحدة وقوة عظيمة توفق بين المختلف وتوحد المؤتلف . ولولا هذه القوة لتضاربت الاحوال النفسية واختلف نظامها ولطغى بعضها على بعض ، وما للنفس من آثارها الا بمثابة الحس المشترك من المحسوسات المختلفة ، كلاهما يلم الشعث ويجمع الشمل ويبعث على النظام . وهذا الذي يلم الشعث ويجمع الشمل ويشير إليه الانسان بقوله (أنا) مبدأ مغاير لطبيعة البدن . فهو شيء وراء البدن وغير البدن ولا يتصف بصفة من صفات البدن .^(١)

وهذا الدليل يشير الى فكرة الشخصية او الأنا أو وحدة الظواهر النفسية بلغة علم النفس الحديث ، فالأنا (أو النفس) هي التي تعمل على تكامل الوظائف النفسانية وهي التي توحيها وتربط بينها . وهذه الفكرة هي من الجدة ... والثبوت والديوع والانتشار بحيث لا تحتاج الى فضل بيان .

د - دلائل الديمومة واتصال الحياة الوجدانية . يقارن ابن سينا في هذا الدليل بين البدن الذي يظل عرضة للتغير والتبدل والتحلل والانتقاص ، وبين النفس الثابتة المستمرة في ديمومتها واتصال نبض الشعور فيها . فالانسان يشعر بذاته شعوراً واضحاً يقينياً لا يعرف التوقف او الانقطاع ، بحيث يعي ذاته هو هو في الزمان الماضي والحاضر بينما لم يبق جزء من بدنه دون تبدل او تحلل ، والا لما اضطر الى الاغتذاء لتعويض ما فقد منه . يقول ابن سينا

« تأمل أيها العاقل في انك اليوم في نفسك هو الذي كان موجوداً جميع عمرك ، حتى اذك تتذكر كثيراً مما جرى من احوالك . فأنت اذن ثابت مستمر لا شك في ذلك وبدنك واجزاؤه ليس ثابتاً مستمراً

١ - انظر الشفاء ج ١ صفحة ٣٦٢ - ٣٦٣ ورسالة في احوال النفس الفصل الثاني .

بل هو ابدأ في التحلل والانتقاص . ولهذا لو حُبس عن الانسان الغذاء مدة قليلة نزل وانتقص قريب من ربع وزنه . وأنت تعلم بقاء ذاتك في هذه المدة بل جميع عمرك . فذاذك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة ، ^(١) .

ففي الانسان اذن مبدآن اثنان :

مبدأ مادي هو دائماً في تحلل وانتقاص بحيث لا يبقى منه شيء بعد مضي مدة معينة لولا ما يعوضه من غذاء فيجعل محله ؛
مبدأ غير مادي لا يتحلل ولا ينتقص بل يبقى من اول عمر الانسان حتى آخره مناسباً هو هو طوال حياته على سطح الارض ، فاذا مات توقف .
هذا المبدأ هو النفس .

ومعنى ذلك ان الشعور أشبه بمجرى الماء في الوادي او بالتيار يهدر دون انقطاع . انه ديمومة متصلة لا تبدأ ، او زمان حي لا تقف نبضاته إلا بالموت . نعم ان ابن سينا لم يستعمل كلمة (تيار) او (ديمومة) ، ولكن هذا مؤدئ كلامه . فليست العبارة بالألفاظ وانما العبارة بمعاني الألفاظ وما تؤدي اليه . وفكرة (الديمومة) او (التيار) عند استعمالها في وصف الشعور هي ايضاً من الأفكار الحديثة في علم النفس وأول من نادى بها في الوقت الحاضر هنري يرغسون في فرنسا ووليم جيمس في امريكا .

هـ - دليل الهوي في الهواء او الخلاء . واخيراً يستدل ابن سينا على وجود النفس ببرهان ظريف مستحيل تجريبياً ، ولكنه يدل على سعة خياله وقوة ابتكاره ، ليثبت ان الانسان لا يغفل عن وجود ذاته ولو غفل عن كل شيء . فحق النائم في نومه والسكران في سكره لا تغرب ذاته عن ذاته وان لم يثبت تمثله لذاته في ذكره .

فهو يفترض شخصاً كأنه 'خلق دفعة' وخلق كاملاً ، ولكنه حجب

١ - رسالة في معرفة النفس الناطقة ، صفحة ٩ .

بصره عن مشاهدة الخارجات ، وخلق يهوي في هواء او خلاء هويًا لا يصدمه فيه قوام الهواء صدمًا يحوج الى ان يُحس ، وفُترَّق بين اعضائه فلم تتلاق ولم تتماس . فهل ينتبه هذا الشخص الى ذاته وهل يثبت وجود ذاته ؟ بلى . فهو لا يشك في اثباته لذاته موجوداً دون ان يثبت مع ذلك طرفاً من اعضائه ولا باطناً من احشائه ولا قلباً ولا دماغاً ولا شيئاً من الاشياء من خارج . فكل ما يفعل انما هو ان يثبت ذاته من غير ان يثبت لها طولاً ولا عرضاً ولا عمقاً ، بل ولو أمكنه في تلك الحال ان يتخيل بدأ او عضواً آخر لم يتخيله جزءاً من ذاته ولا شرطاً في ذاته . ولما كان ما يَثْبُت^(١) غير الذي لم يَثْبُت^(٢) ، وما أُقِرَّ به^(٣) غير الذي لم يُقِرَّ به^(٢) ، كان للذات الذي اثبت وجودها خاصية لها ، هي هو بعينه ، وهي غير جسمه وغير اعضائه التي لم يثبت وجودها بل لم تخطر له على بال^(٣) .

فلانسان اذن مبدأ آخر غير بدنه لم ينتج القول به عن الحواس ولا عن طريق الجسم ، بل عن اصل آخر مغاير للجسم كل المغايرة ، هو مصدر حركته وحسه وتفكيره ، الا وهو النفس . فالانسان يستطيع ان يتجرد من كل شيء إلا من شعوره بذاته ، وبالتالي الا من نفسه التي بين جنبيه والتي يدركها ادراكاً حدسياً مباشراً لا يشك فيه لحظة ، على عكس الحقائق الاخرى التي لا تصل اليه الا بالواسطة ومن طريق معقد طويل غير حدسي وغير مباشر .

ان هذا البرهان مع طرافته واستحالته تجريبياً ، ورغم انه مناقض لمعطيات التجربة على الحيوان ، لأننا إذا عطلنا الحس وعزلنا الكائن الحي عن جميع المنبهات والمثيرات تعطلت ايضاً العمليات النفسية جميعاً - اقول

١ - اي وجود الذات .

٢ - اي وجود الاعضاء .

٣ - انظر الشفاء ج ١ صفحة ٢٨١ والاشارات القسم الثاني صفحة ٣٢٠ .

ان هذا البرهان رغم كل ما يقال فيه هو الذي استخدمه ديكارت لإثبات وجوده وهو الذي أوحى إليه بدون شك تفرقة المشهورة بين الفكر والامتداد . ففي رأي ابن سينا كما في رأي ديكارت ان الكون مؤلف من نفس وجرم از من فكر وامتداد ؛ وفي نظر ابن سينا كما في نظر ديكارت يمكن للانسان ان يتجرد من كل شيء الا من شعوره بذاته . فهذا الشعور هو الحقيقة الوحيدة التي يدركها ادراكاً حسيماً مباشراً لا يشك فيه لحظة ، لان عملها هو من الوضوح والبروز والدأب بحيث يصادفه الانسان انى اتجه وكيفما التفت ، حتى لقد غدا كل شيء يشهد بوجودها وينطق بحقيقتها . فالتأمل والتفكير والإنية وإعمال العقل كل أولئك يدل على وجود النفس دلالة قاطعة . وعندما أعلن ديكارت مقالته المشهورة « انا أفكر ، اذن فانا موجود » ، إنما كان ينطق بلسان ابن سينا ويورد آراءه ، بعد ان سبر غورها واستخلص زبدها وأعاد صياغتها في قالب جديد وحلة قشبية تبدو منقطعة الصلة بما تقدمها ، ولا حرج عليه في ذلك ، بل هنا تكمن عبقريته . فالقارئ كثيرة على تأثر ديكارت بابن سينا^(١) . وليس لهذا كبر أهمية في نظرنا . فليست العبرة بالاعتباس والنقل وإنما العبرة كل العبرة بما يصيب الاقتباس والنقل من تصاريف الاحوال وما يجري عليها من تغيير وتبديل . والحق نقول ان ما أخذه ديكارت عن ابن سينا قد تصرف فيه الاحوال تصرفاً ضاعت فيه المعالم وانطمست الملامح . وهنا موطن القرائح وسر العبقریات .

ماهية النفس . - والآن ما طبيعة النفس وماذا عساه ان تكون ؟ أجوهر هي أم عرض ؟ يجيب ابن سينا بانها جوهر قائم بذاته مستقل عن البدن مغاير له . فلو كانت عرضاً للجسم لقام الجسم بدونها ولوجد قبلها ولظل موجوداً بعدها . والحال ليس كذلك . لانها يمكنها هي ان

١ - انظر مثلاً مقالة عن ابن سينا وديكارت للعلامة فورلاني في مجلة *Islamica* المجلد الثالث صفحة ٥٣ - ٧٢ ، ليبسك ١٩٢٧ .

تقوم بذاتها بدون الجسم ، واما الجسم فلا يقوم إلا بها لأنها كمال له . فالجسم محتاج الى النفس كل الاحتياج ، على حين انها هي لا تحتاج إليه . فلا يتعين جسم ولا يتحدد الا اذا اتصلت به نفس خاصة ، بينما النفس تظل هي هي ، سواء اتصلت بالجسم او لم تتصل . فلا يمكن ان يوجد جسم بدون النفس لأنها مصدر حياته وحركته . واما النفس فيمكنها ان تعيش بمعزل عنه . ولا ادل على هذا من انها متى انفصلت عنه تغير وأصبح جثة هامدة ، بينما هي بالانفصال والصعود الى العالم العلوي تحيا حياة كلها بهجة وسعادة . فالنفس إذن جوهر قائم بذاته - لا عرض من اعراض الجسم - هو الذي يتصرف في اجزاء البدن ثم في البدن^(١) .

هذا ما استقر عليه رأي ابن سينا اخيراً . ولكننا نجد له رأياً آخر مؤداه ان النفس جوهر وصورة في آن واحد : جوهر في حد ذاته وصورة من حيث صلتها بالبدن . لكن هذا القول الذي جمع فيه ابن سينا بين رأيي الحكيمين عندما كان خاضعاً لتأثير الفارابي ، لا يعبر عن رأيه النهائي ، بل انه كان كلما ازداد استقلالاً ونضوجاً مال الى الرأي الأول وتقرير جوهرية النفس .

واذا كانت النفس جوهرراً فأبي جوهر هي ؟ ان النفس ليست اي جوهر اتفق ، فهي ليست مثلاً جوهرراً مادياً خسيماً وانما هي جوهر روحاني شريف . والدليل على انها من الجواهر الروحانية ادراكها المعقولات والمعاني الكلية واشتمالها عليها ، وليس هذا من شأن الاجسام .

ان الحس لا يدرك صرف المعنى ولا يدرك الصورة الا في المادة والا مع علائق المادة وعوارضها المحسوسة من كم وكيف وأين ووضع . اما النفس فهي التي تتمكن من تصور المعنى بجده وحقيقته منفوضاً عنه اللواحق الغريبة . فليس من شأن المحسوس - بما هو محسوس - ان يعقل ، ولا من

١ - انظر الشفاء ج ١ صفحة ٢٨٥ والاشارات ٣٢٥ - ٣٣١ .

شأن المعقول - بما هو معقول - أن يحس . ان الصور المعقولة إذا وجدت في العقل لم تكن ذات وضع بحيث تقع إليها اشارة تجزؤ او انقسام او شيء مما أشبه هذا المعنى ، فلا يمكن ان تكون في جسم . فلا يجوز اذن ان تكون الذات القابلة للمعقولات قائمة في جسم البتة ولا عقلها بكائن في جسم .

فالنفس هي التي تجرد الكليات عن الكم والأين والوضع وتستخلصها من الجزئيات ، فلا يمكن ان تنقلها من حيز لتضعها في حيز آخر ، اذ لن يصير الكلّي كلياً ولا المعقول معقولاً بالفعل إلا اذا انتزع من المكان وفهم في ذاته بعيداً عن عوارض المادة . وعلى كل حال ان المعقولات بسيطة لا تقبل القسمة بحال ، فكيف تُتصوّر شاغلة لحيز منقسم ؟ واذا بطل هذا فالجوهر الذي تحمل فيه المعقولات روحاني غير موصوف بصفات الاجسام وهو ما نسميه النفس الناطقة .

ومن البراهين التي تدل على هذا المطلوب ايضاً ان النفس انما تتصور المعقولات بذاتها لا بمشاركة الجسم . ان كل ما ادرك شيئاً بمشاركة الجسم فلا بد ان يرد عليه الكلال والضعف كلما تكررت عليه مدركات شاقة ، لِيَوْهِنِي الآلة (العضو) وتغيرها عن قوتها لما اعترأها من المشقة في استعمال القوى اياها . ولذلك تضعف القوة الباصرة مهما (كلما) ادمنت النظر الى صورة الشمس ، والقوة السامعة اذا تكررت وصول الاصوات القوية اليها ، بينما القوة المتصورة للمعقولات (او النفس) على عكس ذلك ، اذ انها بدلاً من ان تضعف بالمعقولات الشاقة كما يضعف الجسم بالمحسوسات الشاقة اذا بها تصير على فعلها أقوى وأشدّ مراساً كلما أمعنت في ممارسة المعقولات الشاقة . فان ادامتها للتعقل وتصورها للأمور الأقوى يكسبها قوة وسهولة قبول لما بعدها مما هو أضعف منها . فان عرض لها في بعض الاوقات ملال او كلال فذلك لاستعانة العقل بالخيال المستعمل للآلة التي تكلّ هي فلا تخدم العقل ، ولو كان لغير هذا لكان يقع

دائماً - وفي أكثر الاحوال - الامر بالضد . فاذن النفس مدركة بذاتها وليس لها الى الآلة حاجة .

ويمكن ان يقال في هذا المعنى ايضاً ان الجسم اذا استوفى سن النمو وسن الوقوف اخذ في الذبول والتنقص وضعف القوة وكلال المنّة ، وذلك عند الاثافة على الاربعين سنة . ولو كانت القوة الناطقة العاملة قوة جسمانية آلية لكان لا يوجد احد من الناس في هذه السن إلا وقد أخذت قوته تنتقص . ولكن الأمر في أكثر الناس على خلاف هذا . بل العادة جرت في الأكثر انهم يستفيدون ذكاء في القوة العاقلة وزيادة بصيرة . وهكذا فإذا كانت جميع الأجسام مشتركة في الجسمية مفترقة في التمكن من تصور المعقولات ، وإذا كان الجسم لا يقوم على تصور المعقولات وإذا لم يكن قوام القوة النطقية بالجسم والآلة ، فإذاً إنما توصف الأجسام بأنها تتصور المعقولات بقوى موضوعة فيها ، وهذه القوى إنما تتصور بذاتها بلا مشاركة الجسم . فإذاً هي بذاتها صالحة لأن تكون محلاً للصورة العقلية . وما هذا وصفه فهو جوهر روحاني معقول .^(١)

حلول النفس . - أما عن حال النفس قبل حلولها في البدن فالتحار فيها عند ابن سينا انها تحدث عند حدوث بدن يصلح أن يكون آلة النفس ومملكة لها ، هنالك تحدث العقول المفارقة النفس الجزئية وتلحقها بالبدن المقرر لها . فهي إذن مخلوقة حادثة توجد بوجود البدن وليست قديمة سابقة عليه . وآية حدوثها انها لا تخصص ولا تتعين الا بواسطة البدن فلا يمكن تصور وجودها قبله ؛ إذ لو وجدت النفس قبل البدن فأما ان تكون متكررة الذوات بتكرر الأبدان او أن تكون ذاتاً واحدة لجميع الأبدان ، وكلاهما باطل !

فأولاً لا معنى لتكررها لأن النفوس ذات ماهية واحدة ولا تختلف احداها عن الاخرى الا بالحلل الذي يقبل الماهية ويخصصها ويميزها بعضها

١ - انظر النجاة صفحة ٢٨٠ - ٣٠٠ ؛ مبحث عن القوى النفسانية صفحة ٧٠ - ٧١ .

عن بعض وهو البدن . فالتكثر انما يكون عند الاختلاف في الماهية ، فلو كانت هناك ماهيات متعددة للنفس لكان هناك نفوس كثيرة . اما وإن الانفس ليس لها الاماهية واحدة فعلام تتكثر؟ فالنفوس انما تتغير لان جهة الماهية التي لا تقبل اختلافاً ذاتياً وانما من جهة قابل الماهية أو المنسوب إليه الماهية بالاختصاص وهذا هو البدن . فالبدن انما تتغير النفوس وتتكثر وبه انما تتخص وتتمايز . فما دامت مجرد ماهية لم تتخصص بمخصص فكيف تعدد؟ فلو كان يجوز ان تكون النفوس الانسانية موجودة قبل وجود آلة تستكمل وتفعل لكانت معطلة الوجود ، ولا شيء معطل في الطبيعة . ولكن اذا حصل التهيؤ للنسبة والإستعداد للآلة حدث من العلل المفارقة شيء هو النفس . فلو لا البدن ما كان من الممكن لنفس أن تختلف عن نفس اخرى .

وكما أنه لا معنى لتكثرها كذلك لا معنى لوحدها ، اي لاشتراك الناس جميعاً في نفس واحدة تنبث في أجسام كثيرة ، لانه اذا حصل بدنان حصل في البدنين نفسان ، فأما ان يكونا قسمي تلك النفس الواحدة فيكون الشيء الواحد الذي ليس له عظم وحجم منقسماً بالقوة ، وهذا ظاهر البطلان ، واما أن تكون النفس الواحدة بالعدد في بدنين وهذا لا يحتاج أيضاً الى كثير تكلف في إبطاله . فضلاً عن ان النفس ماهية بسيطة ، والبسيط لا يتجزأ ؛ وهي صورة جسد بعينه فلا يمكنها ان تكون في الوقت نفسه صورة جسد آخر .

فقد صحّ اذن ان النفس تحدث كلما حدث البدن الصالح لاستعمالها إياه ، ويكون البدن الحادث مملكتها وآلتها التي تتجلى فيها قواها المختلفة .^(١) وهكذا فالنفس واحدة بالنوع كثيرة بالعدد . فهي ذات طبيعة واحدة متجانسة ، الا انها عندما تحل في البدن تتأثر بخصائصه وتكتسب هوية شخصية . وبذلك فهي تنفرد - الى جانب ماهيتها العامة - بخصائص

١ - انظر النجاة ، صفحة ٣٠٠ - ٣٠١ .

ذاتية تميزها من غيرها بحكم اتصالها بالبدن وتفاعلها معه وتأثيرها به تأثراً
يطبعها بطابع فردي لا يزول مع الأيام ، بل من شأنه ان يؤدي الى بقائها
— بعد مفارقة البدن — بكامل شخصيتها وإنيتها الفردية .

ورأي ابن سينا في هذه المسألة لم يتغير ، لأننا كما نجد في (النجاة)
وهو تلخيص (الشفاء) نجده في (الاشارات) وهو آخر كتبه . لكن
هناك قصيدة لابن سينا تعد من عيون الشعر العربي بديباجتها ونفَسها ،
توم ابياتها وجود النفس قبل البدن . فهو في قصيدته (العينية) يحكي
قصة النفس ويصف هبوطها وحلولها في البدن بعد ان كانت في عالم
المثل . فيرمز لها بورقاء (حمامة) تهبط بغنج ودلال من المحل الارفع في
نقاب شفاف وغلالة لطيفة ، تخفى على البصر دون البصيرة . لقد انفت
النفس باديء ذي بدء ان تتصل بأجسامنا الثقيلة المظلمة ووصلت اليها
على مضض . فاذا دخلت هذا السجن المظلم والاطلل البالي دخلته غاضبة
مكرهة ، ثم لم تلبث بعد اتصالها به ان تنسى عهداً قطعتها على نفسها في
العالم الأعلى ، فتألف الحياة في العالم الأسفل ويغلبها البكاء على ذكرياتها
الاولى ، اذ تقع في الشرك الكثيف كما يقع الطير فيموقها ذلك عن الصعود
الى العالم الروحاني ، وبهذا تبتعد عن تحصيل الكمالات وتقبل على مبادئ
الحياة . حتى اذا قرب مسيرها الى عالمها وخلصها من البدن سجدت وقد
كُشف الغطاء عنها فرأت ما ليس يُدرَك بالعيون الهاجمة الناعسة .

هبطت اليك من المحل الأرفع	ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة ناظر	وهي التي سمرت ولم تتبرقع
وصلت على كره اليك وربما	كرهت فراقك وهي ذات تفجع
انفت وما انست فلما واصلت	ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهداً بالحمى	ومنزلاً بفراقها لم تقنع
حتى اذا اتصلت بهاء هبوطها	عن ميم مركزها بذات الأجرع ^(١)

١ - الاجرع دمة لا تنبت شيئاً ، كناية عن عالم الاجسام .

علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت
تبكي اذا ذكرت عهداً بالحمى
وتظل ساجدة على الدّم^(١) التي
اذ عاقها الشراك الكثيف وصدها
حتى اذا قرب المسير الى الحمى
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت
وغدت مفارقة لكل مخلف
وبدت تغرد فوق ذروة شاهق

وهنا يتساءل ابن سينا عن الحكمة من هبوط النفس من مركزها
الشريف الشامخ الى هذا الحضيض الوضيع . عجيب أمر هذه النفس حقاً :
فلأي شيء أهبطت من شامخ
ان كان اهبطها الإله لحكمة
فهبوطها - ان كان ضربة لازب
وتعود عالمة بكل خفية
والمناقشة هنا لا تجدي ، فليعمد ابن سينا الى خياله عساه يسعفها
بصورة جميلة من صور الطبيعة الساحرة يصور بها النفس . وسرعان ما يجد
هذه الصورة في البرق الخاطف بين السحب يلعب ويختفي ولا تلبث العين
ان تنساه ، وهكذا النفس :

فكانها برق تألق بالحمى ثم انطوى فكانه لم يلعب !
هل معنى هذا ان النفس قديمة وانها كانت موجودة قبل حلولها في
البدن كما يقول افلاطون ؟ كلا . فإن ابن سينا لم يخالف افلاطون في شيء
كمخالفته له في هذه المسألة . فالنفس مخلوقة حادثة ولا توجد الا عند
وجود البدن . فكيف نوفق اذن بين الفلسفة الرسمية لابن سينا وبين

١ - الدّم هي آثار الدار ، كناية عن البدن .

٢ - الرياح الاربع هي العناصر الاربعة .

قصيدته (العينية) ؟

لقد حار المفكرون امام هذه الظاهرة واتخذوا منها اراء عدة :

فمنهم من حاول ان ينكر صحة نسبة القصيد الى ابن سينا ، ومنهم من فسر هبوط النفس تفسيراً مجازياً لا حقيقياً ، فذكر ان العبارة « المحل الأرفع » انما تدل على رفعة النفس ورغبتها في السمو بالبدن . هل يمكن ان تكون اراء ابن سينا في هذه المسألة قد تطورت ، كأن يكون عندما نظم القصيدة خاضعاً لتأثير أفلاطون خضوعاً كلياً ، فكان يقول بوجود النفس قبل البدن ثم تطور رأيه بعد ذلك ؟ لكن تقدم معنا ان رأي ابن سينا في هذه المسألة لم يتغير اذ اثبتته في (الشفاء) و (النجاة) و (الاشارات) ، اللهم إلا أن يكون قد نظمها قبل تأليف هذه الكتب بكثير . وقد تكون القصيدة تعريضاً لبقاً بأفلاطون تم عنه الابيات الخمسة الأخيرة ، ونقداً له من طرف خفي دون أن يجرؤ على ذكر اسمه لما له من المنزلة الكبيرة في نفسه وفي نفس كل من يعترف بفضله . وبذلك يكون القسم الاول من القصيدة استعراضاً لنظرية افلاطون ، والابيات الخمسة الأخيرة تعريضاً به . وكان لسان حاله يقول ان القصيدة لا تحتاج الى معالجة جدية فليعالجها بشيء من اليسر المضاف الى تهكم لبق . بل ربما سقط من القصيدة أبيات تشير إلى افلاطون صراحة فاستعوض عنها بأبيات منحولة . والذي يضيف على هذا الاحتمال بعض القيمة عدم وجود نص واحد للقصيدة انعقد الاجماع عليه . فقد اختلفت المصادر في ترتيب معانيها ورواية ألفاظها ، كما ان هناك نقصاً في ابياتها في مصدر وزيادة في مصدر آخر . وهناك احتمال آخر يمكن قبوله ايضاً وهو انه يجب النظر الى هذه القصيدة على انها قطعة ادبية رمزية تتمشى مع المنحى الرمزي لابن سينا قبل أن تمثل وجهة نظر فلسفية توزن فيها الاقوال بما توزن به نصوص الفلاسفة ويجري عليها احكامها . فالشاعر قد يبالغ في بعض الأمور ويتجاوز في بعض اخر ، وقد يتخيل غير الواقع واقماً ويقول ما لا يعتقد ، حرصاً على نكتة او نادرة ،

وينظم المعنى ولا يخطر في باله ما يترتب عليه ، ويقول ما لا يفعل ،
ويجزم في كل واحد ، وقد يُعرض نفسه للمؤاخذه في كلامه ليعرب عن معنى
استجاده أو غرض يريده ، بل قد يجوز ألا ينتبه إلى ما في أقاويله من
من تعارض . وهذا يقع دائماً لجميع المفكرين والفلاسفة في منشور كلامهم
فضلاً عن أن يقع في منظومه .

العلاقة بين النفس والبدن . - كانت هذه العلاقة ولا تزال عقدة العقدة
في تاريخ الفلسفة كلها . ولقد اختلف الفلاسفة والعلماء في شأنها اختلافاً
كبيراً . وأكثر المذاهب انسجاماً وأبعدها عن التناقض هو المذهب الذي
يقوم على افتراض مبدأ واحد :

فإما إقرار تام بالمادية الشاملة التي تنكر وجود النفس وترجع الظواهر
العقلية إلى أصل واحد هو الجسم بصورة عامة والمخ والأعصاب بصورة
خاصة ، وبذلك يكون العقل والنفس مظهرين من مظاهر النشاط الجسمي ،
وبتعبير أدق من مظاهر النشاط العصبي في الجسم ؛

وإما اعتراف جازم بالمثالية العتيدة التي تنكر ظواهر الأجسام أو على
الأقل تحقيرها وتزري بها ، تؤكد للعقل وفعله الشامل في كل شيء . فلا
موجود إلا هو ولا حقيقة إلا إياه ، وكل ما عداه أخيلة وأوهام أو على
الأقل ظواهر وتحليلات للعقل الإنساني أو العقل الكلي .

لكن المذاهب المعتدلة في النفس تتوسط بين الطرفين وتقول بالثنائية .
فالثنائيون يقولون بالجسم والنفس معاً ويؤكدون وجود كليهما . ولذلك
فلا بد أن يربطوا أحد الطرفين بالآخر ويفسروا الصلة القائمة بينهما .

وإن سينا من أنصار هذه الثنائية كما بينا : فالجسم والنفس عنده
متصلان اتصالاً وثيقاً يتبادلان العون والمساعدة دون انقطاع . فلو لا النفس
ما كان الجسم ، فإنها مصدر حياته والمديرة لأموره . ولو لا الجسم ما
كانت النفس ، فإن استعداده لقبولها شرط لوجوده وهي تستخدمه وتعول
عليه في أداء مهامها . وحسبنا دليلاً على ذلك ظاهرة التفكير التي هي

كأل النفس ، فالتفكير لا يتم إلا ان ارفدته الحواس . وللتفكير أثر بالغ في البدن فالهيات (الآثار) التي تسبق الى النفس قد تهبط منها الى البدن فتحدث تغييراً فيه ، كما ان الهيات والكيفيات التي تسبق الى البدن قد تصعد الى النفس فتؤثر فيها . كيف لا وأنت تعلم ما يعترى مستشعر الخوف من سقوط الشهوة وفساد الهضم والعجز عن افعال طبيعية كانت مؤاتية . وكذلك وهم الماشي على جذع معروض فوق فضاء فانه يفعل في ازلاقه ما لا يفعل وهم مثله والجذع على قرار . وكثيراً ما يتبع اوهام الناس تغيير المزاج مدرجاً او دفعة ^(١) .

فاذا ثبت ان هناك اتصالاً بين الجسم والنفس وتأثيراً متبادلاً فكيف يتم هذا التأثير وكيف يلتقي الجسمي بالنفسي ؟

المعلوم ان ابن سينا كان طبيبياً وكانت له تجارب غزيرة في هذا الباب ، فمن الطبيعي ان تكون تجاربه معوّلة في الاجابة عن هذا السؤال . فالدماغ عنده مركز لكثير من قوى النفس : فالحس المشترك مركزه اول التجويف المقدم من الدماغ ، والمصورة في آخره ، والخيلة في اول التجويف الاوسط ، والوهم في نهايته ، والحافظة في التجويف الاخير .

ولقد تأثر ابن سينا في هذه النظرية بدون شك بالفارابي الذي يرجح أنه أخذها عن بوزيدونيوس (Posidonius) وثامسطيوس (Themistius) من رجال القرن الرابع للميلاد . فيها اول من قال بتركيز قوى النفس في مناطق خاصة من الدماغ . ثم اخذ العرب بهذه النظرية . فقد رأينا نواتها عند الفارابي ثم توسع فيها ابن سينا ومنه انتقلت الى اغلب الاطباء والفلاسفة المسلمين والمسيحيين في القرون الوسطى .

ويؤخذ على ابن سينا في هذه النظرية انه لم يبين لنا كيف يتصل الجسم بالنفس وكيف يتم التفاعل بينهما عن طريق تجاويف المخ المذكورة . وفضلاً عن ذلك ، اذا كانت النفس ليست يحس ولا تنطبع في جسم

١ - انظر الاشارات ، النمط العاشر خصوصاً ، صفحة ٨٥٥ - ٨٦٠ .

ولا تقبل الخير فأين هي من هذه التجاوبف وكيف يتأتى لها ان تشغل حيزاً فيها ؟

ولابن سينا نظرية اخرى في تفسير الصلة بين النفس والبدن وهي نظرية الروح الحيواني . والروح الحيواني جسم بخاري لطيف يخرج من القلب وينتشر في البدن كله ليمد الاعضاء بالحرارة الضرورية للحياة . وإذا كان الروح أطف الاجسام وأرقها فهو اصلح الامكنة في جسم الانسان لتتعلق به القوى النفسانية . وبواسطة هذا الروح المنبث في الاعصاب تتوزع القوى النفسانية في الاعضاء والمراكز المخصصة للأفعال النفسية المختلفة . فليس الذي يحسّ فينا هو الروح وإنما الذي يحسّ هو القوة النفسانية الحساسة الموجودة في الروح . فالروح مركب القوى النفسانية ومطبتها اذا صحّ التعبير . انه له بمثابة المادة من الصورة . ثم انه هو الذي يربط قوى النفس وانفعالاتها ببعضها ببعض ، فيحمل الى أعضاء الحس القوى الحساسة وينقل منها التأثيرات الحسية الى الدماغ ، كما ينقل الاوامر الحركية من مراكز الدماغ الى أعضاء الحركة .



هذا وليس ابن سينا اول من قال بالروح الحيواني . فاليونان الاولون قد سبقوه الى القول بما يشبهه وهو البنويما (Pneuma) الذي توسع فيه ابن سينا . فديوجين الابولوني (Diogene d'Appolonie) يرى أن التفكير يتولد عن الهواء الذي يجري في الشرايين مع الدم خلال جميع أجزاء البدن^(١) . ولم ينظر اكثر الحكماء الى البنويما على انها قوة حيوية فحسب ، بل نظروا اليها ايضاً على انها هي النفس ذاتها^(٢) . وكان جالينوس يرى ان القلب يستقبل البنويما من الرئتين ومن الشرايين ، ثم يدفع بها بعد ان تختلط بهواً

١ - انظر محمد عثمان نجاتي : الادراك الحسي عند ابن سينا صفحة ٦٢ - ٦٦ .

٢ - بول جانيه وجبريل سيبي ، مشكلات ما بعد الطبيعة (الترجمة العربية) صفحة

التنفس الى المخ ، فيصبح حينئذ هواءً لطيفاً او بنوياً حية . وتتحول البنوياً الحية في تجاوزيف المخ الى بنوياً نفسية اكثر دقة ولطافة من البنوياً السابقة ^(١) لكن جالينوس لم يذكر لنا ما اذا كانت هذه البنوياً النفسية هي النفس ذاتها ، إذ يكفي ان تكون في رأيه الشرط الاساسي للحياة . وهكذا كانت فكرة البنوياً عند اليونان معقد الصلة بين النفس والبدن وبين الروح والنفس . ولعل قسطا بن لوقا البعلبكي ، المترجم المشهور هو اول من ادخل هذه الفكرة الى العالم العربي في مبحثه (رسالة في الفرق بين النفس والروح) . فالنفس في رأيه جوهر روحي بسيط غير قابل للفناء ، والروح جسم لطيف يشرف على اعمالنا العضوية والعقلية . فاذا ما توقف عن الحركة كان الموت . فالروح اذن هو أداة النفس وبواسطته يتحرك الجسم ويقبل الادراك ^(٢) .

وقد كُتب لهذه النظرية ان تحيا طويلاً بفضل ابن سينا ، فمنه انتقلت الى الفلسفة المسيحية ثم امتدت الى التاريخ الحديث واستقرت عند ديكارت . فالروح الذي قال به ابن سينا لا يختلف في شيء عن الارواح الحيوانية التي يقول بها ديكارت : كلاهما جسم لطيف حار خفيف الحركة يبدأ من القلب ويتدفق في الاعصاب ، وهو سبب الاحساسات والحركات الحيوانية بل وبعض الظواهر النفسية . والقلب عند الفيلسوفين مصدر النشاط الحيواني ومركز القوى النفسية . فالقلب اذن هو العضو الرئيس الذي يلتقي فيه الروحي بالمادي والعقلي بالجسمي ، ويليه الدماغ . وهذا ما كان يقول به الفارابي ايضاً . فالقلب عنده هو العضو الرئيس الذي لا يرأسه من البدن عضو آخر ، وهو ينبوع الحرارة الغريزية وعنه ينبت الروح الحيواني الغريزي في العروق الضوارب ، كما مرّ معنا .

وكما لم يبين ابن سينا كيف يتم الاتصال بين الجسمي والنفسي في تجاوزيف

١ - المصدر السابق صفحة ١٦٤ - ١٦٥ .

٢ - انظر الدكتور ابراهيم مذكور : في الفلسفة الاسلامية صفحة ٢٢٠ .

المخ كذلك هو لم يبين لنا كيف يكون الروح الحيواني همزة الوصل بين البدن والنفس وكيف يؤثر احدهما في الآخر ، ما دامت النفس جوهرًا روحياً لا يقبل الحيز وليس يحسم ولا ينطبع في جسم .

وعلى كل حال لم يكن ابن سينا اول من قال بالثنائية بين الجسم والنفس كما لم يكن بالتالي اول من اخفق في تفسير الصلة بينها . ويظهر ان هذه الصعوبة ملازمة لجميع المذاهب الثنائية من لدن الفلاسفة اليونان حتى فلاسفة العصر الحديث وعلماء النفس في الوقت الحاضر . ان الثنائية إنما هي نتيجة القول بالتعارض المطلق بين النفس والبدن . فكان كل من يقول بها يضع في نفس الوقت عقبة في سبيل ايجاد أي صلة بينها ، ما دام يفترض في الاصل مغايرة طبيعة احدها لطبيعة الآخر ، وإلا لما اضطر الى القول بالثنائية بل لقال بالواحدية . فكل ثنائية تتطلق - من حيث لا تشعر - من عدم قيام أي إمكانية للتوفيق بين طرفيها ، ثم تحاول بعد ذلك ومع ذلك ايجاد نوع من التوفيق بينها . فهي تريد ان تعطي بإحدى يديها ما اخذته باليد الاخرى ! وهكذا تسد على نفسها المنافذ وتقضي على كل امل في الوصول الى حل . ومعنى ذلك انه لا حل لهذه المسألة إلا في المذاهب الواحدية سواء كانت مادية او مثالية ، وعلى ذلك فكل محاولة للتوفيق بين النفس التي ليست جسماً ولا تقبل أي صفة من صفات الجسمية ، وبين الجسم الذي ليس نفساً ولا يقبل أي صفة من صفات النفسانية إنما هي شقشة فارغة وعبت ضائع وسراب خادع ! فليس اغرب من التوفيق بين طرفين متنافيين هما بحكم التعريف لا يقبلان أي توفيق .

خلود النفس . - لم يتردد ابن سينا في القول بخلود النفس كما تردد الفارابي من قبله . فمع ان النفس تحدث بحدوث البدن إلا انها لا تقصد بفساده ، فليس يجب من حدوث شيء مع شيء ان يبطل ببطلانه . إنما يكون ذلك اذا كانت ذات الشيء قائمة بذلك الشيء وفيه . وقد تحدث امور عن امور ، وتبطل هذه الامور وتبقى تلك اذا كانت ذواتها غير

قائمة فيها ، لا سيما اذا كان مفيد الوجود لها شيئاً آخر غير الذي إنما تهيأ
إفادة وجودها مع وجوده . ومفيد وجود النفس شيء غير جسم ولا قوة
في جسم ، بل هو لا محالة جوهر آخر غير جسم . انه جوهر روحاني
شريف مفارق^(١) .

وأقرب للفلاسفة اليونان الى ابن سينا في هذه المسألة هو افلاطون
الذي عني بالخلود عناية كبيرة فوقف عليها محاوراة كاملة من محاوراته هي
محاوراة (الفيدون) او (الفادون) كما يسميها العرب . فلقد انكر ابن سينا -
كأفلاطون - فناء النفس وانحلالها ولكنه ابطال التناسخ الذي اخذ به
افلاطون . لكن أدلة ابن سينا على الخلود ليست هي نفس أدلة افلاطون
وإنما هي تختلف عنها وإن كانت مستوحاة منها وتدين لها بالكثير من
معانيها . لقد كانت مجرد أداة في يد صنّاع . وليس في هذا انكار لفضل
افلاطون بل فيه إثبات لشخصية ابن سينا . فلا تعارض بين الأمرين .
وهناك اربعة أدلة على خلود النفس يمكن ان نسميها : أ) دليل المغايرة .
ب) دليل البساطة . ج) دليل الاشتقاق . د) دليل الاحلام . فلنتحدث عن
كل واحد منها .

أ) دليل المغايرة . يؤكد ابن سينا ان جوهر النفس الذي هو الانسان
على الحقيقة لا يفنى بفناء الجسد ولا يبلى بعد المفارقة عن البدن ، بل هو
باق لأن جوهره مغاير لجوهر البدن وأقوى منه ، فهو محرك هذا البدن
ومدبره ومتصرف فيه ، والبدن منفصل عنه تابع له . فكل شيء يفسد
بفساد شيء آخر لا بدّ ان يكون متعلقاً به نوعاً من التعلق . والنفس في
جوهرها مغايرة لجوهر البدن ، فليست معلولة له ولا تعلق لها به حتى
تتأثر بما يحدث له ، وإنما وجوده متعلق بعبادىء آخر لا تبطل ولا تستحيل .
فسواء بقي البدن ام فني فإنها لا تتأثر به ، انه هو الذي يتأثر بها إذ
هي تدبره وتقوده الى الفعل والإدراك ، فعلاقتها معه ليست علاقة ارتباط

١ - انظر الشفاء المقالة الخامسة فصل ٤ صفحة ٢٢٨ والنجاة المقالة السادسة صفحة ٣٠٥ .

وتلازم بل علاقة إشراف وسيطرة ، انها تشرف عليه إشراف السيد على المسود والسائس على المسوس او قل ان صلتها به إنما هي صلة الجوهر بالمضاف . فالنفس من مقولة الجوهر وصلتها بالبدن من مقولة المضاف . والإضافة اضعف الاعراض لأنه لا يتم وجودها بموضوعها بل يحتاج الى شيء آخر هو المضاف اليه . فكيف يبطل الجوهر القائم بنفسه ببطلان اضعف الاعراض المحتاج اليه . ومثاله من يكون مالكا لشيء متصرفا فيه ، فإذا بطل ذلك الشيء لم يبطل المالك ببطلانه . إذ لا يقدر في شخص المالك ما يُصيب ملكه من فساد كما لا يقدر في السيد ان يهلك مسوده^(١) .

(ب) برهان البساطة . ان النفس جوهر بسيط ، والبسائط لا تقبل الفساد ، وبالتالي لا تنعدم متى وجدت . وذلك بأن ما يقبل الفساد ينبغي ان يكون فيه جانبان اثنان : جانب القوة والفعل . وهذا محال في البسائط لأن حصول امرين متنافيين لا يكون إلا في محلين متغايرين . وقد ثبت ان النفس جوهر بسيط وإنها حياة بفطرتها وطبيعتها ، فلا يمكن ان يكون فيها استعداد للفناء ولا ان تقبل الفساد^(٢) .

(ج) دليل الاشتقاق . ثم ان النفس من عالم العقول المفارقة والنفوس الفلكية ، وهذه باقية خالدة لا تقبل الفساد أو الفناء . ولما كان المعلول يبقى ببقاء علته فالنفس التي هي معلولة للعقول المفارقة والنفوس الفلكية تبقى ببقاء عللها فإذا فسد البدن لسبب يخصه هو من تغير المزاج او التركيب فلا تفسد هي بفساده إذ لا تعلق لها في الوجود بالبدن بل تعلقها في الوجود بالمبادئ الأخر التي لا تستحيل ولا تبطل^(٣) .

(د) دليل الأحلام . اذا نام الانسان بطلت عنه الحواس والإدراكات وصار امره كالميت ، ولكنه مع ذلك يرى الاشياء ويسمعها ، بل يدرك

١ - انظر النجاة ، صفحة ٣٠٣ ورسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها ، الفصل الثاني

٢ - انظر النجاة ، صفحة ٣٠٣ - ٣٠٤ .

٣ - انظر الشفاء صفحة ٢٢٨ .

الغيب في الرؤيا الصادقة . وهذا برهان قاطع على ان جوهر النفس غير محتاج الى البدن بل هو يضعف بمقارنته ويتقوى بتعطله وبالتالي لا يفسد بفساده ^(١) . فالنفس إذن خالدة ، وحلولها في البدن إنما يكون الى اجل مسمى . فإذا مات البدن وخرب تخلص جوهر النفس عن جنس البدن . فإذا كان كاملاً بالعلم والحكمة والعمل الصالح انجذب الى الانوار الإلهية وأنوار الملائكة والملا الأعلى انجذاب ابرة الى جبل عظيم من المغناطيس ، وفاضت عليه السكينة وحقت له الطمأنينة ^(٢) .

فهؤلاء هم السابقون من اصحاب المرتبة العليا . ودونهم اصحاب المرتبة الوسطى الذين يرتفعون عن عالم الكون والفساد ويتصلون بنفوس الافلاك ويتطهرون عن دنس عالم العناصر ويشاهدون النعيم الذي خلقه الله تعالى في السموات من الحور العين وألوان الأطعمة اللذيذة وألحان الطيور التي تقصر اوصاف الواصفين عن ذكرها وشرحها . ولا يبعد ان يتبادى امرهم وان يستعدوا للفوز بوصول الدرجة العليا ، فينغمسوا في الذات الحقيقية وينضموا الى السابقين بعد انقضاء دهور تأتي عليهم .

وأما اصحاب المرتبة السفلى فهم المنغمسون في بحور الظلمات الطبيعية المتكسبون في قعر الإجرام العنصرية ، المنتحسون في دار البوار ^(٣) . فهؤلاء لا يحسون وهم في الحياة الدنيا بالانفعالات والهيئات التي تلحق بمجاورة البدن ، مثلهم في ذلك مثل عضو تمكن منه سبب الألم ولكنه لا يشعر به لعائق ، فإذا زال العائق شعر به . فإذا فارقت النفس البدن وزال العائق شعرت بهذه الهيئات الرديئة وتألمت وشقيت بها ، وهذا الألم الروحاني أشد عليها من ألم النار الجسدية ^(٤) .

١ - رسالة في معرفة النفس الناطقة ، للفصل الثاني .

٢ - المصدر السابق ، الفصل الثاني .

٣ - المصدر السابق الفصل الثالث .

٤ - انظر الإشارات النمط الثامن ، صفحة ٧٧٠ .

وهذا الألم الروحاني على نوعين :
مجبور ، أي يمكن زواله بعد تأدية العقوبة المطلوبة ؛
ونوع غير مجبور لا يمكن زواله .
فما كان بسبب نقص في الاستعداد للكمال الذي يرجى بعد المفارقة
فهو غير مجبور .

وما كان بسبب غواشٍ غريبة فيزول ولا يدوم بها التعذيب ^(١) .
ومعنى هذا ان النعم والجحيم عند ابن سينا روحانيان لا جسمانيان .
فالعقل عاجز عن إثبات المعاد الجسماني أي إثبات بعث الإبدان وما
ينتظرها من نعم حسي في الجنة أو ألم جسماني في النار . اجل هو امر
ليس في متناول العقل ولا يدخل في نطاقه ، انه مقبول من الشرع وكفى ،
فلا سبيل الى إثباته إلا من طريق الشريعة وتصديق خبر النبوة ^(٢) .
اما ما ورد في الشرع في صفات المعاد الجسماني فإن الشرائع واردة
لخطاب الجمهور بما يفهمون ، مقرباً ما لا يفهمون الى افهامهم بالتشبيه
والتمثيل ^(٣) .

فالإنسان ليس انساناً ببدنه وإنما هو انسان بنفسه التي بين جنبيه .
فإذا فارقت نفسه بدنه اصبح هذا تراباً او شيئاً آخر من العناصر .
وأما نفسه التي هي محل الثواب والعقاب واللذة والألم ، فلا تموت بموت
البدن ولا تقبل الفساد اصلاً . وليس أبعد عن الصواب من رأي الاشاعرة
القائلين ببعث النفس والجسم معاً إذ :

ان المادة الموجودة للكائنات لا تفي بأشخاص الكائنات الحالية اذا
بعثت ؛

وان السعادة الحقيقية للإنسان يضادها وجود نفسه في بدنه . فالبدن

١ - المصدر السابق صفحة ٧٧٠ - ٧٧١ .

٢ - النجاة ، صفحة ٤٧٧ .

٣ - رسالة اضحوية في امر المعاد صفحة ٥٠ .

عائق عن تحصيل السعادة اكثر منه عوناً عليها .
ان الأمور الواردة عن هذا الموضوع في الشرائع اذا اخذت على ظاهرها
لزمها امور محالة وشنيعة . إذ لا يخلو :
اما ان تعود النفوس الى المادة التي كانت حاضرة في اجزاء البدن
عند الموت فقط .

او الى جميع المادة التي قارنت البدن جميع ايام العمر .
فعلى الاول ، اي ان كانت المادة الحاضرة حالة الموت فقط ، فقد
وجب ان يُبعث المجدوع والمنقطوع يده في سبيل الله على صورته تلك ،
وهذا قبيح عند المتكلمين والفقهاء ، إذ يقولون ان الله سيبعث الشهداء في
صور كاملة تليق بمنزلتهم عند الله تعالى .

وعلى الثاني ، اي ان بعثت جميع اجزاء بدنه التي كانت اجزاء له مدة
عمره كله ، فقد وجب من ذلك ان يكون جسد واحد بعينه يُبعث يداً
ورأساً وكبداً وقلباً .. لأن الثابت ان الاجزاء العضوية دائماً ينتقل بعضها
الى بعض بالاغتذاء ، ويغتذي بعضها من فضل غذاء بعض .

وأنت اذا تأملت ظهر لك ان الغالب على ظاهر التربة المعمورة جثث
الموتى المترّبة . وقد حُحرث فيها وزُرْع وتكونت منها الاغذية ، وتتغذى
بالأغذية مخلوقات أخرى ، فأنسى يمكن بعث مادة كانت حاملة لصورتي
انسانين في وقتين مختلفين ؟

فان قال قائل انه يُبعث للنفس بدن من أي تراب وأي هواء وماء
ونار اتفق ، وليس من شرطه ان تعود الى الاسطقسات التي كانت موجودة
في حياته الاولى بعينها ، فهذا لا يمكن قبوله إلا اذا سلمنا بالتناسخ ،
وهو باطل ، او سلمنا بأن البدن لا يعاقب مع النفس ، فعطّلنا
حجة الشرع .

فاذا بطل ان يكون المعاد للنفس والبدن جميعاً ، واذا كان اكثر
بطلاناً ان يكون المعاد للبدن وحده لأن الانسان بنفسه لا يبدنه ، واذا

بطل ان يكون للنفس على سبيل التناسخ ، فالمعاد اذن للنفس وحدها على ما تقرر^(١) .

٧ - النبوة

لم يكن لليونان نظرية في النبوة يسترشد بها ابن سينا . فالفارابي هو اول من صاغ نظرية كاملة في النبوة تناولها ابن سينا من بعده بالفحص والدراسة فأبقى على خطوطها العامة وصفاتها الرئيسية وتناول بعض تفاصيلها بالتغيير والتبديل وتوسع فيها حتى جعلها من صميم مذهبه . ونظرية النبوة عند ابن سينا هي امتداد لمذهبه في النفس والمعرفة كما هي تختلط بأرائه في السياسة والاجتماع والتصوف . فهو يذكر في (رسالة في اثبات النبوات) ان الحيوان اما ناطق او غير ناطق ، والأول افضل . والناطق اما بملكة او بغير ملكة ، والأول افضل . وذو الملكة اما خارج الى الفعل التام او غير خارج ، والأول افضل . والخارج اما بغير واسطة او بواسطة ، والأول افضل ، وهو المسمى بالنبي ، وإليه ينتهي التفاضل في الصور المادية . واذا كان كل فاضل يسود المفضول ويرأسه ، فاذا النبي يسود ويرأس جميع الاجناس التي فضلها ، فهو في قمة الانسانية وأعلى ذراها^(٢) .

وهذه القمة لا تتمثل في العقل المستفاد كما كان الحال عند الفارابي . فان سينا لم يتوقف كما توقف سلفه عند مرتبة العقل المستفاد ، وإنما هو اضاف الى الطريق التقليدي الارسططاليسي لاكتساب العلوم طريق الحدس وخص به الانبياء والعارفين والفلاسفة الحقيقيين الذين يصلون الى خالص المعرفة الإلهية .

فهناك عند ابن سينا طريقان امام النفس للوصول الى الحقائق هما

١ - انظر رسالة اضحوية الفصل الثالث .

٢ - انظر رسالة في اثبات النبوات المنشورة في كتاب قراءات في الفلسفة صفحة ٥٩٢ -

طريق الفكرة وطريق الحدس .

ففي الطريق الاول تنتقل النفس بين المعاني المخزونة في الباطن مستعينة بالتخيل ، فتحاول الوصول الى المعنى المطلوب بواسطة المقدمات المنطقية . وفي الطريق الثاني تحاول الوصول الى المطلوب رأساً من غير أن تستعين بشيء من المقدمات المنطقية ، وذلك بالاتصال مباشرة بالعقل الفعال . وهذا الطريق هو أفضل الطرق لادراك الأمور الغيبية والقضايا الروحية ، انه يجعل الغيبيات لصاحب الحدس كأنها أمور مشاهدة عياناً ، بل هو يفوق المشاهدة وضوحاً و يقيناً .

فالحدس كما مر معنا في نظرية المعرفة درجة خاصة من الاستعداد للاتصال بالعقل الفعال ربما اشتدت في بعض الناس بحيث لا تحتاج إلى تخرج وتعليم ، بل تصبح العلوم بها كأنها حاضرة في اذهانهم دفعة واحدة . ويجب ان تسمى هذه الحال من العقل الهولاني عقلاً قدسياً . والحدس هو اساس العلوم والمعارف ، لان المباديء الاولى كلها حدسية ، ولأن العلوم تنتهي لا محالة الى حدوس استنبطها ارباب تلك الحدوس ثم ادوها الى المتعلمين . والنبوة كذلك ضرب من الحدس ، اذ يمكن ان يكون شخص من الناس مؤيد النفس بشدة الصفاء وشدة الاتصال بالمباديء العقلية المفارقة الى ان يشتعل حدساً ، اعني قبولاً لاهام العقل الفعال في كل شيء . وهذا ضرب من النبوة ، بل اعلى مراتب النبوة ، والأولى ان تسمى هذه القوة قوة قدسية ، وهي اعلى مراتب القوى الانسانية (١) .

وهكذا تصبح المعرفة مشتركة . بين العقل المفارق وهذا الانسان ، فتخرج معارفه عن حدود التقليد وتكون له احاطة بالحاضر والماضي والمستقبل ، وتلك لعمرى معرفة يقينية تتجاوز بكثير ما نصل إليه بطريق الاستنتاجات العقلية العادية .

١ - انظر النجاة ، صفحة ٢٧٢ - ٢٧٤ .

اما كيفية تلقي النبي للوحي فلا يكون بتزويد الله له بالعبارات الصريحة ولا باحاديث النفس ، وانما يكون بفيضان العلوم من الله على لوح قلب النبي . وهنا تأتي قوة التخيل فتتلقى ذلك كله وتتصوره بصورة الحروف والاشكال المختلفة ، وتجسد لوح النفس فارغا فتنتقش تلك العبارات والصور فيه ، فيسمع كلاما منظوما ويرى شخصا بشريا . فذلك هو الوحي ، لأنه إلقاء الشيء الى النبي بلا زمان ، فيتصور في نفسه الصافية صورة الملقى كما تتصور في المرآة المصقولة صورة المقابل . ان الحس يتلقى المحسوسات من الحواس الظاهرة فارة ومن الاحاسيس الباطنة احيانا . فنحن نرى الأشياء بالقوى الظاهرة ، واما النبي فانه يراها بالقوى الباطنة . نحن نرى ثم نعلم ، والنبي يعلم ثم يرى .

ويذكر ابن سينا في (الاشارات) ان التجربة والقياس يشهدان بان النفس الانسانية تستطيع ان تطلع على الغيب في أثناء النوم . فلا مانع ان يقع لها مثل ذلك في حال اليقظة . فالجزئيات منقوشة في العالم العقلي على هيئة كلية ، وفي العالم النفساني على هيئة جزئية . وللنفس ان تنتقش بنقش ذلك العالم بحسب الاستعداد وزوال الحائل . فلا تستنكرون ان يكون بعض الغيب ينتقش فيها . فللنفس فترات في أثناء النوم تخلص بها الى جانب القدس . فينتقش فيها نقش الغيب . ولا يبعد ان يقع لها ذلك في حال اليقظة اذا تجردت عن المادة وكانت قوية ذكية رشيدة ، فتتصل بالملكوت الأعلى وتقوم بالمعجزات والكرامات وخوارق العادات وتؤثر في الكون كنفوس الافلاك وعقولها . وقد خصص ابن سينا النمط العاشر من كتاب (الاشارات) لهذه الامور المستغربة فقال :

« اذا بلغك ان عارفاً امسك عن القوت المرزوء^(١) مدة غير معتادة

١ - الشيء المرزوء هو المنقوص . والاسجاح الرفق وحسن العفو : اي اذا وصل الى علمك ان عارفاً لم يتناول القوت الذي هو عادة قليل منقوض بالنسبة اليه مدة طويلة فصدق ، فذلك غير مستحيل .

فاسجح بالتصديق ، واعتبر ذلك من مذاهب الطبيعة المشهورة «^(١) .

« اذا بلغك ان عارفاً اطاق بقوته فعلاً او تحريكاً او حركة تخرج عن وسع مثله ، فلا تتلقه بكل ذلك الانكار . فلقد تجد الى سببه سبيلاً في اعتبارك مذاهب الطبيعة »^(٢) .

« اذا بلغك ان عارفاً حدث عن غيب فأصاب متقدماً ببشرى او نذير فصدّق ، ولا يتعسّر عليك الإيمان به . فان لذلك في مذاهب الطبيعة أسباباً معلومة »^(٣) .

« التجربة والقياس متطابقان على ان للنفس الانسانية ان تنال من الغيب نيلاً ما ، في حالة المنام ؛ فلا مانع من ان يقع مثل ذلك النيل في حال اليقظة »^(٤) .

« اذا قلت الشواغل الحسية وبقيت شواغل اقل ، لم يبعد ان تكون للنفس فلتات تخلص عن شغل التخيل الى جانب القدس ، فانتقش فيها نقش من الغيب »^(٥) .

« فاذا كانت النفس قوية الجوهر تسع الجوانب المتجاذبة ، لم يبعد ان يقع لها هذا الخلس والانتهاز في حال اليقظة . فربما نزل الاثر الى الذكر فوقف هناك ، وربما استولى الاثر فأشرق في الخيال اشراقاً واضحاً ، واغتصب الخيال لوح الحس المشترك الى جهته فرسم ما انتقش فيه منه ، لا سيما والنفس الناطقة مظهرية له ، غير صارفة عنه ، مثل ما قد يفعله التوهم في المرضى والمرورين ، وهذا أولى . واذا فعل هذا صار الاثر مشاهداً مبصراً او هتافاً او غير ذلك . وربما تمكن مثلاً موفور

١ - الاشارات ، النمط العاشر ص ٨٥٣ .

٢ - المصدر السابق ص ٩٥٨ .

٣ - المصدر السابق ص ٨٦١ .

٤ - المصدر السابق ص ٨٦١ - ٨٦٢ .

٥ - المصدر السابق ص ٨٧٨ .

الهيئة او كلاماً محصّل النظم . وربما كان في اجلّ احوال الزينة « (١) .
« فالأثر الروحاني السانح للنفس في حالتي النوم واليقظة قد يكون
ضعيفاً فلا يحرك الخيال والذكر ولا يبقى له أثر فيها ، وقد يكون
أقوى من ذلك فيحرك الخيال ، الا ان الخيال يعم في الانتقال ... فلا
يضبطه الذكر ... وقد يكون قوياً جداً وتكون النفس عند تلقيه
رابطة الجأش ، فترسم الصورة في الخيال ارتساماً جلياً ، وقد تكون
النفس بها معنية ، فترسم في الذكر ارتساماً قوياً ولا تتشوش بالانتقالات .
وليس انما يعرض لك ذلك في هذه الآثار فقط ، بل وفيما تباشره من
افكارك يقظان (٢) .

« فما كان من الأثر الذي فيه الكلام مضبوطاً في الذكر مستقراً ،
كان إلهاماً او وحياً صراحاً او حلماً لا يحتاج الى تأويل او تعبير .
وما كان قد بطل هو وبطلت محاكياته وتواليه احتاج الى احدهما . وذلك
يختلف بحسب الاشخاص والاوقات والعادات .. » (٣) .

« ولعلك قد يبلغك عن العارفين اخبار تكاد تأتي بقلب العادة فتبادر
الى التكذيب : وذلك مثل ما يقال ان عارفاً استسقى للناس فسُقوا او
استسقى لهم فشُقوا ، او دعا عليهم فخُسِف بهم وزلزلوا ... فتوقف
ولا تتعجل ، فان لأمثال هذه اسباباً في اسرار الطبيعة » (٤) .

« فلا تستبعدن ان يكون لبعض النفوس ملكة يتعدى تأثيرها بدنها
وتكون لقوتها كأنها نفسٌ ما للعالم ... فلا تستنكرن ان يكون لبعض
النفوس هذه القوة حتى تفعل في اجرام أخر تنفعل عنها انفعال بدنه .
ولا تستنكرن ان تتعدى من قواها الخاصة الى قوى نفوس اخرى تفعل

١ - المصدر السابق ص ٨٨٠ - ٨٨١ .

٢ - المصدر السابق ص ٨٨٤ - ٨٨٥ .

٣ - المصدر السابق ص ٨٨٦ - ٨٨٧ .

٤ - المصدر السابق ص ٨٩٢ .

فيها ، لا سيما اذا كانت شحذت ملكتها بقهر قواها البدنية التي لها ، فتقهر شهوة او غضباً او خوفاً [وسائر ذلك] من غيرها ،^(١) .

« هذه القوة ربما كانت للنفس بحسب المزاج الأصلي ، الذي لما يفيد من حياة نفسانية يصير للنفس الشخصية تشخصها ... وقد تحصل بضرب من الكسب يجعل النفس كالمجردة ، لشدة الذكاء ، كما تحصل لأولياء الله الأبرار^(٢) .

« فالذي يقع له هذا في جبلته النفس ، ثم يكون خيراً رشيداً مزكياً لنفسه ، فهو ذو معجزة من الانبياء او كرامة من الاولياء . وتزيد تركيته لنفسه في هذا المعنى زيادة على مقتضى جبلته فيبلغ المبلغ الاقصى . والذي يقع له هذا ثم يكون شريراً ويستعمله في الشر فهو الساحر الخبيث ،^(٣) .

« إياك ان يكون تكيسك وتبرؤك عن العامة هو ن تنبري منكراً لكل شيء . فذلك طيش وعجز . وليس الخرق في تكذيبك ما لم تستبن لك بعد جلته دون الخرق في تصديقك بما لم تقم بين يديك بينته . بل عليك الاعتصام بحبل التوقف ، وإن ازعجك استنكار ما يوعاه سمعك ما لم تنبرهن استحالة لك . والصواب لك ان تشرح امثال ذلك الى بقعة الامكان ما لم يزدك عنه قائم البرهان . واعلم ان في الطبيعة عجائب ، وللقوى العالية الفعالة والقوى السافلة المنفعلة اجتماعات على غرائب ،^(٤) .

في جميع هذه النصوص يحاول ابن سينا تقريب امر النبوة الى العقل وتسويقها في الازهان هي وسائر الظواهر الغريبة الاخرى مما يميل الانسان الى انكاره تكيساً او تبرؤاً عن العامة . فهي ظاهرة طبيعية كظواهر

١ - المصدر السابق صفحة ٨٩٥ - ٨٩٦ .

٢ - المصدر السابق صفحة ٨٩٧ .

٣ - المصدر السابق صفحة ٨٩٨ - ٨٩٩ .

٤ - المصدر السابق ، صفحة ٩٠١ - ٩٠٢ .

الطبيعة الاخرى لها اسبابها الطبيعية التي قد تخفى علينا ولكنها تظل مما يمكن تفسيره بحسب نواميس الطبيعة المعقولة . وهذا ما تصدى له ابن سينا في النصوص السابقة . ولئن استعمل في بعض الاحيان كلمة (عجائب) و (غرائب) و (اسرار) وما اشبه فانه يستعملها لا بمعنى الخروج على نواميس الطبيعة المعقولة بل بمعنى ما يثير الدهشة والانبهار عند من لم تكن له قدم راسخة في العلم والحكمة كابن سينا .

وجميع تفسيرات ابن سينا لظاهرة النبوة والظواهر الاخرى المتصلة بها تفسيرات معقولة ، بل معقولة جداً ، اي يمكن التصديق بها وقبولها عقلياً . فهي معلة مبنية على اسباب ومسببات ولا تقال جزافاً او تهيب بقوى وأسرار خارقة للطبيعة . ولا أدل على ذلك من انه كان كلما فرغ من تقرير ظاهرة من هذه الظواهر الغريبة يؤكد ان لها اسباباً في مذاهب الطبيعة . فهي اذن نتيجة اسباب ومسببات ولا تحدث جزافاً .

لكن اذا كان تحليل ابن سينا معقولاً فما الذي يمنعنا من قبوله اليوم ؟ الجواب عن ذلك هو اننا ننتمي الى عالم من الافكار والآراء والعقائد والقيم والمثل والمكتسبات الثقافية والحضارية غير العالم الذي ينتمي اليه ابن سينا وأمثاله من رجال القرون الوسطى . ان عالمنا العقلي والحضاري غير عالمه فلا مجال للتفاهم بيننا . اما اولئك الذين كانوا يعيشون في عصره ويذمون الى عالمه فمن حقهم ان يمتنعوا آراءه ويدافعوا عنها . واذن فليس التحليل العقلي المنطقي وحده كافياً لقبول أفكار الآخرين بل يجب ايضاً الانتماء الى عالمهم والتعاطف معهم . فلو كنت أنتنمي الى عالم ابن سينا لما وجدت غضاظة في قبول آرائه بل لكنت أترنم بها وأزهو بمعرفتها . فشرط الاقتناع بين الافراد اذن انما هو الانتماء الى عوالمهم . انه يقرب المسافات ويزيل الحواجز مهما بعدت الشقة . بل ان اثنين يعيشان في زمان واحد ومكان واحد قد لا يتفاهمان في مسألة من المسائل ، وما ذلك إلا لأن العوالم العقلية التي ينتميان اليها ليست متشابهة . فالمسافة العقلية

أقرب من المسافة الزمانية والمكانية وأكثر منها أهمية وأشد إلحاحاً .
ومن هذه النصوص وكثير غيرها يتبين لنا ان ابن سينا لم يقصر
الاطلاع على الغيب ومعرفة المستقبل وعمل الخوارق على اصحاب الرسالات
السموية وحدهم ، ولم يجعل النبوة اختياراً إلهياً أو أمراً فائقاً للطبيعة ،
بل جعلها مكتسبة يفوز بها كل من توفرت له شروطها . وكذلك لم يجعل
النبوة نتيجة لكمال القوة المتخيلة وحدها كما فعل الفارابي وان كان لم
ينكر اثر الخيلة في حصولها . فالشرط فيها ، كما رأينا هو ان يكون
الشخص « مؤيد النفس بشدة الصفاء وشدة الاتصال بالمباديء العقلية
المفارقة الى ان يشتعل حدساً ، أعني قبولاً لإلهام العقل الفعال . وهذا
ضرب من النبوة ، بل أعلى مراتب النبوة ، والأولى ان تسمى هذه
القوة قوة قدسية ، وهي أعلى مراتب القوى الانسانية » . وبذلك لا يصح
اتهام ابن سينا بتفضيل الفلسفة على النبوة وبالتالي على الدين ، كيف لا
والنبوة قوة قدسية بل « أعلى مراتب القوى الانسانية » ؟

النبي ضرورة اجتماعية . — والنبي في نظر ابن سينا يعبر عن حاجة
ضرورية في المجتمع بحيث لا تستقيم امور الحياة ولا تسير على الوجه الأفضل
الا بالنبوة .

والسبب في ذلك ان الانسان يفارق الحيوان بأنه ليس بحيث يستقل
وحده بأمر نفسه . فهو لا يحسن معيشته من غير شريك يعاونه على ضرورات
حاجاته . ولهذا اضطر الناس الى عقد المدن والاجتماعات . وهكذا فلا بد
في وجود الانسان وبقائه من مشاركة ، ولا تتم المشاركة الا بمعاملة ، ولا
بد في المعاملة من سنة وعدل ، ولا بد للسنة والعدل من انسان يخاطب
الناس ويلزمهم السنة ويحقق العدالة بينهم ، ويجب ان يكون لهذا الانسان
خصوصية ليست لسائر الناس ، حتى يستشعروا فيه أمراً لا يوجد لهم فيتميز
به عنهم ، فتكون له المعجزات .

وهذا الانسان اذا وجد يجب ان يذكر للناس اصول الدين والعقائد دون أن

يخوض معهم في جزئياتها ودقائقها التي لا تبلغها افهامهم ، حتى لا يعظم عليهم الشغل ويشوش ما بين أيديهم ويوقعهم فيما لا يتمكن من تذليل صعابه إلا من يشذ وجوده ويندر كونه ، فتكثر فيهم الشكوك والشبه ويصعب الأمر على اللسان في ضبطهم . ولا يجوز له بحال ان يظهر ان عنده حقيقة يكتبها عن العامة .

والنبي ليس مما يتكرر وجود مثله في كل وقت ، فان المادة التي تقبل كالأ مثله تقع في قليل من الامزجة . فيجب لا محالة ان يكون النبي قد دبر لبقاء ما يسنه ويشعره في أمور المصالح الانسانية تدبيراً لا يزول مع انقراض القرن الذي يليه ، بل يظل مستمراً في مدد متقاربة ، فلا يكاد يفسخ حتى يلحق عاقبه ويخلفه نبي جديد^(١) .

وكل نبي يجب ان يكون متميزاً باستحقاق الطاعة . واستحقاق الطاعة لا يكون إلا لخصوصية له ليست لسائر الناس ، أعني لاختصاصه بآيات تدل على انها من عند ربه ، تلك هي معجزاته . ولا تنتظم الشريعة دون ان يكون للمحسن والمسيء جزاء من عند القدير الخبير . وذلك يتضمن معرفة المجازي والشارع . وهذه المعرفة الضرورية لا تثبت ولا تستقر إلا اذا كان معها سبب حافظ لها . ومن هنا فرضت على الناس العبادة المذكرة بالمعبود وكررت عليهم في اوقات متتالية كالصلوات وما يجري مجراها ، وذلك ليستحفظ الشارع التذكير بالتكرير ولكي يزول احتمال النسيان . وبذلك استمرت الدعوة الى العدل المقيم لحياة النوع . ثم زيد لمستعملها بعد النفع العظيم في الدنيا ، الأجر الجزيل في الآخرة . وأما العارفون فقد اضيف الى نفعهم العاجل وأجرهم الأجل الكمال الحقيقي الذي خُصوا به من دون سائر الناس . فانظر الى كلمة الله في فرض الشريعة وهي بقاء نظام العالم ، وانظر الى حجته تعالى وتفضله بالأجر الجزيل في الآخر بعد النفع العظيم في الدنيا ، ثم انظر الى

١ - انظر النجاة ، صفحة ٣٠٣ - ٣٠٨ .

ما أنعم به على خواص عباده فضلاً عن النفع والأجر من الابتهاج والكمال .
فحينئذ يتجلى لك من أفق الجنب الإلهي ما تبهرك عجائبه . وإذا عرفت
كل هذه المزايا التي للشرائع فيجب ان تقيم غيرك عليها وأن تكون
مستقيماً فيها ^(١) .

هذه هي نظرية النبوة عند ابن سينا اكمل بها نظرية الفارابي وتخطاها
الى مدى غير محدود . ولئن كانت فيها عناصر من الارسططاليسية او
الافلاطونية أو الافلاطونية المحدثه فقد كانت هذه العناصر مسخرة لخدمة
اهداف وغايات لا يقرها افلاطون ولا ارسطو ولا افلوطين ، اهداف نشأت
بنشأة الاسلام وغايات تؤخيت باعتناق الاسلام واتباعه والتعلق به بالروح
والمزاج ان لم يكن بالتزام النص والحرف . فهو متدين ، ولكن على طريقته
الخاصة . فهو ككل فيلسوف لا يعبأ بوظائف العبادات وجزئياتها ، إنما
تجذبه روحها وكليتها . ولخدمة هذه الكليات سخر نفسه وفلسفته ، والنبوة
إحدى هذه الكليات ، فأبلى في الدفاع عنها خير بلاء .

وفضلاً عن ذلك ان العناصر اليونانية التي نجدها في نظرية النبوة عند
ابن سينا قد انداحت وانطمست حتى ضاعت معالمها وفقدت شخصياتها
وأصبح من الصعب العثور عليها في حالة النقاء . ولكن كيميائي الافكار
ومتبعي الآثار والمنقبين عن الاسرار لا يعدمون الوسائل المقتعلة لتضخيم
الصغير وتصغير الضخم لحاجة في نفوسهم ولإظهار براعتهم وقدرتهم على
التنقيب والبحث والتعرف على بصمات الاصابع وتعقب آثار الاقدام !!
فوجود العناصر اليونانية في هذه النظرية لا يبرر ابداً انكار العناصر
الشخصية ، بل يدعمها ويؤكدها . فلولا الأداة ما كان خلق ولا كان ابتكار .
وعلى كل حال لقد كان لهذه النظرية ، أثر كبير في جمهور مفكري
الاسلام وملحديه ، بل لقد امتد أثرها الى النصارى واليهود في القرون

الوسطى كلها . وبرغم كل ما يقال فيها فحسبها انها جعلت النبوة امرأ معقولاً فأسكتت حملات الإلحاد وحدثت من طغيان الزندقة ، وقربت الأعلى من الأدنى وأخذت بيد الأدنى للوصول به الى الأعلى . فبضاعة العقل بضاعة مغرية لا تكسد ابداً . انها خير بضاعة أخرجت للناس في كل زمان ومكان .

٨ - التصوف :

من الصعب جداً عدّ ابن سينا بين المتصوفين الاسلاميين اذا قيس بالفارابي . فبينما كان التصوف جزءاً لا يتجزأ من فلسفة الفارابي ونظرته الى الله والكون والحياة ، بحيث انك تحس وأنت تدرسه انك بأزاء فيلسوف يعيش آراءه ويعانيها معاناة باطنة ، اذا بالتصوف عند ابن سينا لا يمدو ان يكون ظاهرة خارجية بحثة ملهقة بالمذهب او موقفاً نظرياً يعوزه دفء الحياة ونبض الافكار المعاشة . فهو لم يلجأ اليه إلا ليتوَجَّ به فلسفته ويزيد من تألقها وجمالها . وقد عبّر عن ذلك أحسن تعبير المستشرق الفرنسي البارون كارا دي فو (Carra de Vaux) فقال :

« لا يبدو التصوف عند ابن سينا إلا في آخر المذهب كأكليل له ، وهو متميز غاية التميز من الاجزاء الاخرى من فلسفته ، وابن سينا يدرسه دراسة فنية كأنه فصل من الفلسفة يشرحه شرحاً موضوعياً . وأما الفارابي فان تصوفه ينفذ الى كل شيء ، والعبارات الصوفية منبثّة في كل ناحية من مؤلفاته . وانك لتحسّ كل الاحساس ان التصوف عنده ليس مجرد نظرية اعتنقها بل هو حال نفسية » ^(١) .

وهذا حق الى حد بعيد . فلم يكن من سجية ابن سينا ان يتصوف ، ولكن ذكاه الخارق وعبقريته السامقة وحده المتيق - كل اولئك جعله يتكلم في التصوف كأحد افراده ويتكلم في احوال الصوفية بلغة القوم وهو ليس منهم ، ويرتب علومهم « ترتيباً ما سبقه اليه مَنْ قبله ولا لحقه مَنْ بعده » على حد تعبير الإمام فخر الدين الرازي .

Carra de Vaux, in Encyclopédie de l'Islam, II 58.

ولا يقتصر ذكاء ابن سينا على ذلك ، بل لقد جعل تصوفه يتغلغل كثيراً من نواحي فلسفته بحيث تحسبه جزءاً منها : كبنظرية المعرفة ونظرية النبوة والأخلاق والسياسة ، ولولا ان حياة ابن سينا تكذب اقواله لأخذ الكثيرون بسحر الفاظه ولجعلوه من اهل الاذواق .

فابن سينا ليس ذلك الرجل الذي يجعل وكده وأكبر همه تصفية النفس ومجاهدتها والوصول - نتيجة لذلك - الى النّيل وإشراق القلب بنور المعرفة الذوقية ، وإن اوهك ذلك ظاهراً كلامه ، وإنما هو فيلسوف له مذهب خاص في الله والكون والحياة ، وقدرة على التعليل والتحليل والشرح بأسلوب المنطق حيناً وأسلوب الشعر احياناً ، حتى لنخال وأنت تقرأه أنك بأزاء قطب من اقطاب الصوفية ، وما هو كذلك . « فأقصى ما نستطيع ان نقوله في ابن سينا هو انه كان مفكراً ادعى إمكان الاتصال بالعالم العلوي وحاول ان يدعم هذه الدعوى بأدلة فلسفية . غير انه يلاحظ ان البناء الفلسفي العام الذي وضعه يؤلف وحدة متماسكة مترابطة . فكما ان نظرياته الميتافيزيقية تمهد الطريق لنظرياته الصوفية ، نرى ان المسائل الفلسفية الكبرى كمسألة الألوهية ومسألة العناية الإلهية والقدر وما شاكلها تكل وتضح ، بل وتصحح في بعض نواحيها ، في تصوفه لا في فلسفته »^(١) .

ومذهب ابن سينا في التصوّف لا يختلف عن مذهب الفارابي . انه مذهب الفارابي نفسه وقد استخلصت جميع إمكانياته . انه بالفعل ما كان عند الفارابي بالقوة . فليس تصوفه بالتصوّف الروحي البحت الذي يدعو الى الزهد والتقشف والانخلاع عن العالم لتطهير النفس وتصفيتها ، وإنما هو تصوّف نظري يعتمد على الدراسة والتأمل ، ومذهب عقلي يفضي بصاحبه الى انتصار الذهن وإشراق العقل وانتقاشه بنقش العالم المعقول .

١ - انظر مقال الدكتور ابوالمعالي عفيفي في الكتاب الذهبي للمهرجان الألفي لذكرى ابن سينا صفحة ٤٠٦ .

فقد احوال ابن سينا التجربة الصوفية ووميض الوجد والذوق الى تجربة عقلية ووميض عقلي لا يدركه إلا الفلاسفة وأهل النظر ، وقليل ما هم ! ولعلّ أهم ما يميز بينها ان التجربة الصوفية يزول فيها الفرق بين العبد والمعبود وترتفع الحجب بينها حتى لينطق احدهما بلسان الآخر ويكون اياه . لقد اصبحا شيئاً واحداً وحقيقة واحدة . وأما التجربة العقلية فهي نظر وإدراك وعلم واستدلال وتأمل . ولا أثر في هذه التجربة للتوحيد بين الذات والموضوع او بين الرب والعبد ، بل فيها شعور واضح بالفرق بينهما . وهذا هو موقف 'ابن سينا' . فقد عرف الشيخ الرئيس التصوّف على طريقة اهل النظر كما يقول ابن طفيل ، بحكم انه فيلسوف لا يطمئن إلا لنداء العقل وقوارع المنطق ، ولا يرى الحق إلا في احكام العقل والمنطق .

ومع ان ابن سينا فيلسوف عقلي فإنّه في وصفه لمراتب الصوفية وأحوال العارفين ومواجيدهم إنّما يصطنع لغة الصوفية وتعابيرهم فيتحدث عن العارف والمابد والزاهد والمريد الخ كأنه واحد منهم ، ويبحث في الرياضة والتجلي وقواعد السلوك وما الى ذلك من مصطلحات القوم دون ان يخالفك الشك في انه من اقطابهم . ولكنه يتناول ذلك كله على طريقة اهل النظر كما مرّ معنا ويعالجه معالجة عقلية منطقية تتمشى وروح فلسفته العامة ، اللهم إلا في احوال قليلة يُشيد فيها بعنصر اللامعقول في التصوّف ، وذلك عندما يتكلم على الدرجات التي لا يفهمها الحديث ولا تشرحها العبارة ولا يكشف المقال فيها غير الخيال ، وفي هذا يجري ابن سينا على طريقة اهل الاذواق ، لا على مذهب ارباب العقول .

وهكذا فإن الزهد والمجاهدة ودوام الرياضة والانقطاع الى العبادة ليست هي الطريق الى حصول الإشراقات الإلهية والفيوضات الربانية وانقراح النفس بالمعقولات ، وإنّما طريق ذلك هو التأمل والتفكير والعلم بحقائق الموجودات واكتناه اسرارها . فالصوفي الكامل الذي يطلق عليه ابن سينا اسم (العارف) ليس هو الزاهد المتكشف العاكف على العبادة

والرياضة ، وإنما هو الفيلسوف الكامل المتقطع الى التأمل والنظر ، او هو - على حد تعبير ابن سينا - « المنصرف بفكره الى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحق في سره »^(١) . وهدف العارفين هو الهدف الاقصى للفلاسفة الذين أتوا رسالتهم على خير وجه ووصلوا الى منتهى غاياتهم . بل ان ابن سينا يتهم اصحاب التصوف الروحي بأن زهدهم وعبادتهم نوع من المعاملة والمقايضة إذ يقول :

« الزهد عند غير العارف معاملة ما ، كأنه يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة . وعند العارف تنزه ما عما شغل سره عن الحق ، وتكبر على كل شيء غير الحق . والعبادة عند غير العارف معاملة ما ، كأنه يعمل في الدنيا لاجرة يأخذها في الآخرة ، هي الأجر والثواب ، وعند العارف رياضة ما لهما وقوى نفسه المتومة والمتخيلة ليجردها - بالتعويد - عن جناب الغرور الى جناب الحق ، فتصير مسألة للسر الباطن ، حينما يستجلي الحق لا تنازعه . فيخلص السر الى الشروق الساطع ، ويصير ذلك ملكة مستقرة »^(٢) .

ومعنى ذلك ان الزهد والعبادة على نوعين : عملي ونظري فأما اصحاب التصوف الروحي فزهدهم وعبادتهم من النوع العملي ، أي نظام صارم من التقشف والحرمان والمحاسبة والمراقبة وما الى ذلك مما يعده الصوفية وسائل لتطهير النفس والسمو بها الى أعلى درجات الروحانية . وأما ابن سينا فإن زهده وعبادته تفريغ للقلب من الاغيار وملؤه بالفكر والاسرار واعداده للاتصال بالملأ الأعلى تحقيقاً لطبيعة النفس الناطقة وإبرازاً للمعاني التي خُصت بها من دون سائر الموجودات^(٣) .

هذا ومن صفات العارف انه يريد الحق الاول (الله) لذاته لا لشيء

١ - الإشارات ، صفحة ٨٠٠ .

٢ - الإشارات صفحة ٨٠١ - ٨٠٢ .

٣ - انظر كلمة الدكتور ابراهيم الملا عفيفي في الكتاب الذهبي صفحة ٤١٦ - ٤٢٤ .

غيره ولا يؤثر شيئاً على عرفانه ، بل لا يجوز ان يؤثر العرفان لمجرد العرفان . فمن أثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني ، اي فقد أشرك بالله إلهاً آخر^(١) . فيجب ان يكون عرفانه له لذاته وتعبده له فقط ، لا لأحد غيره ، لأنه مستحق للإبادة ولأن العبادة نسبة شريفة للمتعبد . فهو لا يتعبد لرغبة او رغبة ، ولا يترك اللذات ليستأجل اضعافها . هوذا المستبصر بهداية القدس في شجون الإيثار ، قد عرف اللذة الحق فولى وجهه سمتها وجعلها قبلة نظره^(٢) . وربما ذهل العارف فغفل عن كل شيء فصدر عنه اخلال بالتكاليف الشرعية . لكنه لا يكون بذلك متأثراً لأنه في حكم من لا يُكلّف ، إذ التكليف انما يكون لمن يعقل التكليف^(٣) .

وأول درجات العارفين الارادة ، وهي ما يعتري المستبصر من الرغبة في الاعتصام بالعروة الوثقى ، فيتحرك سره الى القدس لينال من روح الاتصال .

وبلي ذلك درجة الرياضة ، وهي نهي النفس عن هواها وأمرها بطاعة مولاهم والاقبال بكنه الهمة حتى يصبح ذلك ملكة لها .

فاذا بلغت الرياضة والارادة بالسالك حداً ما عنثت له خلجات من اطلاق نور الحق لذينة ، كأنها بروق تومض ثم تخمد عنه ، وهي ما يسميه الصوفية اوقاناً . فاذا أمعن في الارتياض كثرت عليه هذه الفواشي في غير الارتياض . فكلما لمح شيئاً عاج عنه الى - جناب - القدس يتذكر من أمره أمراً ، حتى ليكاد يرى الحق في كل شيء .

ثم انه لتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكوناً ، فيصير المخطوف مألوفاً والوميض شهاباً بيناً ، وتطول بهجة الواصل وسعادته ،

١ - الاشارات ص ٨٤١ .

٢ - المصدر السابق ص ٨١٠ - ٨١٨ .

٣ - المصدر السابق ص ٨٥١ .

وتحصل له معارفة مستقرة كأنها صعبة مستمرة .
فاذا تغلغل في هذه المعارفة قل ظهور ذلك عليه ، فيراه جليسه
حاضراً عنده ، مقيماً معه ، وهو في الحقيقة غائب عنه ظاعن الى
غيره ^(١) .

ولعله حتى الآن لا تتيسر له هذه المعارفة إلا احياناً ، لكنه لا يلبث
حتى يتدرج فتكون له متى شاء .

لقد انتهت درجة الرياضة ، فاذا عبرها الى ما بعدها - وهي درجة
النَّيْل - صار سره مرآةً مجلوةً محاذياً بها شطر الحق ، ودرت عليه
اللذات العلى ، وفرح بنفسه لما بها من أثر الحق . وكان له نظر الى الحق
ونظر الى نفسه ، اذ لا يزال متردداً . ثم انه ليغيب عن نفسه فيلحظ
جناب القدس فقط ، وان لحظ نفسه فمن حيث هي لاحظة لا من حيث
هي بزيئتها ، وهناك يحق الوصول ، ^(٢) .

وبلي ذلك ايضاً درجات ودرجات ، لا يفهمها الحديث ولا تشرحها
العبارة ، ولا يكشف المقال فيها غير الخيال . ومن أحب ان يتعرفها
فليتدرج الى ان يصير من اهل المشاهدة دون المشافهة ، ومن الواصلين
للعين دون السامعين للأثر ^(٣) .

ان هذا الكلام قد يثير ضحك المفئّل ، ولكنه يستجلب عبرة
الحصل المستبصر . فمن سمعه فاشماز عنه فليتهم نفسه لأنه محجوب .
وكلّ ميسرٍ لما خلق له ^(٤) .

٩ - الأخلاق

الأخلاق جمع خلق ، وهو هيئة تحدث للنفس الناطقة من جهة

١ - انظر المصدر السابق ص ٨٢٨ - ٨٣١ .

٢ - انظر الاشارات ، ص ٨٣٣ - ٨٣٥ .

٣ - المصدر السابق ص ٨٤١ - ٨٤٢ .

٤ - المصدر السابق ص ٨٥٢ .

انقيادها للبدن وغير انقيادها له . فان العلاقة التي بين النفس والبدن
توجب بينها فعلاً وانفعالاً . فالبدن — بالقوى البدنية — يقتضي اموراً ،
والنفس — بالقوة العقلية — تقتضي اموراً مضادة لكثير منها . فتارة تحمل
النفس على البدن فتقهره ، وتارة تسلكم للبدن فيمضي في فعله . فاذا تكرر
تسلّمها له حدث من ذلك هيئة اذعانية للبدن حتى يعسر عليها بعد
ذلك ما كان لا يعسر قبل من مناعته وكفه عن حريته . واذا تكرر
قمعها له حدث منه في النفس هيئة استعلائية عالية يسهل عليها بذلك
من مفارقة البدن فيما يميل اليه ما كان لا يسهل ... فسعادة النفس في
كال سعادتها — من الجهة التي تخصها — هو صيرورتها عالماً عقلياً ،
وسعادتها — من جهة العلاقة التي بينها وبين البدن — ان تكون لها الهيئة
الاستعلائية .

فالواجب ان نطلب الاستكمال بأن نتصور نسبة الأمور الى الموجودات
المفارقة ، فنستعد بذلك للاستكمال الأكل عند المفارقة ، وان نحتال في
أن لا تتعلق بالنفس هيئة بدنية . وذلك بان نستعمل هذه القوى على
التوسط . اما الشهوة فعلى سيرة العفة ، واما الغضب فعلى سيرة الشجاعة .
فن فارق الحياة وهو على هذه الحال اندرج في اللذة الأبدية ونال السعادة
الحقيقية وانطبعت فيه هيئة الجمال الذي لا يتغير ، مشاهداً فيه الحق
الأول وما يصدر عنه .

وبعبارة اخرى ان السعادة الانسانية لا تتم إلا باصلاح الجزء العملي
من النفس ، وذلك بأن تحصل ملكة التوسط بين الخلقين الضدين . اما القوى
الحيوانية فبأن تحصل فيها هيئة الازعان ، واما القوى الناطقة فبأن تحصل فيها
هيئة الاستعلاء .

فاذا قويت القوى الحيوانية وحصلت لها ملكة استعلائية حدث في
النفس الناطقة هيئة واثر انفعالي يرسخ في النفس الناطقة . ومن شأن ذلك ان
يحملها خاضعة للبدن شديدة الانصراف إليه .

واما ملكة التوسط فهي تنزيه النفس الناطقة عن الهيئات الانقيادية وابقاؤها على جيلتها مع افادة هيئة الاستعلاء والتنزيه . وذلك غير مضاف لجوهرها ولا مائل بها الى جهة البدن ، بل عن جهته . فاذا فارقست البدن وفيها الملكة الحاصلة بسبب الاتصال بالبدن ، كانت قريبة النسبة من حالها وهي فيه ^(١) .

فيجب على المعتني بأمر نفسه تكميل قوته النظرية بالعلوم والمعارف ، وتكميل قوته العملية بالفضائل التي اصولها العفة والشجاعة والحكمة والعدالة وتجنب الرذائل التي بازائها ، وعليه ان يمنع كل ما يخالف جوهره الذكي من شهوة او غضب او حرص او طمع ويحجر على النفس ما لا ينبغي ، ولا يتعاطى الا الفكرة في جلال الملكوت وجناب الجبروت حتى يصير تخيل الواجب والصواب هيئة نفسانية فيه . وكذلك يجب ان يهجر الكذب قولاً وتخيلاً حتى تحدث للنفس هيئة صدوقة وان يجعل حب الخير وعشق الاخيار وحب تقويم الاشرار وردعهم امراً طبيعياً جوهرياً فيه ؛ ويحتال حتى لا يكون للموت عظيم خطر عنده ، وذلك بكثرة تشويق النفس إلى المعاد واطرارها بكل الفساد بالبال ، حتى لا يتمكن تمكن المعتاد .

وأما اللذات فيستعملها على صلاح الطبيعة وابقاء الشخص او النوع او السياسة ، على ان يكون هذا خاطراً عندما يُستعمل بالبال ، وتكون النفس الناطقة هي المدبرة .

واما المشروب فيجب ان يُهجر تناوله تلهياً ، ولا يُسْنَمَل الا تشفياً وتداوياً وتقوياً .

والمسموعات يديم استعمالها على الوجه الذي توجبه الحكمة لتقوية جوهر النفس وتأييد جميع القوى الباطنة . ولا يتعاطى في المساعدة فاحشة ولا يُغْلِظ بهُجَر ، وعليه ان يحفظ سر كل اخ ويوفي بما يعد ، ويركب بمساعدة الناس كثيراً مما هو خلاف طبعه ؛ ثم لا يقصر في الأوضاع الشرعية

١ - انظر رسالة في المهد صفحة ١٤٩ - ١٥٠ (ضمن تسع رسائل) .

وتعظيم السنن الإلهية والمواظبة على التعبدات البدنية ، ويكون دأبه ودوام عمره - إذا خلا وخلص من المعاشرين - تطرية الزينة في النفس والفكرة .

فمن عاهد الله أن يسير بهذه السيرة ويدين بهذه الديانة كان الله له ووفقه لما يتوخاه منه بمنته وسعة جوده^(١).

تلك هي خلاصة موجزة لمذهب ابن سينا في الأخلاق . وهو كما نرى مذهب تلتقي فيه نظرية الأوساط الأرسططاليسية مع نفحات دينية وصوفية وخطرات نفسية وميتافيزيقية هي امتداد لفلسفة ابن سينا العامة وتسير في اتجاهها المرسوم . وبذلك يكون هذا المذهب نتيجة منطقية لمجماع فلسفته النظرية كلها متناسق معها مرتبط بها ارتباط الكل بالجزء . ولئن دل هذا على شيء فلأنما يدل على حرص ابن سينا على وحدة فكره ووحدة فلسفته ، وبالتالي على سلامة اتجاهه ، رغم تعدد المظان التي استقى منها وتباين المصادر التي رجع إليها .

١٠ - السياسة

لقد منَّ الله على خلقه مناً مستأنفاً بأن جعلهم في عقولهم وآرائهم متفاضلين كما جعلهم في أملاكهم ومنازلهم ورتبتهم متفاوتين ، لما في استواء أحوالهم وتقارب أقدارهم من الفساد الداعي إلى فناءهم لما يُلقى بينهم من التنافس والتحاسد ويشير من التباعي والتظام .

فلما كان التحاسد من طباعهم والتباهي من سوسهم وفي أصل جوهرهم كان اختلاف أقدارهم وتفاوت أحوالهم سبب بقاءهم وعلة لقناعتهم . فأصل الاجتماع في نظر ابن سينا اذن إنما هو التفاوت في المراتب والصفات ، والا لما كان تعاون أو اجتماع^(٢) .

واجبات الرئيس . - وهذا التفاوت بين الناس جعل من الضروري قيام

١ - انظر رسالة في علم الاخلاق ، صفحة ١٥٢ - ١٥٦ (ضمن تسع رسائل) .

٢ - كتاب السياسة صفحة ٣ .

رئيس بينهم يكون قصده الأول وضع السنن وترتيب المدينة على أجزاء ثلاثة هم المدبرون والصناع والحفظة ، وان يُرتب في كل جنس منهم رئيساً يترتب تحته رؤساء يلونه يترتب تحتهم رؤساء يلونهم ، الى ان ينتهي الى أفناء الناس ؛ وبذلك لا يكون في المدينة انسان معطل ليس له مقام معلوم . ويجب ان تشمل العناية جميع الناس لا سيما ضعافهم ، لأن الفرد الذي لا ظهر له احوج الى حسن العناية من المستظهر بكفاية الكفاة ورغد الوزراء والاعوان .

ثم يجب ان يفرض السّان طاعة من يخلفه والا يكون الاستخلاف الا من جهته أو لمن ثبت عند الجمهور انه مستقل بالسياسة وانه أصيل العقل حاصل على الاخلاق الشريفة ، وانه عارف بالشريعة حتى لا اعرف منه . والاستخلاف بالنص اصوب اذ هو لا يؤدي الى التشعب والتشاغب والنزاع . واعظم ما يُعوّل عليه هنا هو العقل وحسن الإيالة .

وينبغي على السّان أن يجاهد المخالفين والمبطلين واهل الضلال ويفرض عليهم عقوبات وحدوداً ومزاجر ليمنع بذلك عن معصية الشريعة . ويجب ان يكون اكثر ذلك في الافعال المخالفة للسّنة ، الداعية الى فساد نظام المدينة : كالزنا والسرقة ومواطاة الاعداء وغير ذلك .

ويجب ان تكون السّنة في العبادات والمزاوجات والمزاجر معتدلة لا تشدد فيها ولا تساهل ، ويجب ان يُترك كثير من الاحوال للاجتهاد وإعمال الرأي فان للظروف والاحوال احكاماً لا يمكن ضبطها في كتاب من القوانين الكلية ، اذ فرض الكليات فيها - مهما بولغ في الاحتراز - أمر غير ممكن^(١) .

الحاجة الى اتخاذ المنازل والمساكن . - ان كل انسان - من ملك وسوقة - يحتاج الى قوت تقوم به حياته ويُبقي شخصه ، وليس سبيل

١ - انظر الشفاء ، صفحة ٤٤٧ - ٤٥٤ .

٢ - انظر الهيات الشفاء صفحة ٤٤٧ - ٤٥٤ .

الانسان في اقتناء الأقوات سبيل سائر الحيوان الذي ينبعث في طلب الرعي والماء عند هيجان الجوع وحدوث العطش ، بل يحتاج الى مكان يخزن فيه ما يقتنيه ، فكان هذا سبب الحاجة الى اتخاذ المساكن والمنازل .

الحاجة الى الزوج والأهل . - فلما اتخذ المنزل وأحرز القنية احتاج الى حفظها فيه ممن يريدونها ومنعها عن يرومها . فدفع به ذلك الى استخلاف غيره على حفظ قنيته ، ولم تسكن نفسه في ذلك إلا الى الزوج التي جعلها الله تعالى للرجل سكناً . وكان ذلك سبب اتخاذ الأهل وحدوث الذرية . فزادت الحاجة الى الأقوات واعداد فضلاتها لأوقات الحاجة ، واضطر الانسان الى القنوم والى الكفاة والخدماء يعينونه ويحملون ثقله . فاذا به صار راعياً مسيماً وصار من تحت يده له رعية وسائمة . فهو كالمسلم يلزمه ان يرتاد مصالح سائته من الكلأ والماء نهراً ومن الحظائر والزرائب ليلاً ، وان يُذكي عيونه في كلائها ويبث كلابه في اقطارها ، ليحرسها من السباع العادية ومن الآفات الطارئة ، وان يختار لها المشقى الدفيء والمصيف المريح ويروود لها في طلب الكلأ والنسطف^(١) العذاب . ويلزمه بعد ذلك ان يسوقها الى مصالحها ويصرفها عن متالفها . فإن كفاء ذلك في حسن انقيادها واستقامة ضلعها ، وإلا أقدم عليها بعصاه . كذلك يلزم ذا الأهل والولد والخدم والتبّع احسان سياستهم وتقويمهم بالترغيب والترهيب وبالوعد والوعيد وبالأعطاء والحرمان ، حتى تستقيم له قناتهم^(٢) .

شرف النفس . - وليس شيء أزين بالرجل من رزق واسع وافق منه استحقاقاً والعيش على أعف الوجوه وأرفقها وأبعدا عن الشره والحرص وأنأها عن الطمع الفاحش والمأكل الخبيث .

وكل فضل نيل بالمغالبة والمكابرة ، وبلاستكراه والمجاهدة ، وكل

١ - المياه الصافية .

٢ - انظر كتاب السياسة صفحة ٥ - ٦ .

ربح حيز بالاثم والعمار ، ومع سوء القالة وقبح الأحداث ، او ببذل الوجه ونزف الحياء ، او بثلم المروءة وتدنيس العرض . كل اولئك زهيد وان عظم قدره ، نزر وان غزرت مادته ، وبيل وان ظهرت هناءته ، وخيم وان كان في مرآة العين مريباً .

والكسب الشريف وان قل مقداره . وخف وزنه اطيب مذاقاً وألسن مساغاً وانمى بركة وازكى ريعاً^(١) .

شرائط المعروف . — والمعروف شرائط احداها تعجيله ، فإن تعجيله اهناً له . والثانية كتمانها ، فإن كتمانها اظهر له . والثالثة تصغيره ، فإن تصغيره اكبر له . والرابعة مواصلة ، فإن قطعه ينسي اوله ويمحو اثره . والخامسة اختيار موضعه ، فإن الصنعة اذا لم توضع عند من يحسن احتمالها ويؤتي شكرها ويقابلها بالود والمواالة كانت كالبذر الواقع في الارض السبخة التي لا تحفظ الحب ولا تنبت الزرع^(٢) .

في الاقتصاد أو سياسة الرجل دخله وخرجه . — فأما النفقات فان سوادها واصلاح امرها بين السرف والشح ، ومتروك بين التضييع والتقدير . لكن الانسان متى استوفى حقوق التقدير كلها واستعرف شرائط الاقتصاد اجمع لم يسلم في ذلك من غمضة الغامر . فينبغي للعاقل ان يبني بعض امره في الاتفاق على عقول عوام الناس ، وان يستعمل كثيراً من التجوز والاغضاء في المواضع التي يخشى فيها شبه السرف وعار التضييع . فان من يمدح السرف من العوام اكثر ممن يمدح الاقتصاد ويؤثر التقدير ، كما ان من يمدح الاقتصاد ويؤثر التقدير اخص واتم عقلاً واحزم رأياً^(٣) .

سياسة الرجل في اهله . — ان المرأة الصالحة شريكة الرجل في ملكه وقيّمته في ماله وخليفته في رحله . وعليه ان يحسن معاملتها لتحسن

١ — انظر كتاب السياسة صفحة ٩ .

٢ — » » » » ١٠ .

٣ — المصدر السابق صفحة ١١ .

معاملته وأن يكرمها لتكريمه . وجماع سياسة الرجل اهله ينحصر في ثلاثة أمور لا بدّ من مراعاتها وهي الهيبة الشديدة والكرامة التامة وشغل خاطرها بالمهم .

أما الهيبة فهي اذا لم تهب زوجها هان عليها فلم تسمع لأمره ولم تصنع لنهيه ، ثم لم تقنع بذلك حتى تقهره على طاعتها . والويل حينئذٍ للرجل لما يجلبه له تمردهما وطغيانها ويحنيه عليه قصر رأيها في العار والشنار والهلاك والدمار .. وليست هيبة المرأة بعلمها شيئاً غير اكرام الرجل نفسه وصيانة دينه ومروءته وتصديقه وعده ووعيده .

أما كرامة الرجل اهله فمن منافعها ان المرأة الكريمة اذا لقبت كرامة من زوجها رغبت في استدامتها وأشفقت من زوالها ودعاها ذلك الى أمور كثيرة جميلة لا يستطيع الرجل إصارتها اليها من غير هذا الباب إلا بالتكلف الشديد والمؤونة الثقيلة . وكرامة الرجل اهله لا بدّ فيها من مراعاة ثلاثة أشياء هي : تحسين شارتها وشدة حجابها وترك اغارتها .

وأما شغل الخاطر بالمهم فهو ان يتصل شغل المرأة بسياسة اولادها وتدبير خدمها وتفقد ما يضمه خدرها من اعمالها . فإن المرأة اذا كانت خالية البال لا شغل لها لم يكن لها م إلا التصدي للرجل بزينتها والتبرج بهيئتها ، ولم يكن لها تفكير إلا في استزادتها ، فيدعوها ذلك الى الاستهانة بكرامة زوجها والزهد بزيارته والسخط على جملة إحسانه ^(١) .

في التربية او سياسة الرجل ولده . — من حق الولد على والديه حسن تسميته ثم اختيار ظنّره ، كي لا تكون حمقاء ولا ورهاء ولا ذات عاهة ، فإن اللبن يعدي كما قيل . فإذا فطم الصبي عن الرضاع بُدِيء بتأديبه ورياضة اخلاقه قبل ان تهجم عليه الاخلاق اللثيمة وتفاجئه الشم الذميمة . فإن الصبي تتبادر اليه مساوىء الاخلاق وتنثال عليه الضرائب الحبيثة . فما تمكن منه في ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة ولا عنه نزوعاً .

١ - المصدر السابق صفحة ١٢ .

فينبغي لغنم الصبي ان يحنبه مؤدبه مقابح الاخلاق وينكسب عنه معايب العادات بالترهيب والترغيب ، والايناس والايحاش ، وبالأعراض والإقبال ، وبالحد مرة وبالتوبيخ اخرى ، ما كان كافياً . فإن احتاج الى الاستعانة باليد لم يحجم عنه . وليكن اول الضرب قليلاً موجعاً ، بعد الإرهاب الشديد وبعد اعداد الشفعاء . فإن الضربة الاولى اذا كانت موجعة ساء ظن الصبي بما بعدها واشتد منها خوفه ، أما اذا كانت الاولى خفيفة غير مؤلمة فقد حسن ظنه بالباقي فلم يحفل به .

فإذا اشتدت مفاصل الصبي واستوى لسانه وتهاى للتلقين ووعى سمعه اخذ في تعلم القرآن وصورت له حروف الهجاء ولقن معالم الدين وحفظ القصيد . ويبدأ في الشعر بما قيل في فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهل ، وما حث فيه على بر الوالدين واصطناع المعروف وقسري الضيف وغير ذلك من مكارم الاخلاق .

وينبغي ان يكون مؤدب الصبي عاقلاً ذا دين ، بصيراً برياضة الاخلاق حاذقاً بتخريج الصبيان ، غير كزّ ولا جامد ، بل حلواً لبيباً ، قد خدم سراة الناس وعرف ما يتباهون به من اخلاق الملوك وآداب المجالسة والمؤاكلة والمحادثة والمعاشرة .

وينبغي ان يكون مع الصبي في مكتبه صبية من اولاد الجلّة ، حسنة آدابهم مرضية عاداتهم ؛ فان الصبي عن الصبي ألقت ، وهو عنه آخذ ، وبه مستأنس . وانفراد الصبي الواحد بالمؤدب اجلب الاشياء الى ضجرهما . فاذا راوح المؤدب بين الصبي والصبي كان ذلك أنقى للسامة وأبقى للنشاط وأحرص على التعلم والتخرج وأدعى للمباراة والمباهاة والمساجلة وانشراح العقل .

واذا فرغ الصبي من تعلم القرآن وحفظ اصول اللغة 'نظر عند ذلك الى ما يراد ان تكون صناعته 'فوجه لطريقه . فاذا اراد وليه به الكتابة اضاف الى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ومناقلات الناس ومحاوراتهم ،

وطورح الحساب ودُخل به الديوان وعني بخطه . وان أريد به صناعة
اخرى اخذ به فيها . فليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مؤاتية ،
لكن ما شاكل طبعه وناسبه .

والدليل على ذلك سهولة بعض الادب على قوم وصعوبته على آخرين .
ولذلك نرى واحداً من الناس تؤاتيه البلاغة ، وآخر يؤاتيه النحو ، وآخر
يؤاتيه الشعر ، وواحداً يختار علم الحساب ، وآخر يختار علم الهندسة ،
وآخر يختار علم الطب . وهكذا . ولهذه الاختيارات اسباب غامضة وعقل
خفية تدق عن أفهام البشر وتلطف عن القياس والنظر .

وربما نافر طباعَ انسانٍ جميع الآداب والصنائع ، فلم يعلق منها بشيء .
فلذلك ينبغي لمؤدب الصبي - اذا رام اختيار الصناعة - ان يزن اولاً طبع
الصبي ويسبر قريحته ويختبر ذكائه ، فيختار له الصناعات بحسب ذلك .
فاذا اختار له احداها تعرف قدر ميله اليها ورغبته فيها ، ونظر هل
جرت منه على عرفان أم لا ، وهل ادواته وآلاته مساعدة له عليها أم
خاذلة ، ثم يثبت العزم . فان ذلك احزم في التدابير وأبعد من ان تذهب
ايام الصبي فيما لا يؤاتيه ضياعاً .

فاذا اوغل الصبي في صناعته بعض الوغول فمن التدبير ان يُعرض
للكسب ويُحمل على التعيش منها ؛ فانه يحصل في ذلك له منفعتان :
احداها اذا ذاق حلاوة الكسب بصناعته وعرف غناها تعلق بها
وثابر عليها ؛

والثانية انه يعتاد طلب المعيشة قبل ان يستوطن حال الكفاية .
فاننا قلّ ما رأينا في ابناء المياسير مَنْ سلم من الركون الى مال ابيه
وما أعدّ له من الكفاية . فلما عوّل على ذلك قطعه عن طلب المعيشة
بالصناعة وعن التحلي بلباس الادب .

فاذا كسب الصبي بصناعته فمن التدبير ان يُزوّج ويفرد رحلته^(١) .



هذه هي مجمل آراء ابن سينا في السياسة . ومنها يتبين لنا انه ليس لابن سينا مذهب سيامي كما للفارابي . فاذا صح وصف سياسة الفارابي بأنها سياسة طويلة النفس فان سياسة ابن سينا سياسة قصيرة النفس . أجل ليس لابن سينا مذهب سيامي وانما هي أقوال ونصائح يسديها على طريقة أهل الوعظ والارشاد ، وإن كانت من نوع أرقى ، إذ هي تمتاز بالأدب الرفيع والعبارة الجزلة المشرقة . واذا كانت سياسة الفارابي تركز على الجماعة ومقام الرئيس في هذه الجماعة فان سياسة ابن سينا انما تركز على الفرد ومقام هذا الفرد بين اهله وعشيرته .

ويلاحظ ان ابن سينا يلحق التربية بالسياسة ويحملها فرعاً من فروعها . وله في التربية آراء تقدمية صائبة تدل على بعد نظره وعمق تفكيره وصدق تحليله لخلجات النفس ودوافعها ، قوامها التوجيه المهني ومراعاة ميول الأشخاص واعدادهم للحياة بحسب نوازع نفوسهم وحاجات فطرم ، وهي آراء لا أخال علم التربية الحديث قد أضاف إليها شيئاً أساسياً . فاضافته إنما تنحصر في الجزئيات والفروع لا في الكليات والمبادئ التي استوعبها دستور ابن سينا وأتى عليها جميعاً أو كاد .

خاتمة . — لقد كان ابن سينا تلميذاً للفارابي ولكنه لم يكن الفارابي . فلكل منها شخصيته المستقلة ولكل منها منحى تفكيره ، رغم ان احدهما امتداد للآخر ومكمل له . فكلاهما بمقاييس العصر رجل فد في تفكيره عظيم في محاكمته عملاق في فلسفته . ولئن كان الفارابي قد وضع حجر الأساس فانه لم يخلد إلا بفضل ابن سينا الذي كان له تأثير واسع النطاق في الشرق والغرب . فهو يعد عند أهل الشرق امير الفلاسفة : فليس من مفكر قد جاء بعده إلا وتربطه بفلسفة ابن سينا رابطة من الروابط . اما في الغرب فان

١ — المصدر السابق ، صفحة ١٢ — ١٥ .

أحداً لا يدري ماذا كان عسى أن يكون الفكر الأوروبي لولا ابن سينا . فهو أول فيلسوف مسلم تغلغل في الأوساط اللاتينية قبل أن تُعرف فلسفة أرسطو بوقت طويل ، وذلك لتجاوب فلسفته مع فلسفة القديس أوغسطين ذات النزعة الأفلاطونية ، حتى لقد نشأ عن ذلك تيار جديد يسميه المسيو جلسون (Et. Gilson) الاوغسطينية السيناوية (Augustinisme avicennisant) ولم يضعف هذا التيار إلا منذ القرن الثالث عشر عندما تُرجمت إلى اللاتينية آثار ابن رشد الذي أوجد حركة فكرية جديدة ظلت تؤثر في الأوروبيين حتى عصر النهضة ، على ما سنرى في حينه .

الفصل السابع

أبو العلاء المعري

(٣٦٢ - ٤٤٩ هـ / ٩٧٣ - ١٠٥٧ م)

حياته

هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التتوخي الشهير بالمعري . ولد بعمرة النعمان من أعمال حلب وعلى بعد عشرة أميال الى الجنوب منها ، وهو سليل بيت شب على شعائر المروءة والتعفف واعرق في الشرف والفضل والعلم والادب والقضاء . وحسبه انه من قبيلة تتوخ التي يشهد المؤرخون بانها كانت من اكثر العرب مناقب وحسباً .

ولما بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجدري ، فما زال يضره وينهك قواه حتى ذهب بيُسرى عينيه . ثم غشي يُنْماها بالبياض ، ولم يكن الا قليل حتى فقد ما بقي فيها من قوة الابصار . فشاع الظلام في حياته وأسدل بينه وبين الدنيا ستار حالك السواد وهو بعد طفل لم يبلغ الحلم . فلم يستطع حين شب ان يتذكر ما رأى من الألوان ولم يبق في ذاكرته منها الا اللون الاحمر لانه ألبس في الجدري ثوباً معصفاً ، فكانت ذكراه في نفسه كل ثروته من دنيا الألوان والأشكال وكل ما وعاه عقله من عهد النور . ولذلك كان يعد اللون الأحمر ملك الألوان .

وفي سن لم يحددها لنا التاريخ بدأ دروسه في اللغة على ابيه ، كما تلقى شيئاً من الادب والفقه عن بعض شيوخ المعرة . وقد اتفق مؤرخوه على انه بدأ يقرض الشعر وهو في الحادية عشرة من عمره . ثم ارتحل الى حلب ليستزيد من علماء الافذاذ ، فقد كانت انذاك من حواضر العلم والادب الكبرى وكانت تزدهي برجال الفكر والعلم الذين كان اجتذبتهم إليها سيف الدولة في ايامه الغر . ويقال انه سافر إلى مدينتين روميتين هما انطاكية واللاذقية ، وفيها درس الكتب ولقي النصارى وسمع مقالات الفلاسفة وشهد آثار الحضارة اليونانية . كما يقال انه ذهب ايضاً الى طرابلس وكان بها مكتبة كبيرة وقفها اهل اليسار على كل راغب في العلم والمعرفة . فانكب عليها ووعى ما استطاع ان يعي مما اشتملت عليه من العلم على اختلاف فنونه .

وفي هذه الأثناء ورد إليه نعي ابيه فأضافت الاقدار إلى مصيبته في العمى مصيبة اليتيم ، فكان موته ظلمة جديدة في قلب هذا الضريح وفراغاً قاسياً في اعماق روحه . لقد اورثه ابوه اللحم والدم وكرم المحند ، وكفاء القوات واللباس والمنزل ، وغذى عقله بالعلم والأدب ، والآن ينتزعه منه القدر على غرة فكيف يواصل الترحال ؟ فعاد الى المعرة وبقي فيها خمس عشرة سنة يحتر احزانه ويندب حظه العاثر . ولم يجد خيراً من الشعر يخفف به لوعته ويملاً فراغ نفسه ، فانتالت عليه القوافي واسلست له القياد . ولكنه امتنع عن التكسب بشعره وآثر الفقر وضيق ذات اليد على الثروة تباع فيها الكرامة ويراق في سبيلها ماء الوجه . وقد شهد المعري في هذه الفترة كثيراً من الفتن العظيمة والحروب الهائلة بين الحمدانيين والفاطميين ، كما كان الروم يغيرون من اطراف الثغور على شمال الشام وينتاشون المعرة فيما يناوشون . وقد اتى ابو العلاء في شعره على وصف هذه القلاقل والمعارك والحروب . ولما ملّ المقام بالمعرة طمح بعزيمته الى بغداد وكانت عروس الدنيا ومحجة العلم والأدب ومركز الحضارة وملتقى الشعراء والكتّاب والمفكرين . فخاب ظنه بها حين تنكر له فريق من اهلها ، وازداد برمه بالحياة وعظم تشاؤمه وضافت به الدنيا

على رحبها .

وانه لكذلك إذ بلغه مرض أمه فحزم أمره على ترك بغداد والعودة الى بلده .
وفي طريقه الى المعرة جاءه نعيمها ، فافتقد آخر من كان يرجو لقاءه . لقد
حملته جنيناً وأرضعته طفلاً ورثت به يتيماً وتلفت على فراقه في الوداع
الأخير ... فينص ويضطرب ويتيه به الفكر ويعيش بقية حياته وحيداً
لا رفيق له إلا همومه ولا عمل له إلا تأمل سواد ليله القاتم وسماع العويل
والنحيب . فاعتزل الناس ولزم بيته لا يبرحه قرابة نصف قرن . ولهذا سمى
نفسه (رهين الحبسين) يريد حبسه عن الدنيا بسبب العمى وحبس نفسه
بداره . ولكنه أخيراً جعل هذه المحاسن ثلاثة فقال :

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسم الخبيث
وما زال القدر يعصف به ويهز قلبه وكيانه حتى مرض مرض الموت ، ثم
وافاه الأجل بعد أن أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت الذي يلخص
جماع فلسفته :

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد

آثاره

ترك ابو العلاء كثيراً من الآثار المنظومة والمنثورة ، ولكن لم يصل إلينا
منها إلا النزر اليسير . وأما الباقي فقد باد ولم يخرج من المعرة وإنما اتى عليه
تخريب الصليبيين وتحريقهم كما ذكر القفطي والذهبي . وقد اتى لابي العلاء
رجل يعرف بالشيخ ابي الحسن علي عبدالله ابي هاشم فكتب عنه ما أملى من غير
أن يقتضي على ذلك اجرا . وهذه هي أشهر كتبه :

١ — سقط الزند وهو ديوان شعره في المرحلة الأولى من حياته ، وفيه
مدائحه ومراثيه وبواكير من شكه وتشاؤمه ، وإن كان لا يخلو من بعض
قصائد نظمت في عهد متأخر .

٢ — الدرعيات وهو ديوان صغير مستقل يشتمل على أشعار يصف فيها

المعري انواع الدروع ووجوه فائدتها . وقد طبع هذا الديوان في مصر ملحقات بسقط الزند .

٣ — اللزوميات وهي اكبر الدواوين الثلاثة وأجلتها خطراً ضمنها آراءه الفلسفية في النفس والخلقة والأديان كما سنرى .

٤ — الفصول والغايات وهو الكتاب الذي زعم شائقوه انه عارض به القرآن الكريم وسماه (الفصول والغايات في محاكاة السور والآيات) . والمراد بالغايات هنا القوافي ، لأن القافية غاية البيت أي منتهاه . وليس في هذا الكتاب إلا عظات ونصائح وتلخيص لما في كتبه الاخرى من النقد الاجتماعي . وفيه ايضاً حديث نسكه واعتزاله وكيف كان شبابه وما صار اليه في شيخوخته . وقد بدأ كل فصل بتمجيد الله والتسبيح له بلفظ متواتر السجعات . ولعل مصدر سوء ظن الناس بهذا الكتاب ان أبا العلاء قد تحدث ببعض ما في نفسه من معارضة للقرآن الى نفر من خاصته فشاعت عنه قالة لم تثبت عليه .

٥ — الأيك والغصون وهو في العظات وذم الدنيا — ولم يصل اليها — .

٦ — رسالة الغفران وهي من اعظم آثاره وأحقها بالخلود . وقد سميت كذلك لأنه يستعمل فيها لفظة « الغفران » كثيراً .

٧ — القائف وهو كتاب ألفه ابو العلاء على معنى كلية ودمنة .

٨ — مجموعة اخرى من الرسائل منها (رسالة الطير) و (رسالة الملائكة) . وكان من عادة ابي العلاء ان يتبع الكتاب من كتبه بشرح له مستقل يفسر فيه غريبه ويبين غامضه ويكشف مغلقه ، وقد يكتفي في ذلك بكتاب واحد كما فعل في (منار القائف) وهو شرح لكتاب (القائف) (وضوء السقط) وهو شرح لكتابه (سقط الزند) (وخادم الرسائل) وهو شرح لغريب ما في رسائله . وقد يزيد فيضع كتابين او اكثر لشرح الكتاب الواحد ، كما فعل في « الفصول والغايات » فشره بكتابي « اقليد الغايات » و « السادن » وكذلك « اللزوميات » اتبعها اربعة كتب : « زجر النابح » و « بحر الزجر » و « الراحة » و « راحة الزوم » .

اسلوبه

بدأ ابو العلاء في قرض الشعر منذ بلغ الحادية عشرة وظل يقول الشعر الى ان مات . ويمكن تقسيم شعره الى ثلاثة اطوار : (١) طور الصبا والحدائث وينتهي حين بلغ العشرين . (٢) وطور الشباب وينتهي حين عاد من بغداد . (٣) وأخيراً طور الكهولة والشيخوخة وينتهي بموته .

ففي الطور الاول حيث كان قليل النضج كان شعره قليل الصقل كثير التكلف والمبالغة يعوزه النضج ومتانة اللفظ ورصانة المعنى المتقن والعميق ، لأن مهمه التنميق والترقيش وإظهار التفوق والنبوغ ، فقد جعل وكده في هذه المرحلة اللغة والصناعة ، فكانت ألفاظه اكثر من معانيه .

وعندما زاد نضجه في طور الشباب وكثرت افكاره ومعانيه اهل التنسيق والترقيش وأغفل الصناعة اللفظية وقلَّ ما في شعره من تكلف ومبالغة . فزاد متانة واثقاناً واقتصاداً في اللفظ والمعنى ، وأصبح اقدر على تمثيل عواطف الشاعر ولواعج نفسه .

لكن الفشل الذي مني به في بغداد وما لقيه من عنت بعض الحكام فيها ، وما اعقب ذلك من تبدل في طباعه ومشاعره ومن نقمة على الحياة والوجود — كل اولئك جعله ينهج نهجاً صارماً في حياته ويتشدد في كل شيء ، في القول والعمل والفكر . ولذلك نجد شعره في طوره الاخير يمتاز بالتشدد في التماس الإجادة وإيثار القافية الصعبة والتزام ما لا يلزم منها ، ليجعل من القافية مجالاً لإظهار عبقريته ومسرحة لإبراز مواهبه ونبوغه ، وقد ساعده على ذلك لزومه داره لا يبرحها قرابة نصف قرن . فكيف يسلي عن نفسه ألم الوحدة ويهون عليها احتمال الفراغ إلا بهذا العبث الذي يشعرها ويشعر الناس بأنه قد ملك اللغة وسيطر عليها ؟ وكذلك نجد في هذا الطور يتشدد في محاكاة المتقدمين مؤثراً الالفاظ البدوية الجزلة والأسلوب البدوي المطبوع ، وكان لا يتحضر في شعره إلا اذا ألجأته الى ذلك ضرورة حازية .

هذا ما كان من شعر ابي العلاء . اما نثره فلم يصلنا منه في طور الصبا

والحدائث شيء ، ولذلك نضرب صفحاً عنه في هذا الطور .
وكما كان شعره في طور الشباب فيه تكلف وضعف في المتانة فكذلك كان
نثره في هذا الطور . لذلك لا تخلو رسائله من السجع والألفاظ الغريبة
والمبالغة ، فلا يجد فيها المرء إلا ألفاظاً مرصوفة وكلمات مزخرفة ، يزينها
السجع وتتفاوت في المتانة والقوة .

أما في طور الشيخوخة والعزلة فقد كان نثره - كشعره - يمتاز بالصرامة
والتشدد في الصنعة اللفظية والتزام ما لا يلزم من السجع وإيثار الغريب .
حق إذا كان المعنى الواحد يمكن أداءه بعبارات واضحة وبعبارات غامضة
ذات ألفاظ غريبة ، اختار الثانية ، كما ترى في (رسالة الغفران) أما المبالغة
فقد قلت ، ولكنها لم تتمح . وهناك ظاهرة أخرى تبدو في نثره في هذا
الطور وهي ولعه بالشروح المضممة . ففي (رسالة الغفران) مثلاً شروح
معتزة تكاد تجدها في كل صفحة ، فهو حريص على تفسير كل ما غمض من
ألفاظه . وقد بلغ ولع أبي العلاء بهذه الطريقة أن ضحى في سبيلها بالجمال
الغني ووحددة السياق ونسق الجمل وترتيب المعاني . ولما كان النثر أقل قيوداً
من الشعر وأكثر حرية فإن أظهر ما يطالعك به نثر أبي العلاء في هذا الطور
قدرته على استقصاء المسألة التي يعرض لها واستيفائها حقها من البحث حتى أنه
ليبعث الملل في نفس القارئ المتعجل ، وإن كان يرضى الباحث المحقق .

أخلاقه وسجاياه

إن أبرز صفات المعري زهده وإعراضه عما في هذه الحياة من متاع ،
وكذلك عفته وقناعته واعتداده بنفسه التي ارتفع بها عما تحتاج إليه الحياة من
صراع وآثرها بالعافية وألزمها القصد والاعتدال ، وضمن بها على الكذب
والمين وعلى البيع والشراء . كان أبو العلاء يحب أن يقدم الإنسان على الخير
لأنه الخير ، وأن يحجم عن الشر لأنه الشر ، فلم يكن يكره شيئاً كما كان يكره
انتظار الجزاء . كان عفيف النفس والخلق والرأي والعقل جميعاً وكان لا يخشى
في الحق لومة لائم . ومن أجل هذا لم يكن حلو الأثر في النفوس الضعيفة

ولا عذب الصوت في آذان الذين في قلوبهم مرض ، كما لم يكن محبب النفس الى الذين يتصلون به فيرون منه هذه الخشونة التي تأتي من صراحة الخلق وهذه الغلظة الذي يبعث عليها اثاره للحق . وحسبنا ان نعلم انه قضى حياته او شطراً عظيماً منها مقلداً من المال مكثرأ من الأدب والعلم ، فلم يتكسب بالشعر ولم يكلف نفسه مذلة السؤال على ما مرّ معنا في ترجمته . ومن أظهر اخلاقه ضبط النفس وقهر الشهوات . فهو لم يدع لنفسه شهوة إلا أذلها ولا عاطفة إلا اخضعها لسلطان عقله . ان رجلاً ينيف على الثمانين من غير ان يتزوج ومن غير أن يرغب في النسل الذي هو أشد الملهات استئثاراً بالنفس واستعواذاً على القلب — مع شدة حاجته الى ولد صالح يعينه على أعباء الحياة او يسليه عن همومها — لملك نفسه ومسيطر على شهوته وباسط سلطان عقله على ماله من حس وشعور .

وكذلك كان ابو العلاء كريماً سخياً طيب النفس يبذل المال اذا ملكه وكان رقيق القلب شديد الرحمة كثير العطف على الضعيف انساناً كان او حيواناً . لقد كان يرحم النحل ويلجّ في ان لا يُشتار ما تجمع لنفسها ، وكان يرحم الدجاج ويفزع اذا قدمت اليه ويرد الناس أشنع الرد عن ابتائها . لقد مرض ابو العلاء فوصفوا له الفروج فامتنع ، وألحوا عليه حتى اظهر الرضى ، فلما قدم اليه لمسه بيده فجزع وقال : « استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل الأسد » ، ثم أبى ان يطعمه .

فالمعري لم يأكل شيئاً من الحيوان ولا من منتجات الحيوان لا اللحم ولا اللبن ولا البيض ولا المسل ولا السمك ، بل كان يعيش على العدس والزيت والتين والدبس ، ويظهر دوام الصوم وكان يلبس خشن الثياب . ويحكى عنه انه كان برهياً .

فإذا كان ابو العلاء يعطف على الحيوان كل هذا العطف فما قولك بعطفه على الانسان ؟ نعم اتنا لنجد لديه سخطاً على الناس غير قليل ، ولكنه سخط مصدره الرحمة لهم والحدب عليهم . فقد كان محباً لهم رفيقاً بهم ، يلين لهم

حيناً ويعنف بهم أحياناً ، وما كان في تقريعه إياهم إلا مؤثراً بالنصيحة لهم ،
يمنعهم قلبه وروحه . لقد استقصى عيوب الناس وتعمق نفوسهم فأظهر
دخائلهم في لهجة عنيفة حادة قاسية . لكنه كان متجنباً كل التجنب للاقتداء
وإذاعة الفحشاء ، فهو لا يريد بهجائه إساءة ولا انتقاماً ولا تشهيراً ، وإنما هو
صاحب أخلاق يريد التهذيب والتأديب والإصلاح . وقد تغلبه الحدة أحياناً
فتجور به عن القصد وتخرجه عن طور الفيلسوف الى طور الشاعر الهجاء ،
ولكنه حسن النية على كل حال قاصد الى الخير والبر .

تشاؤمه

ان التشاؤم هو اخص ما يميز تفكير المعري وهو أبرز الملامح فيه ، إذ
يتجلى في كل نظرة ألقاها على الحياة والناس والمجتمع . فهو لا يرى الدنيا إلا
من وجهها الكالح وأنبيائها المكشرة .

وهذا التشاؤم قد فرض على أبي العلاء فرضاً لا خيار له فيه ! فقد فجعه
القدر ببصره وهو صغير ، ثم بأبيه هو ثم بأمه . وآتاه عقلاً فذاً ثم تركه عاجزاً
لا يستطيع شيئاً إلا بغيره ، محروماً من نشاط الحركة ممنوعاً من المجد وهو
يحمل في نفسه طموح العباقرة وإرادة العظماء . وهكذا شاع الظلام في دنياه
وهو لا يزال طفلاً يستقبل الحياة ، وبادرتة الأيام بالعبوس والتجهم ولداته
يعبثون ويلهون ناعمي البال لا تشغلهم هموم العيش ونكد التفكير في المستقبل .
ان العمى كثيرون ولكن الأذكىاء بينهم قلة ، فليس العمى في ذاته مصيبة ،
وإنما المصيبة هي الشعور به ، وهذا الشعور يزداد بازدياد حدة الذكاء . فعقل
المرء محسوب عليه كما يقولون . ولذلك لا نرى كل أعمى يشكي دهره كأبي
العلاء إذ ليس كل أعمى له ذكاء أبي العلاء . ان الانسان بطبعه أشقى الكائنات
وأتعسها وما ذلك إلا لأنه يفكر . فليس سوى الانسان - كما مرّ معنا^(١) -
من يتألم بالتفكير وليس سواه من يشقى بالتفكير . وكلما زاد حظه من التفكير
زاد شقاؤه . ولذلك صح قول الشاعر :

ذو العقل يشقى في النعم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
فأبو العلاء كان من أولئك الأفراد القلائل الذين كان التفكير وبالأعلى عليهم .
أجل ، ان عقله قد جنى شراً عليه . فذكاؤه الخارق كان له بمثابة العدسة
المكبرة التي لا تُتري الأشياء على حقيقتها بل هي تضخمها وتزيد في إبعادها .
فقد جعله عقله الكبير مرهف الحس رقيق الشعور ، يرى ما لا يرى الآخرون
ويحس أشياء يمر بها غيره سراعاً لا يلتفتون إليها ، وذلك سر عبقريته كما هو
سر محنته . فقد استطاع ان يصوّر مأساة الحياة في عصره ويرصد مآزلهما
ويتعقب شرورها وأخطاءها ، فتحسُّ وأنت تقرأه شكاة نفسه وتشعر بلوعته
وحسراته حتى لتكاد تنفذ الى صميم عالمه المضطرب الحزين .

وليس غريباً ان يحفر الدنيا ويُعرض عما فيها من بشر وإقبال بعد ان
جفته وأعرضت عنه ، وأن يندد بها بعد ان غدرت به ، وأن يسخط عليها
ويكون لها قالياً وعليها زارياً بعد ان كثرت عن انبيائها ، وكشفت له ظهر
الحجن . فمن الطبيعي والحالة هذه ان يزهد بها وقد اقبلت على غيره ، وأن
يرغب في الموت وقد اعيته الحياة . ومن هنا امرافه في ذم الدنيا وأهلها
وتنفيده الناس منها وقد كبرهم بشرورها وغدرها وحشهم على العزوف عنها .
وقد اتخذ (ام دفر) كنية لها فقال :

قد تركنا لأهلها ام دفر وقعدنا عن شغلها فأحبتينا
على ام دفر غصبة الله انها لأجدر انشئ ان تخون وأن تخفى

ان عدداً قليلاً من الناس يبحثون عن الحقيقة . فسواد البشر إنما يطلبون
العافية بأي ثمن ويسعون الى الراحة كيفما اتفق . لذلك يفرون من الحقيقة
ويصنعون الأقنعة الواقية التي تحجبها عن ابصارهم . فلماذا شدة من بينهم من
يكشف القناع ويرفع النقاب ويميط اللثام بادروه بالأوهام والمثل والمقائد بل
والفلسفات (ويكاد يكون المعنى واحداً) ، ووسموه بالتشاؤم وسفتوا احلامه
وأقواله وأوسموه لوماً وتثريباً . هكذا 'خلق الناس' ، وهذه هي فطرتهم .
انهم ينشدون راحة الاعصاب لا اعاصير الفكر ، وتبديد المخاوف لا زيادة

الفزع ، والشعور بالقوة لا الإقرار بالضعف . انهم يريدون ان يروا الاشياء بآمانيتهم وأحلامهم لا بمقتضى عقولهم وأفهامهم . انهم متفائلون بالطبع والغريزة فيا لهم من سعادة ! وأما المتشائمون فإنهم لفرط احساسهم وقوة شعورهم ووعي وجدانهم يرون الاشياء على سجيئتها دونما زخرف او زينة . ولذلك فهم اقرب الى إدراك عيوبها وإدراك الآلام التي تكن وراءها . انهم اصدق حكماً من المتفائلين ولكنهم أشدّ تعاسة ، بينا المتفائلون اكثر غباء ولكنهم في مقابل ذلك اوفر حظاً من السعادة . فما العمل اذا كان الغباء هو العملة الاكثر تداولاً في هذا العالم !

اجل ان التفاؤل يورث الغباء ، ولكن التشاؤم يثير الخيال وقد يحفز الى الخلق والاختراع . انه فعالية ونشاط ، بينا التفاؤل ركود واستسلام . لقد اعطى المتفائلون الرؤى العذبة والأحلام الجميلة ، وأما المتشائمون فقد اعطوا الثورات والحضارات وحركات التوعية والإصلاح .

ان التشاؤم ليس خطراً على الحياة وإلا لما قوّم اعوجاج او اقبلت عثرة . اجل انه ليس خطراً ولكنه ناقوس الخطر . فالناس يحبون ان يظلوا سادرين في اوهامهم ، انهم يرحبون بن يدغدغ أحلامهم ويقول لهم اطمئنا ، لا بن يقول لهم احذروا !

والمعري من هذا القبيل . فهو ما فتىء ينقد ويحذر ويدعو بالتي هي احسن او التي هي اسوأ ، دون ان يخشى في ذلك لومة لائم . فحسبه ان يرضى عقله وضميره رضي عنه الآخرون ام لم يرضوا . ولذلك فقد الحكام والولاة وندد بالعتاة الفاشين منهم الذين وتسد اليهم الحظ الإمرة على الناس فوقعوا على أموالهم وقوع البزات على بغاث الطير ، وجاءهم المتظلمون يشتكون فأجبتوا خصماً واجتروا خصماً ، ونزعوا يد المالك ووضعوا يد الغاصب ؛ وكان معهم من بطانة السوء قوم غلظت قلوبهم وصفقت وجوههم ، فليس لأدمع الباكين الى رحمتهم من سبيل . لقد بصّر ابو الصلاء الناس بحقوقهم المضيئة وكان في دهر العربية سباقاً الى فتح أعين الأمة وتبصيرها بحقوقها ، ونادى بأن الأمراء

للأمة أجراء :

مُلّ المقام فكّم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها
وناجز ابوالعلاء ايضاً رجال الدين من جميع الطوائف حرب النقد وعنف
عليهم بالتلوا فندد بهم وكان يرى فيهم جماعة اللبوس الكاذب ، والقول الخالب ،
ومستبطنة النفاق ، وأهل التدليس والتلق ، ومتخذي الدين أداة لجر المغانم
ودفع المغارم . اجل انه لم تحف عليه مناسكهم الباطلة ومظاهرم الكاذبة
ودسائسهم الخفية ، وكان عصره يعج بهم . فكثيرون منهم في مجالس الملوك
وأرباب السلطان وبطانة السوء ، وكثير منهم كانوا من اهل الحل والعقد
والمناصب الكبيرة . انهم لا يبتغون سوى در السحاب وملء الجيوب
والإرجاف بالغباء والغفلة ونشر الاوهام . منهم الفتنة وإليهم تعود .

فهو ساخط على هؤلاء جميعاً يندد بهم ويقرّعهم من اللوم بكل قارعة ،
ويذمّ دينهم حتى اصبح وأنه لأكثر الشعراء ذمّاً للدنيا ولكل انحراف فيها ،
فهو لم يُعرف بخصلة اظهر من ذم الدنيا والتشنيع على اهلها .

وقد ذهب في هذا التشاؤم مذهباً شططاً . ففي سورة من سورات
تشاؤمه يهوي على الطبيعة الانسانية لوماً وتقريعاً ، فيقول ان الناس من اصل
فاسد رغم ان الظاهر يوحى احياناً بغير ذلك :

ان مازت الناس اخلاق يقاس بها فانهم عند سوء الطبع أسواء
يكفيك شراً من الدنيا و منقضة ألاّ بين لك الهادي من الهادي

ولم يأت في الدنيا القديمة منصف ولا هو آتٍ بل تظالمنا جزم
والأديان غير صالحة لتهديب البشر :
وأراد ربك ان يهذب خلقه فاذا البرية ما لها تهذيب

لم يقدر الله تهديباً لعالمنا فلا ترومن للأقوام تهديباً

وهم كذلك لأن الأصل الذي انحدروا منه فاسد :
تفرع الناس من اصل به درن فالعالمون اذا ميزتهم شرع
والناس كذلك في كل زمان ومكان فليس جيل من الناس بأفضل من غيره :
شكوت من اهل هذا العصر غدرهم لا تتكرون فعلى هذا مضى السلف
فاذا شككت في هذا أكده بقوله :

لا يخذعك آخرانا كأولنا في نحو ما نحن فيه كانت الأمم
وفي سورة اخرى من سورات تشاؤمه يقول ان الشر في هذا العالم اكثر
من الخير ، بل ان الخير امان ووعود ، وأما الشر فحقائق ووقائع :
عرفت سجايا الدهر أما شروره فنقد ، وأما خيره فوعود

●
اذا كانت الدنيا كذاك فخلتها ولو ان كل الطالعات سعود

●
ألا انما الدنيا نحوس لأهلها فما من زمان انت فيه سعيد
فالحياة تعب كلها ، والوجود شر ، كيف لا وإن الآلام التي يعانها
الانسان في سكرات الموت تفوق كثيراً سرور ساعة الميلاد . والعجيب ان
الانسان لا يفتأ يطلب المزيد منها :

تعب الحياة كلها فما اعجب إلا من راغب في ازدياد
ان حزناً من ساعة الموت اضما ف سرور في ساعة الميلاد
لذلك كره ابو العلاء الحياة وآثر الموت وتمنى للوليد ألا يولد وللحي ان
يفنى فقال :

فليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفاء
والموت رقاد يستريح فيه الانسان ، وما الحياة إلا من قبيل الأرق :
ضجعة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها والعيش مثل السهاد
لذلك فهو يربأ بأصدقائه عن طلب الدنيا :

فلا تطلب الدنيا وإن كنت ناشئاً فاني عنها بالأخلاء أربأ
وما تُنوب الايام إلا ككتائب تُتبت سرايا او جيوش تعباً
فلتغسأ الدنيا وليغسأ طلابها ، فانها بجر هائج اشتدت الرياح براكييه ،
فهل للسفن ان ترسو فيه ؟

خسئت يا أمنا الدنيا فاف لنا بنو الخسيصة أوباش أخساء
يموج بمحرك والأهواء غالبة لراكبييه فهل للسفن إرساء ؟
فالتعلق بالحياة جهل كبير ، وأن فقدتها حظ عظيم :

رغبنا في الحياة لفرط جهل وفقد حياتنا حظ رغب
والانسان لا ينقذه إلا الموت ، ولا ينجيه سوى قطع المواليد :

لو ان كل نفوس الناس رائية كراي نفسي تناءت عن خزايها
وعطلوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها
لذلك يعتف ابو الحياة كل ناسل ويزين للرجال البعد عن الزواج ، فأرام
جناية آدم على البشر بمثل قوله :

أكانت ابوكم آدم بالذي أتى نجيباً فترجون النجاسة بالنسل ؟
وأكثر من هذه الدعوى في (لزومياته) وكان يجاهر بأن الانسان قد
وطن نفسه على المكاره بأثباته النسل ، فلو كان حازماً لما نسل :

كل على مكروهه مبسل وحازم الاقوام لا ينسل
وكان يدعو الناس الى شغل جدي فيه نفع للمجتمع وينهاهم عن
الاشتغال بالزواج والتوليد ، وكما اطال القول بأن الأب إنما يحني الشر على
ولده يجلبه الى الدنيا :

فدونك شغلاً ليس هذا لعله يعود بنفع لا كشغلك بالنسل
ابوك جنى شراً عليك وإنما هو الضبُّ إذ يسدي العقوق الى الحسل
بل ان الأب لا يزال جانباً على ولده حتى ولو كان ولده ملكاً او خطيباً:
على الولد يحني والد ولو أنهم ملوك على امصارهم خطباء
لذلك لم يتزوج ابو العلاء ، وقد قدّمنا انه اوصى ان يكتب على قبره :

هذا جناء ابي عليّ وما جنيت على احد
 والمرأة اصل كل بلاء ولذلك ينادي المعري بدفنها :
 ودفن - والحوادث فاجعات لإحداهن إحدى المكرمات
 بل يؤكد ان دفنهن خير لهن من الكلل والحدور .
 ودفن الغانيات لهن اولى من الكلل المتبعة والحدور
 وخشي ان يحسب الناس نقده مصبوحاً على المرأة المسلمة وحدها فقال :
 وماو لديك أتراب النصاري وعيناً من يهود ومسلمات
 وما نحسب ابا العلاء جاداً في هذا الشطط ، وإنما هي جمعة خيال عرض
 فيها صوراً رائعة من امثله وحكمه واخيلته واقتنانه . انه تهويل شاعر لم يجد
 مجالاً لإظهار عبقريته اوسع من نقد الدنيا وأهلها والتحذير منها فكان بحق
 مجلياً في هذا الغرض ، فلا يصح ان تؤخذ كلماته على انه يعنينا كلمة كلمة .
 فهو يبالغ في بعض الأمور ويتجاوز في بعض اخر ، ويهيم في كل واد على طريقة
 الشعراء ، لحرصه على نكتة يقصد اليها او غرض يريد به ، فلا يبلغ ذلك إلا
 بالغلو والتهويل . انه شاعر ، فلنزن كلامه بميزان الشعراء .

موقفه من العقل

يؤمن المعري بالعقل ايماناً وطيداً ، وقد صرح بإيمانه به في مواضع كثيرة
 من (اللزوميات) ، خاصة ، و (رسالة الغفران) و (الفصول والغايات) عامة .
 فالعقل هو المرشد الامين وهو الهادي الى الحق ، وهو المنقذ من الحيرة والضلال
 فهو اصل من اصول المعرفة فلا سبيل اليها بدونه :
 إذا تفكرت فكراً لا يمازجه فساد عقل صحيح هان ما صعبا
 ولو صفا العقل ألقى الثقل حمله عنه ولم ترَ في الهيجاء معتركا
 ويحذر ابو العلاء من ترك العقل ويندد بمن لا يهتدي بهدية . فلا قيمة
 للانسان اذا بُجرد من العقل :

فاحذر ولا تدع الأمور مضاعة وانظر بقلب مفكر متبصر
 تركت مصباح عقل ما اهتديت به والله اعطاك من نور الحجا قبساً

وقد بلغ من ايمان ابي العلاء بالعقل وتمجيده اياه واطمئنانه الى احكامه وأفضيته أن جعله افضل نصير وخير مشير، بل لقد أعلن إمامته وجعله نبيًا يأتي بالغيب:

كذب الناس لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
فإذا اطعمته جلب الرحمة عند المسير والارساء

ايها الفرقد خصصت بعقل فاسألته فكل عقل نبي ولا يقتصر المعري على تحكيم العقل في المسائل التي جرت العادة على تحكيمه فيها، بل لقد اراد ان يكون العقل حكماً في كل شيء حتى في العبادات وأمور الدين . فهو انما يزدرى شيئين : التقليد والاخبار المروية . ولذلك نراه يتلقى كل خبر مروي أو كل عادة شائعة بميزان العقل :

هل صح قول من الحاكي فنقبله ؟ ام كل ذاك اباطيل واسمار

جاءت احاديث إن صحت فإن لها شأنًا ولكن فيها ضعف اسناد
فشاور العقل واترك غيره هدرًا فالعقل خير مشير ضمه الناصي

يقولون ان الجسم ينقل روحه إلى غيره حتى يهذبه النقل فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل لكن اذا كان العقل في نظر أبي العلاء اسماً المواهب الانسانية واعزها فليس معنى ذلك انه معصوم عن الخطأ . فهناك مشكلات ميتافيزيقية يعجز العقل عن حلها والقضاء فيها برأي قاطع ، فمن الواجب تركها حيث هي فليست في متناول التفكير الانساني . فإنما قصارى العقل ان يحدد ما وسعه الجد وان يفهم ما استقام له الفهم وان يدبر اموره في هذه الحياة كما تستقيم له الظروف ، فإذا انتهى إلى حيث لا يطعمه وقف وقفة المتواضع الذي لا يطفئ ولا ينكر ولا يتورط في هذا الانكار العنيف الذي يثير اليأس والبؤس والقنوط :

سألت عقلي فلم يخبر فقلت له
قالوا فقالوا فلما ان حدودهم

أمر يلتبس على السرايا

وقد أعمل الناس أفكارهم

أما اليقين فلا يقين وانما

انما نحن في ضلال وتعليل

متى عرض الحجا لله ضاقت

لكن تشاؤمه يغلبه في بعض الاحيان فيكفر بالعقل ويحده من كل قدرة

على المعرفة حتى يجعل العالم والجاهل سواء :

فهم الناس كالجوهر وما يظفر إلا بالحسرة العلماء

وما العلماء والجهال إلا قريب حين تنظر من قريب

وفي هذه السورة من التشاؤم ينفي ابو العلاء ان يوجد انسان اوتي

العقل والرشد :

ما كان في هذه الدنيا اخو رشد

وانما يتقاضى الملك عن غير

معتقد ابي العلاء في الدين والخالق

كان ابو العلاء لا يشك في وجود خالق عظيم قادر حق متصف بصفات

الكمال ، لا تدركه العقول ولا تبلغه الافهام :

لا ريب ان الله حق فلتعبد باللوم أنفسكم على مراتبها

والله حق من تدبر امره عرف اليقين وآنس الاعجازا

●

والله حق وان ماجت ظنونكم وان أوجب شيء ان تراعوه

●

حِكْمٌ تدل على علم قادر متفرد في عزه بكمال

●

أما الإله فأمر لست مدركه فاحذر لجيلك فوق الأرض اسقاطاً

●

والله اكبر لا يدنو القياس له ولا يجوز عليه كان أو صاراً

ومكذا فالإيمان بالله أمر مقرر لا يشك فيه المعري ولا يتكلف

الدليل عليه :

اثبت لي خالقاً حكيماً ولست من معشر نفاة

وقد مدح محمداً عليه السلام في مواطن كثيرة من شعره حسبنا منها

قصيدته التي يقول فيها :

دعائم الى خير الامور محمد وليس العوالي في القنا كالسوافل

فصلى عليه الله ما ذرّ شارق وما فتّ مسكاً ذكره في المحافل

غير انه إذا كان ايمان المعري بالله لا تزعزع الشكوك . فإن معتقده

الديني لم يسلم من الغمز . والذي يبدو لنا ان المعري يفرق بين الدين كروح

والدين كشريعة ، الدين كشعور صوفي غامر والدين كطقوس ورسوم وشعائر

خارجية متحجرة . فهو ككل مفكر لا يعنى بجزئيات الدين وتفاصيله وما

فيه من تفاهات يحرص عليها الفقهاء والمتزمتون من اهل الشرع ؛ وإنما هو

يعنى - وبالدرجة الأولى - بالكليات والاتجاهات العامة التي يتسم بها

الدين وما يتميز به من عمق الشعور بالواجب وانسحاق القلب والروح .

ولما كان الكثيرون لم يستطيعوا الارتقاء إلى مستوى تفكير المعري فقد

دأبوا على تسقط عبارات تندّ عنه في لحظات لا نعلم على جهة القطع ما

بعض بنفسه فيها من دوافع وتيارات ، فيأخذ بها اهل الشرع ويعلنون النكير عليه كأنما جاء شيئاً إداً . انهم أطفال لم يبلغوا الحلم ينظرون من خارج ولا يستطيعون ان ينفذوا الى ضمير الأشياء . ونشط قالة السوء ، ورجوه بالاحاد والتعطيل والعدول عن سواء السبيل . فمنهم من وضع على لسانه أقوال الملعدة ، ومنهم من حمل كلامه على غير المعنى الذي قصده ، فجعوا محاسنه عيوباً ، وعقله حقاً ، وزهده فسقاً ، ورشقه بأيم السهام ، واخرجوه عن الدين والاسلام ، وحرقوا كلمه عن مواضعه ، واوقعوه في غير مواقعه ، كما يقول ابن العديم^(١)

لقد تعاملوا عما في شعره من تمجيد الله والاقرار بوحديته والاشادة بكتابه وتعظيم نبيه ولم يلتفتوا الا الى اقوال صدرت عنه بدوافع متعددة ، فأظهروا من الفيرة على الدين والحمة له تجاهها ما لم يظهروه تجاه اباحة الحرمات وانتهاك المقدسات واكل الحقوق . ولئن دل هذا على شيء فإنما يدل على ان ابا العلاء كان نسيج وحاد ، فكرياً وقلباً ووجداناً ، فظل غريباً بين قوم لم يفهموه ولم يبلغوا مقاصده . وقد اشار إلى هذا المعنى حين قال :

اولو الفضل في اوطانهم غرباء تشد وتناى عنهم القرباء
لقد أراد أن يرتفع بهم فكفروا به وان يسمو على صفائهم فتألبوا عليه ، وحكوا زندقته بالأسانيد ، ولعنه من جاء بعدم بالتقليد لكلمات جرت على اللسان تخفيفاً عن كرب واحتجاجاً على فساد وانكاراً لنفاق وتدليس ، ولكنهم لم يحركوا ساكناً لمجالس الشراب ومحافل اللهو والمجون والجهر بالمكر كأن لم يكن في الدنيا غير أبي العلاء عدواً لدوداً للاسلام والمسلمين .

لقد نسوا - أو تناسوا - ان ابا العلاء كان شديد التمسك بدينه

١ - نقل عن الدكتورة عائشة عبد الرحمن : ابو العلاء المعري ، سلسلة اعلام العرب رقم ٣٨ صفحة ٢٣٩ .

محافظاً على شعائره ، وكانت الصلاة عنده اعظم شيء في حياته ، لذلك كان
يحث عليها في مواطن كثيرة من شعره :
وشاهدٌ خالقي ان الصلاة له ابر عندي من دري وياقوتي



خذوا سيري فهن لكم صلاح وصلوا في حياتكم وزكّوا



اذا كنت في دار الشقاء مصلياً فانك في دار السعادة سابق
اذا الحر لم ينهض بفرض صلاته فذلك عبد من يد الدهر آبق
لقد دأب على الصلاة وأقام عليها بحيث لم يحدثنا مترجموه أنه تركها
في سفر ولا حضر ولا صحة ولا مرض ، بل انه لما عجز عنها قائماً قضاها
قاعداً . وكان اكثر أيامه صائماً . لقد كان عفاً اللسان واليد ، طاهر الذيل
والسيرة ، ولم يُعرف انه اساء إلى أحد أو أضرَّ بأحد . ولم يُنقل عن احد
من الناس - على كثرة من كانوا شديدي الحرص على تسقط عثراته والتنقيب
عن مساوئه وزلاته - انه انهمك في منكر او اجترح سيئة او صدر
منه ما يخالف الدين والآداب ، ولم يحدثنا احد انه شذ في شيء من اعماله عن
سنن الشريعة الاسلامية . ومن استقرأ أفعاله لم يجد فيها غير التقى
والصلاح والنسك وعمل الخير والاخلاص في العمل . فتقوى الله عنده هي
افضل ذخيرة وذكره خير شاغل . فليت شعري هل يطلب الإسلام من
اتباعه اكثر من هذا ام على قلوب اقفالها ؟

لنستمع إليه يقول :

ليُشغل بذكر الله عن كل شاغل فذلك عند اللب خير كلام



ومن يُبَل بالدنيا وسوء فعالها فليس له إلا التعب والنسك



فعلبك بالتقوى ذخيرة طاعن ان التقية افضل الاذخار

ومن يذخر لطول العيش مالا فان تقاي عند الله ذخري

ذوو النسك خير الناس في كل موطن وزيتهم بين المعاصر خير زي
لقد أغفل شائئوه كل هذا وظلوا في ظنونهم يعمهون ، وهم الذين
يعظون صباح مساء ان الظن لا يغني من الحق شيئا .

ولا مجال للقول ان ابا العلاء يكذب وينافق ويدلس عندما يدعي
الحرص على الصلاة وشعائر الدين ، فليس ابغض على أبي العلاء من الكذب
والنفاق والتدليس . ثم ان من ينافق فإنما ينافق تلقاً وتزلفاً ، لقد زهد
أبو العلاء بما في ايدي الناس وعف عنهم وتخلي عن كل هذا العالم ، فلم
يتزلف اذن وفيم عساه يتملق ؟ وعلى كل حال ليس ابو العلاء بالذي يزيف
وجدانه أو يقول ما لا يعتقد لعرض من الدنيا قليل ، وانما يقول ما
يقول عن معاناة سادقة وإيمان 'معاش' .

وكان أبو العلاء حسن الظن بربه كبير الأمل برضاه طامعاً بغفوه
وغفرانه :

ان ادخل النار فلي خالق يحمل عني مثقلات العذاب

وما كان المهيمن وهو عدل ليقصر حيلتي ويطيل لومي

أؤمل عفو الله والصدر جائش اذا خلجتنى المنون الخوالج

أخشى عذاب الله والله عادل وقد عشت عيش المستضام المعذب؟

ليفعل الدهر ما هم به ان ظنوني بخالقي حسنة

لا تيسر النفس من تفضله ولو أقامت في النار ألف سنة
أجل ليس الدين عند أبي العلاء رسوماً وشعائر خارجية لا تتخلل
القلب والجوارح ، وإنما هو فعل الخير وترك الشر وخلو الصدر من
الغل والحسد :

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وإنما هو ترك الشر مطرحاً وتفضك الصدر من غلٍ ومن حسد

سبح وصلّ وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعاً فليست بناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له اطعمه لم يُلفَ بالمناك

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها فتاركها عمداً إلى الله أقرب
هكذا كان مفهوم الدين عند أبي العلاء . فما يهمه إنما هو روح الدين
لا حروفه . فماذا يقول شاذنوه إذا علموا أن هذا هو أيضاً مفهوم الدين في
القرآن الكريم نفسه ؟ « ليس البرّ أن تقولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ،
ولكن البرّ من اتقى » . فالمعري إذن ليس بدعاً في دينه ، وإنما هو يدور
في صميم دعوة القرآن وتجري في رحاب القرآن ويتنفس في أجواء القرآن .
لقد دُست على أبي العلاء أقاويل كثيرة يُقصد بها الافتراء والتخرّص .
فقد زعم بعضهم أن أبا العلاء « خرج ليلة إلى بعض مراقب موسى عليه
السلام ورفع رأسه إلى السماء وقال : يا رب كلمني ، فاني أفصح من
موسى . قال ذلك مراراً فلم يجبه أحد ، فأنشد هذين البيتين :

لقد سمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو ناراً نفخت بها أضواء ولكن انت تنفخ في رماد
« وهذا افتراء محض من قائل ذلك ، والبيتان هما من نظم عمرو بن
معدى كرب ، وقيل لدريد بن الصمة ، كما ذكر ذلك ابن نباتة ^(١) .

١ — محمد سليم الجندى : الجامع في أخبار أبي العلاء الجزء الأول . صفحة ٣٩٠ .

« ومنهم من نسب اليه اقوالاً ليست في شيء من كتبه التي وصلت
اليينا ، ومن هؤلاء القفطي ، وياقوت ، وابن الجوزي ، وسبط ابن الجوزي
ومن لف لفهم ، فقد رويوا له هذين البيتين :
فلا تحسب مقال الرسل حقاً ولكن قول زور سطره
وكان الناس في عيش رغيد فجاؤوا بالمال فكدره
« ورويوا له كثيراً من مثل هذا (١) » .



على انه لا يمتنع ان يكون المعري قد تطور تفكيره فقد تكون
الآيات التي فيها جرأة على الأديان والشرائع تنتمي إلى مرحلة حياته
العقلية الأولى التي تتميز بتدفق الحساسية واندفاع الرأي ، لا سيما وان
(الازوميات) ليست مرتبة ترتيباً زمانياً بل بحسب حروف الهجاء ولذلك
يستحيل تتبع تفكير ابي العلاء فيها .

ان تفكير المعري لا بد انه قد تطور ، فليس من الضروري لرجل من
طرازه ان يجمد على رأي واحد طوال حياته . بل لا يجمد على الرأي
الواحد الا الميت . فالعقل الذي لا يتطور هو العقل الذي مات ، حتى
ان الانسان ليحكم أحكاماً عديدة متباينة على أمر واحد تحت ظروف
مختلفة . وهب ان أبا العلاء لم يكن مؤمناً فهل في هذا ما يُشينه ؟ الله
الاسلام الذي اتسع لجميع الأديان والمذاهب والمعتقدات ، حتى تلك التي
كان اكبر مهادنيتها بأفتك الأسلحة واشدها خطراً ، هل تُراه يضيق
برجل اعزل كأبي العلاء سلاحه الوحيد متانة الخلق وقوة المبدأ وصدق
الشعور بالواجب ؟ ليس للعجيب في أمر هذا الرجل ألاّ يؤمن بل العجيب
ان يؤمن ، فان جميع ظروف حياته تهيئه لعدم الإيمان ، ومع ذلك فقد
اجتاز الحنة بسلام . فحقيق بنا ان نغفر له بعض الهنات الهينات ، هذا
ما لم يكن شاغلنا القشور دون اللباب ، فكفانا تعلقاً بالقشور .

١ - المصدر السابق نفس الصفحة ايضاً .

رأيه في البعث والحشر وخلود الروح

ورأيه في البعث والحشر والخلود تابع لمعتقده الديني لا ينفصل عنه .
فأي هزة تطرأ على معتقده الديني لا بد أن يكون لها صدى في جزئيات
العقائد الأخرى . فإذا كان معتقده الديني سليماً من وجهة نظر الإسلام
كان رأيه في البعث والحشر سليماً أيضاً ، والعكس صحيح أيضاً . فاما ان
يؤمن ببعض ويكفر ببعض فهذا ليس من الإيمان في شيء . ان عاصفة
الشك التي لا يمكن لرجل من معدن المعري ان يسلم منها إذا ثارت به
أطاحت بالاصول والفروع . فإذا ما انكشفت عنه عاد إلى إيمانه . فإنما
الأمر كله مرهون هنا بهذه العاصفة التي تتناوحه بين حين وآخر كما
تتناوحت كل عظيم قبله .

ان امر الحياة الثانية قد حير ابا العلاء فاضطرب فيه . لقد سمع
الكثير مما تناقله الناس عما وراء الموت ووعى الأخبار الواردة فيه .
وقد ساء ظنه بما سمع ومن حقه أن يسوء . فليس بالرجل الذي
يقبل كل ما يُلقى إليه ، والا فلا فضل على سواد الناس . قال في
(اللزوميات) :

وقد زعموا هذي النفوس بواقياً تُشكل في اجسامها وتهذب
وتُسقل منها ، فالسعيد مكرم بما هو لاق والشقي معذب
فهو هنا غير مطمئن لما يسمع . ففزع الى عقله فلم يسهفه هذا
العقل . فكل ما يعرفه بعقله اننا من عنصر التراب واننا نودع
الثرى فنبلى ونُنسى وتاكلنا الأرض ، وتُسنتهك ربما ولا ندري ما يحدث
لنا بعد ذلك :

والأرض غدتنا بالطافها ثم تغدتنا فهل أنصفت ؟
تأكل من دب على ظهرها وهي على رغبتها ، ما اكتفت



والأرض تقتات الجسوم كأنما هذا الحِمام لتربها ميسارُ

● والترب نعليه ظلماً وهو والدنا
● وكم لنا فيه من قربى ومن رحم ؟

اعلمُ اني اذا حييت قسدي واني بعد ميتي مدرُ
كم من رجال جسومهم عفر تبني بهم أو عليهم الجدرُ ؟
ان الحياة بعد الموت لا دليل عليها ، وهذا ما يؤلم حقاً . فاذا
صح عذاب القبر فالأولى ان تطرحوني على ظهر الأرض ليأكلني الوحش
والطير :

قد ادعيتم فقلنا أين شاهدكم ؟ فجاء من بات عند اللب مجروحاً
ان صح تعذيب رمسٍ من يحل به فجذباني ملحوداً ومضروحاً
الوحش والطير أولى ان تنازعني فغادراني بظهر الأرض مطروحاً
فيا ليت شعري الى أين المسير ، وماذا عسى ان يكون المصير ؟
لست ادري :

أرى هذياناً طال من كل أمة يضمه ايجازها وشروحها
وأوصال جسم للتراب مآلها ولم يدر دارٍ أين تذهب روحها

● سنووب في عقبى الحياة مساكناً
● لا علم لي بالأمر بعد مآلها

● سأرحل عن وشك ولست بعالم
● على أي أمر ، لا ابالك ، أقدم

● بنون كآباء ، وكم برّج الردى
● دفنتهم في الأرض دفن تيقن
● بضب على علاته وبنون
● ولا علم بالأرواح غير ظنون

● اما الجسوم فللتراب مآلها
● وعييت بالأرواح أنى تسلك

ان تسأل العقل لا يوجدك في خبر عن الأوائل إلا انهم هلكوا
فاذا كان العقل عاجزاً عن الوصول الى نتيجة ايجابية في هذا الموضوع
فان المعري لا يستبعد على قدرة الله ان تأتي بالمعجز . فـقدرة الله
لا يعجزها حشر الخلق ولا بعث الأموات :
وقدرة الله حق ليس يعجزها حشر الخلق ولا بعث لأجساد

●
بحكمة خالقي طيبي ونشري وليس بمعجز الخلق حشري

●
ومتى شاء الذي صورنا اشعر الميت نشوراً فنشـر
فافعل الخير وأمل غيبه فهو الذخر إذ الله حشر
ويبت في هذه المسألة في (سقط الزند) فيقول :

خلق الناس للبقاء فضلت امة ينسبونهم للنقاد
انما ينقلون من دار أعما ل الى دار شقوة او رشاد
لكنه لا يتخذ مثل هذا الموقف الحاسم في (اللزوميات)
وهي أصدق تعبيراً عن آرائه الفلسفية من (سقط الزند) لا سيما
وان (سقط الزند) يعود في اكثره الى المرحلة الاولى من حياته .
فكل ما نجد في (اللزوميات) حيرة يصحبها شيء من الثقة
بالله القادر على كل شيء . فالشكوك لم تفارقه وان كانت العودة
أعز أمانيه :

اما الحقيقة فهي اني ذاهب والله يعلم بالذي أنا لاقى
وأظنني من بعد ، لست بذاكر ما كان من يسر ومن املاق

●
تقدم الناس فيا شوقنا الى اتباع الأهل والأصدقاء
ما أطيب الموت لشرا به ان صح للأموات وشك التقاء

يا مرحباً بالموت من متنظر ان كان ثم تعارف وتلاقي
وإذ أضناه الشك وأعوزه اليقين فلا اقل من ان يرجح الحشر على
طريقة بسكال ، لأنه اقرب الى امانه :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الاجساد قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر او صح قولي فالحسار عليكما
وحبذا لو كان الموتى يعودون إذن لأخبرونا بحلية الامر :
لو جاء من اهل البلى مخبر سألت عن قوم وارخت ؟
هل فاز بالجنة عملها ؟ وهل ثوى في النار نوبخت ؟

●
فهل قام من جدث ميت فيخبر عن مسمع أو مرا ؟

●
لو كان ينطق ميت لسأله ماذا أحس وما رأى لما قدم ؟
ولكن الموتى لا ينطقون فما العمل ؟ ليعمل النفس بالأمل وليجتمع
بالأحبة في النوم ان فاته الاجتماع بهم في اليقظة ، لا سيما وان النوم
اقرب الاشياء الى الموت . قال في (سقط الزند) :

وبين الردى والنوم قربى ونسبة وشتان براء للنفوس واعلال
اذا نمت لاقيت الأحبة بعدما طوتهم شهور في التراب واحوال
وقال في (اللزوميات) :

غيب ميت فما رآته عين ، سوى رؤية المنام
ولكن الاحلام لا تصدق القول والهجة كثيرة الكذاب .
لقد أرقه التفكير في المصير وأعياء امره . ولذلك فانه في (الفصول
والغايات) - وهو من اواخر كتبه - يتمنى لو كان حجراً او حيواناً
ليرتاح من التفكير في مصيره :

ليتني كنت حجراً ، لا امسى حذراً ، ولا اصبح وجراً .
طوبى لا كدر ، من نبات اخدر ، لا يتوقع كائنة بعد الموت .

والذي نراه أخيراً أن موقف المعري من المصير الانساني لم يكن ثابتاً على حال واحد ، بل كان كثير الاضطراب والتموج ، اذ كان يتبع الحركة العامة لمعتقده الديني هبوطاً وصعوداً ، وهي في هبوطها وصعودها تتأثر بدوافع شتى اهمها سوراة التشاؤم التي ظلت تصطرع في نفسه ، وكثرة تجاربه وازدياد نضجه واتساع خبرته وتقدمه في الرؤى والتفكير والخيال .

الفصل الثامن

الإمام الغزالي^(١)

(٤٥٠ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ - ١١١١ م)

حياته

هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي . ولد بمدينة طوس (من أعمال خراسان) من أصل فارسي ، وهذه المدينة هي اليوم خرائب تقع بضاحية مدينة (مشهد) الحديثة المعروفة . وكان والده رجلاً فقيراً صالحاً لا يأكل الا من كسب يده في عمل غزل الصوف ، وكان يطوف في أوقات فراغه على المتفقهة ورجال الدين ويغشى مجالسهم ويختلف إلى مجامعهم ويتوفر على خدمتهم ويجدّ في الاحسان إليهم والنفقة بما يمكنه عليهم . وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع إلى الله أن يرزقه ابناً ويجعله فقيهاً ويحضر مجالس الوعظ . وقد تحققت امنيته في ابنه الاثنين محمد وأحمد . فاما محمد فهو حجة الاسلام أبو حامد الذي كان أفقه اقرانه

١ - بالتخفيف نسبة الى غزاة قيل انها قرية من قرى طوس ، وبالتشديد نسبة الى الغزال على عادة اهل خوارزم وجرجان ، فانهم ينسبون الى القصار القصاري ، والى المطار المطاري والى الحباز الحبازي . والياء هنا للتأكيد . وقيل للتمييز بين النسوب الى نفس الصنعة وبين النسوب الى من كان صنعة والده وحده ، ولكن الغزالي بالتخفيف أشهر .

وامام اهل زمانه . واما احمد فكان واعظاً « تلين الصم الصخور عند سماع تحذيره » وترعد فرائص الحاضرين في مجالس تذكيره . »

ولكن هذا الاب المسكين لم يُفسح له في الأجل حتى يشهد ابنه وقد بلغا ما يتمناه لهما ، اذ قضى نحبهما صغيران . ويذكر انه لما حضرته الوفاة اوصى بهما صديقاً له متصوفاً من اهل الخير فقال له : « ان لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدي هذين ، فعملهما ولا عليك أن تنفذ في ذلك جميع ما أخلفته لهما . » فلما مات اقبل الصوفي على تعليمهما الى ان فني ما كان خلفه ابوهما . وتعذر على الصوفي القيام بقوتها فقال لهما : « اعلموا اني قد انفقت عليكم ما كان لكما ، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكم به . وأصلح ما ارى لكما ان تلجأ الى مدرسة ، فانكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما . ففعلاً ، وكان نظام المدارس يكفل للطالب القوت والتعليم ، وكان ذلك هو السبب في سعادتها وعلو درجتها . وكان الغزالي يحكي هذا ويقول : « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى ان يكون إلا الله . »

على ان هذا الصديق المتصوف لم يكن مجرد وصي عليها ، بل كان معلماً لهما ايضاً . وهكذا فان استاذ الغزالي الاول كان رجلاً صوفياً . ولسنا ندري في اي عمر ترك الغزالي وصيه الصوفي ، ولا كم اقام في مدرسته تلك .

وقد قرأ الغزالي في صباه طرفاً من الفقه ببلده طوس ، على احمد ابن محمد الراذكاني الطوسي بعد ان كان استاذ الاول بها يوسف النساج ، ثم جنح به عقله الى الاستزادة من العلم فنزح الى جرجان وهو لم يبلغ سن العشرين بعد ، وفيها تلقى العلم على الامام ابي نصر الاسماعيلي . وكان يكتب ما يتلقى من علوم استاذه دون ان يُعنى بحفظه او يودعه ذاكرته ، وهذا ما يسمى « التعليقة » . ولا ندري كم اقام في جرجان ،

غير اننا نعلم انه عاد الى طوس ومكث فيها ثلاث سنين بعد مغادرته لها ، يراجع ما تلقاه في جرجان على اثر الحادثة المشهورة التالية التي ذكرها في اعترافاته ، قال :

« قطعت علينا الطريق واخذ العيارون جميع ما معي ومضوا فتبعتهم . فالتفت إليّ مقدّمهم وقال : ارجع ويحك وإلا هلك ! فقلت له : أسألك بالذي ترجو السلامة منه ان ترد عليّ تعليقي فقط فما هي بشيء تذفعون به . فقال لي : وما هي تعليقك ؟ فقلت : كتب في تلك الخلّة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها . فضحك وقال : كيف تدعي انك عرفت علمها ، وقد اخذناها منك ، فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ ثم امر بعض اصحابه فلم إليّ الخلّة . فتركت تلك الحادثة في نفسي أثراً كبيراً وقلت في نفسي : هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في امري . فلما وافيت طوس اقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع عليّ الطريق لم أتجرد من علمي . »

وهذه الحادثة الطريفة ان دلت على شيء فإنما تدل على منازعه الصوفية المبكرة التي سيكون لها أكبر اثر في حياته الروحية . فهو يرى في جواب قاطع الطريق رسالة سماوية ونطقاً إلهياً لهدايته وتوجيهه وارشاده ، وهذا لعمري انما يشف عن نقعة صوفية قوية فيه لا سبيل إلى انكارها .

ثم ان الغزالي قدم نيسابور ، احدى مدن العلم والنور آنذاك ، فاتصل بامام الحرمين أبي المعالي الجويني ، وهو الذي عهد اليه وزير السلجوقيين نظام الملك بالاشراف على المدرسة النظامية ، لانه كان علّم عصره في التوحيد والأصول والمنطق ، واليه انتهت رئاسة المذهب الاشعري آنذاك . وكان أستاذاً جريئاً يعتمد في اثبات القضايا على التفكير الشخصي والادلة العقلية ولا يتردد في عرض الآراء الشائعة والتقاليد المتوارثة على محك النظر الحر وابداء رأيه فيها بدون موارد او مصانعة . وستجد هذه الصفات في أبي حامد تربة خصبة

تؤتي أكلها بعد حين . ونظام الملك هو الذي ابتدع المدارس النظامية (نظامية بغداد ، نظامية نيسابور ، نظامية بلخ ... الخ .) وأسسها على علوم السنة ليقوي نفوذ السلاجقة ولينافس بها ازهر الفاطميين آنذاك وعلوم الشيعة التي كانت تلقى فيه . وكان نظام الملك هذا شديد التعلق بالصوفية والتعصب لهم مسرفاً في البذل عليهم وإعداد التكايا لهم ، حتى ليعاتبه السلطان ملكشاه لإسرافه في النفقة عليهم وإهمال الجيوش فيجيبه : « انا أقت لك جيشاً يسمى جيش الليل ، اذا نامت جيوشك ليلاً قامت جيوش الليل على اقدامهم صفوفاً بين يدي ربهيم ، فأرسلوا دموعهم وأطلقوا ألسنتهم ومدوا الى الله اكفهم بالدعاء لك ولجيوشك . فانت وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون وببركاتهم تمطرون وتسرزقون » . وسيكون لذلك أثر حاسم في تطور الغزالي الروحي .

وهنا تبدأ حقبة جياشة في حياة الغزالي . فقد وجد في المدرسة الجديدة من فنون المعرفة ما يصلح ان يكون منهلاً لروحه الظمأى وغذاء لعقله المتعطش ، كما وجد في استاذه المتحرر الجرأة في النظر والخروج عن مسالك التقليد . فاكب على دروس الفقه والاصول والمنطق والكلام ، وبرع في المذهب والخلاف والاصلين ، وقرأ الفلسفة ، و« أحكم كل ذلك ، وفهم كلام ارباب هذه العلوم وتصدى للرد عليهم وإبطال دعاويهم وصنف في كل فن من هذه العلوم كتباً احسن تأليفها وأجاد في وصفها وترصيفها ، كما يقول ابن السبكي . وربما بدأت شكوكه هناك ايضاً .

ولكن استاذَه وصديقه امام الحرمين لم يلبث ان توفي سنة ٤٧٨ - ١٠٨٥ م . ورأى الغزالي نفسه ضائعاً وحيداً . ففارق نيسابور حزين القلب كبير الفؤاد ، وكان عمره إذ ذاك ثمانية وعشرين عاماً . غير ان تفكيره قد نضج ومداركه قد اتسعت وكان له من العلم ما يجابه به العلماء الاعلام ، ومن الفصاحة والذكاء ما لا يحده الطموح . فلا عليه - وقد فقد استاذَه وأطلق من اساره الذي كان يحبس عن حظوظ نفسه وعن المغامرة الكاملة

في الحياة - ان يلتبس سبيله الى المجد ويسمى الى الظهور واكتساب الشهرة .
وهدها القدر الى معسكر الوزير نظام الملك الذي تحدثنا عنه . فلقبه
هذا الأخير وأكرم مثواه وبألف في الإقبال عليه لعلو درجته وظهور اسمه
وحسن مناظرته وجري عبارته . وكان مجلس الوزير محطة رجال العلم
ومقصد الأئمة والفصحاء ، ف وقعت للغزالي اتفاقات حسنة من الاحتكاك
بالأئمة وملاقات الخصوم اللدد ، ومناظرة الفحول ومناقدة الكبار . وظهر
الغزالي عليهم واشتهر اسمه في الآفاق وسارت بذكره الركبان . ثم ولاه
الوزير التدريس بمدرسته النظامية في بغداد ، التي كانت إذ ذاك حاضرة
العالم الاسلامي بالشرق ، وأمره بالتوجه اليها . فقدم بغداد في جمادى الاولى
عام اربع وثمانين واربعماية ، وسنه نحو الثلاثين ، ودرس بالنظامية وأعجب
الخلق حسن كلامه وكمال فضله وفصاحة لسانه ، وبهرتهم نكته الدقيقة
وإشاراته اللطيفة ، وأحبوه . وأقام على تدريس العلم ونشره بالتعليم والفتيا
وال تصنيف مدة ، عظيم الجاه زائد الحشمة عالي الرتبة مسموع الكلمة مشهور
الاسم ، تضرب به الامثال وتشد اليه الرحال ، على حد قول ابن السبكي .
وصار بعد امامة خراسان امام العراق .

ثم تفكر في نيته في التدريس ، « فإذا هي غير صالحة لوجه الله تعالى
بسل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت اني على شفا
جرف هار ، كما يقول : فصمم على الخروج من بغداد وترك جميع ما كان
عليه . لكن شهوات الدنيا ظلت تجاذبه « بسلاسلها الى المقام ، ومنادى
الايان ينادي : الرحيل الرحيل ! فلم يبق من العمر إلا القليل وبين يديك
السفر الطويل ، وجميع ما انت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل .
« فلم ازل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من
سنة أشهر اولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مئة . وفي هذا الشهر
جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار ، إذ أقفل الله على لساني حتى
أعتقل عن التدريس . فكنت اجاهد نفسي ان أدرس يوماً واحداً تطيباً

لقلوب المختلفة (اليّ) ، فكان لا ينطق لساني بكلمة ولا استطيعها البتة ، حتى اورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب بطلت معه قوة الهضم ومراة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لي ثريد ولا تنضم (لي) لقمة ، وتعدى الى ضعف القوى حتى قطع الاطباء طعمهم من العلاج وقالوا : هذا امر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج ، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم .

« ثم لما احسست بعجزى وسقط بالكلية اختياري ، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يحيب المضطر اذا دعاه ، وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه والمال » (١) .

ترك التدريس الذي كان قد اقام عليه اربع سنوات ، وفارق المنصب والجاه ، واستناب اخاه على موضعه من المدرسة النظامية ، ثم خرج من بغداد ودخل الشام وبقي فيها قريباً من سنتين لا شغل له إلا العزلة والخلو والريضة والمجاهدة . فكان يعتكف في مسجد دمشق ، فيصعد منارة المسجد طول النهار ويغلق بابها على نفسه . ثم رحل الى بيت المقدس وجاور به مدة . فكان يدخل كل يوم الصخرة ويوصد بابها عليه . ويقال انه دخل الى مصر وأقام بالاسكندرية مدة ، وإنه قصد منها الركوب في البحر الى بلاد المغرب على عزم الاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين صاحب مراکش ، لما سمع عن عدله . فبلغه نعيه فعاد ادراجه وظلّ يحول في الآفاق ويزور المشاهد ويطوف على التراب والمساجد ، ويهيم على وجهه في الصحارى ويأوي القفار ، ويجاهد نفسه ويكلفها مشاق العبادات ويبلوها بأنواع القُرْب والطاعات . ودامت هذه الحالة نحو عشر سنوات .

ثم عاد الى وطنه بطوس ، واشتغل بنفسه ، وصنف الكتب المفيدة في عدة فنون . ولما وزر فخر الملك احضر ابا حامد والتمس منه ألا تبقى انفاسه عقيمة ، وألحّ عليه في ذلك ، بل لقد امره امر إلزام بالنهوض الى

١ - الغزالي : المنقذ من الضلال صفحة ١٠٠ - ١٠١ .

نيسابور ، حتى لقد بلغ هذا الإلزام حداً كاد ينتهي ، لو أصر الغزالي على الخلاف ، الى حد الوحشة . فلبى دعوته الى حين ثم ترك ذلك وعاد الى بيته في وطنه واتخذ خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره ووزع اوقاته على وظائف الخير ، من تلاوة القرآن ومجالسة ارباب القلوب والقعود للتدريس ، وإدامة الصيام والقيام وسائر العبادات . وكانت خاتمة امره اقباله على دراسة الحديث ومجالسة اهله ومطالعة الصحيحين (البخاري ومسلم) بعد ان لم يكن طلب شيئاً في هذا العلم . الى ان وافاه الأجل يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسة هجرية . ولم يعقب إلا البنات . وقد كان له ولد مات في طفولته اسمه « حامد » وهو سبب تكنيته « ابا حامد » .

ويذكر مترجموه انه كان له من الأسباب إرثاً وكسباً ما يقوم بكفايته ونفقة اهله وأولاده . فما كان يباسط احداً في الأمور الدنيوية ، وقد عُرِضت عليه اموال فما قبلها وأعرض عنها واكتفى بالقدر الذي يصون دينه ولا يحتاج معه الى التعرض للسؤال والمئال من غيره .

مؤلفاته . — يُعَدُّ الغزالي من اغزر مفكري الاسلام مادة ومن اطولهم نفساً في التأليف ومن اكثرهم إنتاجاً وتنوعاً . حتى لقد نقل النووي عن بعضهم في كثرة محصول الغزالي من الكتب والتوايف والرسالات والتصانيف انه قد أُحصيت كتب الغزالي ووزعت على عمره فخص كل يوم اربعة كراريس . لذلك وصفه احدهم بأمر الكتاب . وقد اوصل بعض المؤلفين كتب الغزالي الى حوالي (٣٠٠) كتاب ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود . فقد أربت مؤلفاته المطبوعة على الاربعين كتاباً ، هذا عدا المخطوطات التي لم تطبع بعد ، وما اكثرها ! وكذلك عدا الكتب المفقودة التي لم تصل اليها ! فهو لم يقتصر على فن واحد من فنون المعرفة ، بل له تصانيف في شتى الفنون . فقد ألفت في الفلسفة والكلام والمنطق والتفسير والحديث والفقه والأصول والأدب والشعر والتصوف وعلم الاجتماع

وعلم الاخلاق وعلم النفس وخواص القرآن وأسرار المكاشفات والوعظ والاعتقاد والارشاد والترهيب والترغيب والفلك والفتيا ، وفي علم الشريعة وفي علم الحقية ، بل حتى في علوم الحرف وأسرار الروحانيات وخواص الاعداد ولطائف الاسماء الالهية وفي السيماء وغيرها . واذا علمت ان الغزالي قد ألّف في كل هذه الفنون ولم يعيش اكثر من خمس وخمسين عاماً قضاها بين طفولة وتلمذة وتدريس وعبادة وأمراض وأسفار ، عرفت اي رجل هو ! وقد ابتدأ الغزالي بالتأليف وهو لا يزال طالباً للعلم على استاذة الجويني إمام الحرمين . ويذكر بعضهم وقوع نوع من الجفاء بين التلميذ والاستاذ سببه ابتداء الغزالي بالتدريس والتأليف في تلك الفترة المبكرة من حياته . ويظهر ان الغزالي لم يترك الكتابة والتأليف حتى في فترة السنوات العشر التي قضاها في التنقل والعبادة .

ولا بد من الاشارة اخيراً الى ان عدداً كبيراً من الكتب قد دُست على الغزالي من بعده كما حصل مع غيره من المشهورين في تاريخ الفكر . فلم يكن على الانتحال والتزييف إذ ذاك رقيب ولا عتیب ، ولم تكن حقوق التأليف معروفة يومئذ للناس ، ولم يكن التحقيق في اصول الكتب ميسوراً لمن اراده .

وأياً ما كان الامر فان مؤلفات الغزالي لا يمكن استيفائها هنا كلها ولذلك سنجتزئ بأمها :

مقاصد الفلسفة : بسط فيه آراء الفلاسفة اليونان ومن تبعهم من فلاسفة العرب ، وحلل مبادئهم وشرح اقوالهم ، استعداداً لهدمها كما بين هو ذلك في المقدمة . وهو من احسن الكتب التي تلخص وضع الفلسفة الى عهده . تهافت الفلاسفة : الذي ردّ فيه على اقوال الفلاسفة ونقض تعاليمهم وأبطل حججهم وأظهر ما فيها من تناقض ومخالفة للعقل . ويعتد هذا الكتاب حدثاً فكرياً فاصلاً بين عهدين من عهود الفلسفة في المشرق ، إذ لم تستطع الفلسفة بعده ان تحتفظ بالتقدير الذي كانت تتمتع به من قبل .

إلجام العوام عن علم الكلام : واسمه يدل على موضوعه ، فهو دعوة لعامة الشعب الى الاكتفاء بالأدلة المأخوذة من القرآن لمعرفة الله تعالى ، وعدم الخوض في أدلة المتقدمين لأن مقدماتهم وبراهينهم تلبيل ذهن الرجل العامي البسيط وتقلق قلبه ، بدلاً من ان تقنعه .

إحياء علوم الدين : وهو اعظم كتبه في الاخلاق والتصوف ، ألّفه في أخريات حياته حين جنح الى اعتزال الناس ، ثم قرأه في دمشق وبغداد ، ووضع له مختصرات عديدة منها (الوجيز) ومنها (المبسوط) . وقد شرح الغزالي في (الإحياء) طرق النجاة للمسلمين ببيان حقيقة العقائد وتفصيل المعاملات والعبادات . وقد بلغ من شهرة هذا الكتاب ان كثيراً من اجزائه فصل على حدة واتخذ كتباً مستقلة . وهو الى ذلك فريد في تبويبه وترتيبه ويحوي جميع العلوم الشرعية والاجتماعية التي يحتاج اليها كل مسلم في حياته الدينية من شتى وجوهها . فهو بذلك موسوعة ضخمة لعلوم الدنيا والآخرة .

معيان العلم : في فن المنطق ويسمى (معيار العلوم) .
ميزان العمل : وهو في التهذيب ورسم الطريق للعمل الصالح .
القسطاس المستقيم : في بيان ميزان العلوم وهو من اواخر كتب الغزالي .
مشكاة الانوار : في فلسفة التصوف ، وهو من كتبه المتأخرة ايضاً ، وقد تحدث فيه عن اسرار الانوار الإلهية .

الاقتصاد في الاعتقاد : وفيه تبرز شخصية الغزالي المتكلم .
فرائد اللآلي من رسائل الغزالي : مجموعة فيها (معراج السالكين) و (منهاج العارفين) و (روضة الطالبين) .

المنقذ من الضلال والموصل الى ذي العزة والجلال : وقد وضعه في سنواته الاخيرة وذلك عند عودته الى التدريس في نيسابور عام ٤٩٩ هـ - ١١٠٦ م . وهذا الكتاب الصغير لا تجد في الآداب العالمية إلا قليلاً من امثاله بأسلوبه ومنحاه ووحدة غرضه واستقامة منهجه . وهو قصة حياة

فكرية مضطربة وألم نفسي ، وتزاع عميق بين العقل والإلهام ، من نوع الاعترافات او المذكرات الخاصة التي نقرأها لبعض كتاب الغرب كالقديس اوغسطين وبسكال وديكارت وروسو وغيرهم . فهو يشرح لنا تطور الغزالي في التفكير والسعي وراء الحقيقة ، ويعرض الحالات النفسية التي ذاق مرارتها وكاد يضيع فيها بين الشك واليقين . وليس في هذا الكتاب مذهب فلسفي خاص ، ولا نظرية مجردة ، وإنما هو قصة تحول وجداني او اعتداء ديني ، انه حكاية حال الغزالي نفسه ، وذكر انحلال رابطة التقليد عنه ، واستيلاء الشك عليه ، ثم استشفائه بأدوية التصوف .

اسلوبه . — يتميز اسلوب الغزالي بالجزالة والوضوح وقوة التعبير . تقرأ فلا يخفي عليها شيء مما يريد ان يقول ، وتشعر في كل جملة من كلامه بأن هناك قلباً ينبض وفكراً يتدفق وروحاً يخفق على القرطاس ويشدو بين الكلمات ويمنحك متاعاً وعذوبة . فأسلوبه يبدو لك كأنما يخفق بالحياة ويتسلل الى القلوب مناجياً الضمائر والأحاسيس . وقد اجتمعت للغزالي مواهب خطيب مفوه ، ورسول صادق ، وحكيم ماهر يفوص على المعاني . فجاء اسلوبه مخالفاً لأسلوب الفلاسفة التقليديين الذين تتعقد ألقاظهم وتغرب مصطلحاتهم ويندوبون في الإبهام والغموض كل مذهب . لقد حرص الغزالي أشد الحرص على إفهام القراء وإقناعهم بما يريد ابلاغهم إياه بالمعقول والمسموع معاً ، فلا يؤثر في عقل القارئ فحسب ، بل يستعين على ذلك ايضاً بشعوره وقلبه وحده . ولذلك نراه يجانب التعقيد والاصطلاحات الفنية ، ويكثر من ضرب الأمثال في تقريب المعاني الدقيقة وتوخي السهولة في غير صنعة ، والبساطة في غير كلفة ، وهو لا يحفل بفنون الصياغة اللفظية ، لأن كل همه منصرف الى الوصول الى قلبك والنفوذ الى لبك بأيسر ما تكون العبارة وأبسط ما يكون الأداء . فما كان ليعنى بالألفاظ وتميقها بل بالمعاني وتجريدها .

ولقد كان الغزالي من الانتباهة بالألفاظ وعدم العناية بترصيفها وسبكها

انك تحس وأنت تقرأ عباراته كلما كتبها دون ان يراجعها ، وما كان أجدره بإعادة قراءتها ، فيقدم في الجمل ويؤخر ، ويمحو ويثبت . وعندما سئل في ذلك أجاب بأن غايته تصريف المعاني والأفكار لا تصريف الألفاظ والأقوال .

ان المعاني تنثال عليه ويأخذ بعضها في اعتناق بعض بسرعة مذهلة لا تطاولها قدرته على السبك والتميق . كما انه كان يؤلف في اوقات لا تصلح مطلقاً للتأليف وفي احوال شاذة : من سفر ومرض وتبليبل افكار ومنازعات خصوم لا تتيح له الفرصة الكافية لإعادة النظر فيما يكتب ويدبج . فالصحة والاستقرار وهدوء البال شروط لا بد منها للكتابة والتأليف ، وهذا هو السبب فيما نرى في بعض عباراته من ضعف وركاكة وخلل في النحو . وقد روجع في ذلك كما ذكرنا فأنصف من نفسه وقال في بعض كتبه : « فهذا الآن حديث يطول ويحتاج الى اطناب وأسهاب ، وقد اعلمتك اني مشغول ، مبدد لشمل النفس ، قليل الخاطر ، أما ما تقع عليه من خلل في النحو فقد اعترف انه لم يدرس ذلك الفن ، واكتفى بما يحتاج اليه منه في كلامه ، هذا مع انه كان يؤلف الخطب ويشرح الكتب بالعبارات الرائعة التي يعجز الأدباء والفصحاء عن امثالها ، وقد أذن للذين يطالعون كتبه فيعثرون على خلل فيها من جهة اللفظ ان يصلحوه ويعذروه فما كان قصده إلا « المعاني وتحقيقها ، دون الالفاظ وتلفيقها » .

شخصية الغزالي وعلمه وخصائص تفكيره

كان الامام الغزالي مثلاً بارزاً على رفعة الخلق وكرامة العلم والعلماء ، فهو لم يتخذ العلم سبيلاً لجاء الدنيا وسلطانها ، ولكنه كان مخلصاً لتفكيره صادقاً لخليقته ونفسه العظيمة التي بين جنبيه ، ففنع بعيش العزلة ، ورضي الفاقة ، وآثر بساطة الحياة ، فأحدث بذلك أثراً عظيماً في نفسية عصره ومزاج جيله .

لقد كان الغزالي من اكبر اعلام الفكر الذين أنجبهم الاسلام واعتز

بأنجابه لهم . ولعله ما من شخصية في التاريخ لم تثر من الإعجاب والتقدير ومن النقد والطمع في آن واحد كما أثارت شخصية الغزالي . فقد عشقه أقوام حتى رفعوه مكاناً علياً لا ترقى إليه الشبهات ، وخاصمه آخرون حتى كُفروه وجهلوه . وهذا لا يكون إلا لكل عظيم فذ عملاق .

فشخصية الغزالي هي بحق من أفاض التاريخ ومن مواقف العقول . انه نسيج وحده علماً وعقلاً ولودعية ؛ وكان بفضل قوة خاطره وشفوف نفسه ورقة وجدانه جم الفضول ، كثير التطلع ، بعيد الغور ، غواصاً على المعاني الدقيقة ، مناظراً محجاجاً ، يتهجم على كل مسألة ، ويحادل في كل معضلة ، يطالع كل كتاب ويصنف في كل عقيدة . وقد عرف عنه مرونته في التفكير وقدرته على قلب وجوه الرأي . ولا نجد في تاريخ الفكر البشري إلا قليلاً يماثلون الغزالي في نهمة للمعرفة وجلده على البحث ورغبته في الوصول الى الحقيقة .

وقد أدرك من نفسه تلك الهبة وحدثنا عنها طويلاً في كتابه (المنقذ من الضلال) بمُجب ظاهر بلغ حد المباهاة بذكائه والاطراء بإقباله على العلم :

« ولم أزل في عنفوان شبابي وريعان عمري ، منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين الى الآن ، وقد أثار السن على الحسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب ان اطلع على باطنيته ، ولا ظاهرياً الا واريد أن اعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفياً الا واقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً الا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً الا واحرص على العشور على سر صفوته ، ولا متعبداً الا وأترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ،

ولا زنديقاً معطلاً الا وأنجس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته . وقد كان التعطش الى درك حقائق الأمور دأبي وديديني من اول امري وربيعان عمري ، غريزةً وفطرةً من الله 'وضعتا في جيلتي' ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عليّ العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا ،^(١) .

ومن مطالعة عناوين الكتب التي وضعها الغزالي نستطيع ان نعلم اي مدى من السعة والتنوع بلغه هذا الرجل الذي احدث دويماً في عصره وترك اثراً باقياً من بعده . فما نعرف كثيراً من العلماء تبَحَّروا في العلم مثل الغزالي في التبَّحر ، ولا عديداً احدثوا بكتبهم ما احدث هو في الدين والدنيا من حسن الأثر . لقد كان انساناً جديداً سبق عصره ككل نابغة وتقدم جيله ككل مصلح عظيم .

لقد كان مطلعاً على ثقافة عصره جلها ان لم نقل كلها ، لكنه كان حراً في انتقاعه من هذه الثقافات ، مرناً في مقارعتها وهضمها ، واسع الصدر في مناقشتها وعرضها ، متأنياً في اختيار اصلحها .

درس علم الكلام وألف فيه . ومع انه تبنى مذهب الأشاعرة وسلك طريقه الا انه لم يلتزم بجميع ما قالوا به بل خرج على بعض آرائهم وتعاليمهم .

ودرس الفلسفة وألف فيها وصنف حتى كان آيتها المعجزة وحجتها البالغة وفارسها العَلَم . ولكنه خرج عليها وأحدث تطوراً عظيماً في تاريخها .

ودرس الباطنية التعليمية وألف فيها شارحاً حقيقتها مهاجماً لها مبيناً خطرها .

ودرس الصوفية وآمن بها فكرةً وسلوكاً ، اكن ذلك لم يمنعه من ان يهاجم ما فيها من تطرف ومجانبة للحق وان يفتقد اصحابها نقداً مرأً .

١ - المنقذ من الضلال ، صفحة ٥٩ - ٦٠ .

ودرس الأصول والفقه الشافعي وألف فيها الكتب القيمة العظيمة ، ولكن ذلك لم يمنع من مخالفة الشافعية في بعض ما يقولون به ويذهبون اليه .

وكان يصدر في هذا كله عن إيمانه بذاته وثقته بقدرته على البحث والاستقصاء ، وازدراؤه للتقليد والمقلدين ولو كانوا على حق . فهو مؤمن بالاجتهاد وإعمال العقل ، منكر للتقليد ، خصم عنيف للتبعية ، متميز بالسماحة والسعة وحرية الرأي .

لقد كان شعاره « لا تعرف الحق بالرجال ، بل اعرف الحق تعرف أهله » فهو لا يريد أن يقيد نفسه بالانتساب إلى فرقة ما أو مذهب خاص ، ولا أن يربط تفكيره إلى مركبة جماعة من جماعات العلم يفكر تفكيرهم ويذهب مذهبهم ، بل هو ينشد الحق أينما وجد ، فيأخذ من آراء المتكلمين ما يؤمن به ، ومن آراء الفقهاء ما يعتقده ، ومن أقوال الفلاسفة ما يثبت له ، بلا عصبية ولا جمود . فهو يبيع نفسه الاجتهاد في الرأي ويطلب من كل من يأنس في نفسه القدرة عليه أن يجتهد رأيه ليكون صاحب مذهب وعقيدة ، لا عبداً من عبيد التقليد . ويستبين لنا مذهب الغزالي الفكري هذا في كتابه (ميزان العمل) حيث يقول : « لعلك تقول كلامك في هذا الكتاب انقسم إلى ما يطابق مذهب الصوفية وإلى ما يطابق مذهب الأشعرية وبعض المتكلمين ، ولا يفهم الكلام إلا على مذهب واحد . فما الحق في هذه المذاهب ؟ فإن كان الكل حقاً فكيف يتصور هذا ؟ وإن كان بعضه حقاً فما ذلك الحق ؟ » (١) . هنا ينصحنا الغزالي بأن نطرح المذاهب ، فليس واحد منها « معجزة يترجح بها جانبه . فجانب الالتفات إلى المذاهب واطلب الحق بطريق النظر لتكون صاحب مذهب ولا تكن في صورة أعمى ، تقلد قائداً

١ - ميزان العمل ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

يرشدك الى طريق ... فلا خلاص الا في الاستقلال ، (٢) .
هذا هو دستور الغزالي في طلب الحق والبحث عن الحقيقة . انه
يحب بكل احد ان يتخذ دستوراً له ومشرعاً ينهل منه ، ومحجة يسير
على هداها . ان ينشد الحق لا المذهب ، ويعرف الحق اولاً وبالحق يعرف
أهله . أما ضعفاء العقول فيعرفون الحق بالرجال . وكان من عادته اذا
تصدى لمناقشة علم من العلوم وابداء رأيه فيه وبيان ما ينطوي عليه من
فساد ، ان يقف على منتهى ذلك العلم حق يساوي اعلم أهله فيه ثم يزيد
عليه ويمجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور
وغائلة ، واذ ذاك يمكن ان يكون حكمه على ذلك صحيحاً ، وما يدعيه
فيه من فساد حقاً . فإن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه
رمي في عمية .

وعلى كل حال لقد كان الغزالي جامعاً للفنون ، وقد صنف فيها كلها إلا
النحو فإنه لم يكن بذاك ، والا الحديث فإنه كان ضعيف الرواية والنقل
للحديث ، وكان يقول « انا مزجى البضاعة في الحديث » وقد عكف عليه
في آخر عمره ليعوض ما فاتته منه .

والحق ان الغزالي انما يفهم القلب اكثر مما يحيط به العقل ، ويدركه
الحس ويدنو منه الوجدان اكثر مما يحلله الفكر والبيان . وبكلمة واحدة :
انه انما يعيش ويتذوق أكثر مما يقرأ .

في اغواره قوى ضخمة تقور وتتصارع وتتهيا للحركة والوثوب ...
وهناك في اعتم عمق في نفسه وقلبه ووجدانه تتفجر ينابيع وتتدفق
تيارات وثورات ...

لقد كانت حياته وما انبثق منها من اشاعات واشراقات وما ابتدعت
من مناهج في التفكير والتأمل والروحانيات ، لحظة جوهريّة في تاريخ
الفكر الاسلامي .

٢ - المصدر السابق ص ٤٠٩ .

لقد كانت حياته من نقاط التحول في الافق العقلي ومن مطالع النماء والخصوبة في التفكير الروحي في الاسلام .

لقد جاء الغزالي ليضيف جديداً إلى الفكر الفلسفي في الاسلام . لقد جاء لا ليكون صورة مكررة من الناس او الفلاسفة والعلماء ، او سطوراً متألثة في كتب التاريخ بجانب السطور التي خطها المفكرون او العابدون .

لقد جاء ليكون كتاباً وامة ، جاء ليقم منهجاً ويشق طريقاً ويفتح افقاً جاء ليكون حجة الاسلام .

الغزالي بين الشك واليقين

ان رجلاً كالغزالي ، دأبه البحث عن الحقيقة وطلب المعرفة والتماسها في جميع مظانها والوصول الى اليقين في كل امر - ان رجلاً هذا شأنه لا بد له ان يكون حذراً في كل ما يقبل عليه وان يتشكك في كل ما يعرض له ، فلا يتساهل في امر ، ولا يستقيم له رأي الا بعد طول فكر واثارة .

لذلك فهو لما شاهد اضطراب الفرق واختلاف المذاهب وتباين الملل والنسحل وسلطان التقليد في اعتناق هذه او تلك ، ووافق ذلك منه عقلاً متطلعاً ذكياً ، حار امام تضارب الآراء وتعدد الأديان ، فداخله الشك في أمرها . وقد احس دبيب الشك هذا في وقت مبكر جداً من حياته فآمن به طريقة واعتنقه منهجاً . فالشكوك في مطلع حياة الغزالي هي طريقه إلى الحق . يقول في خاتمة كتابه (ميزان العمل) : « لو لم يكن في مجاري هذه الكلمات الا ما يشككك في اعتقادك الموروث ... فناهيك به نفعاً ، اذا الشكوك هي الموصلة الى الحق . فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلالة »^(١) . تلك هي شريعة الغزالي ، وهذا هو منهاجه العلمي .

١ - نفس المصدر والصفحة .

نظر الغزالي حوله فرأى ان العقائد تنتقل الى الانسان عن طريق التقليد . فصبيان النصارى « لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على اليهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام »^(١) . وسمع الحديث المروي عن النبي عليه السلام حيث قال : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه » .

فانخلت عنه رابطة التقليد ، وانكسرت عليه العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا ، لانه لم يجد فيها يقينا ، فتحرك باطنه الى طلب حقيقة الفطرة الاصلية التي يكون عليها قبل حصول الاعتقادات ، وحقيقة الحقائق العارضة بتقليد الوالدين والاستاذين ، والتميز بين هذه التقليدات ، واوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات .

انه يرى ان الفطرة الأصلية واحدة عند الناس جميعاً ولذلك فهو يستطيع ان يبدأ منها بحثه عن اليقين خالصاً من شوائب العقائد والوراثات والتقليد . فليبحث عن العلم اليقيني . وما العلم اليقيني ؟ « ان العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الامان من الخطأ ينبغي ان يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك شكاً وانكاراً . فاني إذا علمت ان العشرة اكثر من الثلاثة ، فلو قال لي قائل : لا ، بل الثلاثة اكثر من العشرة بدليل اني اقلب هذه العصا ثعباناً وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم اشك بسببه في معرفتي ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ! فأما الشك فيما علمته فلا .

« ثم علمت ان كل ما لا اعلمه على هذا الوجه ولا اتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا امان معه ، وكل علم لا امان معه فليس

بعلم يقيني ، (١) .

ذلك هو العلم اليقيني كما عرفه الغزالي واراده ، فراح ينشده . انه ذلك العلم الذي لم يأخذه وراثته عن والدين أو تقليدا عن احد ، انه ذلك العلم الذي تبلغ درجة اليقين فيه ما اشار اليه المثل الذي ضربه ، فلا احد يقدر على تشكيكه فيه ولو قلب امامه العصا ثعبانا ، وكل ما يستطيع ان يتركه فيه من اثر انما هو التعجب من تلك القدرة ، لا الشك فيما علم . انه يريد ان يعرف العلم اليقيني فيعرف اهله ، لا ان يعرفه من احد منها بلغت حاجته او تناهت قدرته او نبه شأنه . فهو اذ يعلم بأن العشرة اكثر من الثلاثة فلن يتحول عن معرفته تلك او يحيد ، وان اتوا بسحر عظيم .

وكل علم لا يتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا امان معه . فمقياس اليقين اذن هو الامان ومعنى الامان الثقة ، ومقياس الثقة انكشاف العلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ولا شبهة . ولا بد لمن يقرأ كتابي (التأملات) و (مقال عن المنهج) لرائد الفلسفة الحديثة ديكارت ان يدرك قيمة معيار العلم عند الغزالي واشتراطه في اليقين وضوح الافكار وانكشافها للعقل انكشافاً لا شبهة فيه .

ثم ان الغزالي وقف يتصفح علومه عساه يقع على علم يكون هاديه لليقين ، فلم يجد علماً موصوفاً بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات . فلتنظر ما يكون من شأن الحسيات والضروريات معه : « فقلت الآن بعد حصول اليأس ، لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات ، وهي الحسيات والضروريات » .

وهنا يقبل الغزالي على المحسوسات والضروريات يتأمل فيها « يجد بليغ » كما يقول ، ليرى ان كانت ثقته بالمحسوسات وأمانه من الغلط في الضروريات من جنس امانه الذي كان من قبل في التقليديات ومن جنس امان اكثر

الخلق في النظريات ، وعندئذ يجب رفضه ، أم هو امان محقق لا غدر فيه ولا غائلة له .

وهنا يتساءل الغزالي : هل يمكنه ان يشكك نفسه في المحسوسات ؟ ويطول به التشكك . وأخيراً يصل الى قرار : « فانتهى بي طول التشكك الى ان لم تسمح نفسي بتسليم الامان في المحسوسات ايضاً ، وأخذت تتسع للشك فيها وتقول : من اين الثقة بالمحسوسات ، وأقواها حاسة البصر ، وهي تنظر الى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة ، بعد ساعة ، تعرف انه متحرك ، وانه لم يتحرك دفعة واحدة بغتة بل على التدرج ، ذرة ذرة ، حتى لم يكن له حالة وقوف ، وتنظر الى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الادلة الهندسية تدل على انه اكبر من الارض في المقدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل الى مداقمته ، ^(١) .

إذن ثم حاكمان : حاكم الحس وحاكم العقل ، وكلاهما يناقض الآخر في حكمه ، فأيهما نصدق ؟

على كل حال لقد بطلت ثقة الغزالي بالمحسوسات فلا بد ان يحتكم الى العقليات التي هي من الأوليات ، فلعله لا ثقة إلا بها كقولنا : العشرة اكثر من الثلاثة ، والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً .

وكاد الغزالي يركن الى عقله لولا شبهات منطقية معقولة عرضت له ، أثارتها المحسوسات وقد هزمت امام العقليات . ها ان العقل قد صاول المحسوسات وصرعها ، ووقف وحده منتصراً في المعركة ، ولكن أليس من الممكن وقد سيطر العقل على هذه المعركة ان يبرز له خصم جديد اقوى منه ، فيصرعه كما هو صرع المحسوسات ، ويفقم منه جميع غنايمه ؟

ان الغزالي يتخيل حواراً جرى بينه وبين المحسوسات ، فهي تخاطبه قائلة : « بم تأمن ان تكون ثقتك بالعقلية كثقتك بالمحسوسات ؟ وقد كنت واثقاً بي فجاء حاكم العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي . فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر ، اذا تجلى ، كذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه . وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالة » (١) .

ان الغزالي لا يحير جواباً وقد سمع ما سمع . قال : « فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً وأيدت اشكالها بالنام وقالت : أما تراك تعتقد في النوم اموراً وتتخيل احوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك اصل وطائل ؟ فبم تأمن ان يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس او عقل هو حق بالإضافة الى حالنك التي انت فيها » .

« لكن يمكن ان تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة اليها ! فإذا وردت تلك الحالة تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها . ولعل تلك الحالة ما يدعيه الصوفية انها حالتهم : إذ يزعمون انهم يشاهدون في احوالهم التي لهم اذا غاصوا في انفسهم وغابوا عن حواسهم احوالاً لا توافق هذه المعقولات .

« ولعل تلك الحالة هي الموت ، إذ قال رسول الله ﷺ : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا . فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة الى الآخرة . فإذا مات ظهرت له الاشياء على خلاف ما يشاهده الآن ويقال له فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد .

« فلما خطرت لي هذه الخواطر وانقدحت في النفس حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر ، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل ، ولم يكن نصب دليل إلا

١ - المصدر السابق صفحة ٦٣ .

من تركيب العلوم الاولية . فإذا لم تكن 'مسلمة' لم يمكن ترتيب الدليل ،^(١) .
فالبراهين العقلية لم تستطع ان تعيد اليقين الى قلبه ، لأن البرهان لا
يكون إلا من العلوم ، فإذا لم تكن العلوم مسلمة بها كان الدليل عقيماً
غير منتج .

« فأعضل هذا الداء ودام قريباً من شهرين انا فيها على مذهب السفسطة
بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال . حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض
وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة
موثوقاً بها على امن و يقين » .

ولكن كيف شفاه الله من ذلك المرض ؟ « ولم يكن ذلك بنظم دليل
وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر » . إذن جاء علم الغزالي
اليقيني لا عن طريق الحسيات او العقليات التي لا تغني والتي فشلت في
علاج نفسه وطرده الشك منها ، بل عن طريق النفث في الروح او
القذف في الصدر ، وهذا هو النور الإلهي الذي أفاض الله به عليه
فانكشفت له البديهيّات والحقائق الاولى ، ورجع اليه ايمانه في المحسوسات
والمعقولات ، وزال شكه وعادت اليه طمأنينة نفسه . قال في (المنقذ) :
« وذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف . فمن ظن ان الكشف موقوف
على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة »^(٢) . ومما يلفت النظر في
هذه العبارة كلمة « اكثر المعارف » فالغزالي لم يقل مفتاح كل المعارف
بل قال مفتاح اكثرها . ومعنى ذلك ان هنالك معارف مفتاحها النور
الإلهي وهي اكثر المعارف ، واخرى مفتاحها الأدلة المحررة وهي معارف
ضيقة . ويذهب الغزالي الى قريب من هذا المعنى في (الاحياء) حيث
يقول : « ان العلوم التي ليست ضرورية انما تحصل في القلب في بعض
الأحوال ، (ولكن) تختلف الحال في حصولها ، فتارة تهجم على

١ - المصدر السابق صفحة ٦٣ - ٦٤ .

٢ - نفس المصدر ، ص ٦٤ - ٦٥ .

القلب ، كأنه ألقى فيه من حيث لا يدري ، وثارة 'تكتسب بدليل الاستدلال والتعلم' (١). أما العلوم الضرورية فأنها حاضرة في النفس منكشفة للعيان ، فلا يتوصل اليها بنظم الكلام وترتيب الحجج ، بل يتوصل بها الى غيرها .

ثم يستطرد الغزالي في الاستدلال على كنه ذلك النور الذي قذفه الله في صدره ، من القرآن الكريم حيناً ، ومن احاديث الرسول حيناً آخر . لقد شرح الله للغزالي صدره وهده الى اليقين ، وما كان ليتهدي لولا ان هداه الله . فلا المحسوسات أجده ، ولا العقلية نفعت . وبذلك يتمثل الغزالي بقوله تعالى « فمن 'يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام' ويقول انه لما سئل رسول الله ﷺ عن (الشرح) في هذه الآية قال : « نور يقذفه الله في القلب » . فقل وما علامته ؟ قال : « التجافي عن دار الغرور والاناثة الى دار الخلود » وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ « ان الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره » . ويعلق الغزالي على هذا القول المنسوب الى النبي عليه السلام بقوله : « فمن ذلك النور ينبغي ان يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحيان ، ويجب الترصد له . ويؤيد الغزالي رأيه هذا بقول آخر منسوب الى النبي عليه السلام : « ان لربكم في ايام دهركم تفحات ، الا فتعرضوا لها » .

وهكذا وصل الغزالي الى اليقين بعد ان فتح الله على قلبه وقذف فيه النور ، وهو مينة من الله وفضل ، وهبة لا يحصل عليها إلا من صفت مرآة قلبه كما يقول الغزالي في (الاحياء) .

ولكن التحقق بهذا النور ليس بالسهل مطلباً ، بل هو عسير المنال ، ولا يتأتى الا لمن رحم ربك وأراد به خيراً ، وقليل ما هم ! ولذلك فلا مندوحة للباحث والحالة هذه عن « ان يعمل كمال الجهد في الطلب

١ - الغزالي : احياء علوم الدين ج ٣ ص ١٦

حتى ينتهي الى طلب ما لا يطلب . فان الأوليات ليست مطلوبة فانها حاضرة ، والحاضر إذا 'طلب' فقد واختفى ،^(١) أي يجب على الباحث ان يبذل قصارى جهده في طلب الحقيقة واستقصائها في جميع مظاهرها ، حتى ينتهي الى الأوليات التي لا يجوز طلبها لأنها حاضرة في النفس دائماً ، بل يجب طلب غيرها بها ، والا 'فقدت' ، فهي الركيزة لما يأتي بعدها ، ولا ركيزة لها الا حضورها في النفس وانكشافها بذاتها . فكل طلب لها وتعمق فيها يعرضها للضياع والتلاشي .

واذن فهناك طريقان للمعرفة عند الغزالي : طريق الحدس الصوفي ولا يحصل لكل انسان ، وطريق الاكتساب بدليل الاستدلال والتعلم . هذه هي النتيجة التي انتهى اليها الغزالي من شكوكه . ولولا ذلك لظل على سفسطته مجرد رجل مرئد متشكك على غرار غلاة الشكاك من السوفسطائيين والأدريين الذين ينكرون المعرفة ، أي معرفة ، ويؤكدون خداع الحس وقصور العقل عن ادراك حقائق الاشياء . اما الغزالي فقد امتاز من هؤلاء بأن شكه منهجي فلسفي ، حتى لقد كان اول القائلين بالشك المنهجي القويم فسبق بذلك ديكارت واصحاب مدرسته . فهو شك مقصود ، مؤقت ، يجري لغاية معلومة ولا ينكر مقدرة العقل على المعرفة . انه طريقة علمية مشروعة للتثبت من الشيء قبل التسليم به . ولئن شك لفترة قصيرة في ضروريات العقل فانه لم يلبث ان عاد الى الايمان بها « ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمنٍ ويقين »^(٢) . كما يقول . بل ان الغزالي وهو في غمرة شكه اكثر ما يكون قريباً من العقل : فدعوته الى الشك في التقاليد دعوة الى العقل ، وتنبهه الى اخطاء الحس دعوة الى العقل ، وعودته عن شكوكه استئناف لحياة العقل . فأَيُّ ايمان بالعقل اقوى من هذا الايمان !

١ - المنقذ ، ص ٦٥ .

٢ - المنقذ ، ص ٦٤ .

ولكن الغزالي لا يؤمن بالعقل وحده بل لقد اضاف اليه كما رأينا المعرفة الذوقية التي انتهى اليها ، اي الحدس الصوفي المباشر الذي يستند الى المدد الإلهي النوراني . فكأن اليقين العقلي الذي طالب به باديء ذي بدء والذي رفعه الى مرتبة اليقين الرياضي لم يكن سوى يقين مرحلي ما عتَم ان افسح المجال ليقين صوفي ذي مصدر علوي يقذفه الله في الصدر قذفاً لا يخضع للضرورة المنطقية والاقيسة العقلية ، وانما هو تفضل إلهي من جناب الحق يخصّ به فريقاً من عباده المقربين ، انه إيثار الله لطائفة من الخواص بالمعرفة الذوقية المباشرة واختصاصهم بنفحات ثرة خصبة لا يعرفها الا ذووها .

ولكن اين الله من هذه الأزمة ؟ كيف قذف النور في صدره وأعادته الى اليقين قبل ان يستيقن به اولاً ؟ أم لعل في هذه الأزمة اقتعلاً ؟

الذي يبدو لنا ان الغزالي كان يعرف مقدماً جميع النتائج التي انتهى إليها . فحادثة العيارين التي اسلفنا الكلام عليها تشف عن فوازع صوفية عميقة في نفسه وبالذاتي عن تلمس الخارج الصوفية لكل مأزق يقع فيه والتأسي بأهل الطريق ارباب الحقائق الذوقية النورانية .

والغريب ان إيمان الغزالي بالله لم يكن وليد أزمة الشك التي مرّ بها ، كما لم يتوصل إليه ايضاً - وهو الصوفي - نتيجة لمعرفة ذوقية مباشرة ، بل لقد انتهى الى الإيمان به - بحسب رواية (المنقذ) - بعد طول ممارسته لصنفي العلوم الشرعية والعقلية وبأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تفاصيلها تحت الحصر^(١) .

٦ - الغزالي وأهم مشكلات الكلام

علم الكلام هو - كما يعرفه ابن خلدون - « علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات

١ - المنقذ ، ص ٩٩ .

عن مذاهب السلف وأهل السنة ، (١) .

وهو من العلوم الحادثة في الملة ، قام على اكتاف فرقتين من اعظم الفرق منافحة عن الاسلام وأحسنها بلاء وأشدّها اندفاعاً : هما فرقة المعتزلة وفرقة الاشاعرة . ولكل من هاتين الفرقتين فضائلها ومزاياها ، حتى لتكمل احدهما الاخرى .

وسنعالج فيما يلي ثلاثاً من أمهات مشكلات هذا العلم اثارها المعتزلة وكيف وقف منها ابو حامد الغزالي زعيم الاشاعرة ، وحامل لوائهم في اواخر القرن الخامس للهجرة . هذه المشكلات هي : (ا) مشكلة العقل والنقل (ب) مشكلة حرية الانسان ، (ج) مشكلة الصلاح والأصلح .



اولاً : المعتزلة .

أ - مشكلة العقل والنقل : كانت مشكلة العقل والنقل من المشكلات الهامة في تاريخ الفكر الاسلامي . فقد عني بها المتكلمون والفلاسفة على السواء ، رغم الخلاف القائم بينها ، وتناولها كل منها من زاويته الخاصة ووضعوا لها شتى الحلول .

فقد بحث المتكلمون في صلة العقل بالنقل وأيهما أحق بأن يتقدم الآخر : العقل أم النقل ؟ وإلى أي مدى يمكن الاعتماد على العقل في مسائل التشريع والعقائد ؟ ولم يجدوا في ذلك أي حرج لأن القرآن نفسه يدعو إلى التدبر في الكون والتفكير في آيات الله واستخدام العقل من أجل الوصول إلى الإيمان . وبذلك كان المتكلمون يتحركون في نطاق الشرع لأن أكبر مهمهم إنما كان الانصياع للدين .

وأما الفلاسفة فإن أعجابههم بأرسطو وشيعته قد غلغى على إيمانهم بالدين أو على الأقل صبغه بصبغة معينة . ولذلك فقد كان أكبر مهمهم أن يثبتوا للملأ أن ما يصل إليه الفيلسوف بعقله لا يتعارض مع ما جاءت به الشريعة .

فلا خلاف اذن بين الدين والفلسفة . ولا بأس في هذه الحال - ان لم يكن من الواجب - تأويل النصوص الشرعية والتصرف في معانيها بحيث توافق اقاويل الفلاسفة اليونان ، واصطناع كل وسيلة ممكنة لتبديد ما لحق بالفلسفة من الظنة ، وإزالة ما علق بالأذهان من وجود جفاء بينها وبين الدين .

ويهمنا هنا موقف المتكلمين من مشكلة العقل والنقل ، وهو موقف تتبين فيه ثلاثة اتجاهات : فالاتجاه الاول هو اتجاه الحشوية والظاهرية ومن نحا نحوم ، وهم فئة من المتزمطين يرون تقرير سلطة الشرع وحدها ولا يجعلون للعقل مدخلاً فيما أتى به الشرع . والاتجاه الثاني هو اتجاه المعتزلة ، ويذهب اصحابه الى ان العقل يتقدم الشرع . والاتجاه الثالث هو اتجاه الاشاعرة وأهل السنة عامة ، والغزالي خاصة ؛ وهم يذهبون في هذه المسألة مذهباً وسطاً : فمن ناحية ، يقولون ان الشرع متقدم على العقل ؛ ومن ناحية اخرى يجعلون للعقل مدخلاً في فهم الشرع ، وبذلك يؤكدون تظاهرها وافتقار احدهما الى الآخر . انهم خلافاً للحشوية لا يعزلون العقل عن النقل ، بخلاف المعتزلة لا يقدمون العقل على الشرع .

ولما كان اتجاه الحشوية ليس بذى بال هنا فلنحصر الكلام في اتجاه المعتزلة ولنتوقف فيه ، ثم نعقب عليه باتجاه الغزالي فيما بعد . فنقول :

المعتزلة هم رواد النزعة العقلية في الاسلام وطلاتها . فهم يمتازون من سائر الفرق الاسلامية الاخرى بتعظيمهم للعقل تعظيماً لا حدود له ، وبإيمانهم به وثقتهم بقدرته ثقة لا نجد لها نظيراً بين الفرق الدينية الاسلامية وغير الاسلامية . ولقد أدى بهم ذلك الى وضع قاعدتهم المشهورة (ايجاب المعارف بالعقل قبل ورود السمع) . فقد راعهم الحشو الكبير الذي دخل الحديث وتسرب الاسرائيليات اليه ، كما ضاقوا ذرعاً بطريقة السلف في اقبالهم على هذا الحشو بلا ضابط اللهم إلا ضابط السند فقط ، بينما هذا الحشو لا يعارض السمع وحده بل يعارض العقل ايضاً . ثم امتدت المعارضة الى منهج السلف انفسهم ، منهج التمسك بالظاهر وعدم التأويل حتى ولو

كانت قواعد اللغة تُجيز هذا التأويل . وهنا ذُكرت الاصطلاحات الفنية مثل : (العقل) في مقابلة (النقل) و (الفكر) في مقابلة (السمع) و (التأويل) في مقابلة (التقليد) و (التوفيق) في مقابلة (التوقيف) و (الدراية) في مقابلة (الرواية) . وبدأ النزاع عنيفاً تتدخل فيه السياسة أحياناً والتنافس العلمي أحياناً أخرى . ووقف المعتزلة في قمة الصراع يبلون فيه خير بلاء .

فهم يؤكدون ان « الفكر قبل ورود السمع » وأن « العقل قبل النقل » . فالعقل ، في نظرهم هو المعيار الكامل الوحيد الذي به إنما تُعرف الشرائع وبه إنما يُحكم عليها . بل الانسان يجب عليه بمحض العقل معرفة الله والتمييز بين الخير والشر والحسن والقبح قبل ورود الشرع ، بحيث انه لو قصر في تلك المعرفة لاستوجب العقوبة واستحق العذاب . اما ورود التكاليف فهي ألطاف للباري تعالى ارسلها الى العباد بتوسط الانبياء عليهم السلام امتحاناً واختباراً^(١) « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة »^(٢) .

ولكن المعتزلة ليسوا على رأي واحد في مدى تقديرهم لقدرات العقل ومواهبه . فأبو الهذيل العلاف مثلاً يرى انه يجب على المكلف ان يعرف الله بالدليل من غير خاطر (أي من غير تبليغ) وإنه ان قصر في هذه المعرفة استوجب العقوبة ابداً . انه قادر على التمييز بين «حسن الحسن وقبح القبيح» فيجب عليه الاقدام على الحسن كالصدق والعدل والاعراض عن القبيح كالكذب والجور^(٣) .

وأما النظام فإنه يقول في الفكر قبل ورود السمع انه اذا كان عاقلاً متمكناً من النظر فيجب عليه تحصيل معرفة الباري تعالى بالنظر والاستدلال .

١ - الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ١ . صفحة ٤٥ .

٢ - سورة الانفال الآية ٤٣ .

٣ - الملل والنحل ج ١ صفحة ٥٢ .

وقال بتحسين العقل وتقييحه في جميع ما يتصرف فيه من افعال . وقال ايضاً : لا بدّ من خاطرين : احدهما يأمر بالإقدام والآخر بالكف ليصح الاختيار^(١) .

ومن المعتزلة القائلين ايضاً بتحسين العقل وتقييحه ووجوب معرفة الله بحض العقل بشر بن المعتز الذي يقول ان « المفكر قبل ورود السمع يعلم الباري تعالى بالنظر والاستدلال »^(٢) .

وبؤكد الجعفران (جعفر بن حرب الثقفي المتوفي سنة ٢٣٤ هـ . وجعفر بن مبشر الهمداني المتوفي سنة ٢٦٣ هـ) « ان العقل يوجب معرفة الله تعالى بجميع احكامه وصفاته قبل ورود الشرع ، و ... أنه ... ان قصر ولم يعرفه ولم يشكره عاقبه عقوبة دائمة . فأثبتنا التخليد واجباً بالعقل »^(٣) .

ويذهب ثمانية بن اشرش - في تحسين العقل وتقييحه وايجاب المعرفة قبل ورود السمع - الى رأي غريب حقاً ، مؤداه « ان المعارف كلها ضرورية » في نظره ، لكنه يتساهل مع الكفار الذين يعجزون عن معرفة الله بضرورة العقل ، لأنه تعالى لم يضطرم الى ذلك ، انهم غير مأمورين بهذه المعرفة . فهم معذورون . ولهذا قرر ثمانية ان امثال هؤلاء إنما خلقوا للعبرة والسفيرة كسائر الحيوان . ويقول عن اصحاب الديانات الاخرى انهم يصيرون في القيامة تراباً ، وكذلك قوله في البهائم والطيور وأطفال المؤمنين^(٤) .

هذا وإن كمال العقل هو شرط معرفة الباري ، دون اعتبار للسن . فيجب على الطفل ان يعرف الله بأرائه بالعقل قبل ورود الشرع اذا اكمل عقله ، وان هو قصر في تلك المعرفة كان كافراً مستحقاً للخلود في النار .

١ - المصدر السابق صفحة ٥٨ .

٢ - المصدر السابق صفحة ٦٥ .

٣ - المصدر السابق صفحة ٧٠ .

٤ - المصدر السابق صفحة ٧١ .

فليس يحائز أن 'يكلف الانسان حق يتكامل عقله ، ويكون مع تكامل عقله قوياً على اكتساب العلم بالله' (١) .

وظلّ المعتزلة على تعظيمهم للعقل وإيمانهم به حتى إذا أدركوا اثنين من أقطابهم المتأخرين وهما أبو علي الجبائي (المتوفى سنة ٢٩٥ هـ) وابنه أبو هاشم (المتوفى سنة ٣٢١ هـ) رأيناها يمعنان كثيراً في تأكيد سلطة العقل وإثبات شريعة عقلية إلى جانب الشريعة النبوية . وفي ذلك يقول الشهرستاني عنها : « واتفقا على أن المعرفة وشكر المنعم ومعرفة الحسن والقبيح واجبات عقلية . وأثبتنا شريعة عقلية وردّها الشريعة النبوية إلى مقدرات الأحكام ومؤقتات الطاعات التي لا يتطرق إليها عقل ولا يهتدي إليها فكر ، وبمقتضى العقل والحكمة يجب على الحكيم ثواب المطيع وعقاب العاصي ، إلا أن التأقيت والتخليد فيه يعرف بالسمع » (٢) .

وقد تجلّت هذه النزعة العقلية عند المعتزلة في أصول الفقه أيضاً . فالأصوليون منهم قد اثبتوا العقل حاكماً شرعياً ، وصنفوا الأحكام الشرعية العملية من حيث الوجوب والندب والإباحة والكراهية والتحریم وفق أصل هام من أصولهم وهو أن الحسن والقبح عقليان . فالحسن عندهم حسن لا لأن الشرع قد أمر به بل لأن الحسن وصف ذاتي فيه ، والقبيح ليس قبيحاً لأن الشرع قد نهى عنه ، بل لأن القبح وصف ذاتي فيه . فهم يقولون أن العقل إنما يستدل به على حسن الأفعال وقبحها ، على معنى أنه يجب على الله الثواب والثناء على الفعل الحسن ، ويجب عليه الملام والعقاب على الفعل القبيح ، ولا يسهه غير ذلك . والسبب في هذا أن الأفعال عندهم على صفة نفسية من الحسن والقبح ، فإذا ورد الشرع بها كان مخبراً عنها لا مثبتاً لها (٣) : أي أن الحسن والقبح وصفان ذاتيان للحسن

١ - الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ٢ صفحة ١٥٥ .

٢ - الملل ج ١ صفحة ٨١ .

٣ - الشهرستاني : نهاية الأقدام صفحة ٣٧١ .

والقبيح^(١) . فالحسن حسن لذاته ويظل كذلك الى الأبد وفي جميع الأحوال ، والقبيح قبيح لذاته ويظل كذلك الى الأبد وفي جميع الأحوال . فهناك إذن حد فاصل بين الاعمال الحسنة وبين الاعمال القبيحة . وما دام الأمر كذلك فليس من الصعب على العقلاء ان يفرقوا بينها .

ومن الحسن والقبح ما يدرك عندهم ضرورة كالصدق المفيد والكذب الذي لا يفيد . ومنها ما يدرك نظراً بأن يعتبر الحسن والقبح في الضروريات ثم يرد اليها ما شاركها في مقتضياتها ، ثم يرتبون على ما ذكرناه قولهم في الصلاح واللفظ والثواب والعقاب^(٢) .

وهكذا نرى كيف يعتمد المعتزلة على العقل ويقدمونه على النقل . لقد اثبتوا له قيمة مطلقة وأوجبوا اتباع احكامه في التقدير والتقويم والإهابة به في معرفة الله والتمييز بين الخير والشر والحسن والقبح وشكر المنعم قبل ورود السمع ، وزادوا على ذلك ان من قصر في شيء من تلك المعارف فهو مستحق للعقوبة من الله .

ومن الجدير بالذكر ان المعتزلة يؤكدون عدم تفاوت العقول فيما بينها وينادون بأن الناس متساوون في اصل الفطرة من حيث القدرة على التفكير وشحن الذهن . فهناك نص للنسفي في (بحر الكلام) يقول فيه ان « الناس في العقل كلهم سواء »^(٣) . وهذا يذكرنا بزعم المذهب العقلي ديكارت رائد الفلسفة الحديثة . فهو يؤكد - كالمعتزلة - ان حظوظ الناس من العقل السليم متساوية لا محاباة فيها ، فهي موزعة بينهم بالقسط دون سائر الاشياء الاخرى في العالم .

ب - مشكلة حرية الانسان : رأينا كيف كان المعتزلة رواد التفسير

١ - الغزالي : المستصفى ج ١ صفحة ٥٧ .

٢ - نهاية الاقدام ، صفحة ٣٧١ .

٣ - ابو المعين النسفي : بحر الكلام ، بمجموعة الرسائل صفحة ٥ - ٦ .

العقلي في الاسلام . لقد بدأوا النظر العقلي في الكتاب والسنة فانتجوا تفكيراً اسلامياً رائعاً تسربت اليه بدون شك عناصر غير اسلامية . ثم تغالوا في قضية العقل الى حد اسخط عليهم اهل السنة والجماعة .

ومن اهم المسائل التي عني بها المعتزلة منذ بدء ظهورهم تأكيد حرية الانسان . فالانسان في نظرهم فاعل حر مختار منحه الله القدرة على العمل وعلى ضده فيتصرف في هذه القدرة كما يشاء ويوجهها حسبما يريد . هذا من موجبات العقول وضرورات الأفهام . فالعقل الذي يشيد به المعتزلة ويدعون الى الاحتكام اليه يقضي بالعدل ونفي القدر . والعدل هو وضع الشيء في موضعه . انه التصرف في الملك على مقتضى المشيئة والعلم . والظلم بضده . هذا ما يقتضيه العقل من الحكمة ، وهو اصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة . فما يصدر عن الله فعل واحد : هو صواب ومصلحة وخير ، اما غير ذلك فلا يصدر عنه ، فلا يُتصور منه جَوْرٌ في الحكم او ظلم في التصرف . ويعبر الشهرستاني عن هذا المذهب بقوله :

« واتفقوا على ان العبد قادر خالق لأفعاله خيراً وشرها ، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة . والرب تعالى منزّه ان يضاف اليه شر وظلم ، وفعلٌ هو كفر ومعصية ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً ، كما لو خلق العدل كان عادلاً » (١) .

غير ان المسعودي في (مروج الذهب) يقدم لنا المذهب في صورة اوسع فيقول :

« وأما القول بالعدل - وهو الاصل الثاني - فهو ان الله لا يحب الفساد ولا يخلق افعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم ، وأنه لم يأمر إلا بما اراد ولم ينه إلا عما كره ، وأنه ولي كل حسنة امر بها ، بريء من كل سيئة نهى عنها ، لم يكلفهم ما لا يطيقونه ولا اراد منهم ما لا يقدرُونَ عليه ، وأن احداً لا يقدر

على قبض ولا بسط إلا بقدره الله التي اعطاهم اياها ، وهو المالك لها دونهم ، يفنيها اذا شاء ويبقيها اذا شاء ، ولو شاء لأجبر الخلق على طاعته ، ومنعهم اضطراراً عن معصيته ولكان على ذلك قادراً . على انه لا يفعل ، إذ كان في ذلك رفع للمحنة وإزالة للبلوى ، ^(١) .

في هذا النص الرائع للمسعودي يتبين لنا فعوى الاصل الثاني من اصول المعتزلة وهو اقتضاء العدل الإلهي للأشياء على سبيل الحكمة ، والحكمة ان يخلو خلق الله من الشرور والآفات . ولكن العالم لا يخلو من الشرور والآفات والفساد ، فكيف تفسر حدوثها ما دام الله نفسه لم يوجد لها ؟ انهم يفسرون ذلك - كما ورد في النصين السابقين - بأن الله لم يخلق افعال العباد وإنما العباد قادرون خالقون لأفعالهم خيراً وشرها ، مستحقون على ما يفعلون ثواباً او عقاباً . أجل ان الله لم يخلق افعال العباد ولكنه اوجد القدرة فيهم او ما يسمى بالاستطاعة . والاستطاعة قدرة على الفعل والترك على حد سواء . أما ان يصدر القبح والشر والفساد من الله فهو سفه ان كان عالماً بها ، او جهل ان لم يكن عالماً بها ، وكلاهما محال على الله .

والمعتزلة حجج كثيرة يؤيدون بها الحرية ونفي القدر السابق ، بعضها يرجع الى مدارك العقل وبعضها يرجع الى مدارك السمع . فمن ادلتهم العقلية ان الانسان يحس من نفسه وقوع الفعل على حسب الدواعي والصوارف ، فإذا أراد الحركة تحرك وإذا أراد السكون سكن ومن انكر ذلك جحد الضرورة . فلولاً صلاحية القدرة الحادثة لايجاد ما اراد صاحبها لما احس من نفسه ذلك . وأكدوا ما قالوه بقولهم ان إثبات قدرة لا تأثير لها كتنفي القدرة ، فإن تعلقها بالمقدور كتملق العلم بالمعلوم ^(٢) .

١ - مروج الذهب ج ٣ . صفحة ١٥٣ .

٢ - نهاية الاقدام صفحة ٧٩ - ٨٠ .

ومن ادلتهم النقلية على أن قدرة الله وإرادته لا مدخل لهما في قدرة العبد وإرادته ، انه يستحيل اجتماع مؤثرين على اثر واحد في وقت واحد . فالمسؤول عن العمل الانساني الواحد إما ان يكون الله او العبد ، ولا يمكن ان يكون كلاهما مسؤولاً عنه ، فكل منهما مانع للآخر . فها هنا اذن تنازع . ولذا سمى المعتزلة هذا البرهان ببرهان التنازع .

فاذا كان الله مسؤولاً عن افعال العبد ، وكان العبد ، بالتالي لافعل له ، فقد بطل التكليف . لأن التكليف معناه « افعل » او « لا تفعل » . فاذا كان العبد غير قادر على الفعل اصلاً كان التكليف سفهاً من المكلف ، ومع كونه سفهاً يكون متناقضاً : فان تقديره « افعل يا من لا يفعل » او « غير قادر على الفعل » . فضلاً عن ان التكليف طلب ، والطلب يستدعي مطلوباً يمكن تحقيقه من قبل المطلوب منه . فاذا لم يتصور من هذا الأخير فعل فقد بطل الطلب ، كما ان الوعد والوعيد مقرون بالتكليف ، والجزاء مقدر على الفعل والترك . فلو لم يحصل من العبد فعل ولم يتصور ذلك ، بطل الوعد والوعيد وبطل الثواب والعقاب . فيكون التقدير : « افعل وأنت لا تفعل » ، ثم ان فعلت - ولن تفعل - ترتب الثواب والعقاب على ما لم تفعل ، وهذا خروج عن قضايا الحس فضلاً عن قضايا المعقول ، حتى لا يبقى فرق بين خطاب الانسان العاقل وبين الجواد ، ولا فصل بين أمر التسخير والتعجز وبين امر التكليف والطلب^(١) .

وبعبارة اخرى ، اذا كانت افعال العباد من صنع الله فكيف يحاسبهم عليها يوم القيامة ؟ الا يكون تعالى - لو حاسبهم عليها - قد أظلمهم أو عاقبهم على افعال هو فاعلها . وكانوا هم لا صنع لهم فيها ولا تقدير ؟ فلكي يصح التكليف ويجب الحساب فيثاب المحسن على احسانه ويحازى المسيء على اساءته ينبغي ان يكون للانسان قدرة على افعاله . فلو لم

يكن قادراً على الفعل والترك ما صح عقلاً ان يقال له افعل او لا تفعل ، ولما كان هناك محل للمدح والذم والثواب والعقاب ، ولما كان كفر الكافر وعصيان العاصي طاعة يستحق عليها صاحبها المثوبة . ولو كان الله هو الذي خلق افعال العباد - ومن هذه الأفعال الكفر والعصيان اللذان يستحقان العقوبة - لكان كمن لا يرضى عما فعل ، وينغضب مما خلق ويكره ما دبر . وهذا لا يقبله عاقل .

قالوا ودع التكليف الشرعي ، أليس المتعارف منا والمعهود بيننا مخاطبة بعضنا بعضاً بالأمر والنهي ، واحالة الخير والشر على المختار ، وطلب الفعل الحسن منه وتحذيره عن الفعل القبيح ، ثم ترتيب الجزاء والعقاب على ذلك ؟ ومن أنكر هذا فقد خرج عن حد العقل خروج عناد^(١) . واخيراً ما معنى ارسال الرسل اذا كان الله هو الذي يخلق افعال العباد ؟ ما الحكمة في دعوة من ختم الله على قلبه وقضى من الأزل انه لا يستجيب له ؟ أليس في اثبات القدر تجويراً لله تعالى ؟ ألا يكون ظالماً من يجبر غيره على معصية ثم يعذبه عليها ؟ ألا يكون جائراً من يعين فاعلاً على فعل الظلم ثم يعاقبه عليه ؟

والخلاصة ان المعتزلة ينفون القدر لينفوا عن الله الظلم والقبح ، ويثبتون للانسان القدرة والاستطاعة لانقاذ العدل الإلهي . ولذلك سموا انفسهم (اهل العدل) . وهم يعتمدون في ذلك - فضلاً عما تقدم - على آيات وردت في الكتاب العزيز منها :

- « كل نفس بما يكسبت رهينة » (المدثر ٤١) .
- « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » (فصلت ٤٦) .
- « قل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (الكهف ٢٨) .
- « انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً » (الانسان ٣) .
- « قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها »

١ - نهاية الاقدام ، ص ٨٤ .

(الانعام ١٠٤) .

« ومن يعمل سوءاً او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً
رحيماً ومن يكسب اثماً فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً ،
(النساء ١١٠ - ١١١) .

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً ، يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً ،
يره . (الزلزلة ٧) .

« وما ربك بظلام للعبيد » (فصلت ٤٦) .

« وما الله يريد ظلاماً للعباد » (المؤمن ٣٣) .

« فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا انفسهم يظلمون » (التوبة ٧١) .

« ان الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس انفسهم يظلمون »

(يونس ٤٥) .

« ولا يرضى لعباده الكفر » (الزمر ٩) .

واذا وجد المعتزلة بعض الآيات التي يفهم منها الجبر عمدوا الى تأويلها
بحيث توافق الاختيار . واما الاحاديث التي تثبت القدر فقد رفضوها
وكذبوا روايتها . وهكذا كان دأبهم دائماً ! فلا يأخذون بالأدلة النقلية
الا اذا كانت توافق اغراضهم ، والا تأولوها او رفضوها اذا كانت
تخالف هذه الأغراض ، فحجة العقل أولاً والنقل تبعاً . هذا هو حكم
العقل الذي به يؤمنون وهذه شرعته التي اليها يدعون ...

جـ - مشكلة الصلاح والأصلح - . ومن مقتضيات العدل ونتاجه

المباشرة ، القول بالصلاح . فقد اتفق المعتزلة « على ان الله تعالى لا يفعل
الا الصلاح والخير ، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد . واما
الأصلح واللفظ ففي وجوبه عندهم خلاف . وسموا هذا النمط عدلاً »^(١) .

فقد ذهبوا الى ان الله تعالى لم يدخر عن عباده شيئاً من الصلاح
والخير دون ان يبذله لهم ، لأنه حكيم جواد لا يضره الإعطاء ولا ينقص

١ - الملل والنحل ، ص ٤٥ .

من خزائنه المنح ولا يزيد في ملكه الادخار . والحكيم هو من تكون افعاله على وجه الإحكام والاتقان فلا يفعل فعلاً جزافاً ولا يقدم على عمل طائش ، بل لا بد ان ينحو غرضاً ويقصد صلاحاً ويريد خيراً . فانه يُعنى بصلاح عباده ، بل لا يقدر ان يعطي عباده أصلح مما اعطاهم ، لأنه لو كان عنده أصلح مما أعطاهم ومنعه عنهم لكان نجياً ظالماً^(١) . ويقول بعض المعتزلة انه يجب على الله ان يعمل ما فيه صلاح عباده ، ويقول آخرون يجب على الله تعالى رعاية الأصلح . ودليل المعتزلة على ذلك قولهم ان الحكيم لا يفعل فعلاً الا لحكمة وغرض ، والفعل من غير غرض سفه وعبث . والحكيم اما ان يقتنع هو او ينفع غيره . ولما تقدس تعالى عن الانتفاع تعين انه انما يفعل لينفع غيره . هذا وليس الأصلح هو الألد ، بل الأعداء في العاقبة والأصوب في العاجلة وان كان ذلك مؤلماً مكروهاً ، وذلك كالحجامة والفصد وشرب الأدوية . ولا يقال انه تعالى يقدر على شيء هو اصلح مما فعله بعبده^(٢) .



ثانياً : الغزالي

الآن وقد فرغنا من عرض وجهة نظر المعتزلة في المشكلات الثلاث ، فلنمرج على الغزالي لنقف على رأيه فيها .

أ - مشكلة العقل والنقل - . لقد بين الغزالي في (الاقتصاد في الاعتقاد)^(٣) موقفه في هذه المشكلة قائلاً ان الحشوية الذين جمدوا على التقليد واتباع الظاهر ، والمعتزلة الذين غلوا في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع ، كليهما مخطيء : فالحشوية قد مالوا الى التفريط ، والمعتزلة قد مالوا الى الافراط . والذي ينكر النظر لا يستتب له الرشاد ، لأن

١ - الفصل في الملل والامواء والنحل ، ج ٣ ص ٩٢ .

٢ - الملل ج ١ ص ٨١ والفصل ج ٣ ص ٩٢ وقارن أيضاً نهاية الاقدام ٣٩٨ - ٤٠٨ .

٣ - ص ٢ .

البرهان العقلي هو الذي نعرف به صدق الشارع . اما الذي يقتصر على محض العقل ولا يستضيء بنور الشرع فلن يهتدي الى الصواب ، لان العقل يعتريه العمى والحصر .

ويؤكد الغزالي هذا المعنى ايضاً في موضوع آخر فيقول . « ان العقل لن يهتدي الا بالشرع ، والشرع لن يتبين الا بالعقل : فالعقل كالأسّ والشرع كالبناء ، ولن يغني أسّ ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أسّ . وايضاً فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع ، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج ، ولن يغني الشعاع ما لم يكن البصر ... وايضاً فالعقل كالسراج ، والشرع كالزيت الذي يمدّه . فما لم يكن زيت لم يحصل السراج ، وما لم يكن سراج لم يضيء الزيت » .

ثم يوحد الغزالي بين العقل والشرع فيقول :

فالشرع عقل من خارج ، والعقل شرع من داخل . وهما متعاضان . بل متحدان . ولكون الشرع عقلاً من خارج سلب الله تعالى اسم العقل عن الكافر في غير موضع من القرآن نحو قوله : صم بكم عمي فهم لا يعقلون . ولكون العقل شرعاً من داخل قال تعالى في صفة العقل : فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم . فسمى العقل ديناً . ولكونها متحدتين قال : نور على نور . اي نور العقل ونور الشرع » .

ويكرر الغزالي المعنى نفسه في كتابه (إحياء علوم الدين) حيث يؤكد ان العلوم الدينية « كال صفة القلب وسلامته عن الادواء والامراض . فالعلوم العقلية غير كافية في سلامة القلب وان كان محتاجاً اليها ؛ كما ان العقل غير كاف في استدامة صحة اسباب البدن ، بل يحتاج الى معرفة خواص الأدوية والعقاقير بطريق التعلم من الأطباء . اذ مجرد العقل لا يهتدي اليه ، ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه الا بالعقل . فلا غنى

بالعقل عن السماع ، ولا غنى بالسماع عن العقل . فالداعي الى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفي بمجرد العقل عن انوار القرآن والسنة مفرور . فإياك ان تكون من احد الفريقين وكن جامعاً بين الأصلين . فان العلوم العقلية كالأغذية ، والعلوم الشرعية كالأدوية ، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء . فكذلك امراض القلوب لا يمكن علاجها الا بالأدوية المستفادة من الشريعة ، وهي وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الانبياء صلوات الله عليهم لاصلاح القلوب ؛ فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضر بها كما يستضر المريض بالغذاء . وظن من يظن ان العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وان الجمع بينهما غير ممكن ، ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه . بل هذا القائل ربما تناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيمجز عن الجمع بينهما ، فيظن انه تناقض في الدين فيتخير به فينسل من الدين انسلال الشجرة من المعين . وإنما ذلك لأن عجزه في نفسه خيل اليه نقضاً في الدين ، وهيهات ! وإنما مثاله مثال الأعمى الذي دخل دار قوم فتعثر فيها بأواني الدار فقال لهم ما بال هذه الأواني تركت على الطريق ؟ لم لا تُردُّ الى مواضعها ؟ فقالوا له : تلك الأواني في مواضعها وإنما انت لست تهتدي للطريق لعمالك ! فالمعجب منك أنك لا تحيل عثرتك على عمالك وإنما تحيلها على تقصير غيرك » (١) .

ونميل الى الاعتقاد بأن الغزالي قد ارتضى هذا الدستور حقيقة ، وأنه التزمه الى مدى بعيد في فحصه ونقده لضروب المعرفة ، سواء كانت تعتمد على العقل ام على المشاهدة الصوفية ام على تقليد الامام المعصوم عند بعض الفرق الاسلامية ، ام على المنهج الجدلي لدى علماء الكلام على اختلاف نزعاتهم .

١ - الغزالي ، احياء علوم الدين ج ٣ ص ١٥ - ١٦ .

فالفزالي لا يرى من تناقض بين العقل والشرع ، بل هناك صلة وثيقة بينهما بحيث لا يستغني أحدهما عن الآخر . فالعقل لضعفه وقصوره يعجز أحياناً عن أن يبدي الرأي في مسألة ما فيسغه الوحي والإلهام بتبيانها . فتارة يدرك العقل وجه الحكمة فيها ، وهنا يستطيع أن يشد في أزر الوحي والإلهام ، مما يمكنه من فنون الأدلة الفكرية وضروب المحاولات العقلية ؛ وتارة لا يدرك وجه الحكمة فيها فيقف صامتاً لا يحير جواباً . وليس معنى هذا ، القول باستعالة المسألة عنده . فهناك فرق كبير بين ما يعجز العقل عن إدراكه وبين ما يدرك استحالة . فالفزالي بهذا لا يريد أن يستغني عن العقل ، بل يجعله - كلما كان ذلك ممكناً - شارحاً للوحي والإلهام .

والخلاصة يحرص الفزالي في هذه المسألة على ضرورة استخدام العقل في مجال الشرع ، مع عدم تقديمه عليه كالمعتزلة . بل يذهب الفزالي في كتابه (المستصفى في أصول الفقه)^(١) إلى أن الحاكم هو الله ، وأن العقل ليس من شأنه التحسين أو التقييح ، فلا حكم للأفعال قبل ورود السمع .

أجل أن العقل ليس من شأنه الحكم على الأفعال بالحسن أو القبح ، فلا حكم إلا لله . إنما وظيفة العقل دعم حقائق الإيمان بالحجج والأدلة والبراهين . ولعل هذا هو السبب في إلحاح الفزالي على الحاجة إلى المنطق حتى بالنسبة إلى الولي أو النبي . فما دامت حقائق الوحي في حاجة إلى شرح العقل وتأييده حين يراد عرضها على الغير في صورة مقبولة مستساغة ، ولما كان العقل لا يؤمن عليه العثار والزلل إلا إذا اعتصم بالمنطق وامتدى بهديه ، يصبح المنطق ضرورياً لشرح حقائق الإيمان . أما التطرق إلى طبيعة هذه الحقائق والخوض فيها لمعرفة كنهها فامر لا يدخل في نطاق العقل . فالعقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المسائل . إنه عاجز عن حل

المعضلات الإلهية وعن تبديد الاضطراب والشكوك التي تعرض للإنسان فيها . انه معزول عنها كعزل السمع عن ادراك الالوان ، والبصر عن ادراك الاصوات ، وجميع الحواس عن ادراك المعقولات .

وأهم ما كان يرمي اليه الغزالي من مهاجمته للفلاسفة ونقده اللاذع لاستنتاجاتهم في كتابه (التهاافت) انما هو اظهار العقل بمظهر العاجز عن الخوض في الحقائق الدينية والإلهية وانه لا يمكن التعويل عليه ابداً في شأنها ، لأن أسلوبه في تفهم الأمور لا يمكن ان تخضع له هذه الحقائق . بل ان الغزالي ليلهو بالاستدلال ويحول فيه ويصول وكأنه يريد ان يوحى إلينا بأنه يستطيع بالعقل ان يثبت الشيء ونقيضه في آن واحد . وهذا ما يباهي به الغزالي وتدل عليه آثاره . وحجته في ذلك ان الفلاسفة الاغريق الذين تفلسفوا في مسائل الإلهيات - وحقائق الدين من صميم هذه المسائل - لم ينتهوا الى حال واحد في امرها بل لقد اختلفوا في الحلول التي وصلوا اليها اختلافاً كبيراً . فهناك من الحلول بمعدد الفلاسفة . ولئن دل هذا على شيء فانما يدل على ان العقل مظنة الخلاف وعلى ان التذرع به وحده لا يجدي ، وعلى ان له حدوداً لا ينبغي ان يتخطاها .

وليس معنى ذلك ان الغزالي يفضّ من قدر العقل او انه يسمه بالنقص بازاء جميع المسائل . كلا ، فالغزالي لم يتهم العقل الا في مسائل ما بعد الطبيعة فقط ، وهي المسائل التي تعثر فيها الفلاسفة وتفرقوا فيها مذاهب شتى وطرائق قديداً ، وما ذلك إلا لأن مسلكتهم فيها لم يكن برهانياً يؤدي الى العلم اليقيني الذي حدده الغزالي . بل كل ما يمكن ان يصل اليه العقل في شأنها انما هي نتائج ظنية لا تغني من الحق شيئاً . فالغزالي اذن ينكر قدرة العقل على الوصول الى المعرفة اليقينية في عالم ما بعد الطبيعة فقط ويثبت انكاره بالاخفاق المتتابع للفلاسفة ، ويهدم العقل لكل ما بناء العقل نفسه في هذا الميدان .

ولذلك لا يثق الغزالي بالعقل عندما يتصدى لهذه المسائل ويؤكد عدم قدرته على الاحاطة بها . واما ما عدا ذلك من علوم ومعارف فان العقل قادر على مواجهتها وخوض غمارها . وهكذا فالعقل ثقة في مسائل الرياضيات والمنطقيات والطبيعات والفلكيات ، وغير ثقة في حقائق الايمان ومسائل ما بعد الطبيعة . وهذا ما يتجلى في مطلع كتاب (التهافت) حيث يقول عن الفلاسفة « انهم يحكمون بظن وتخمين من غير تحقيق ويقين » ، ويستدلون على صدق علومهم الإلهية بظهور العلوم الحسابية والمنطقية ، ويستدرجون به ضعف العقول ، ولو كانت علومهم الإلهية متقنة البراهين نقية عن التخمين كعلومهم الحسابية ، لما اختلفوا فيها كما لم يختلفوا في الحسابية ^(١) . والسبب في ذلك ان ما شرطوه في صحة مادة القياس في قسم البرهان من المنطق ربما وضعوه من الأوضاع في (ايساغوجي) و (قاطيفورياس) التي هي من اجزاء المنطق ومقدماته ، لم يتمكنوا من الوفاء بشيء منه في علومهم الإلهية ^(٢) . فآين من يدعي ان براهين الإلهيات قاطعة كبراهين الهندسيات ؟

فالغزالي اذن يؤمن بسلطان العقل ، ولكنه انما يضع له حدوداً . انه لا ينكر محاولات العقل لحل مشاكلنا اليومية . وهو كذلك لا ينكر الحقائق العلمية سواء الرياضية منها او الطبيعية ، بل انه يقول ان الحساب والهندسة والفلك والطبيعات علوم حقيقية لا شك في صحة براهينها وفضل استنتاجاتها . والغزالي في تقييده لسلطان العقل انما يتذرع بالعقل نفسه ، ولذلك فان عمله هنا يمكن وصفه بأنه محاولة عقلية لتقليم اظافر العقل واثبات قصوره في ميدان الإلهيات ، وشهادة عقلية بأن العقل اذا كان مجدياً في بعض الميادين فليس من الضروري ان يكون مجدياً أيضاً في سائر الميادين الاخرى ، كما انه اذا كان صالحاً في بعض الميادين

١ - التهافت ، ص ٦٢ - ٦٣ .

٢ - التهافت ، ص ٧١ .

فليس من الضروري ان يكون صالحاً في سائر الميادين الاخرى . بل ان له حدوداً ينبغي عليه الوقوف عندها . وليس في هذه المحاولة كفر بالعقل بل هي تأكيد له . فلا يستتبع تعيين حدود الشيء الكفر به وانما حدود الشيء داخلة في مفهومه وجزء من حقيقته وتعريفه . فضلاً عن ان ذلك عمل علمي بحث يمكن وصفه بأنه بحث في طاقة العقل نفسه . هذا هو رأيه في العقل بصورة عامة ، ولكن يبدو انه لم يثبت على هذا الرأي في جميع كتبه . ففي (المشكاة) وهي من اواخر كتبه لا يضع الغزالي حدوداً للعقل بل نراه يذكر صراحة ان الموجودات كلها مجال للعقل ... فيتصرف في جميعها ويحكم عليها حكماً يقينياً صادقاً . فالأسرار الباطنة عنده ظاهرة ، والمعاني الخفية عنده جليلة ^(١) . واذا كانت هناك شكوك حول صحة نسبة (المشكاة) إلى الغزالي ، فان (القسطاس المستقيم) لا يقل عنها ايماناً بالعقل . فنحن نجد فيه نصوصاً تتم عن تقدير الغزالي لسلطة العقل لا في حقل الطبيعة وحده بل في حقل ما بعد الطبيعة ايضاً . ولم يقتصر موقفه هذا من العقل على مؤلف واحد ، اذ نراه في (الاقتصاد في الاعتقاد) يعول على العقل لبرهن عن وجود الخالق . وهناك ايضاً في (الاحياء) و (اللدنية) بعض اثباتات تؤيد هذا الموقف وتظهر لنا ان ايمانه بصلاحية العقل لم يكن مرحلة من مراحل تطوره الفكري .

« ولكن اذا تفحصنا جميع مؤلفاته ناظرين اليها نظرة فلسفية محضة ومحاولين استجلاء وحدة في التفكير ، لا نستطيع الا ان نقرّ بأن هناك ما يحملنا على الريب في صحة موقفه من العقل واخلاصه له . فقد لاحظنا فعلاً ، فيما يتعلق بالعلية ، تذبذباً بل تناقضاً في تصريحاته وتصرفاته . فكيف التوفيق اذن ؟ وهل يمكننا ذلك ؟ » ^(٢) .

١ - مشكاة الانوار صفحة ٤٥ .

٢ - فيكتور شلعت في تقديمه لكتاب القسطاس المستقيم للغزالي صفحة ٢٣ .

وإني لأتساءل الآن ! لم التوفيق ؟ ما معنى هذا الحرص الشديد على
« استجلاء وحدة في التفكير » ، والجمع بين الآراء المتعارضة عند الغزالي في
موضوع العقل ما دام الغزالي نفسه لم يحرص عليه ؟ هل يجب ان نكون
غزاليين اكثر من الغزالي ؟ نعم لقد تناقض الغزالي ، وما يضيره في ذلك ؟
وهل سلم فيلسوف قبله او بعده من التناقض بل هل نسلم نحن في حياتنا
من الموقف المتعارضة والمتناقضة من الشيء الواحدة ؟ وهل نظام الحياة
والعالم وحدة منسجمة متناسقة كقواعد المنطق ؟ ان التناقض ظاهرة عامة
عند جميع الفلاسفة والمفكرين والعلماء . فالفيلسوف - نظراً لحساسيته العقلية
المرهفة - يمثل قمة الصراع بين العقائد والأفكار والمذاهب . فيه تلتقي
تيارات مختلفة واتجاهات متباينة تقل حدتها تبعاً لنضجه العقلي وتطور
تفكيره وظروف حياته وبيئته والمرحلة التاريخية والحضارية التي يعيش
فيها . لندرس الفيلسوف كما هو لا كما نريده ان يكون . هكذا ينبغي في
نظرنا ان تكون الدراسة الوضعية للفلسفة . فالدراسة المعيارية لا تجدي
ولن تجدي . إننا اذا اخفينا ظاهرة التناقض عند الفيلسوف بأحاييل
المنطق اخفينا حقيقة هامة من حقائق مذهبه الذي نهتم بدراسته . وهذه
الدراسة لا تكون بالتهرب من بعض الظواهر التي لا يقرها جهاز معقد
من المنطق المصطنع بل بالتصدي لها والأخذ بتلايبيها . ان الفيلسوف
انسان كسائر الناس يخضع لما يخضعون له من ازمات وموجات ومآزق ،
ان لم يكن أشد منهم خضوعاً لها نظراً لحساسيته المرهفة : فهو يتقلب
مثلهم بين الشك واليقين والإلحاد والإيمان ويعتريه ما يعتريهم من قبض او
بسط ، وخوف أو رجاء ، وقلق أو طمأنينة ، كما يصيبه ما يصيبهم من إقبال
على الحياة او تفور منها ، ومن شعور بالوجود او بالضياح ، بالقوة او
بالضعف ، بالكبرياء او بالإنسحاق الخ . وكلها نوبات ودورات تترك آثاراً
واضحة في تفكيره ومواقفه . فهو ليس قالباً جامداً او نظاماً متعجباً
كالمنطق . انه سيلان وصيرورة وديمومة ، انه اصطراع وتناقض ، انه

حياة . وبرغم جميع محاولات التوفيق التي قام بها محقق كتاب (القسطاس المستقيم) في تقديمه لهذا الكتاب ، فإنه يعترف باستمرار الصعوبات « ليس فيما يتعلق بسلطة العقل ذاتها ... بل في مدى هذه السلطة ونطاقها » (١) .

ولأن نطاق العقل محدود ، ولعجزه عن حل كثير من المشكلات ، فمن الخطأ وفساد الرأي إقامة العقيدة على العقل وحبس الدين ضمن احكام المنطق . إذ لكل من الناحيتين مصدر خاص يختلف عن مصدر الناحية الأخرى : فأما المنطقيات والطبيعيات والفلكيات فتستند الى العقل وأما الدين وحقائق الايمان فتنبجس من القلب . والعقل يختص بحل مشاكل الحياة اليومية وتسخير العالم لخدمة الانسان ، وأما القلب فيختص بالحدس الديني والذوق الروحي والكشف الباطن على حدة مذهب الصوفية ومواجيدهم . وهكذا يكون الغزالي قد حرر الدين من غرور العقل ، كما انقذ العقل من تصلب الدين ، وإعادة التوازن بينهما . وكما حصر الغزالي اختصاص القلب في حقائق الايمان - وبذلك يكون قد وضع له حدوداً مع شدة نوازع القلب والوجدان في نفسه - فكذلك وضع للعقل حدوداً مع حرصه عليه وعظيم ايمانه به ، فحصر اختصاصه في قضايا الحياة العملية وتسخير الاشياء لخدمة الانسان . لكنه بهذا التحديد لكليهما لم يسلم من التناقض كما مرّ معنا . وهذا ما يفسر قلة التماسك في بنيان فلسفته .

هناك في رأيه طريقان للمعرفة مختلفان جداً :

أحدهما طريق المشاهدة الحسية والتحليل المنطقي الذي يؤدي الى رؤية الاشياء وملاحظتها من الخارج ، بالالتفاف حولها دون النفاذ الى كنهها والسريان في جوهرها .

والثاني طريق الرؤية الحدسية بالتعاطف القلي والمشاركة الروحية المؤدية الى الجوهر الصافي ، والموصلة الى ما سماه الغزالي (النفث في الروح) او (النور الذي يقذفه الله في الصدر) .

١ - المصدر السابق ص ٢٩ .

فليت شعري « كيف يقاس الدوام الأبدي بدوام المتغير الفاسد ؟
وكذلك شدة الوصول ! فكيف يكون ما وصوله بملاقاة السطوح والأجسام
بالقياس الى ما وصوله بالسريان في جوهر الشيء ، كأنه هو بلا انفصال »
كما يقول في (معارج القدس) .

وهكذا نرى كيف يمزج الغزالي عناصر العقل بعناصر القلب ويدمج
في النظر الفلسفي اصولاً مستمدة من الصوفية تقلل من تماسكه ليقم لنا
مذهباً ليس بدعاً من المذاهب يخفف من غلواء العقل في محاولة للوصول
الى الله ليست بأقل شأنًا في تاريخ الفكر الانساني من محاولات الذين
جاءوا قبله او بعده فكانوا غرة في تراث الانسانية .

ان هجوم الغزالي « على الفلاسفة القدماء » مبدئياً تهافت عقيدتهم وتناقض
كلماتهم فيما يتعلق بالإلهيات ، وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعوراته « (١) » .
وأخذه لهم بلوازم مقدماتهم وتعجيزه ايام عن الاحاطة بكنه الحقائق
الإلهية - ان كل اولئك لا يدل فقط على الجانب السلبي في تفكيره ، وهو
جانب الهدم والتعطيم ، بل يدل ايضاً على الجانب الايجابي فيه ، جانب
البناء او الخلق . فهو لم يهدم ما هدم ولم يحطم ما حطم إلا ليقم للدين
صرحاً وليجعل للحق معياراً . هذا المعيار هو النور الإلهي والتأييد
السمائي « (٢) » . انه الكشف الباطن الذي تتجلى به الحقائق الايمانية ويحصل
به اليقين . لقد استغرقت هذه الحقائق وجود الغزالي ونذر لها كيانه
وحياته . فالدين هو المتسلط على تفكيره وما ثارت به الشكوك في احكام
العقل والمنطق إلا دفاعاً عن الدين وانتصاراً لحقائق الايمان ، ودحراً
لمحاولات الفلاسفة وأباطيلهم . فميزة الغزالي انه إنما فهم الدين من باطن .
فالدين امر طبيعي للانسان من حيث هو انسان ، والشعور الديني له اصوله
في اعماق الطبيعة البشرية وفي نوازع الفطرة ودفق الوجدان ، على الرغم

١ - التهافت ، صفحة ٦١ .

٢ - انظر ميزان العمل للغزالي صفحة ٢٤٤ .

من انه من الامور التي يستعصي على العقل حلها . انه يثبجس من القلب
وتغذوه الروح ويرفده العالم الإلهي . انه يصدر عن قوة ليست من معدن
هذا العالم ولا من طبيعته ، وهي القوة التي بفضلها يتمكن الانسان من
الاتصال بالملكوت الأعلى .

وقد كانت للغزالي فضل كبير على تصفية العقيدة وإقرار مفهوم
جديد للدين :

فالمتكلمون لم يفهموا الدين عندما أرادوا تحويله الى نظام من الايمان
المثبت منطقياً والجامد عند الحجج الكلامية الشكلية التي لا تقيم حقائق
الايمان بل قد تفسدها وتعين على القضاء عليها .

وكذلك الفقهاء لم يفهموا الدين عندما جعلوه قانوناً فقهياً وقضائياً مجتأ
ومجموعة من التكاليف والرسوم المتحجرة التي تقف عند ظواهر الاعمال
دون ان تنفذ الى روحها ولباها .

والفلاسفة لم يفهموا الدين ايضاً عندما لم يحدوا فيه سوى طريقة لغزو
مشاعر العامة والتأثير عليها بالترهيب والترغيب . فهو في نظرهم ثمرة لخيلة
النبي الذي أمر ان يخاطب الناس على حسب عقولهم . فيضطر الى الزخرف
والتمويه ، وبالتالي فإن حقائق الدين - تبعاً لهذا المفهوم - أدنى من حقائق
الفلسفة . ولذلك فإن الفلاسفة قد اوجبوا على العامة اتباعه واعفوا انفسهم
من التقيد به لأنهم من طبقة الخواص وأهل البرهان التي لا تسمو اليها
طبقة الجمهور .

فخالف الغزالي هؤلاء جميعاً في إدراك كنه العقيدة الدينية وشرحها
فردّ الدين الى الكشف الباطن والايمان القلبي ، وجعله مسألة تعمر القلب
وتملأ كيان الانسان حياة وطهرأ وزكاة .

وهكذا يكون الغزالي قد أدرك الدين والمسألة الدينية إدراكاً جديداً
اعمق من ادراك المتكلمين والفقهاء والفلاسفة . فأعاد الى الدين طاقة روحية
كان قد فقدتها ، وردّ اليه معنى كان الفلاسفة قد جردوه منه . ليس الدين

غنده مجرد طقوس تؤدّي أو رسوم تُتبع . انه شيء اكثر من ذلك وأعق
لا يحده العقل ولا يحيط به الوم . انه حدس صوفي وذوق باطن . انه
قوت القلب وغذاء الوجدان . انه شيء تذوقه الروح وتطيب به النفس
وتسمو به الذات في القول والفكر والعمل والشعور !

ب - مشكلة الحرية . - يرى الغزالي ان الله تعالى يريد للكائنات
مدبر لها : فلا يجري في الكون قليل او كثير ، صغير او كبير ، خير
او شر ، نفع او ضرر ، ايمان او كفر ، عرفان او نكران ، فوز او خسران ،
زيادة او نقصان ، طاعة او عصيان ، لا يجري شيء من ذلك إلا بقضائه
وقدره وحكمته ومشئته . فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . لا يخرج عن
إرادته لفئة ناظر او فلتة خاطر ، بل هو المبدئي المعيد . الفعّال لما يريد .
فلا رادّ لأمره ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوقيفه
ورحمته ، ولا قوة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته . فلو اجتمعت الانس
والجن والملائكة والشياطين على ان يحركوا في العالم ذرة او يسكنوها
دون إرادته ومشئته لمجزوا عن ذلك .

ولا موجود في الكون إلا وهو حادث بفعل الله وفائض من عدله .
فالله حكيم في افعاله عادل في أقضيته . ولا يقاس عدله بعدل العباد ،
إذ العبد يُتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره ولا يُتصور الظلم من
الله تعالى . فليس في الكون ملك لغير الله يكون تصرفه فيه ظلماً ،
انما كل ما في الكون ملك لله وحده . لذلك لا يُتصور الظلم في حق الله
ما دام لا يُصادف لغيره ملكاً اذا تصرف فيه كان ظلماً^(١) .

والله متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ، ومتطول
بالإنعام والاصلاح لا عن لزوم . فله الفضل والاحسان والنعمة والامتنان :
اذ كان قادراً على ان يصب على عباده انواع العذاب ويبتليهم بضروب
الآلام والأوصاب . ولو فعل ذلك لكان منه عدلاً ولم يكن منه قبيحاً

١ - الغزالي : احياء علوم الدين الجزء الاول ، صفحة ٧٩ .

ولا ظلماً . وانه عز وجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد ، لا بحكم الاستحقاق وال لزوم له ، اذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب عليه لأحد حق . وان حقه في الطاعات واجب على الخلق بإيجابه على السنة انبيائه لا بمجرد العقل ، ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة ، فبلغوا امره ونهيه ووعدده ووعدده ، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به ^(١) .

وهكذا فإرادة الله - في نظر الفزالي - شاملة للمخلوقات جميعاً من انسان وحيوان ونبات وجماد ، فلا شيء يعجزها او يخرج على حكمها . ويحدد الفزالي افعال الله في عشرة اصول يهنا منها هنا خمسة فقط لصلتها بموضوع الحرية الانسانية وتقييدها لها حتى لكادت تلغيها وهي الاصل الاول والثاني والثالث والخامس والسادس .

الاصل الاول . - ما ذكرناه من ان كل حادث في العالم فهو فعله وخلقه واختراعه . خلق الخلق وصنعهم وأوجد قدرتهم وحركتهم . فجميع افعال عباده مخلوقة له متعلقة بقدرته . امر العباد بالتحرز في اقوالهم وأفعالهم وإسرارهم وإضمارهم ، لعلمه بموارد افعالهم . كيف لا يكون خالصاً لفعل العبد وقدرته تامة لا قصور فيها ؟ ^(٢)

الاصل الثاني . - ان انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب . بل الله خلق القدرة والمقدور جميعاً ، وخلق الاختيار والمختار جميعاً . فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب سبحانه وليست بكسب له . وأما الحركة فخلق للرب ووصف للعبد وكسب له . فعلم الله شامل لكل شيء ، فلا يقع في ملكه ما لا يعلم ولا يحدث ما لا يريد . بل كل ما يجري في العالم فلانما يحدث بعلمه وقضائه . فالأفعال جميعها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً وبقدرة العبد

١ - نفس المصدر والصفحة .

٢ - المصدر السابق ، صفحة ٩٥ .

على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكساب^(١) .

الاصل الثالث . - ان فعل العبد وإن كان كسباً له فلا يخرج عن كونه مراداً له . فلا يجري شيء إلا بقضاء الله وقدرته ، وبإرادته ومشيتته . فعنه يصدر الخير والشر ، والنفع والضرر ، والإسلام والكفر . لا معقب لحكمة ولا رادة لقضائه . يفضل من يشاء ويهدي من يشاء ، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون . ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن : يدل عليه دليلان ، احدهما من جهة النقل والآخر من جهة العقل .

فأما من جهة النقل فكقول الله عز وجل : « ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً » وقوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » .

وأما من جهة العقل فان المسلم لا يستجيز ان تجري المعاصي والجرائم على وفق ارادة العدو ابليس دون ارادة الله . فكيف يُردُّ الله الى رتبة لو رُدَّت اليها رئاسة زعيم ضيعة لاستنكف عنها وتبرأ منها ؟ والمعصية هي الغالبة على الخلق ، وهي تجري عند المبتدعة على خلاف ارادة الحق تعالى . وهذا غاية الضعف والعجز . تعالى الله عن قول الظالمين علواً كبيراً . وكلما ظهر ان افعال العباد مخلوقة صح انها مرادة له .

فان قيل : فكيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد ، اجاب الغزالي بأن الامر والنهي غير الارادة^(٢) .

الاصل الخامس . - انه يجوز على الله ان يكلف الخلق ما لا يطيقون ، خلافاً للمعتزلة ، وإلا لاستحال سؤال دفعه . وقد سأل المسلمون الله ذلك فقالوا : « ربنا لا نُحمِلُنا ما لا طاقة لنا به » فلولا انه يجوز على الله تكليف : لا يطاق لما سألوا ان لا يُحمِّلهم ما لا طاقة لهم به^(٣) .

الاصل السادس . - ان الله عز وجل ايلام الخلق وتعذيبهم من غير

١ - نفس المصدر ، صفحة ٩٥ - ٩٦ .

٢ - المصدر السابق صفحة ٩٦ .

٣ - المصدر السابق صفحة ٩٧ .

جرم سابق او ثواب لاحق ، خلافاً للمعتزلة ، لأنه متصرف في ملكه يعذب من يشاء من غير استحقاق من العباد دون ان يكون في تعذيبهم ظلم لهم . اذ الظلم عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير اذنه ، وهو محال على الله تعالى ، فانه سبحانه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً^(١) .

لاحظنا ان الغزالي في الاصلين الثاني والثالث يعزو للانسان - على طريقة الاشاعرة - نوعاً من الحرية يسميه «الكسب» او «الاكتساب» دون ان يوضح لنا معناه . هذا في (كتاب قواعد العقائد) في اواخر الجزء الاول وأول الجزء الثاني من (احياء علوم الدين) لكنه في (روضة الطالبين) يزيد هذا المعنى ايضاحاً فيقول :

« فأفعال العباد مضافة الى الله تعالى خلقاً وإيجاداً ، والى العبد كسباً ليُثاب على الطاعة ويعاقب على المعصية . فعين يتعلق العبد بشيء ما يوجد له الاقتدار الإلهي ، وهذا يسمى كسباً . هذا مذهب اهل السنة . فقدره العبد عند مباشرة العمل لا قبله . فحينما يباشر العمل يخلق الله اقتداراً عند مباشرته فيسمى كسباً . فمن نسب المشيئة والكسب الى نفسه فهو قدري ، ومن نفاهما عن نفسه فهو جبري ، ومن نسب المشيئة الى الله تعالى والكسب الى العبد فهو سنّي صوفي رشيد »^(٢) .

ولزيادة الايضاح يضرب الغزالي المثل التالي :

« واعلم ان الافعال قسمان : احدهما ما يقع من العبد ، وهو الكسب المنسوب اليه ، ولهذا أنزلت الكتب وأرسلت الرسل ... والثاني ما يقع على العبد جزاءً ، وهو ما بيد الله تعالى ... ومثال ذلك قطع الجلاد يد السارق : يصح ان يقال القاطع هو الجلاد لأنه كاسب ، ويصح ان يقال ان الله تعالى هو القاطع بيد الجلاد لانه تعالى هو المجازي للمقطوع لما بدا منه ، ويصح ان

١ - نفس المصدر والصفحة .

٢ - الغزالي : روضة الطالبين ، الفصل الاول من المقدمة .

يقال ان السارق هو القاطع ليد له لانه المبتديء لما جناه ، فلا يقع عليه الا ببعض ما كسبت يده . فيكون الفعل الواحد من الرب تعالى جزاء ومن المقطوع ابتداء ومن القاطع كسباً ، (١) .

فقدرة الله مستقلة بالخلق ولا مدخل لها في الكسب ، وقدرة العبد مستقلة بالكسب ولا مدخل لها في الخلق . فلو كان الانسان غير خالق لأفعاله فانه كاسب لها بيده وتقع تبعثها عليه اخلاقياً ما دام قد عزم عليها وأرادها ، وحسبه مسؤولية انه قصد ما وكان الأداة المنفذة لها .



وفي نص جميل رائع من (الاحياء) يناقش الغزالي هذه المسألة ليبين لنا ألا فاعل الا الله وان كل موجود فالمنفرد بإبداءه واختراعه انما هو الله ، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة في ملكوت السموات والارض . ومع ذلك لا يجرد الغزالي الانسان من عنصر الكسب .

وهو يضرب لذلك مثلاً بانسان عمدا الى ورقة كانت بيضاء قبل قليل ثم اسودت أجزاء منها بالكتابة ، فسألها : لم سودت وجهك ؟ فقالت : ما أنصفتني في هذه المقالة ، فاني ما سودت وجهي بنفسي ، ولكن سل الخبر فانه كان مجموعاً في المهبرة التي هي مستقره ووطنه ، فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلماً وعدواناً .

فسأل الخبر عن ذلك فقال : ما أنصفتني ، فاني كنت في المهبرة وادعاً ساكناً على ان لا أبرح منها ، فاعتدى عليّ القلم بطمعه الفاسد واختطفني من وطني وأجلاني عن بلادي وفرق جمعي وبددني كما ترى على ساحة بيضاء ، فالسؤال عليه لا عليّ .

ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه واخراج الخبر من اوطانه . فقال : سل اليد والاصابع ، فاني كنت قصباً ثابتاً على شط الأنهار

١ - المصدر السابق ، الباب الخامس ، الفصل السابع .

متنزهاً بين خضرة الأشجار فجاءتني اليد بسكين فنحتت عني قشري ومزقت عني ثيابي واقتلعتني من اصلي ، ثم برتني وشقت رأسي ، ثم غمستني في سواد الخبر ، وهي تستخدمني وتمشي علي قمة رأسي . فتنح عني وسل من قهربي .

ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له . فقالت اليد : ما أنا الا لحم وعظم ودم ؛ وهل رأيت لهما يظلم او جسما يتحرك بنفسه ؟ وانما أنا مركب مسخّر ركبني فارس يقال له القدرة والعزة ، فهي التي ترددني وتجول بي في نواحي الارض . أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شيء منها مكانه ولا يتحرك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر ؟ أما ترى ايدي الموتى تساويني في صورة اللحم والعظم والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم ؟ فأنا ايضاً من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم . فسل القدرة عن شأني ، فاني مركب ازعجني من ركبني .

ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها . فقالت : دع عنك لومي ومعاتبتي ، فكم من لائم ملوم ! وكم من ملوم لا ذنب له ! وكيف يخفى عليك امري ؟ وكيف ظننت اني ظلمت اليد لما ركبتها ؟ فقد كنت لها راكبة قبل التحريك ومع ذلك ما كنت أحركها ، بل كنت نائمة ساكنة نوماً ظن الظانون بي اني ميتة او معدومة لأنني ما كنت أتحرك ولا أحرك . وبقيت كذلك حتى جاءني موكل ازعجني وأرهقني الى ما تراه مني ، فكانت لي قوة على مساعدته ولم تكن لي قوة على مخالفته ، وهذا الموكل يسمى الارادة . ولا أعرفه إلا باسمه . فأزعجني هجومه وصياله في غمرة النوم وأرهقني الى ما كان لي مندوحة عنه .

ثم سأل الارادة : ما الذي جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها الى التحريك وأرهقتها اليه ارهاقاً لم تجد عنه مخلصاً ولا

مناصاً . فقالت الارادة لا تعجل عليّ ، فلعل لنا عذراً وأنت تلوم ، فاني ما انتهضت بنفسي ولكن أنهضت ، وما انبعثت ولكنني بُعثت بحكم قاهر وأمر جازم ، وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ، ولكن ورد عليّ من حضرة القلب رسول العلم عليّ لسان العقل بأن اصدع للأمر ، فاني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ، ولا ادري بأي جرم وُقيت عليه وسُخرت له وأُلزمت طاعته . لكنني ادري اني في دعة وسكون ما لم يرد عليّ هذا الوارد القاهر ، وهذا الحاكم العادل او الظالم . فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه فسل العلم عن شأني ودع عني عتابك .

فأقبل على العلم والعقل والقلب مطالباً لهم ومعاتباً اياهم على استنهاض الارادة . فقال العقل : اما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكن أشعلت . وقال القلب : اما انا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكن بُسطت . وقال العلم : اما انا فنقش نُقِشت في بياض لوح القلب عندما أشرق سراج العقل . وما انخططت بنفسي ، فكم كان هذا اللوح قبلي خالياً عني . فسل القلم لأن الخط لا يكون الا بالقلم .

فعند ذلك اضطرب السائل ولم يقنعه جواب وقال قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازلتي ، ولا يزل يحيلني من طمعت به في معرفة هذا الامر منه على غيره . ولكنني كنت أطيّب نفساً بكثرة التردد لما كنت أسمع كلاماً مقبولاً في الفؤاد وعذراً ظاهراً في دفع السؤال . وقال لليد والقلم والعلم والارادة والقدرة وما بعدها : اقبلوا عذري ، فاني كنت غريباً حديث العهد بالدخول في هذه البلاد . ولكل داخل دهشة . فما كان انكاري عليكم الا عن قصور وجهل . والآن قد صح عندي عذرکم وانكشف لي ان المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار . فما انتم الا مسخرون تحت قهره وقدرته مرددون في قبضته . وهو الاول والآخر والظاهر والباطن ولا تناقض في الامر :

فهو الاول بالاضافة الى الموجودات ، اذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد ؛

وهو الآخر بالاضافة الى سير السائرين اليه ، فانهم لا يزالون مترقبين من منزل الى منزل الى ان يقع الانتهاء الى تلك الحضرة ، فيكون ذلك آخر السفر . فهو آخر في المشاهدة اول في الوجود ؛

وهو باطن بالاضافة الى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لادراكه بالحواس الخمس ؛

وهو ظاهر بالاضافة الى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت .

فله الأمر من قبل ومن بعد وهو الفاعل باطلاق . فالقلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب ... هكذا كان توحيد السالكين وهذا مقتضى عقيدتهم . فلا فاعل الا الله وهو على كل شيء قدير .

فإن قلت : فهذا جبر محض ، والجبر يناقض الاختيار ، ردّ الغزالي في كلام طويل ان الانسان مجبور ومختار في آن واحد . ومعنى كونه مجبوراً ان جميع ما يصدر عنه حاصل فيه من غيره لا منه ، ومعنى كونه مختاراً انه محل لارادة حدثت فيه جبراً بعد اقتناع العقل بضرورة الفعل ، اذ الارادة تتبع العلم الذي يحكم بأن الشيء موافق لك ، فلا جرم ان تتبعث الارادة بالعلم والقدرة بالارادة ويحصل الفعل منك بعد ذلك . فأنت اذن مجبور على الاختيار . وبعبارة اخرى ان فعل النار في الاحراق مثلاً جبر محض ، وفعل الله تعالى فعل محض ، وفعل الانسان في منزلة بين المنزلتين . فطلب اهل الحق لهذا عبارة ثالثة فسمّوه كسباً . فالكسب ليس مناقضاً للجبر ولا للاختيار .

فإن قلت : فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ، إذ معنى التوحيد ان لا فاعل إلا الله ، ومعنى الشرع اثبات الافعال للعباد ؟ أجاب الغزالي بأن للفاعل معنيين : فكما يقال قتل الأمير فلاناً ويقال قتله الجلاد ، ولكن الأمير هنا قاتل بمعنى ، والجلاد قاتل بمعنى آخر ، فكذلك العبد فاعل بمعنى والله عز وجل فاعل بمعنى آخر . فمعنى كون الله تعالى فاعلاً انه المخرع الموجد ، ومعنى كون العبد فاعلاً انه المحل الذي خَلَقَ فيه القدرة بعد أن خلق فيه الارادة بعد ان خلق فيه العلم . فارتبطت القدرة بالارادة ، والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط ، وارتبط ذلك كله بقدرة الله تعالى ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخرع بالمخرع . ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الافعال في القرآن مرة الى الملائكة ومرة الى العباد ، ونسبها بعينها مرة أخرى الى نفسه . فإذا لا حق الا الحي القيوم القائم بذاته ، وكل ما سواه فقائم بقدرته . فانما اسم الفاعل له بالحقيقة ولغيره بالجاز (١) .

ج . - مشكلة الصلاح والأصلح . - والغزالي ينفي عن الله رعاية الصلاح والأصلح . ويظهر ذلك بصورة خاصة في الأصلين الرابع والسابع من الأصول العشرة التي أتينا على خمسة منها .

الأصل الرابع . - ان الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ، ومتطول بتكليف العباد ، ولم يكن الخلق والتكليف واجباً عليه . وبذلك يرد الغزالي على المعتزلة التي توجب ذلك على الله لما فيه من مصلحة للعباد . فالله في نظر الغزالي هو الموجب والأمر والناهي ، فلا يجوز ان يتعرض لايحاب او للزوم او خطاب . وقول المعتزلة « يجب لمصلحة عباده » كلام فاسد . فإنه إذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد لم يكن للوجوب في حقه معنى . ثم ان مصلحة العباد إنما تكون في أن يخلقهم في الجنة . اما ان يخلقهم في دار البلايا ويعرضهم للخطايا ثم يعاقبهم على ما قدمت أيديهم

١ - الإحياء ، ج ٤ ، صفحة ٢٠٢ - ٢١٢ .

فما في ذلك غبطة عند ذوي الألباب (١) .

الأصل السابع . — انه تعالى يفعل بعباده ما يشاء ، فلا يجب عليه رعاية الأصلح لهم ، اذ لا يجب عليه سبحانه شيء ، بل لا يُعقل في حقه التوجوب : فإنه لا يُسال عما يفعل وهم يُسالون . وهنا يفرض الغزالي مناظرة في الآخرة بين صبي وبين بالغ مائتا مسلمين ، فان الله سبحانه يزيد في درجات البالغ ويفضله على الصبي لانه تعب بالإيمان والقيام على الطاعات بعد البلوغ ، وهذا واجب على الله عند المعتزلي . فلو قال الصبي : « يا رب لم رفعت منزلته علي ؟ » فيقول الله : « لأنه بلغ واجتهد في الطاعات » . فيقول الصبي . « انت امتثني صبياً ، فلو ادمت علي حياتي حتى اصل الى سن البلوغ لاجتهدت في طاعتك ، ولكنك عدلت عن العدل ، فتفضلت عليه بطول العمر دوني فلم فضلته ؟ » فيقول الله تعالى : « لأنني علمت انك لو بلغت لاشركت او عصيت ، فكان الاصلح لك الموت في الصبا » . هذا عذر المعتزلي عن الله عز وجل . وهنا ينادي الكفار في دركات الجحيم قائلين : « يا رب ! هلا أمتنا في الصبا فأرحتنا من العذاب المقيم ! أفما علمت ان ذلك اصلح لنا ؟ فانتا رضىنا بما دون منزلة الصبي المسلم » . فهاذا يحاج عن ذلك ؟ وهل يجب عند هذا إلا القطع بأن الأمور الإلهية تتعالى بحكم الجلال عن ان توزن بميزان اهل الاعتزال ؟

فان قيل : « اذا قدر على رعاية الأصلح للعباد ثم سلط عليهم اسباب العذاب كان ذلك قبيحاً لا يليق بالحكمة » . أجاب الغزالي بأن « القبيح هو ما لا يوافق الغرض » ، حتى انه قد يكون الشيء قبيحاً عند شخص حسناً عند غيره اذا وافق غرض احدهما دون الآخر ، حتى يستقبح قتل الشخص اولياؤه ويستحسنه اعداؤه . فان أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض البارئ سبحانه فهو محال ، اذ لا غرض له ، فلا يُتصور منه

قبيح ، كما لا يُتصور منه ظلم ، اذ لا يُتصور منه التصرف في ملك الغير^(١) . وان أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الغير فلم قلتم انه يستحيل على الله فعل ما لا يوافق الغير ؟ وهل هذا الا مجرد تشهّي يشهد بخلافه ما قد فرضناه من اعتراض اهل النار على الله لانه لم يمتهم في الصبا ؟ ثم ان الحكيم معناه العالم بحقائق الاشياء القادر على فعلها على وفق ارادته هو ، وليس في هذا ما يوجب رعاية الأصلح . ان الحكيم منا إنما يراعي الأصلح نظراً لنفسه ليستفيد به في الدنيا ثناء وفي الآخرة ثواباً او ليدفع به عن نفسه آفة^(٢) ، وكل ذلك على الله سبحانه وتعالى محال^(٣) .

وهكذا فلا يجب على الله رعاية الأصلح لعباده ، خلافاً لمقالة المعتزلة الذين يرون هذا الرأي دون تحقيق ، لكنهم اذا طولبوا بتحقيقه لم يرجعوا الى شيء الا انه رأي استحسونه بمعقولهم من مقايضة الخالق على الخلق وتشبيه حكمته بحكمتهم . ومستحسنات العقول هي الرأي الذي لا ارى التعويل عليه ... [اذن] لو كان الأصلح واجباً على الله لفعله . ومعلوم انه لم يفعله ، فدلّ انه غير واجب ، فانه لا يُترك الواجب . فان قيل : سلمنا انه لو كان واجباً لفعله ولكن لا نسلم انه لم يفعل . فأقول : لو فعل الأصلح لعباده لخلقهم في الجنة وتركهم فيها ، فان ذلك أصلح لهم . ومعلوم انه لم يفعل ذلك ، فدلّ انه لم يفعل الأصلح ...^(٣) .

هذا هو الغزالي المسلم الأشعري يحارب المعتزلة وينافح عن السُّنة بلا كلل ولا ملل ، ليجعل كلمة الله هي العليا وكلمة المبتدعة والمنحرفين والزائغين عن الحق هي السفلى ، ولا يدخر في ذلك سنداً من معقول او منقول .

١ - المصدر السابق ص ٩٧ .

٢ - المصدر السابق ص ٩٧ .

٣ - القسطاس المستقيم ، ص ٩٤ .

الغزالي وأهم مشكلات الفلسفة

ما زال الغزالي 'يكب' على كتب الفلسفة ، يدرسها ويتفقد غوائلها ويسبر أغوارها من غير استعانة بأستاذ ، حتى اطلع على منتهى علوم الفلاسفة ووقف على ما في افوايلهم « من خداع وتلبيس وتحقيق وتحيل »^(١) . لقد ادرك بعد عناء كبير « ان خبطهم طويل ، ونزاعهم كثير ، وآراءهم منتشرة ، وطرقهم متباعدة متدبرة ، وهذا « مقدمهم الذي هو الفيلسوف المطلق والمعلم الاول ، فانه رتب علومهم وهذبا بزعمهم ، وحذف الحشو من آرائهم ، وانتقى ما هو الاقرب الى اصول أهوائهم ، وهو رسطاليس ، وقد ردّ على كل من قبله »^(٢) « ردأ لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، الا انه استبقى ايضاً من ردائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الاسلاميين كابن سينا والفارابي وغيرهما ، على انه لم يتم بنقل علم ارسططاليس احد من متفلسفة الاسلاميين كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرنا ليس يخلو عن تخبيط وتخليط »^(٣) .

فلا تثبت ولا اتقان لمذهبهم « وانهم يحكمون بظن وتخمين ، من غير تحقيق ويقين ، ويستدلون على صدق علومهم الإلهية بظهور العلوم الحسابية والمنطقية ، ويستدرجون به ضعفاء العقول ، ولو كانت علومهم الإلهية متقنة البراهين ، نقية عن التخمين كعلومهم الحسابية لما اختلفوا فيها كما لم يختلفوا في الحسابية »^(٤) .

وقد اعترض الغزالي عليهم في عشرين مسألة وجددها مخالفة للدين ، منها ثلاث مسائل ينبغي في رأيه تكفيرهم فيها وسبعة عشر مسألة توجب

١ - المنقذ ، ص ٧٢ .

٢ - التهافت ، ص ٦٢ .

٣ - المنقذ ، ص ٧٤ - ٧٥ .

٤ - التهافت ، ص ٦٢ - ٦٣ .

تبديعهم . ولا يمكننا بالطبع ان نأتي هنا على تفصيل جميع هذه المسائل بل سنجتزئ بنموذج واحد من مسائل التكفير ونمذجين اثنين من مسائل التبديع . فمن المسائل التي اوجب تكفيرهم فيها سنكتفي بمسألة قدم العالم فانها أهمها ، كما سنكتفي من المسائل السبع عشرة الباقية بمسألة السببية واستحالة خرق العادات ، ومسألة روحانية النفس .

مسألة قدم العالم . - ان مسألة قدم العالم محل نزاع بين الفلاسفة والغزالي . وهو في (التهافت) يصور لنا هذا النزاع بعد أن يبدأ بعرض رأي الفلاسفة . ولهذا سنسلك مسلكه فنعرض لرأي الفلاسفة ثم نعقب عليه بمناقشة الغزالي له . وكذلك سنفعل في المسألتين الباقيتين . وسيكون « التهافت » عمدتنا في مناقشة هذه المسائل ، لكن ذلك لا يمنع ان نستشهد بكتب اخرى للغزالي اذا كان ذلك ضرورياً .

اختلف الفلاسفة كثيراً في قدم العالم . فالذي استقر عليه رأي جماهير المتقدمين والمتأخرين ، القول بقدمه وانه لم يزل موجوداً مع الله ، معلولاً له ، ومساوقاً له ، وغير متأخر عنه بالزمان ، مساوقة المعلول للعلل ، ومساوقة النور للشمس ، وان تقدم الباري عليه كتقدم العلل على المعلول ، وهو تقدم بالذات والرتبة لا بالزمان .

ولهم على ذلك أدلة عدة نورد منها ثلاثة أدلة وردت للغزالي عليها . وهي : دليل العلل القديمة ، ودليل الزمان ، ودليل الامكان .

اولا - دليل العلل القديمة . - يستحيل صدور حادث من قديم ، فلا يصدر عن القديم الا القديم : لأننا اذا فرضنا القديم ولم يصدر منه العالم مثلاً فأنما لم يكن للوجود مرجح ، بل كان وجود العالم ممكناً امكاناً صرفاً . فاذا حدث بعد ذلك لم يخل : اما ان يتجدد مرجح او لم يتجدد ، فإن لم يتجدد مرجح بقي العالم على الامكان الصرف كما كان قبل ذلك . وان تجدد مرجح فمن محدث ذلك المرجح ؟ ولم يحدث الآن ولم يحدث من قبل ؟

وبالجملة فأحوال القديم اذا كانت متشابهة فلأما الا يوجد عنه شيء قط ، وإما ان يوجد على الدوام . فأما ان يتميز حال الترك عن حال الشروع فهو محال .

وتحقيقه ان يقال لمَ لم يحدث العالم قبل حدوثه ؟ لا يمكن ان يكون ذلك لمعجز في الباري عن الإحداث او لاستحالة الحدوث ، فان ذلك يؤدي الى ان ينقلب القديم (اي الله) من المعجز الى القدرة ، والعالم من الاستحالة الى الامكان ، وكلاهما محال .

ولا يمكن ان يقال أيضاً لم يكن قبله غرض ثم تجدد غرض ، ولا يمكن ان 'يحال على فقد آلة ثم على وجودها ، أو على تجدد طبيعة أو وقت او حدوث ارادة لم تكن ، لأن هذا كله محال ، اذ انه يؤدي الى القول بتغير القديم وانقلابه من حال الى حال ، وبكونه محلاً للحوادث ، وهو محال . واذا صح هذا لزم ان الباري لم يتغير وان العالم لم يحدث وبالتالي انه قديم لا محالة^(١) .

والغزالي لا يوافق الفلاسفة على اصل دليلهم ، بل يخالفهم اشد المخالفة . انه يرى ان من الممكن صدور حادث عن قديم دون ان يكون في هذا طعن في قدرة الباري او ان يكون الباري محلاً للحوادث . وهو يعترض على اصل دليلهم من وجهين :

الاعتراض الاول على دليل الفلاسفة . - يرى الغزالي ان صدور الحادث عن القديم ليس مستحيلاً ولا يفترض تجدد مرجح ، كما انه لا يفترض في الباري قدرة بعد عجز ، ولا تجدد غرض لم يكن ، ولا وجدان آلة بعد فقدان ، ولا حدوث ارادة لم تكن من قبل ، اذ ما الذي يمنع ان يكون العالم قد حدث بارادة قديمة اقتضت وجوده في الوقت الذي وجد فيه ، وان يستمر العدم الى الغاية التي استمر اليها ، وان يبتسديء الوجود من حيث ابتداء ، وان الوجود قبله لم يكن مراداً فلم يحدث لذلك ، وانه

١ - الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، ص ٧٦ - ٧٧ .

في وقته الذي حدث فيه مراد بالارادة القديمة فحدث لذلك؟ ولا يطعن في هذا كون الاوقات متساوية في جواز تعلق الارادة بها . فان سأل سائل : لماذا اختارت الارادة وقتاً دون وقت ؟ اجابه الغزالي بان الارادة صفة من شأنها تمييز الشيء عن مثله ، ولولا أن هذا شأنها لوقع الاكتفاء بالقدرة . ولكن لما تساوت نسبة القدرة الى الضدين ، ولم يكن بد من من مخصص يخص الشيء عن مثله ، قيل : للقديم - وراء القدرة صفة من شأنها تخصيص الشيء عن مثله . ولا معنى للسؤال في تخصيصها لان هذا شأنها . فقول القائل : لم اختصت الارادة بأحد المثلين ؟ كقول القائل : لم اقتضى العلم الاحاطة بالمعلوم على ما هو به ؟ فيقال لأن العلم عبارة عن صفة هذا شأنها . فكذا الارادة عبارة عن صفة هذا شأنها ، بل ذاتها تميز الشيء عن مثله ^(١) .

فإن قيل : إن هذا غير معقول ، إذ لا يتصور ان تميز الإرادة شيئاً عن مثله إلا بسبب من الأسباب اما خفي واما جلي .
أجاب الغزالي : هل عرفت ذلك ضرورةً أم نظراً ؟ ولا يمكن دعوى واحد منها . وتمثيلكم بإرادتنا مقايضة فاسدة تضاهي المقايضة بالعلم . فكما ان علم الله يفارق علمنا في امور كثيرة ، كذلك لا تبعد المفارقة في الإرادة ايضاً . فالإرادة موضوعة في اللغة لتعين ما فيه غرض ، ولا غرض في حق الله ، وإنما المقصود المعنى دون اللفظ . على انه ، في حقنا ، لا نسلم ان إرادتنا لا تخصص المثل عن مثله . فقد يكون امران يتساويان بالنسبة لينا ، ثم نفعل احدهما دون الآخر ، وانكار هذا حماقة . فاننا نفرض تمرتين متساويتين بين يدي المتشوف اليهما ، العاجز عن تناولهما جميعاً ، فإنه يأخذ احدهما لا محالة بصفة شأنها تخصيص الشيء عن مثله . فإذا لا بد لكل ناظر - شاهداً كان او غائباً - في تحقيق الفعل الاختياري من اثبات

صفة شأنها تخصيص الشيء عن مثله ^(١) .

بل لقد حاول الغزالي ان يبين ان الفلاسفة لم يستغنوا عن تخصيص الشيء عن مثله . فإن العالم وجد عن السبب الموجب له على هيئات مخصوصة كان من الممكن ان يوجد على نقائضها ، فلم اختص ببعض الوجوه دون البعض الآخر ؟

ويفرض الغزالي على اصلهم تخصيصاً في موضعين لا يمكن ان يُقدّر فيها اختلاف : احدهما اختلاف جهة الحركة ، والاخر تعيين موضع القطب . أما القطب فبيان ان السماء كرة متحركة على قطبين كأنها ثابتان هما القطب الشمالي والقطب الجنوبي . وما من نقطتين متقابلتين من النقط التي لا نهاية لها عندهم إلا ويتصور ان تكونا هما القطبين ، فلم تعينت نقطتا الشمال والجنوب للقطبية والثبات ؟ وما الذي ميز محل القطب عن غيره حق تعين ليكون قطباً دون سائر الاجزاء والنقط ، وجميع النقط متماثلة ، وجميع اجزاء الكرة متساوية ^(٢) ؟

وأما اختلاف جهة الحركة فإن حركة الإفلاك لها جهة معينة دون غيرها ، بعضها من المشرق الى المغرب وبعضها بالعكس ، مع تساوي الجهات فما سبب تعيينها مع تساوي الجهات وإمكان حركة كل فلك على عكس ما هو عليه ؟ ولم تميزت جهة عن جهة تماثلها ؟

والخلاصة ان العالم إنما وجد حيث وجد ، وعلى الوصف الذي وجد ، وفي المكان الذي وجد ، وفي الوقت الذي وجد ، بالإرادة القديمة ^(٣) .

ويتفرع على دليل الفلاسفة الاول اعتراض فحواه انه يستحيل تأخر وجود العالم عن وجود علته . وهذا الاعتراض يقوم على اساس ما يجب من تلازم وتقابل بين العلة ومعلولها . فإذا وُجد المرید بجميع شرائطه ،

١ - التهافت صفحة ٨٩ - ٩٠ .

٢ - التهافت صفحة ٩٠ - ٩١ .

٣ - التهافت صفحة ٩٢ .

وكان قديماً وارا دته قديمة ، وجب صدور معلوله عنه من غير تأخر ، فكان قديماً مثله . والتأخر مستحيل كإستحالة وجود حادث لا يحدث له .

وتحقيقه ان يقال : ان الحادث موجب ومسبب ، وكما يستحيل حادث بغير سبب وموجب ، يستحيل وجود موجب قد تمّ بشرائط ايجابه وأركانها وأسبابه ، حتى لم يبقَ شيء منتظر البته ، ثم يتأخر الموجب ، بل وجود الموجب عند تحقق الموجب بتمام شروطه ضروري وتأخره محال ، كاستحالة وجود الحادث الموجب بلا موجب ^(١) .

فقبل وجود العالم كان المريد موجوداً ، والإرادة موجودة ، ونسبتها الى المراد موجودة ، ولم يتجدد مريد ولم 'تجدد ارادة ، ولا تجدد للارادة نسبة لم تكن ، فإن كل ذلك تغير ، فكيف تجدد المراد ، وما المانع من التجدد قبل ذلك ؟ وحال التجدد لم يتميز عن الحال السابق في شيء من الاشياء وأمر من الأمور وحال من الاحوال ونسبة من النسب ، بل الامور كما كانت بعينها ، ثم لم يكن يوجد المراد ، وبقيت بعينها كما كانت ، فوجد المراد ، ما هذا إلا غاية الاحالة ^(٢) .

ويرد الغزالي على ذلك بأن 'يخص الفكرة الاساسية في هذا الاعتراض وهي القول باستحالة ارادة قديمة متعلقة بإحداث شيء . فيسأل الفلاسفة : هل عرفت ذلك بضرورة العقل او بالنظر والاستدلال ؟ فإن عرفتوه بالنظر والاستدلال فأين برهانكم عليه ، وكيف لم تظهروه ، وإن ادعيتم معرفة ذلك ضرورة فكيف لم يشارككم في معرفته مخالفوكم ، والفرقة المعتقدة لحديث العالم بارادة قديمة لا يحصرها بلد ولا يحصيها عدد ؟ فلو عرفتوه بضرورة العقل لما شك فيه انسان . فلا بدّ من إقامة برهان على شرط المنطق يدل على استحالة ذلك ، إذ ليس في جميع ما ذكرتموه إلا الاستبعاد والتمثيل بعزمنا وارا دتنا ، وهو فاسد ، فلا تضاهي الارادة

١ - التهافت صفحة ٨١ .

٢ - التهافت صفحة ٨٢ .

القديمة القصور الحادثة ، وأما الاستبعاد المجرّد فلا يكفي من غير برهان ^(١) .
فإن قيل : نحن بضرورة العقل نعلم انه لا يتصور موجب بتمام شروطه
من غير موجب ، ومجوّز ذلك مكابر لضرورة العقل .

أجاب الغزالي بأن قدم العالم محال ، لأنه يؤدي الى إثبات دورات
للفلك لا نهاية لأعدادها ولا حصر لأحاديها مع ان لها سداً وربعاً
ونصفاً . فإن فلك الشمس يدور في سنة ، وفلك زحل في ثلاثين سنة ،
فتكون ادوار زحل 'ثلاث' عشر ادوار الشمس . وأدوار المشتري نصف
'سدس' ادوار الشمس ، فإنه يدور في اثني عشرة سنة . ثم كما انه لا نهاية
لأعداد دورات زحل ، لا نهاية لإعداد دورات الشمس ، مع انه 'ثلاث' عشره .
بل لا نهاية لا دوار فلك الكواكب الذي يدور في ستة وثلاثين الف سنة
مرة واحدة ، كما لا نهاية للحركة المشرقية التي للشمس في اليوم والليل
مرة ^(٢) . فكيف يكون شيء لا نهاية لإعدادها ويكون له 'سدس' ونصف
وربع ، او كيف يمكن وجود نسب بين اشياء لا نهاية لها ، فالنسب لا
توجد الا بين المتناهيات .

ويحاول الغزالي بعد ذلك ان يلزم الفلاسفة ان عدد هذه الدورات
ليس شفعاً ولا وترأ . ذلك بأن عدد هذه الدورات إما ان يكون شفعاً
او وترأ ، او كليهما معاً ، او لا شفع ولا وتر . فلإن قلتم : شفع ووتر
جميعاً او لا شفع ولا وتر ، فيعلم بطلانه ضرورة ^(٣) ، وإن قلتم شفع فالشفع
يصير وترأ بواحد ، فكيف اعوز ما لا نهاية له واحد ؟ وإن قلتم : وتر ،
فالوتر يصير بواحد شفعاً ، فكيف اعوزه ذلك الواحد الذي به يصير
شفعاً ؟ فيلزمكم القول بأنه ليس بشفع ولا وتر ^(٣) . وهو باطل ضرورة ^(٣) ،
فحركات الافلاك إذن متناهية ، والعالم حادث .

١ - التهافت صفحة ٨٤ .

٢ - التهافت صفحة ٨٥ .

٣ - التهافت صفحة ٨٥ .

الاعتراض الثاني على دليل العلة القديمة للفلاسفة : على ان الغزالي قد ألزم الفلاسفة القول بصدور الحادث عن القديم بدليل منطقي محكم ، هو ان يقال لهم : استبعدتم حدوث حادث من قديم ، ولا بدّ لكم من الاعتراف به : فإن في العالم حوادث ولها اسباب ، فإذا استندت الحوادث الى الحوادث الى غير نهاية فهو محال ، وليس ذلك معتقد عاقل . ولو كان ذلك ممكناً لاستغنيتم عن الاعتراف بالصانع واثبات واجب وجود هو مستند الممكنات . واذا كانت الحوادث لها طرف ينتهي اليه تسلسلها ، فيكون ذلك الطرف هو القديم . فلا بدّ اذن على اصلكم من تجويز صدور حادث من قديم ^(١) .

فإن قيل : ان الحركة الدورية الدائمة التي هي مستند الحوادث كلها قديمة ابدية . أما ما ينتج عنها من كيفيات وصور سواء في عالم ما فوق فلك القمر او في مقعر فلك القمر ، فهي حادثة . وليست العبرة في هذه الحوادث ، لأن المواد القابلة للصور والأعراض والكيفيات ليس شيء منها حادثاً ، وكلها تنتهي مبادئ اسبابها الى الحركة السماوية الدورية . واذن لا يصدر الحادث من قديم الا بواسطة هذه الحركة الدورية الأبدية الثابتة ^(٢) .

أجاب الغزالي : ان هذا التطويل لا يغني ، فالحركة الدورية التي هي المستند اما ان تكون حادثة او قديمة . فإن كانت قديمة فكيف صارت مبدأ لأول الحوادث وكيف أمكن صدور الحادث عن القديم ، وان كانت حادثة افتقرت الى حادث آخر ، فإن تسلسل الأمر واستندت الحوادث الى الحوادث الى غير نهاية ، فهو محال كما قدمنا . فلا بدّ للحوادث اذن ان تنتهي الى محدث قديم هو واجب الوجود ومستند الممكنات جميعاً ^(٣) .

فرغنا الآن من دليل العلة القديمة وردّ الغزالي عليه فلنأخذ في بيان دليلهم الثاني وردّ الغزالي عليهم ايضاً .

١ - التهافت صفحة ٩٣ .

٢ - التهافت صفحة ٩٣ - ٩٤ .

٣ - التهافت صفحة ٩٤ .

ثانياً - دليل الزمان . يقول الفلاسفة : اذا كان الله خالقاً لهذا العالم ،
اما ان يتقدم عليه بالذات لا بالزمان كتقدم الواحد على الاثنين كتقدم
العلة على المعلول ، واما ان يتقدم عليه لا بالذات بل بالزمان .

فإن كان الاول لزم ان يكونا حادثين معاً او قديمين معاً ، واستحال
ان يكون احدهما قديماً والآخر حادثاً . وذلك كتقدم حركة الشخص على
حركة الظل التابع له ، وكحركة اليد مع حركة الخاتم ، فالتقدم هنا
بالذات والرتبة فقط لا بالزمان ، لأن الحركتين هنا متساويتان في الزمان
أي حاصلتان معاً في وقت واحد . واذا لا سبيل الى القول بحدوث العلة
الخالقة فقد وجب القول بقدم معلولها وهو العالم .

وان كان الثاني لزم ان يكون الباري وحده قديماً والعالم حادثاً .
ولكن هذا يفترض مدة انقضت قبل وجود العالم ، والمدة تفترض
الحركة ، والحركة تفترض وجود العالم ، فيكون العالم موجوداً قبل ان
يوجد ، وهذا خلف . وبعبارة اخرى اذا انقضى زمان قبل حدوث العالم
لا نهاية له ، فمعنى ذلك ان العالم مسبق بزمان كان العالم فيه معدوماً ،
وهذا الزمان مسبق بزمان آخر ، والزمان قبله مسبق بزمان آخر
ايضاً . وهكذا الى غير نهاية . فاذن قبل الزمان زمان لا نهاية له ، وهو
متناقض ، ولأجله يستحيل القول بحدوث الزمان . فالزمان اذن قديم .
بيد ان التسليم بقدم الزمان يؤدي الى التسليم بقدم الحركة (لأن الزمان
هو قدر هذه الحركة) وهذا يستتبع التسليم بقدم المتحرك الذي يدوم
الزمان بدوام حركته . واذا كانت هذا المتحرك هو العالم فقد ثبت
قدم العالم^(٢) .

ويرد الغزالي على هذا بأن صدور الحادث عن القديم ليس مستحيلاً
في حق الله ، سواء كان هذا الحادث العالم او الزمان او الحركة .
والحقيقة ان الزمان حادث ومخلوق ، وليس قبله زمان أصلاً . ومعنى

تقدم الله على العالم والزمان انه سبحانه كان ولا عالم معه ، ثم كان
ومعه العالم . وبهذا يكون معنى تقدم الباري على العالم انفراده بالوجود
دونه . وليس من ضرورة ذلك تقدير شيء ثالث مع الله في القدم . واذا
كان الوم يصور لنا ان هناك زماناً انقضى بين وجود الباري وعدم
العالم من جهة ، وبين وجود الباري ووجود العالم معاً من جهة اخرى ،
فلا يخلو ذلك ان يكون من الأغاليط ، فلا التفات الى أغاليط
الأوهام . فالوهم يعجز عن تصور مبتدأ إلا مع تقدير « قبل » له ،
وذلك « قبل » الذي لا ينفك الوم عنه ، نظن انه شيء محقق موجود
هو الزمان ^(١) .

ويعتمد الغزالي في نفيه وجود الزمان قبل وجود العالم على مقابلة
الزمان بالمكان لإثبات تناهي الزمان وعدم وجود قبل له : فشان الوم
في هذا كشانه في تصور تناهي الاجسام . فهو يعجز عن ان يُقدّر تناهي
الاجسام فيما يلي الرأس مثلاً الا على سطح له فوق ، فيتصور ان وراء
حدوث العالم مكاناً آخر يحده ، إما ملاء وإما خلاء . واذا قيل : ليس
فوق سطح العالم فوق ، كاع الوم عن الازعان لقبوله ، كما اذا قيل :
ليس قبل وجود العالم « قبل » هو وجود محقق ، نقر الوم ايضاً عن
قبوله . واذا قيل : ليس بعد العالم بُعد نقر الوم ايضاً . فالبُعد المكاني
تابع للجسم لأنه امتداد اقطار الجسم . فاذا كان الجسم متناهيًا كان
البُعد الذي هو تابع له متناهيًا ايضاً .

وكما ان البُعد المكاني تابع للجسم فالبُعد الزماني تابع للحركة ، فانه
امتداد الحركة كما ان ذلك امتداد اقطار الجسم . وكما ان قيام الدليل
على تناهي اقطار الجسم منَع من إثبات بُعد مكاني وراءه ، فقيام
الدليل على تناهي الحركة من طرفيه يمنع من تقدير بعد زماني وراءه ،
وإن ظل الوم متشبهاً بغيره لا يرعوي عنه ، فلا عبرة بأغاليط

الوهم . ولا فرق بين البعد الزماني الذي تنقسم العبارة عنه - عند الاضافة - الى « قبل » و « بعد » وبين البعد المكاني الذي تنقسم العبارة عنه عند الاضافة الى فوق وتحت . فان جاز اثبات (فوق) لا فوق فوقه جاز اثبات (قبل) ليس قبله (قبل) محقق^(١) ، فلا فرق بين الزمان والمكان كما قلنا ، بل هما امران اعتباريان 'يخلقان' بخلق الأشياء ، او هما بالأحرى اعتباران يخلقهما الله بين الصور الذهنية في عقولنا . وهذا قريب جداً مما سيقول به الفيلسوف الالماني كانط بعد الغزالي بحوالي سبعة قرون من الزمان . فقولنا الزمان والمكان تبعاً لكانط صورتان قبليتان يخلقهما العقل وبالأحرى يستخرجهما من داخله ليرتب فيهما ظواهر الطبيعة .

والخلاصة ، كما قال الفلاسفة بتناهي العالم في الامتداد والذرع واحالوا وجود شيء وراءه باعتبار ان هذا الشيء من عمل الوهم ، فكذلك الغزالي يقول بتناهي العالم في الزمان ، ويحيل وجود زمان قبله ، اي قبل حدوث العالم ، باعتبار ان هذا الزمان من عمل الوهم ايضاً . فالذي يقول بتناهي المكان يلزمه ان يقول بتناهي الزمان ، اذ لا فرق بينها كما قدمنا . وإذا كان الزمان - كالمكان - متناهيًا ، كانت الحركة متناهية ايضاً (فالزمان هو قدر الحركة) وكان المتحرك (أي العالم هنا) متناهيًا ايضاً في حركته ، وبالتالي فالعالم له بداية في الزمان ، فهو اذن حادث وليس قديماً .

ثالثاً : دليل الامكان . - يقول الفلاسفة ان وجود العالم كان ممكناً قبل وجوده ، والا لما امكن ان يوجد اذ يستحيل ان يكون ممتنعاً ثم يصير ممكناً . وهذا الامكان لا اول له ، اذ لو صح انه له اولاً لكان معنى ذلك انه كان غير ممكن من قبل ثم انقلب ممكناً . فإن معنى قولنا انه ممكن وجوده انه ليس محالاً وجوده . فإذا كان ممكناً وجوده

١ - التهافت ، ص ٩٧ - ٩٨ .

أبداً لم يكن محالاً وجوده أبداً . وإذن فإمكان العالم قديم . ويستنتج الفلاسفة من قدم الامكان قدم الممكن ، وهو العالم هنا . فإذا كان الامكان قديماً ، فالممكن على وفق الامكان ، فلا بد ان يكون هو ايضاً قديماً مثله ، وبالتالي لا اول له . فالعالم اذن قديم لا أول له ^(١) .

ويرد الغزالي على ذلك بأن العالم كان ممكناً قبل وجوده ، وإلا لما وجد . فلا جرم ما من وقت الا ويتصور إحداثه فيه . لكن اذا قُدِّرَ موجوداً أبداً لم يكن حادثاً بل لكان واجباً ، ولما كان الواقع على وفق الامكان بل على خلافه . وهذا كقولهم في المكان وهو ان تقدير العالم اكبر مما هو ، او خلق جسم فوق العالم ممكن ، وكذا آخر فوق ذلك الآخر . وهكذا الى غير نهاية . فلا نهاية لامكان الزيادة ، ومع ذلك فوجود ملاء مطلق لا نهاية له غير ممكن . فكذلك لا نهاية لإمكان الإمكان ، ومع ذلك فوجود لا ينتهى طرفه غير ممكن ، ولو كان امكان حدوثه لا بدء له . وذلك كما يقال : الممكن جسم متناهي السطح ، ولكن مقاديره في الكبر والصغر لا تتعين الا بعد كينونته ، فكذلك الممكن الحدوث ومبادهي الوجود لا تتعين في التقدم والتأخر الا بعد حدوثها وكينونتها ^(٢) .

واذن فلا مجال للتوحيد بين الإمكان والممكن كما فعل الفلاسفة بل لا بد ان تفرق بينها تفرقتنا بين الذهني والعيني . فالامكان معنى عقلي مجرد لا أول له ولا تعين ، وأما الممكن فحقيقة وجودية لها اول وقد تعينت في الزمان وخرجت من طور الإمكان المحض الى طور الوجود . فإذا كان الإمكان قديماً لا اول له فهذا لا يعني ان الممكن هو ايضاً قديم لا اول له ، بل لكل منها على حدة وضعه المستقل الخاص غير المشروط بالآخر وغير المتقوم به .

١ - التهافت ، ص ١٠٤ .

٢ - التهافت ، ص ١٠٤ .

ب - السببية واستحالة خرق العادات . - رأينا في الباب الثاني من هذا الكتاب كيف ان مبدأ السببية كاد يكون مجهولاً عند الشعوب الشرقية بحكم تغفل الدين في تصوراتها الكونية . فالكون خاضع لأهواء الآلهة ونزواتهم ، ومصير الانسان معلق بكلمة تخرج من أفواههم ، فيتصرفون فيها كما يشاؤون . لا يعجزهم شيء ، ولا يخالف عن أمرهم موجود .

وفضيلة اليونان انما تكمن في انهم كانوا اول شعب حدّ من سلطة الآلهة وأخضع الكون لسلسلة من النظم والقوانين لا يمكن لاحد الخروج عليها حق للآلهة . بل ان الآلهة أنفسهم كبّلتهم اليونان بنفس القوانين التي كبّلتوا بها الأشياء حتى أماتوا فيهم كل رغبة او نزوة او هوى ، وجعلوا العقل رائد في كل صغيرة او كبيرة ، وذهبوا في ذلك مذهباً شططاً ، وإله أرسطو الذي لا يعلم الا ذاته ليس عنا ببعيد . فهو يمثل آخر ما وصل اليه التفكير اليوناني من التمسك بالعقل والحرص على نظام العقل .

وأغرى تفكير اليونان جميع الشعوب الناهضة فسرت اليها عدوى العقل والايان بالعقل . وكان العرب في طليعة تلك الشعوب فانطلقوا من باديتهم ينفضون عنهم غبار القرون ومضوا في طريقهم غير هيايين ولا وجلين .

ودارت الأيام دورتها والايان بالعقل يستبد بهم ويأخذ عليهم مجامع قلوبهم . وقد بلغ هذا الايمان ذروته عند المعتزلة والفلاسفة المشائين وعلماء الطبيعة والرياضة والفلك والطب . لكن التصوف وردّة الأشاعرة أضعفا هذه الجذوة ، فاشتد الصراع بين العقل والقلب ووصل الى غاية مداه في تفكير الغزالي . فهو طراز غريب من الرجال تكاد تتعادل فيه نوازع القلب مع نوازع العقل فكان مهياً اكثر من غيره لإعادة النظر في تقاليد العقل والقلب معاً والحد من غلوائها . ومن هنا حملته على الفلاسفة وغلاة الصوفية . وقد رأينا طرفاً من حملته على الفلاسفة ،

وستتابع هنا هذه الحملة ايضاً ، وكذلك سنفعل في الفقرة التالية . اما حملته على غلاة الصوفية وتقويته لما اعوج من طرائقهم فسيكون خاتمة المطاف في ملحمة الغزالي .

قلنا ان فضل اليونان على غيرهم يكمن في ربط الكون بسلسلة من القوانين ونظام محكم من الأسباب والمسببات لا تتخلف ، وما ذلك إلا لأنهم أتوا ببدعة جديدة هي بدعة العقل والايان بالعقل . فالصلة وثيقة اذن بين الايمان بالعقل والايان بالسببية ، بل ان السببية هي أقوى تعبير عن العقل . فالقول بها انما ينتج من طبيعة العقل ذاتها ، اذ حيث يوجد العقل يوجد مبدأ السببية . ولا تكتمل حملة الغزالي على الفلاسفة ونقده لاستنتاجاتهم إلا باعادة النظر في مبدأ السببية وفك الرباط بين العلة والمعلول .

يقول الفلاسفة ان الاقتران المشاهد في الوجود بين الاسباب والمسببات ، بين العلة والمعلولات ، انما هو اقتران تلازم بالضرورة . فليس في المقدور ولا في الامكان ايجاد السبب دون المسبب ولا المعلول دون العلة . لكن الغزالي له رأي آخر في هذه المسألة . فهو يؤكد ان « الاقتران بين ما يُعتقد في العادة سبباً وبين ما يُعتقد مسبباً ، ليس ضرورياً عندنا ، بل كل شيئين ، ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا ، ولا اثبات احدهما متضمناً لاثبات الآخر ولا نفيه لنفي الآخر ، فليس من ضرورة وجود احدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم احدهما عدم الآخر : مثل الريّ والشرب ، والشبع والأكل ، والاحتراق ولقاء النار ... »^(١) . أما ما نشاهد من اقتران بين العلة والمعلول او السبب والمسبب فهو يرجع في نظر الغزالي لا الى كونه ضرورياً في نفسه ، بل الى حكم العادة التي ألفتها على التساوق ، ففي المقدور خلق الشبع دون الأكل ، وخلق الموت دون جز الرقبة ، وأدامة الحياة مع جز الرقبة ، وهلمّ جرا الى

١ - التهافت ، ص ٢٢٥ .

جميع المقترحات .

وأنكر الفلاسفة إمكان ذلك وادعوا استحالة .

والنظر في هذه الأمور الخارجة عن الحصر يطول . فلنعين مثلاً واحداً وهو الاحتراق في القطن مثلاً عند ملاقاته النار ، فالغزالي يجوز وقوع الملاقاة بينها دون الاحتراق . ويجوز حدوث انقلاب القطن رماداً محترقاً دون ملاقاته النار ، ففاعل الاحتراق عنده ليس النار بل الله تعالى ، فأما النار وهي جماد فلا فعل لها .

فما الدليل على أن النار هي الفاعل ؟ أن الفلاسفة ليس لهم دليل إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاته النار . والمشاهدة تدل على الحصول عند الملاقاة ولكنها لا تدل على الحصول بالملاقاة وأنه لا علة سواها . فالوجود عند الشيء لا يدل على أنه موجود به ، وبهذا تبطل دعوى من يقول أن النار هي الفاعلة للاحتراق ، والخبز هو الفاعل للشبع ، والدواء هو الفاعل للصحة ، إلى غير ذلك من الأسباب^(١) .

وقد يفهم من ظاهر كلام الغزالي عن الأسباب والمسببات أنه ينكر الخواص والنواميس الكونية وينكر قانون السببية ، مما يجر إلى ارتكاب محالات شنيعة : فإنه إذا أنكر لزوم المسببات عن أسبابها وأضيفت إلى إرادة مخترعها ولم يكن للإرادة منهج مخصوص معين ، فيجوز لمن وضع كتاباً في بيته أن ينقلب هذا الكتاب عند رجوعه إلى البيت غلاماً امرء أو حيواناً . ولو ترك غلاماً في بيته فليجوز انقلابه كلباً ، أو ترك الرماد فليجوز انقلابه مسكاً وانقلاب الحجر ذهباً والذهب حجراً ، فالله قادر على كل شيء . فإني وإن تركت في البيت كتاباً فلا مانع أن ينقلب فرساً ولا أن تنقلب جرة الماء شجرة تفاح ، فليس من ضرورة الفرس أن يُخلق من النطفة ولا من ضرورة الشجرة أن تُخلق من البذر .

لكن الغزالي يستدرك قائلاً : أن ثبت أن الممكن كونه يجوز أن

يُخلق للانسان علم بعدم كونه ، لزم هذه المحالات ؛ فانه وإن كان قادراً على كل شيء ممكن إلا انه خلق لنا علماً بأن هذه الممكنات لم يفعلها . فهذه الأمور ليس واجباً ألا تكون بل هي ممكنة ، يجوز ان تقع ويجوز ألا تقع ، واستمرار العادة بها مرة بعد اخرى يرسخ في أذهاننا جريانها على وفق العادة الماضية ترسيخاً لا تنفك عنه . انه لم يخلق قط من نقطة الحيوان انسان ، ولا من نقطة الانسان حيوان ، ولم ينقلب الكتاب غلاماً أمرد ، ولم ينبت من الشعر حنطة ، ولا من بذر الكثرى شجرة تفاح ، ولم يحصل من ملاقة الاجسام للنار اذا كانت قابلة للاحتراق ألا تحترق ، ولكن من استقرأ عجائب العلوم لم يستبعد عن قدرة الله ما يحكى من معجزات الانبياء عليهم السلام بحال من الاحوال .

لعلنا ندرك مما تقدم ان الدافع الحقيقي للغزالي الى انكار الاقتران السببي إنما هو إفساح المجال للمعجزات النبوية ، فجميع الأمور إنما تتم بإرادة الله لها لا بالعلل الظاهرة لنا . فإذا ألقى ابراهيم عليه السلام في النار دون ان يحترق فما ذلك الا لأن الله لم يرد له احتراقاً . ففي مقدورات الله تعالى غرائب وعجائب لم نشاهدها جميعها ، فلا يجوز ان ننكر امكانها ونحكم باستحالتها .

وقد حاول الغزالي تعليل المعجزات تعليلاً طبيعياً : فأحياء الميت وقلب العصا ثعباناً ممكن لأن المادة قابلة لكل شيء ؛ فالتراب وسائر العناصر يستحيل نباتاً ثم النبات يستحيل عند اكل الحيوان له حيواناً . وهذا بحكم العادة واقع في زمان متطاوّل فلم يحيل الخصم ان يكون في مقدورات الله تعالى ان يدير المادة في هذه الاطوار في وقت اقرب بما عهد فيه ؟ واذا جاز في وقت اقرب فلا ضبط للأقل ، فيستعجل هذه القوى في عملها ويحصل به ما هو معجزة للنبي عليه السلام .

فانه هو المبدأ الاول ، واراदته هي علة جميع الاشياء ، والاشياء لا فعل

لها من ذاتها بل من الله ، فالله هو الفاعل الحقيقي والعلّة الوحيدة في هذا الكون . وهذا ما سيقول به مالبرانش وبركلي عندما يردّان جميع الظواهر الى القوة الوحيدة والعلّة المطلقة وهي الله . فالله هو العلة الحقيقية الوحيدة التي يجب رد جميع المعلولات اليها ، سواء عند الغزالي او مالبرانش او بركلي . فليس الغزالي اذن بدعاً من المفكرين وجمهور العقلاء .

والخلاصة ليس ثمة سببية ولا ارتباط ضروري بين علة ومعلولها ، وكل ما هنالك عادات ذهنية تكونت على أثر توالي الحوادث وتعاقبها ، فنحن قد ألفنا ان نشاهد تعاقب حادثة بعد اخرى فسمينا اولهما علة والثانية معلولها . على ان مجرد اعتيادنا مشاهدة هذا التعاقب لا يخول لنا ان نجعل من الحادثة الاولى علة لوجود الثانية . ولا يجوز ان نستدل من تعاقب شيئين بانتظام في مشاهداتنا على ان ذلك يجب ان يكون دائماً ، وعلى ان قانون العلية قانون ضروري لا يتصور العقل امكان خرقه او تبديله . فقوانين العالم يمكن ان تكون على غير ما هي عليه الآن دون ان يكون في ذلك أي استحالة ، فإذا تغيرت القوانين تغيرت السببية وتغير نظام الاشياء . وان حصول الاشياء على نحو معين لا ينفي - ولو في الذهن - امكان حصولها على نحو آخر ، فما هو حاصل بالفعل انما هو احتمال واحد من عدد لا نهاية له من الاحتمالات الاخرى ، وفعل الله محصور في دائرة الإمكان (او الاحتمال) دون غيره . فالواجب لا بدّ من وقوعه ، والمحال غير مقدور عليه . فلم يبقَ الا ما هو بين الواجب والمحال وهو الممكن ، وهو وحده المقدور لله . ومعجزات الرسل إنما تعني ترك مقدور وإيجاد مقدور آخر يتساوى معه في درجة الإمكان ، لكن عدم حصول المقدور الثاني يختلط في الذهن عادة باستحالة وقوعه فنظن انه غير ممكن ، والحال انه ممكن يتساوى فيه الفعل والترك . ولذلك يجب ان نفرّق بين الاستحالة العقلية (كالجمع بين الكبر والصغر وكون الشيء الواحد في مكانين مختلفين في وقت واحد) - وهي غير مقدورة لله - وشبه الاستحالة او الاستحالة

الواقعية ، وهي مقدورة لله ، لأنها وإن كانت لا تحصل في الواقع لكنها ممكنة الحصول في ذاتها في الذهن والواقع ، فالذهن لا يستطيع ان يتصور الجمع بين الضدين في شيء واحد ، ولكنه يستطيع ان يتصور تعدد المعادن بالبرودة وتقلصها بالحرارة مثلاً ، ويستطيع ان يتصور ايضاً عدم احتراق الاجسام الملقاة في النار ، والله ميدان عمله المقدورات دون غيرها أي الممكنات ، إذ الواجب لا بدّ من حصوله والمستحيل غير مقدور عليه كما اسلفنا .

هذا هو رأي الغزالي في العلية ، وليس الغزالي هو المفكر الوحيد الذي يذهب فيها هذا المذهب ، فقد جاء هيوم (D. Hume) في القرن الثامن عشر بنظرية مشابهة تعد اليوم العمدة في المنطق وفلسفة العلوم ، ومؤداها ان ليس ثمة من دليل عقلي على وجود ارتباط ضروري بين العلة والمعلول ، وإنما اعتيادنا رؤية ما نسميه معلولاً عقب ما نسميه علة بانتظام في جميع مشاهداتنا ، هو الذي يحملنا على الظن بأن الثانية هي سبب الاولى ؛ ولكن هذه المشاهدة لا تكفي لإثبات وجود علاقة ضرورية بينها كما ينص مبدأ السببية . غير ان ذلك لا يمنع من التمسك بمبدأ السببية الذي لا يمكن قيام العلوم بدونه . وهيوم - كالفزالي - لم يعترض إلا على ارجاع هذا المبدأ الى ضرورة العقل ، ويضيف هيوم أن اعتمادنا على صحة مبدأ السببية إنما نشأ عن غريزة وعادة طبيعية في البشر تجعلنا نوقن يقيناً باطناً بأن كل حوادث العالم لا يمكن ان تخالف النظام الدائم الثابت ؛ وهذا شبيه بقول الغزالي بأن الله قد خلق لنا علماً بأن انقلاب اعيان الموجودات بعضها الى بعض دون سبب ظاهر امر ممكن في ذاته وإن كان لا يقع .

ولا بدّ ان يجد دفاع الغزالي عن المعجزات والحوارق هوى في نفوس رجال الكنيسة فأخذوا به ، وليس ببعيد ان يكون هيوم قد تأثر به عن طريق رجال الكنيسة وإن تكن غاية كل منها في تقرير هذا الرأي مختلفة . فالدين هو المسيطر الاول على تفكير الغزالي ، والدفاع عنه هو

الذي يكيف آراءه ، بينما هيوم يسيطر عليه المنطق والبحث العلمي الموضوعي الخالص . ولكن جوهر القولين واحد ، والتحليل واحد تقريباً ، فإذا جردنا أقوال الغزالي من جميع ملابساتها الدينية لم نجد أي فرق بين الغزالي وهيوم في مسألة السببية حتى ليؤكد أرنست رينان : « ان هيوم لم يقل (في مسألة السببية) شيئاً فوق ما قاله الغزالي » .

ج - روحانية النفس . - ليس للغزالي آراء مبتكرة ذات بال في أصل النفس وطبيعتها . فهو من انصار روحانية النفس ، يأخذ أكثر براهينه عن المشائين العرب وبخاصة ابن سينا . فتراه يقلده في تعريف النفس وفي منهجه في البرهنة على وجودها وعلى مخالفتها للبدن ، كما تبعه في بيان طبيعتها . لكنه يميل في كتبه المتأخرة الى الأدلة الشرعية .

فهو في (معارج القدس) مثلاً يؤكد كآبن سينا ان الانسان اذا تجرد عن جميع المحسوسات والمعقولات ، لا يمكنه ان يتجرد عن حدس وجوده . ويشرح ذلك بان الانسان اذا كان صحيحاً مطروحاً عنه الآفات وصدمات الهوى وغيرها من الطوارق ، فلا تتلامس اعضاءه ولا تتماس اجزأؤه وكان في هواء طلق معتدل ، فهو في هذه الحالة لا يغفل عن إنيته وحقيقته .

ان كل من له فطانة ولطف وكياسة يعلم انه جوهر وانه مجرد عن المادة وعلائقها ، وانه لا تعزب ذاته عن ذاته ، لان معنى التعقل حصول ماهية مجردة للعاقل ، وذاته مجردة لذاته ، فلا يحتاج الى تجريد وتقشير . وليس هنا ماهية ثم معقولة ، بل ماهيته معقوليته ، ومعقوليته ماهيته^(١) .

ويثبت ذلك بأنه « لو لم يكن المدرك والمشعور به هو حقيقتك (اي نفسك) بل يكون هو البدن وعوارضه فكان لا يخلو : اما ان يكون المشعور به جملة بدنك أو بعضه . وبطل ان تكون الجملة ، لان

١ - معارج القدس ، ص ٢٢ .

الإنسان في الفرض المذكور قد يكون غافلاً عن جملة البدن وهو مدرك نفسه . وان كان بعضاً منه فلا يخلو : اما ان يكون ظاهراً او باطناً . فان كان ظاهراً فهو مدرك بالحس ، والنفس غير مدركة بالحس . كيف ونحن في الفرض المذكور قد اغفلنا الحواس عن افعالنا وفرضنا ان الأعضاء لا تتماس ؟ وان كانت النفس والذات عضوا باطناً من قلب او دماغ فلا يجوز ايضاً ، لان الأعضاء الباطنة انما يوصل إليها بالتشريح . فثبت ان مدركك ليس شيئاً من هذه الأشياء ، فانك قد لا تدركها وتذكر ذاتك ضرورة . فما اركنت الى أدراكه ضرورة لا يكون قطعاً ما لا يدرك الا بالنظر . فإذا ثبت بهذا ان ذاتك ليس من عداد ما تدركه بالحس ومما يشهد الحس بوجه من الوجوه ،^(١) .

وللغزالي أدلة اخرى كثيرة على روحانية النفس ضربنا صفحاً عنها لأنها لا تخرج عن اطار أدلة ابن سينا حتى لتكاد ان تكون نقلاً حرفياً عنها .

ومع ان الغزالي من انفصار روحانية النفس فائنا نجد في بعض كتبه - والمتأخرة منها خاصة - ما يُستشف منه ميل الى القول بماديتها ، بمعنى انها جسم لطيف . وقد ورد مثل هذه الأقوال في (الإحياء) و (الدرة الفاخرة) و (معراج السالكين) وكان ورودها في (الدرة) و (الإحياء) في معرض حديثه عن الموت . ففي الكتابين الأخيرين ما يفيد ان النفس شيء كالجسم يُجذب عند الموت ويُتزع من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ، ومن اصل كل شعرة ونشرة من الفرق الى القدم^(٢) . او انها تنسل من البدن انسلال الشعرة من المعجين او انسلال القطرة من السقاء^(٣) . كما يذكر في (معراج

١ - المصدر السابق ص ٢٢ - ٢٣ .

٢ - الإحياء : ج ٤ : ٤١٤ .

٣ - الدرة الفاخرة ، ص ١٧ .

السالكين) ان للنفس شبه عنصر تكون به يناسب لطاقتها ، فينبث في البدن ويقوم بأفاعيله المختلفة ^(١) . ويقارن الغزالي بين جوهر النفس وجوهر الشعاع فيقول ان جوهر الشعاع بالاضافة الى جوهر النفس كثيف فكان جوهر النفس قريب من شعاع جوهر الشمس ، وهو عرض او مادة ^(٢) . هل تكفي هذه الاقوال واشباهها لتجعل من الغزالي مناصراً للمذهب المادي في النفس ؟ لا نعتقد ذلك . فان ما يورده من أدلة على روحانيته وما يكرره دائماً من انها جوهر غير مادي وانها من عالم الأمر ، لا يدع مجالاً للشك في انه لم يكن جاداً عندما وصف النفس بأوصاف مادية يقصد بها في نظرنا العبرة والعظة ، لا سيما وان اكثر ما ترد هذه الاوصاف في صدد الحديث عن الموت . يضاف الى ذلك ان الغزالي - كما سنرى - يفرق بين معنيين للنفس : احدهما مادي وهو الروح الحيواني ، وثانيها جوهر روحاني هو الذي يشير اليه عندما يبحث روحانية النفس ؛ الاول يفنى والثاني خالد . فلعل الروح بالمعنى الاول هو المقصود بالجذب والانسلال .



والمعجيب في أمر الغزالي انه مع اخذه بآراء الفلاسفة القائلين بروحانية النفس وتحويله على براهينهم في كثير من كتبه فانه يطمئن في هذه البراهين ويظهر ضعفها في كتاب لا يقل أهمية عن سائر كتبه الاخرى هو كتاب (تهافت الفلاسفة) . فما معنى ذلك ؟ لم يحل في موضع ما ربط في موضع آخر ؟ كيف ينتقد في كتاب ما يقول به في كتاب آخر ؟ لن نذهب هنا مذهب من يقول بأن الغزالي في نقده للفلاسفة لم يكن جاداً في هذا النقد ^(٣) . فان ما يطمئن اليه القلب وما يتفق مع النزعة

١ - معراج السالكين ، ص ٣٠ .

٢ - نفس المصدر والصفحة .

— ٣ —

العامّة لتفكير الغزالي ، هو ان هذا الأخير لم يعترض في (التهافت) على الفلاسفة لأنهم قالوا بروحانية النفس وانما اعترض عليهم لبيان عجزهم عن اثبات هذه الروحانية بأدلة العقل ولاكتفائهم بهذه الأدلة وحدها دون الاستعانة بالشرع ، لا سيما وان الغزالي نفسه يصرح في مطلع كلامه ان غايته انما هي « تعجيزهم عن اقامة البرهان العقلي على ان النفس الانسانية جوهر روحاني قائم بنفسه لا يتحيز وليس بجسم ولا منطبع في جسم ولا هو متصل بالبدن ولا هو منفصل عنه » (١) . كما يقول ايضا « وانما نريد ان نعتمد الآن على دعواهم معرفة كون النفس جوهرًا قائمًا بنفسه ، ببراهين العقل . ولسنا نعترض على دعواهم اعتراض من يبعد ذلك عن قدرة الله تعالى او يرى ان الشرع جاء بنقيضه ، بل ربما نبين في تفصيل الحشر والنشر ان الشرع مصدق له ، ولكننا تنكر دعواهم دلالة مجرد العقل عليه والاستغناء عن الشرع » (٢) .

فالغزالي من اشد الناس ايمانًا بالروحانية ، ولا يمكن بحكم تكوينه الديني والصوفي ان يحنح الى انكارها . فهي عنده قضية واضحة بينة بذاتها وحقيقة حدسية ثابتة لا تزيد عليها البراهين الا عماء وتشويشًا . يقول الفلاسفة انهم بالعقل اثبتوا الروحانية وبالعقل توصلوا اليها ، فليظهر لهم الغزالي تهافت ادلتهم وضعف استنتاجاتهم .

وقد أورد الغزالي عشرة ادلة للفلاسفة على روحانية النفس اعترض عليها جميعًا . ولا يمكننا ان نأتي عليها هنا كلها بل سنجتريء ببعضها .

ففي الدليل الأول يقول الفلاسفة ان العلوم العقلية تحل النفوس الانسانية وفيها آحاد لا تنقسم ، فلا بد ان يكون محلها هو ايضا لا ينقسم . وبما ان كل جسم مادي منقسم فلا بد ان يكون المحل الذي تحل فيه هذه العلوم شيئًا غير منقسم ، وبالتالي شيئًا غير مادي وغير جسم ، اي لا بد

١ - التهافت ، ص ٢٣٨ .

٢ - المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .

ان يكون جوهرأ روحانياً وهو النفس^(١) .

واعترض الغزالي على هذا الدليل هو انه لا يقوم على مقدمة ثابتة اذ لا يمتنع ان يوجد جسم غير منقسم او جوهر فرد يكون محلاً للعلم . وقد عُرف هذا من مذهب المتكلمين . فاذا كان الفلاسفة يستبعدون ان تحمل العلوم كلها في جوهر فرد واحد فالاستبعاد لا خير فيه . الا ان الغزالي يعترف بصعوبة اثبات الجوهر الفرد (او الذرة) فيه غنية عن الخوض فيه ، ولذلك يعدل عنه الى تمجيز آخر . ألم يقل الفلاسفة ان القوة الوهمية التي في الشاة تدرك عداوة الذئب ، والعداوة معنى عقلي واحد ، اذ ليس للعداوة بعضٌ حتى يقدر ادراك بعضه وزوال بعضه ، وقد حصل ادراكها في قوة جسمانية باعتراف الفلاسفة انفسهم ، فإن نفس البهائم منطبعة في الأجسام ولا تبقى بعد الموت ، وقد اتفق الفلاسفة على ذلك ، فكيف حصل هذا الادراك في كائن لا اثر للجوهر الروحاني فيه^(٢) ؟

وفي دليل خامس يقول الفلاسفة انه لو كان العقل - والعقل كال النفس - يدرك المعقول بآلة جسمانية لما عقل نفسه . أما وانه يعقل نفسه فإن عقله لنفسه ليس بآلة جسمانية ، وبالتالي ليس العقلُ جسمًا بل هو جوهر روحاني . وبعبارة اخرى ان العقل كما يتعلق بغيره يتعلق بنفسه . فان الواحد منا كما يعقل غيره يعقل نفسه ويعقل انه عقل غيره وانه عقل نفسه ، خلافاً للإبصار الذي لا يتعلق بنفسه بل يتعلق بغيره فقط : فالرؤية لا تُرى والسمع لا يُسمع وكذا سائر الحواس . فالفرق بين الحواس والعقل ان الحواس تدرك يحسم فلا تدرك نفسها ، واما العقل فانه لا يدرك يحسم بل يجوهر غير جسمي ، ولذلك فهو يدرك نفسه^(٣) . وهذا الدليل فاسد في رأي الغزالي ، لانه كما يختلف ادراك العقل عن

١ - التهافت ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

٢ - التهافت ، ص ٢٤٣ - ٢٤٥ .

٣ - التهافت ، ص ٢٤٩ .

ادراك الحواس ، كذلك الحواس تختلف ادراكاتها فيما بينها مع اشتراكها في انها جسمانية ، كما يختلف البصر واللمس في ان اللمس لا يفيد الادراك الا باتصال الملموس بالآلة اللامسة ، وكذا الذوق . خلافاً للبصر ، فانه يُشترط فيه الانفصال ، حتى ان الواحد اذا اطبق اجفانه لم ير لون الجفون لانها لم تبعد عنه . وهذا الاختلاف لا يوجب الاختلاف في الحاجة الى الجسم . فلا يبعد ان يكون في الحواس الجسمانية ما يسمى عقلاً ويخالف سائرهما في انها تدرك نفسها^(١) .

وفي دليل سادس مشابه للدليل السابق يقول الفلاسفة ان العقل لا يدرك بآلة جسمانية والا لما أدرك آله ، كما ان الإبصار الذي يدرك بآلة جسمانية لا يدرك آله ، ولما كان العقل يدرك الدماغ والقلب ، اي يدرك ما يُدعى انه آلة له ، دلّ على انها ليسا آلة له ولا محلاً ، والا لما ادركها . فالمدرك هنا إذن جوهر روحاني^(٢) .

وهنا يسأل الفزالي الفلاسفة : لم قلتم ما هو قائم في جسم يستحيل ان يدرك الجسم الذي هو محله ؟ فاذا كانت الحواس الخمس لا تدرك ذاتها فكيف عرفت ان هذا الحكم يسري على جميع الحواس الاخرى ؟ ان الفلاسفة لم يستقرئوا إلا الحواس الخمس فوجدوها على وجه معلوم فحكوا على الكل بهذا الحكم . فلعل العقل حاسة اخرى تشارك سائر الحواس في بعض الأشياء وتخالفها في بعضها الآخر . وعندئذ فانها تكون - مع كونها جسمانية - منقسمة الى حواس تدرك محلها واخرى لا تدرك محلها ، كما انقسمت الى حواس تدرك مدركاتها من غير مماسة كالبصر واخرى لا تدرك الا بالمامسة والاتصال كالذوق واللمس^(٣) .

وفي دليل سابع يفرق الفلاسفة بين القوى المدركة بالالات الجسمانية

١ - التهافت ، ص ٢٥٠ .

٢ - نفس المصدر والصفحة .

٣ - التهافت ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

وبين القوى العقلية ليتأدوا من ذلك الى روحانية القوة العقلية خاصة ،
والنفس عامة . فالقوى المدركة بالالات الجسمانية يعرض لها من المواظبة
على العمل بإدامة الادراك كلال وارهاق . لأن ادامة الحركة تفسد مزاج
الأجسام فتكلثها . كما ان المنبهات القوية توهم هذه القوى وربما تفسدها .
فالصوت العظيم والنور الشديد ربما يفسدان او يمنعان ادراك الصوت
الحقيقي والمرئيات الدقيقة . بل من ذاق الحلاوة الشديدة لا يحس بعدها
بجلاوة دونها^(١) .

وهذا الدليل من طراز الدليل السابق ، ولذلك يعترض عليه الغزالي
بأن الحواس لئن كانت تشترك في انها جسمية فليس ما يمنع ان تختلف
خواص بعضها عن خواص البعض الآخر . فإذا كان بعضها يضعف بإدامة
الحركة ويفسد عقبيه فليس من الضروري ان يثبت هذا الحكم لجميعها ،
فيكون منها ما يضعفها نوع من الحركة ومنها ما يقويها نوع آخر ولا
يوهنها . فكل هذا ممكن ، إذ الحكم الثابت لبعض الاشياء لا يلزم ان
يثبت لكل^(٢) .

وهاك الدليل الثامن للفلاسفة على الروحانية : قالوا ان اجزاء البدن
كلها تضعف قواها بعد منتهى النشوء والوقوف عند سن الاربعين ، بينما
تشتد القوة العقلية بعد ذلك في أغلب الاحيان . فدل على ان جوهر
النفس غير جوهر البدن ، وإلا لكان سير القوة الجسدية والقوة العقلية واحداً
في الحالين : فتقويان معاً او تضعفان معاً^(٣) .

ويعترض الغزالي على هذا الدليل بأن نقصان القوى وزيادتها لها اسباب
كثيرة لا تنحصر . فقد تقوى بعض القوى في ابتداء العمر ، وبعضها في
الوسط ، وبعضها في الآخر ، وأمر العقل ايضاً كذلك . فلا يبعد ان يختلف

١ - التهافت ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

٢ - التهافت ، صفحة ٢٥٣ .

٣ - التهافت صفحة ٢٥٣ - ٢٥٤ .

الشم عن البصر في ان الشم يقوى بعد الاربعين ، بينما يضعف البصر وأن تساوي في كونها حالين في الجسم ، وذلك كما تتفاوت هذه القوى في الحيوانات ، فيقوى الشم في بعضها والسمع في بعضها والبصر في بعضها لاختلاف في امزجتها لا يمكن الوقوف على ضبطه .

فلا يبعد ان يكون مزاج الآلات ايضاً يختلف في حق الاشخاص وفي حق الاحوال ، ويكون احد الاسباب في سبق الضعف الى البصر دون العقل ان البصر اقدم : فالانسان مبصر في اول فطرته ولا يتم عقله إلا بعد خمس عشرة سنة او اكثر حتى قيل : ان الشيب الى شعر الرأس أسبق منه الى شعر اللحية لأن شعر الرأس اقدم . فجاءت الاحتمال فيما تزيد به القوى او تضعف لا تنحصر ، فلا يورث شيء من ذلك يقيناً^(١) .

وهذا دليل تاسع يثبت روحانية النفس بزعمهم : قالوا ان اجزاء البدن تتحل بمرور الزمن فيأتي الغذاء ليسد مسد ما ينحل حتى لم يبق منه بعد الاربعين شيء من الاجزاء التي كانت موجودة عند انفصاله عن امه ، بل انحل كل ذلك وتبدل بغيره ، ومع ذلك تبقى معه علوم من اول صباه رغم تبدل جميع اجزاء بدنه . فدل ان للنفس وجوداً سوى البدن وإن البدن آله^(٢) .

وخلاصة اعتراض الغزالي ان هذا ينتقض بالبهيمة والشجرة . فيها ايضاً من الكائنات التي تغتذي وتبديل اجزاؤها ، وهذا لا يمنع استمرارها في الوجود . ثم هل عرف الفلاسفة ان اجزاء البدن تتغير جميعها ام عرفوا فقط ان بعضها تغير . فليس بصحيح ان جميع اجزاء جسم الانسان تزول ليحل محلها غيرها . فإن الانسان وإن عاش مائة سنة مثلاً فلا بد ان يكون قد بقي فيه اجزاء من النطفة الاولى . أما ان تزول عنه جميعاً فلا . فهو ذلك الانسان باعتبار ما بقي لا باعتبار ما تحلل وتبدل . وبذلك

١ - التهافت ، صفحة ٢٥٥ .

٢ - التهافت صفحة ٢٥٥ - ٢٥٦ .

تكون الاتية من آثار هذه الاجزاء الباقية . ويضرب الغزالي لذلك مثلاً طريفاً رائعاً : اذا 'صب' في موضع رطل من الماء ثم صب عليه رطل آخر حتى اختلط به ، ثم أخذ منه رطل ثم 'صب' عليه رطل آخر ، ثم أخذ منه رطل ، ثم لا يزال يفعل ذلك الف مرة ، فنحن في المرة الأخيرة نحكم بأن شيئاً من الماء الاول باقٍ ، وإنه ما من رطل يؤخذ منه إلا فيه شيء من ذلك الماء الاول ، لأنه كان موجوداً في الكرة الثانية ، والثالثة وهي قريبة من الثانية ، والرابعة قريبة من الثالثة ، وهكذا الى الأخير .
فانصباب الغذاء في البدن وانحلال اجزاء البدن يضاهي صب الماء في هذا الاناء واغترافه منه ^(١) .

الغزالي والتصوف

لقد كان التصوف بالنسبة الى الغزالي غاية المُنَى . فالصوفية هي التي هتف لها قلبه دائماً ونشد الهداية في حماها . فقد كان الغزالي متطلعاً باستمرار الى اليقين والاطمئنان وسكينة النفس . وقد وجد ذلك كله في الصوفية ، فكرة وسلوكاً . وهم الذين أحسن في أعماق نفسه ميلاً عظيماً الى طريقتهم وإقبالاً قوياً على مذهبهم الذي يعد نفسه مديناً له بأعز ما لديه وأشرف ما وصل اليه : ألا وهو تمكين العقيدة في قلبه ومعرفة الحقيقة بذوقه الروحي وعلمه اللدني .

ومن هنا نرى الغزالي يفيض في (المنقذ من الضلال) في وصف طريق الصوفية وما عن له من إقبال عليه وانصراف عن غيره من طريق العلم . فهو يحدثنا انه بعد ان فرغ من علوم المتكلمين والفلاسفة والباطنية ووقف على ما في بعضها من زيف وضعف وما في بعضها الاخر من عجز او كفر ، اقبل بيهمة على طريق الصوفية ، فإذا هو يعلم ان طريقهم إنما يتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتزّو عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتخليته

١ - التهاوت ، صفحة ٢٥٦ - ٢٥٧ .

بذكر الله . وكان العلم ايسر عليّ من العمل . فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل (قوت القلوب) لأبي طالب المكي ، وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغيرهم من المشايخ . حتى اطلعت على كنه مقاصدم العلمية وحصلت ما يمكن ان يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع . فظهر لي ان اخص خواصهم ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات . وكم من الفرق بين ان تعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابها وشروطها ، وبين ان تكون صحيحاً وشبعان ! وبين ان تعرف حد السكر وانه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء الجرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين ان تكون سكران ! بل السكران لا يعرف حد السكر وهو سكران ما معه من علمه شيء . والصاحي يعرف حد السكر وأركانه ، وما معه من السكر شيء . والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة . فكذلك فرق بين ان تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه وبين ان تكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا !

« فعلمت يقيناً انهم ارباب الاحوال لا اصحاب الاقوال ، وان ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبقَ إلا ما لا سبيل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك . وكان قد حصل معي من العلوم التي مارسها والمسالك التي سلكتها ، في التفتيش عن صنف العلوم الشرعية والعقلية ، ايمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر . فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت في نفسي ، لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفصيلها .

« وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافي عن دار الغرور والإقامة الى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى . وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال

والهرب من الشواغل والعلائق ، (١) .

ومن هنا ينتهي الغزالي الى « ان الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم اصوب الطرق وأخلاقهم ازكى الاخلاق ، بل لو جُمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ليفيئروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلاً . فان جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة . وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به .

« وبالجملة فإذا يقول القائلون في طريقة ، طهارتها - وهي اول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة ، استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله ...

« ومن اول الطريقة تبتدىء المكاشفات والمشاهدات ، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الانبياء ويسمعون اصواتاً ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال الى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر ان يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه .

« وعلى الجملة ، ينتهي الامر الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة " الحلول " ، وطائفة " الاتحاد " وطائفة " الوصول " ، وكل ذلك خطأ ... بل الذي لا يسته تلك الحالة لا ينبغي ان يزيد على ان يقول :

وكان ما كان مما لست اذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر
« وبالجملة فمن لم يُرزق منه شيئاً بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم . وكرامات الاولياء [هي] على التحقيق بدايات الانبياء .
وكان ذلك اول حال رسول الله ﷺ حين اقبل الى جبل حراء حيث

كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حق قالت العرب : ان محمداً عشق ربه !

« وهذه الحالة يتحققها بالذوق مَنْ يسلك سبيلها . فمن لم يُرزق الذوق فيتيقنها بالتجربة والتسامع ، إنْ اكثَرَ معهم الصحبة ، حق يفهم ذلك بقرائن الاحوال يقيناً . ومن جالسهم استفاد منهم هذا الايمان . فهم القوم لا يشقى جليسهم » (١) .

لا حلول عنده ولا اتحاد ولا وصول ولا و-دة وجود ، ولا شيء مما لا يتفق والدين الحنيف عند الغزالي . غير انه يوافق جملة الصوفية على مقاماتهم وأحوالهم ، فيتحدث طويلاً عن مقام التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضى ... ويستبطن كثيراً من احوالهم ، كالمراقبة والقرب والأنس والرجاء والخوف والشوق والمحبة والوجد والفناء والكشف والمشاهدة والتجلي والإلهام واليقين وما اليها . ولا نستطيع هنا بالطبع ان نأتي على رأي الغزالي في جميع هذه المقامات والاحوال ولا ان نستوفي الحديث عن كل مقومات التصوف عنده ، ولذلك سنكتفي بالكلام على (ا) الزهد (ب) حب الله (ج) والفناء في الله (د) والإلهام .

١ - الزهد . - الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين . وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل (٢) .

فأما العلم فهو العلم بكون المتروك حقيراً بالاضافة الى المأخوذ : فالدنيا حقيرة بالاضافة الى الآخرة ، لأن ما عند الله خير وأبقى . كما تكون الجواهر خيراً وأبقى من الثلج مثلاً . فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان الى الانقراض ، والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له . فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في ترك الدنيا والعدول عنها الى الآخرة . فليس 'يحتاج الى العلم بالزهد إلا

١ - المنقذ ، صفحة ١٠٣ - ١٠٥ .

٢ - الغزالي : احياء علوم الدين ، ج ٤ ، صفحة ١٧٨ .

الى هذا القدر ، وهو أن الآخرة خير وأبقى (١) .

وأما الحال فهي ما يُسمى زهداً ، وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء الى ما هو خير منه . فكل من عدل عن شيء الى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فانما عدل عنه لرغبة عنه ، وانما عدل الى غيره لرغبته في غيره . فحاله بالاضافة الى المعدول عنه يسمى زهداً ، وبالاضافة الى المعدول اليه يسمى رغبة وحباً . فاذن يستدعي حال الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه هو خير من المرغوب عنه . وشرط المرغوب عنه ان يكون هو ايضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه . فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يُسمى زاهداً ، إذ تارك الحجر والتراب وما اشبهه لا يسمى زاهداً وانما يسمى زاهداً من ترك الدراهم والدنانير ، لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة . فمن باع الدنيا بالآخرة كان زاهداً في الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو ايضاً زاهد ولكن في الآخرة ، غير ان العادة جارية بتخصيص اسم الزاهد بمن يزهد في الدنيا . والذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى حتى جنات النعيم ولا يحب إلا الله فهو الزاهد المطلق . والذي يرغب عن كل حظ يُنال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والأنهار والفواكه ، فهو ايضاً زاهد ، ولكنه دون الاول . والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض ، كالذي يترك المال دون الجاه ، او يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجميل في الزينة ، فلا يستحق اسم الزاهد مطلقاً ، ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين ، وهو زهد صحيح كما ان التوبة عن بعض المعاصي صحيحة . فان التوبة عبارة عن ترك المحظورات ، والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس . فاذن الزهد عبارة عن الرغبة في الدنيا عدولاً عن الآخرة ، او عن غير الله عدولاً الى الله تعالى ،

وهي الدرجة العليا ^(١) .

وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك المزهود فيه بالكلية ، وهي الدنيا بأسرها وأسبابها ومقدماتها وعلائقها ، فيُخرج من القلب حبها ويُدخل حب الطاعات ، ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ، ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات ^(٢) .

هذا وليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع ، فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات ، وإنما الزهد ان تترك الدنيا لعلك بحقارتها بالاضافة الى نفاسة الآخرة . فالزاهد من اتته الدنيا راغمة صفواً عفواً وهو قادر على التمتع بها من غير نقصان جاء وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس ، فتركها خوفاً من ان يأنس بها فيكون آنساً بغير الله ومحباً لما سوى الله ، ويكون مشركاً في حب الله تعالى غيره ، أو تركها طمعاً في ثواب الله تعالى في الآخرة ^(٣) .

وَمَثَلُ من ترك الدنيا للآخرة عند اهل المعرفة وارباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مَثَلُ من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القُرب عند الملك . والشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع من الدخول ، مع ان الباب مفتوح والحجاب مرفوع . والدنيا كلقة خبز أكلت ، فلذتها في حال المضغ وتنقص على القرب بالابتلاع ، ثم يبقى ثقلها في المعدة ، ثم تنتهي الى النتن والقذر ، ثم 'يحتاج بعد ذلك الى اخراج ذلك الثفل' ^(٤) . ويربط الغزالي بين الالتفات الى الدنيا ونقصان المعرفة . فالانسان لا

١ - المصدر السابق صفحة ١٧٨ - ١٧٩ .

٢ - صفحة ١٧٩ .

٣ - صفحة ١٨٠ .

٤ - صفحة ١٨٥ .

يلتفت الى الدنيا إلا لأنه يراها شيئاً معتداً به ، وهو لا يراها شيئاً معتداً به إلا لقصور معرفته . فسبب نقصان الزهد إنما هو نقصان المعرفة . فكلما اكملت معرفة الانسان ازداد زهده وأقبل على الله بكنه الهمة ، فلا يحب الله إلا من عرفه . وليس من الممكن الجمع بين حب الله وحب الدنيا . فمن عرف الله وعرف لذة النظر الى وجهه الكريم وعرف ان الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالخور العين والنظر الى نقش القصور وخضرة الاشجار غير ممكن ، فلا يحب إلا لذة النظر الى الله ولا يؤثر غيره . ولا تظن ان أهل الجنة عند النظر الى وجه الله تعالى يبقى للذة الخور والقصور متسع في قلوبهم . والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالمصفور^(١) .

والحاصل ان الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها . وكلما رغب الانسان عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا ما دامت فانية ، فقصر امله فيها لا محالة ، وتعلق بالدار الآخرة لأنها دائمة . فهو إنما يريد التمتع الدائم .

وينقسم الزهد الى فرض ونفل وسلامة . فالفرض هو الزهد في الحرام ، والنفل هو الزهد في الحلال ، والسلامة هي الزهد في الشبهات^(٢) . ومعرفة الزهد امر مشكل ، بل حال الزهد على الزاهد مشكل ؛ لذلك ينبغي على الزاهد أن 'يعوّل' في باطنه على ثلاث علامات :

العلامة الأولى ان لا يفرح بوجود ولا يحزن على مفقود ، بل ينبغي ان يكون بالضد من ذلك وهو ان يحزن بوجود المال ويفرح بفقده . فقد كان ارباب البصائر اذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا : ذنبٌ 'عجّلت عقوبته' ، ورأوا ذلك علامة المقت والاهمال ! واذا أقبل عليهم الفقر قالوا مرحباً بشعار الصالحين ! والمفرور اذا أقبلت عليه الدنيا ظن انها كرامة

١ - صفحة ١٨٥ - ١٨٦ .

٢ - صفحة ١٨٨ .

من الله ، واذا تُصرفت عنه ظن انها هوان ؛
والعلامة الثانية ان يستوي عنده ذمته ومادحه : فالأول علامة الزهد
في المال ، والثاني علامة الزهد في الحياة ؛
والعلامة الثالثة ان يكون انسه بالله تعالى ، والغالب على قلبه حلاوة
الطاعة : إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة ، اما محبة الدنيا واما محبة الله ،
وهما في القلب كالماء والهواء في القدح . فالماء اذا دخل خرج الهواء ولا
يحتمان . وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره . ولذلك قيل
لبعضهم : الى ماذا أفضى به الزهد؟ فقال الى الأنس بالله . فاما الأنس بالدنيا
وبالله فلا يحتمان . وقد قال اهل المعرفة : اذا تعلق الايمان بظاهر القلب
أحب الدنيا والآخرة جميعاً وعمل لها ، واذا بُطن الايمان في سويداء القلب
وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر اليها ولم يعمل لها . وهذا مقام
العارفين ^(١) .

ب - حب الله . - ان المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات
والذروة العليا من الدرجات . فما بعد ادراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من
ثمارها وقابح من توابعها : كالشوق والأنس والرضا واخواتها ؛ ولا قبل
المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها : كالتوبة والصبر والزهد
وغيرها ^(٢) .

والحبة لا تُتصور إلا بعد معرفة وادراك ، اذ لا 'يحب' الانسان
إلا ما يعرفه ومن يعرفه . ولذلك لم يُتصور ان يتصف بالحب جماد ،
بل هو من خاصية الحي المدرك . ومعنى كون الشيء محبوباً ان في الطبع
ميلاً اليه ، ومعنى كونه مبغوضاً ان في الطبع نفرة عنه ، فالحب عبارة
عن ميل الطبع الى الشيء اللذ ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سُمي
عشقاً . والبُغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، فاذا قوى

١ - صفحة ١٩٧ ، وانظر ايضاً الجزء الثالث صفحة ٣٠٩ .

٢ - الاحياء ، ج ٤ صفحة ٢٤١ .

سُمي مقتاً^(١) .

والحب لما كان قابلاً للإدراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام
المدرّكات والحواس . فلكل حاسة إدراك لنوع من المدرّكات ، ولكل
واحد منها لذة : فلذة العين في الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور
الملبّعة الحسنة المستلذة . ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة . ولذة
الشم في الروائح الطيبة . ولذة الذوق في الطعوم . ولذة اللمس في اللين
والنعومة . ولما كانت هذه المدرّكات بالحواس مُلذّة كانت محبوبية . وهناك
حسّ سادس مظنته القلب يدرك لذة العبادة ، ويعبر عنه أيضاً بالعقل أو
النور أو البصيرة . فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد
إدراكاً من العين . وجمال المعاني المُدرّكة بالعقل أعظم من جمال الصور
الظاهرة للإبصار ، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة
الإلهية التي هي أجلّ من أن تدركها الحواس أتم وأبلغ . ولا معنى للحب إلا
الميل إلى ما في إدراكه لذة^(٢) .

أجل أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى
للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشرباً
بالحمرة ، وامتداد القامة وغير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان . فإن
الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص ،
فيُظن أن ما ليس مبصراً ولا متخيلاً ولا متشكلاً ولا متلوناً مقدراً فلا
يُتصور حسنه ، وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لذة فلم يكن محبوباً .
فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات : إذ يقال هذا خلق حسن ،
وهذا أعلم حسن ، وهذه سيرة حسنة ، وهذه أخلاق جميلة . ولا شيء من
هذه الصفات يدرك بالحواس بل بنور البصيرة الباطنة : فهي إنما تُحب
لذاتها لا لحظ يُنال منها وراء ذاتها ، بل تكون ذاتها عين حفظها . وهذا

١ - صفحة ٢٤٣ .

٢ - صفحة ٢٤٣ .

هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه . فمن فُحرم البصيرة الباطنة لا يدرك هذه الصفات الجميلة ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها . ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الخواص الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة^(١) . وهذه المعاني يرجع جاصلها عند البحث الى العلم والقدرة . وكلما كانت العلوم أشرف وأتم جمالاً وعظمة كان العلم أشرف وأجل . وكذا المقدور كلما كان اعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه اجل رتبة وأشرف قدراً^(٢) .

وأجل المعلومات هو الله تعالى . فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى . وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به^(٣) . لذلك لا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر الا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه :

أولاً : لأن فراق المحبوب شديد ، فينبغي ان تحب من لا يفارقك وسو الله تعالى ، وان لا تحب ما يفارقك وهو الدنيا . فانك اذا احببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى ، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه ، وفراقك لما تحبه^(٤) ؛

ثانياً لأن الله هو المتفضل بالوجود على كل موجود وهو المتفضل بدوام الوجود وكمال . فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيوم الحي الذي هو قائم بذاته ، وكل ما سواه فانما هو قائم به^(٥) . فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء . وهو المنفرد بالكمال ، المنزه عن النقص ، المقدس عن العيوب ، وهو الجميل المطلق ، الواحد الذي لا ندَّ له ،

١ - صفحة ٢٤٥ .

٢ - صفحة ٢٤٩ .

٣ - صفحة ٢٤٩ .

٤ - صفحة ١٦٩ .

٥ - صفحة ٢٤٨ .

الفرد الذي لا ضد له ، الصمد الذي لا منازع له ، الغني الذي لا حاجة له ، القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ، العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض ، القاهر الذي لا تخرج عن قبضة قدرته اعناق الجبابرة ، ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلي الذي لا أول لوجوده ، الأبدى الذي لا آخر لبقائه ، الضروري الوجود الذي لا يحوم امكان العدم حول حضرته ، القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به ، جبار السموات والأرض ، خالق الجماد والحيوان والنبات ، المنفرد بالعزة والجبروت ، المتوحد بالملك والملكوت ، ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال ، الذي تتحير في معرفة جلاله العقول ، وتخرس في وصفه الألسنة ، الذي كمال معرفة المعارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ، ومنتهى نبوة الانبياء الاقرار بالقصور عن وصفه ^(١) .

فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرةً على جماله وجلاله ان يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتيهون ، وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون ، يعطون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون ^(٢) .

فأله هو اظهر الموجودات وأجلاها ، وبه ظهرت الاشياء كلها . وكما ان الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لا لحقاء النهار واستتاره ، بل لشدة ظهوره وضعف بصر الخفاش الذي يبهره نور الشمس ^(٣) ، فكذلك عقولنا الضعيفة يبهرها جمال الحضرة الإلهية التي هي في نهاية الاشراق والاستنارة وفي غاية الاستفراق والشمول . فكأنه لشدة انجلائه لا يُدرك ،

١ - صفحة ٢٥١ .

٢ - صفحة ٢٥١ .

٣ - صفحة ٢٦٤ - ٢٦٥ .

ولشدة ظهوره يخفى ، ومنذ يكون الظهور سبب الخفاء . فالشيء اذا جاوز حده انعكس الى ضده — كما يقول الفزالي في (المشكاة) (١) . فسبحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ا فجميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته (٢) .

فهو المحبوب المطلق ، المتفضل بالنعم ، مفيض الوجود على كل موجود . فإن احب العارف ذاته حقاً — ووجود ذاته مستفاد من غيره — فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له ان عرفه خالقاً موجداً مبقياً وقيوماً بنفسه ومقوماً لغيره . فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه . فالهبة ثمرة الهبة تنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها . فينبغي ان لا يحب العارف إلا الله وحده لأن المحسن اليه هو الله تعالى فقط ، إذ الإحسان من غيره محال . فإله هو المحسن الى الكافة والمتفضل على جميع اصناف الخلائق أولاً بإيجادهم ، وثانياً بتكاملهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم ، وثالثاً بترفيهم وتنعيمهم بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم وإن لم تكن في مظان الضرورة ، ورابعاً بتجميلهم بالمزايا والزوائد التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم (٣) .

لذلك فأعظم اللذات إنما هي لذة النظر الى وجه الله تعالى . لكن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات ، مشغولة بلذة المنكوح والمطعم والمشروب ، تستحق لذة النظر الى وجه الله ولقائه . وهذا الاستحقاق إنما صدر عن الخلو عن المعرفة بالله . فمن خلا عن هذه المعرفة كيف يدرك لذتها ؟ وإن اطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها ؟ فللعارفين في معرفتهم ومناجاتهم لله

١ - مشكاة الانوار ، صفحة ٦٢ .

٢ - الاحياء ج ٤ صفحة ٢٦٥ .

٣ - صفحة ٢٤٨ - ٢٤٩ .

لذات لو عُرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلاً عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة .
ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلاً الى لذة اللقاء والمشاهدة . فمن لا
يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له من غيره ، بل ربما يتأذى به ^(١) .

فإذن نعم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته .
ولهذه المعرفة من الجمال ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب
يتفطر لمعظمته . وهذه المعرفة إنما تكل وتكثر وتتسع في العمر الطويل
بداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والانقطاع عن العلائق والتجرد
للطلب . ولذلك حدود لا يرفعها إلا الموت ^(٢) . فإن ما اتضح للعارفين من
الأمور الإلهية ، وإن كان في غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق فلا
يكون متضحاً غاية الاقتراب ، بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات . فإن
الخيالات لا تفتقر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات ،
وهي مكدرات للمعارف ومنغصات . وكذلك ينضاف اليها شواغل الدنيا
فلانما كمال الوضوح بالمشاهدة وتتمام إشراق التجلي ، ولا يكون ذلك إلا في
الآخرة ، فإنه منتهى محبوب العارفين ^(٣) .

اجل ان الأمور الإلهية لا نهاية لها ، وإنما ينكشف لكل عبد من العباد
بعضها ، وتبقى أمور لا نهاية لها غامضة . والعارف يعلم وجودها ويعلم ان
ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال متشوقاً الى ان
تحصل له المعرفة بما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً لا
معرفة واضحة ولا معرفة غامضة . والشوق الاول ينتهي في الدار الآخرة
بالمعنى الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ، ولا يتصور ان يسكن في الدنيا .
وأما الشوق الثاني فيشبه ان لا يكون له نهاية لا في الدنيا ولا في الآخرة
إذ نهايته ان ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته

١ - صفحة ٢٥٧ - ٢٥٨ .

٢ - صفحة ٢٥٩ .

٣ - صفحة ٢٦٧ .

وأفعاله ما لم يتضح له ، وهذا الشوق لا يسكن هو ايضاً قط ، وتتوالى عليه ألطاف الكشف والنظر الى غير نهاية ، فلا يزال النعيم متزايداً أبداً الآباد ، وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الاحساس بالشوق الى ما لم يحصل ، ويكون ذلك مستمراً على الدوام ولا يتوقف عن الحاجة الى مزيد الاستكمال والإشراق . وهذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشيء من ذكرها وفرغ قلبه لله ^(١) .

والخلاصة ان اسعد الخلق حالاً في الآخرة اقوام حبا لله ، فكما ازدادت المحبة ازدادت اللذة . ولا ينكر هذه المحبة إلا من قعد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس اصلاً . فالله جميل ، ولكن لا يحبه إلا من انكشف له جماله وجلاله ، وهيبات ان يدرك جمال الله كل انسان ^(٢) !

وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا بالطبع . واصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن اصل المعرفة . وهو إنما يحصل - كما ذكرنا مراراً - بقطع علائق الدنيا وعدم التشاغل بحفظ النفس واخراج حب غير الله من القلب . فأحد اسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا . وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد في المال والجاه والقوة والمجد وجميع حظوظ العاجلة ، وملازمة الصبر ، والانقياد اليها بزمam الخوف والرجاء ، وبذلك يتطهر القلب عن غير الله فيتسع بعد ذلك لنزول معرفة الله وحبه فيه . وهذا التطهير يجري مجرى وضع البذر في الارض بعد تنقيتها من الحشيش ، ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة . ولا يوصل الى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا وعلائقها من القلب إلا بالفكر الصافي والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله تعالى وفي صفاته وفي ملكوت سمواته وسائر

١ - نفس المصدر والصفحة .

٢ - صفحة ٢٤٣ و ٢٤٥ .

مخلوقاته . والواصلون الى هذه الرتبة ينقسمون :
الى الاقوياء ، ويكون اول معرفتهم لله تعالى ، ثم به يعرفون غيره ؛
وإلى الضعفاء ، ويكون اول معرفتهم بأفعال الله وآثاره ، ثم يترقون
منها الى الفاعل .

وهذا الطريق الأخير هو الأسهل على الاكثرين ، وهو الأوسع على
السالكين ، وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكير والاعتبار
والنظر في آيات خارجة عن الحصر .

والطريق الاول غامض والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق .
وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام ، وإنما
قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحفظ
النفس . فما من ذرة من أعلى السموات الى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب
آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته ^(١) .

وبحر هذه المعرفة ، أعني معرفة عجائب صنع الله تعالى ، بحر لا ساحل
له . فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لا حصر له ، إذ الأشياء إنما
تتفاوت بتفاوت أسبابها . وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات
والأسباب التي قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها ، وربما تخيلوا لها معاني
يتعالى عنها رب الأرباب ، وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى
فاسداً بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق ، واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث ،
وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين . والمتخيلون هم الضالون .
والعارفون بالحقائق هم المقربون ^(٢) .

فإن كنت طالباً سعادة لقاء الله تعالى فأنبذ الدنيا وراء ظهرك ،
واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم ، فمساك تحظى منها بقدر ^(٣) .

١ - صفحة ٢٦١ .

٢ - صفحة ٢٦٣ .

٣ - نفس المصدر والصفحة .

هذا ومحبة الله يدعيها كل احد. ولكن ما اسهل الدعوى وما اعز المعنى ! فلا ينبغي ان يفتر الانسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس معها أدعت محبة الله تعالى ما لم يتمتعها بالعلامات . فعلامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب ، وكال التنعم بالخلوة به ، وكال الاستيعاش من كل ما ينقص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة. وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقاً بلذة المناجاة كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه . وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به ؛ وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به . ومهما (كلما) غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عينه يدفع بها جميع الهموم ، بل يستغرق في الحب والأنس قلبه حتى لا يفهم امور الدنيا ما لم تكرر على سمعه مراراً ، كالعاشق الولهان يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبه . فإنما الحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه ولا يسكن إلا اليه ^(١) .

ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم ، وبعض مخاوفهم أشد من بعض . فأولها خوف الإعراض . وأشد منه خوف الحجاب . وأشد منه خوف الإبعاد . ثم خوف الوقوف وسلب المزيد . فللزمة الخوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب : فان من أحب شيئاً خاف لا محالة فقده ؛ فلا يخلو الحب عن خوف اذا كان المحبوب مما يمكن فواته ^(٢) .

وقد يُظن ان الخوف يضاد الحب ، وليس كذلك بل ادراك العظمة يوجب الهيبة ، كما ان ادراك الجمال يوجب الحب . فالحب الحقيقي لا يخلو من خوف والخائف لا يخلو من محبة . ولكن الذي غلبت عليه الهيبة اتسع فيها وسكر واضطربت احواله ، فاذا جاء شوب الخوف سكن سكر الحب قليلاً وعاد الى جادة الاعتدال . فإنما الخوف يُعدّل الحب ويخفف وقعه على القلب . لذلك

١ - صفحة ٢٧٢ و ٢٧٥ .

٢ - صفحة ٢٧٧ .

كان من الواجب على المحب ان يكون في حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم ، دائباً على القرب من محبوبه وعدم فراقه . وقد قال بعض العارفين : من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والادلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاء ، ومن عبده من طريق المحبة والخوف احبه الله فقربه ومكّنه وعلمه ^(١) .

ودرجات القرب لا نهاية لها ، وحق العبد أن يجتهد في كل نفسٍ حتى يزداد منه قرباً . والقرب من الله قرب بالصفة لا بالمكان ، كالتميز يطلب القرب من درجة استاذة في كمال العلم وجماله . نعم قد يقدر التميز على القرب من الاستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته ، وذلك في حق الله محال ، فانه لا نهاية لكمال الله ، وسلوك العبد من درجات الكمال متناه فلا مطمع له في المساواة . ثم ان درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال ^(٢) .

ويجب كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقي من إظهار الوجد والمحبة تعظيماً للمحبوب وإجلالاً له وهيبة منه وغيره على سره . فإن الحب سر من أسرار الحبيب . فإن قلت : المحبة منتهى المقامات وإظهارها إظهار للخير ، فلماذا يُستنكر ؟ فاعلم ان المحبة محمودة وظهورها محمود ايضاً ، وإنما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار . وحق المحب ان يتم على حبه الخفي افعاله وأحواله وينبغي ان يظهر حبه من غير قصد منه الى اظهار الحب ولا الى اظهار الفعل الدال على الحب ، بل ينبغي ان يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط ، فأما إرادته اطلاع غيره فشرك في الحب وقادح فيه ^(٣) .

فإذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحيا منه حق الحياة خرس

١ - صفحة ٢٧٧ - ٢٧٨ .

٢ - صفحة ٢٧١ و ٢٧٧ .

٣ - صفحة ٢٧٩ .

لسانه عن التظاهر بالدعوى ، وإن كان يشهد على حبه حركاته وسكناته واقدامه وأحجامه وتردداته . وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الاخلاق ثمرة الحب ، وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى ، وهو من رذائل الاخلاق (٢) .

٢- الفناء في الله . يذهب الغزالي الى ان التوحيد له اربع مراتب . فهو ينقسم الى لب والى لب اللب والى قشر والى قشر القشر . ويضرب الغزالي لذلك مثلاً بالجوز تقريباً الى الافهام الضعيفة . فان له قشرتين وله لب وللب دهن ، هو لب اللب .

فالرتبة الاولى من التوحيد هي ان يقول الانسان بلسانه « لا إله إلا الله » وقلبه غافل عنه او منكر له ، وذلك كتوحيد المنافقين ؛
والثانية ان يصدق قلبه بمعنى اللفظ كما صدق به عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام ؛

والثالثة ان يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق ، وهو مقام المقربين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ، غير انه يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار ؛

والرابعة ان لا يرى في الوجود إلا واحداً ، وهي مشاهدة الصديقين وهذا هو الفناء في التوحيد (او الفناء في الله) ، لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً لا يرى نفسه ايضاً . وإذا لم يرى نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده ، بمعنى انه فني عن رؤية نفسه والخلق .
فالأول موحد بمجرد اللسان ، ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان ؛

والثاني موحد ، بمعنى انه معتقد بقلبه مفهوم لفظه ، وقلبه خالٍ عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه ، فالتوحيد هنا بمثابة العقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن

توفي عليه ولم تضعف بالمعاصي عقده . ولهذا العقد حيل يُقصد بها اضعافها وحلّها تسمى بدعة ، وحيل اخرى يُقصد بها دفع حيلة الحل والأضعاف كما يقصد بها ايضاً احكام رباط هذه العقدة وشدها على القلب ، وهذه هي مهمة علم الكلام . والعارف به يسمى متكلماً ، وهو في مقابلة المبتدع ، ومقصده دفع المبتدع عن حل هذه العقدة عن قلوب العوام . وقد يُخصّص المتكلم باسم الموحّد ، من حيث انه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تتحل عقده .

والثالث موحّد ، بمعنى انه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً اذا انكشف له الحق كما هو عليه ، ولا يرى فاعلاً بالحقيقة إلا واحداً وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه .

والرابع موحّد ، بمعنى انه لم يحضر في شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث انه كثير بل من حيث انه واحد ، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد^(١) .

فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب . وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها وإذا أكلت فذاقها مرّاً ، وان نُظر الى باطنها فهي كريهة المنظر ، وان اتخذت حطباً أطفأت النار وأكثر الدخان ، وان تركت في البيت ضيّقت المكان فلا تصلح إلا أن تترك مدة غطاءً للجوز لصيافته ثم يُرمى بها بعد ذلك ، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مدموم الظاهر والباطن ، لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى الى وقت الموت . والقشرة السفلى هي القلب والبدن ، وتوحيد المناق يصبون بدنه عن سيف الغزاة ، فان هؤلاء لم يؤمروا بشق القلوب . والسيف إنما يصيب جسم البدن ، وهو القشرة ، وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده . وكما ان

القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة الى القشرة العليا ، فانها تصون اللب وتحرسه من الفساد عند الإدخار ، وإذا فصلت أمكن ان يُنتفع بها حطباً لكنها أقل شأناً من اللب ، فكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة الى مجرد نطق اللسان ، ناقص القدر بالإضافة الى الكشف والمشاهدة التي تحصل بانسراح الصدر وانقسامه وإشراق نور الحق فيه . وكما ان اللب نفيس في ذاته بالإضافة الى القشر وكله المقصود ، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة الى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفاعل (الله) مقصد عال للسالكين ، ولكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات الى الكثرة بالإضافة الى من لا يشاهد سوى الواحد الحق (١) .

ولقائل ان يقول : كيف يُتصور ان لا يشاهد الموحد الأخير إلا واحداً وهو يشاهد السماء والارض وسائر الاجسام المحسوسة ، وهي كثيرة ، فكيف يكون الكثير واحداً ؟

ويرد الغزالي بأن هذا من أسرار علوم المكاشفة بما لا يجوز تسطيره في كتاب يمكن لكل أحد ان يطلع عليه . فقد قال العارفون ان إفشاء سر الربوبية كفر ، فلا يجوز الخوض فيه في علم المعاملة . ومع ذلك فان الغزالي يحاول تقريب هذه المسألة الى الأفهام بأن يقول ان الشيء قد يكون كثيراً بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار . كالإنسان فهو كثير ان التفت الى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه واحشائه ، وهو باعتبار آخر ومشاهدة اخرى واحد ، إذ نقول انه انسان واحد . فهو بالإضافة الى الانسانية واحد ، وكل من شخص يشاهد انساناً دون ان يخطر بباله كثره امعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده واعضائه . فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة . فهو باعتبار

واحدٌ وباعتبارات آخر سواء كثيرٌ ، وبعضها أشد كثرة من بعض . والمثال السابق وان كان لا يطابق الغرض الا انه ينبه في الجملة على كيفية مصير للكثرة في حكم المشاهدة واحداً . وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق ، نارة تدوم ونارة تطراً كالبرق الخاطف ، وهو الأكثر ، وأما الدوام فنادر عزيز المثال . وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حين رأى الخواص يضرب في الفيافي والقفار ، فقال له : « فيم انت ؟ » فقال الخواص : « أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل » . فقال له الحلاج : « قد أفنيت عمرك في عمران باطنك ، فأين الفناء في التوحيد ؟ » . فكان الخواص كان مشتغلاً في تصحيح المقام الثالث من مقامات التوحيد فطالبه الحلاج بالمقام الرابع^(١) .

وسواء طالبت هذه المشاهدة ام قصرت ففيها ينكشف للموحد العارف ان لا فاعل في الكون إلا الله تعالى . فمن نظر اليه (اي الى الكون) من حيث انه فعل الله ، وعرفه من حيث انه فعل الله ، وأحبه من حيث انه فعل الله ، لم يكن ناظراً إلا في الله ، ولا عارفاً إلا بالله ، ولا محباً إلا له ، فلا يلتفت قلبه إلا اليه إذ لا مجال فيه لغيره . فهو الموحد الحق الذي لا يرى الا الله ، بل لا ينظر الى نفسه من حيث نفسه ، بل من حيث انه عبد الله . فهذا هو الذي يقال فيه انه فني في التوحيد ، اي فني في توحيد الله او في الله ، وانه فني عن نفسه فلم يعد له التفات اليها ، اي نسي نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته ، فكان مستغرق الهمم بالمحبوب ، كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب ، فانه لا يتفرغ للنظر في احوال نفسه وأوضاعها ، بل يبقى كالمجهول الغافل عن نفسه ، وهو منتهى لذة العشق . واليه الإشارة بقول من قال : « كنا بنا ، ففنيانا عنا ، فبقينا بلا نحن » . هذا هو الفناء في الواحد الحق ، وهو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين . وهي امور معلومة عند

ذوي البصائر اشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن
ايضاها وبيانها (١) .

وفي (مشكاة الانوار) تصوير لهذه المسألة قد يكون اكثر وضوحاً ، بما
يدل على ان هذه الرسالة غير منحولة ، لأنها تسير و (الإحياء) في خط
واحد . فالعارف عندما يترقى من حضيض المجاز الى يفاع الحقيقة ويستكمل
معراجة ، يرى بالمشاهدة العيانة ان ليس في الوجود الا الله تعالى . فان كل
شيء سوى محبوبه اذا اعتُبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض ، واذا
اعتُبر من الوجه الذي يسري اليه الوجود من الاول الحق رؤي موجوداً لا في
ذاته بل من جهة موجدده ، فيكون الموجود وجه الله تعالى فقط . فلكل
شيء وجهان : وجه الى نفسه ووجه الى ربه . فهو باعتبار وجه نفسه عدم ،
وباعتبار وجه الله موجود . فاذن لا موجود الا الله تعالى ، وكل شيء هالك
الا وجهه أزلاً وأبداً ، ولا يعرف كنه معرفته الا هو ، ولا يدرك ذلك الا
من قويت بصيرته وارتفعت عنه الحجب (٢) .

فالعارفون — بعد المروج الى سماء الحقيقة — قد اتفقوا على انهم لم يروا
في الوجود الا الواحد الحق . فمنهم من توصل الى ذلك بطريق العقل ، ومنهم
من توصل بطريق الحال والذوق . فقد انتفت عنهم الكثرة بالكلية واستفرقوا
في الفردانية الإلهية المحضة ، فصاروا كالمبهوتين في الواحد الحق حتى لم يبق
فيهم متسع لذكر شيء غير الله ، فلم يكن عندهم الا الله . لقد انمعت
فردانيتهم وفنيت هويتهم في الهوية المطلقة ، لقد سكروا فيها 'سكراً زال
معه كل سلطان واندفعوا في الشطح ، فقال احدهم « انا الحق » وقال الآخر
« سبعماني ما اعظم شأني » ، وقال آخر « ما في الجبة الا الله » ! وكلام
العشاق في حال السكر 'يطوى ولا يحكى . وتسمى هذه الحالة (فناء)
بل (فناء الفناء) لأن الموحّد هنا قد فني عن نفسه وعن فنائه ، فلم يعد

١ — صفحة ٢٦٦ و ٣٥٨ .

٢ — المشكاة ، صفحة ٥٥ — ٥٦ .

يشعر بنفسه ولا بعدم شعوره بنفسه ، ولو شعر بعدم شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه . وتسمى هذه الحالة بالاضافة الى المستغرق به بلسان المجاز التحدأ ، ولسان الحقيقة توحيداً . انها التحد بالله وفناء في الله . ووراء هذه الحقائق أسرار يطول بيانها والخوض فيها ^(١) .

ويفرق الغزالي في هذا الموضع بين توحيد العوام وتوحيد الخواص . فتوحيد العوام انما هو قول « لا إله الا الله » . وأما توحيد الخواص ، توحيد العارفين وأهل القربى ، فهو قول « لا إله الا هو » ، بمعنى انه لا هوية لغيره إلا بالمجاز . فلا هو الا هو ولا اشارة الا اليه . وهذا التوحيد الاخير أتم وأخص واشمل واحق وادق وأدخل بصاحبه في الفردانية الإلهية المحضة والوحدانية الصرفة ، ومنتهى معراج الخلائق انما هي مملكة الفردانية ، فليس وراء ذلك مرقى . لقد انتفت الكثرة وحقت الوحدة وبطلت الاضافات وطاحت الاشارات . فهذه هي غاية الغايات ومنتهى الطلبات .

فاذا عرفت هذا فاعلم ان ارباب البصائر ما رأوا شيئاً إلا رأوا الله معه ، وربما زاد على هذا بعضهم فقال : « ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله » ، لأن منهم من يرى الأشياء به ، ومنهم من يرى الأشياء فيراه بالأشياء . فالأول صاحب مشاهدة ، والثاني صاحب الاستدلال ، الاول يستدل به على الأشياء ، والثاني يستدل عليه بالأشياء . وشتان بين يستدل به ويستدل عليه . الاول درجة الصديقين ، والثاني درجة العلماء الراسخين . وليس بعدهما إلا درجة الغافلين المحجوبين ^(٢) .

ج - الألهام . ان القلب بغيريته مستعد لقبول حقائق المعلومات . والعلوم التي تحل فيه تنقسم الى شرعية وعقلية . فأما العلوم الشرعية (او الدينية) فهي المأخوذة بطريق التقليد من

١ - صفحة ٥٧ - ٥٨ .

٢ - صفحة ٦٠ - ٦١ .

الانبياء ، وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله وفهم معانيها بعد السماع ، وبها كمال صفة القلب وسلامته . وأما العلوم العقلية فهي التي تقضي بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع .

والعلوم العقلية غير كافية في سلامة القلب وإن كان محتاجاً إليها ، فلا غنى بالعقل عن السماع (الدين) ولا غنى بالسماع عن العقل . فالداعي الى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفي بمجرد العقل عن انوار القرآن والسنة مفرور^(١) .

والعلوم العقلية تنقسم الى ضرورية وغير ضرورية . فأما الضرورية فهي الاوليات التي لا يدري صاحبها من أين حصلت وكيف حصلت ، كعلم الانسان مثلاً بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً معاً . فهي علوم مركوزة في النفس موجودة في اصل الفطرة فلا يخلو انسان منها .

وأما العلوم التي ليست ضرورية وإنما تحصل في القلب في بعض الاحيان دون بعض فلهصولها احوال : فتارة تهجم على القلب كأنها ألقيت فيه من حيث لا يدري ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم . فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى الهاماً ، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً^(٢) .

ثم ان العلم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم الى ما لا يدري العبد كيف حصل له ومن أين حصل له ، وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى للعلم في القلب . والأول يسمى الهاماً ونقشاً في الروح ، والثاني يسمى وحياً ويختص به الانبياء ، والأول يختص به الأولياء والأصفياء . وأما العلم المكتسب بطريق الاستدلال فيختص به العلماء .

١ - الاحياء ، ج ٣ صفحة ١٤ - ١٥ .

٢ - صفحة ١٦ .

ان القلب في الأصل مستعد لان تتجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها ، وإنما حيل بينه وبينها بجوائل وغواشٍ من عالم الحس تمنع وصولها اليه . فهي كالحجاب المسدل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به الى يوم القيامة . وتجلي حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضامى انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها . والحجاب بين المرآتين يمكن إزالته باليد كما يمكن إزالته ايضاً بهبوب الرياح . وكذلك قد تهب رياح الاطاف الإلهية وتنكشف الحجب عن أعين القلوب فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ ، وذلك كما في عجائب الرؤيا الصادقة : فانه ينكشف بها الغيب فيعلم النائم ما يكون في المستقبل . ولكن تمام ارتقاع الحجب انما يكون بالموت ، فيه ينكشف الغطاء . وقد ينكشف ايضاً في حال اليقظة حيث يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى ، وعندئذ يلمع في القلب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم ، فيكون تارة كالبرق الخاطف ، وقد يبقى احياناً مدة اطول من ذلك قليلاً ، لكنه سرعان ما يزول ، اما ان يدوم فذلك في غاية الندور . هذا هو الإلهام . وهو لا يختلف عن الاكتساب في نفس العلم : فكلاهما علم ومعرفة ؛ ولا في محله : فكلاهما يحصل في القلب ؛ ولا في سببه . فكلاهما يصدر عن اللوح المحفوظ ؛ ولكنه يختلف عنه من جهة زوال الحجاب فقط وارتفاعه ، وهذا الارتفاع لا يكون باختيار العبد وإلا كان علماً كسبياً ، بل بتدخل إلهي . وكذلك لا يختلف الإلهام عن الوحي إلا في ان الوحي يكون في المادة مصحوباً برؤية الملاك جبريل حامل الوحي والمفيد للعلم ، وأما الإلهام فلا يدري صاحبه كيف حصل له ولا من أين حصل^(١) .

فإذا عرفت هذا فاعلم ان اهل التصوف انما يميلون الى العلوم الإلهامية دون التعليمية المكتسبة . فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه

المصنفون فيه والبحث عن الأقاويل والأدلة ، وانما حرصوا على تقديم المجاهدة والتصفية وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . وكلما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم . وإذا قولى الله امر القلب فاضت عليه الرحمة ، واشرق النور فيه ، وانشرح له الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجهه حجاب الغفلة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية . فليس على العبد في هذه الحال الا الاستعداد بالتصفية المجردة واحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة . فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد في الدنيا والبرؤ من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى .

والطريق الى ذلك - فيما يزعم الصوفية - انما يكون أولاً بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه ، بحيث يصير قلب السالك الى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه . ثم يخلو الى نفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، فيجلس فارغ القلب بمجموع الهمم ، ولا يشتت ذهنه بقراءة القرآن ولا بالتأمل في تفسيره ولا يشغل بكتب الحديث ، بل يجتهد ان لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى . فلا يزال بعد جلوسه قائلاً بلسانه « الله » على الدوام مع حضور القلب ، حتى ينتهي الى حالة يتحرك فيها تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه . ويصبر على ذلك الى ان يُمحي أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظباً على الذكر ، ثم يواظب ويواظب الى ان يُمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه حاضراً فيه كأنه لازم له لا يفارقه . والى هذا الحد يقف اختياره فلا عمل له بعد ذلك . فليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى وما يعقب ذلك من النفحات الإلهية

التي صار متعرضاً لها . فلا يبقى عليه الا الانتظار لما يفتح الله عليه من الرحمة ، كما فتحها على الانبياء والأولياء بهذا الطريق .
فاذا صدقت ارادته وصفت همته وحسنت مواظبته ، فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا ، لمعت لوامع الحق في قلبه ، فكانت اولاً كالبرق الخاطف لا تثبت ثم تعود ، وقد تتأخر هذه اللوامع ، وان عادت فقد تثبت وقد تكون مختطفة ، وان ثبتت فقد يطول ثباتها وقد لا يطول ، وقد يتظاهر امثالها على التلاحق ، وقد تقتصر على فن واحد .
ومنازل اولياء الله تعالى في ذلك لا تحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم واخلاقهم^(١) .

ويؤكد الغزالي ان النظر وذوي الاعتبار من الحكماء والفلاسفة لا ينكرون هذا الطريق وامكانه وافضاه الى هذا المقصد ؛ فانه اكثر احوال الانبياء والأولياء . ولكنهم استوعروا الطريق واستبطأوا ثمرته واستبعدوا استجماع شروطه ، وقالوا ان محو العلائق الى ذلك الحد أشبه بالمتعذر ، وان حصل في حال فثباته أبعد منه اذ القلب لا يخلو من تشويش الوسواس والخواطر ، فالقلب أشد تقلباً من القدر في غليانها . وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن . فاذا لم يسبق ذلك رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم تشتت القلب بالخيالات الفاسدة واطمأنت النفس اليها مدة طويلة . وهكذا ينقضي العمر قبل النجاح فيها . فكم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة ! ولو كان قد اتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال .
ويؤكد الغزالي ان الاشتغال بطريق التعلم اولاً اوثق وأقرب الى الغرض . لكن الصوفية يزعمون ان هذه الرياضة تنفي عن التعلم والاكتساب ، وانها تضاهي ما لو ترك الانسان تعلم الفقه مثلاً . ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره ، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على

كنز من الكنوز . ويرى الغزالي ان هذا ممكن ، ولكنه بعيد الاحتمال جداً . وكذلك التعلم بطريق الإلهام ممكن ، ولكنه بعيد الاحتمال جداً . فلا بد من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه أولاً ، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء . فمساء ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة والتصفية . وجملة القول ان الغزالي هنا يشترط لنجاح الإلهام سبق العلم أولاً ثم الترصّد والانتظار مع دوام الرياضة والتطهير^(١) .

وبضرب من التعارض عودنا عليه الغزالي في مثل هذه الاحوال ، وقبل ان تبرد الكلمات السابقة ويحف مدادها ، فانه بعد قليل من الكلام السابق وفي الفصل التالي الذي عقده في (الإحياء) لبيان (الفرق بين المقامين بمثال محسوس) ينسب للقلب عجائب خارجة عن مدركات الحواس ، فيشبه القلب بالحوض يساق اليه الماء من فوقه من انهار مجاورة ، كما يحتمل ان يحفر اسفل الحوض ويرفع منه التراب الى يقرب من مستقر الماء الصافي ، فيتفجر الماء من اسفل الحوض ويكون ذلك الماء اصفى وأدوم ، وقد يكون اغزر . والماء في مثلنا هذا يرمز الى العلم ، والأنهار ترمز الى الحواس . فالعلوم قد تساق الى القلب بواسطة انهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يتلى علماء ، ويمكن ان تسد هذه الانهار بالخلوة والعزلة وغض البصر والمبادرة الى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله . فان قلت : كيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه ؟ أجاب الغزالي بأن هذا من عجائب امرار القلب^(٢) ! فليت شعري كيف يهب الغزالي هنا بما يسميه (عجائب امرار القلب) بينما اشترط قبل قليل البدء بتحصيل « ما حصله العلماء وفهم ما قالوه » أولاً ليتفجر الإلهام في القلب ويتحقق الكشف بعد ذلك ؟

وعلى كل حال ، فكما ارتفع الحجاب بين القلب واللوح المحفوظ رأى السالك الاشياء فيه وتفجر اليه العلم منه ، فاستغنى عن الاقتباس من داخل

الحواس ، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الارض . وكلما اقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجاباً له عن مطابقة اللوح المحفوظ ، كما ان الماء اذا اجتمع في الانهار منع من التفجر في الارض . واذن فان القلب له بابان : باب مفتوح الى خارج وهو الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك ؛ وباب الى الملكوت من داخل القلب ، وهو باب الإلهام والنفث في الروح والوحي . فأما انفتاح باب القلب الى الاقتباس من الحواس وعالم الملك فلا يخفى عليك امره ، وأما انفتاح بابه الداخل الى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فانك تعلمه علماً يقينياً بالتأمل في عجائب الرؤيا واطلاع القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل او ما كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواس ، وانما يفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى . فاذن الفرق بين علوم الانبياء والاولياء وبين علوم العلماء والحكماء هو ان علوم اولئك انما تأتي من داخل القلب من الباب المنفتح الى عالم الملكوت ، وان علم الحكمة انما يأتي من ابواب الحواس المفتوحة الى عالم الملك^(١) .

ولكن المعرفة في مجملها لا تعتمد على الإلهام كثيراً . فهي انما تتولد من التفكير الذي يفيد تكثير العلم واستجلاب معارف جديدة ليست حاصلة . فالمعارف اذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص اثمرت معرفة اخرى . فالمعرفة نتاج المعرفة . فاذا حصلت معرفة جديدة وازدوجت مع معرفة سابقة حصل من ذلك نتاج آخر . وهكذا يتبادى النتاج وتبادى العلوم ويتبادى الفكر الى غير نهاية . وانما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت او بالعوائق . فالمعرفة تجرّ المعرفة كما ان المال يجرّ المال . فمن ليس له رأس مال منها انما هو كالذي لا بضاعة له ، انه لا يقدر على الربح . وهو قد يملك البضاعة لكنه لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئاً . وكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال

العلوم ، ولكنه لا يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي الى النتائج فيها . ومعرفة طريق الاستعمال والاستئجار قارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء ، وذلك عزيز جداً ، وقد تكون بالتعلم والممارسة ، وهو الأكثر والأعم . فرجع حاصل حقيقة التفكير عند الغزالي الى احضار معرفتين للتوصل بهما الى معرفة ثالثة . فالفكر هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ، ولذلك قيل : تفكير ساعة خير من عبادة سنة . فهو الذي ينقل من المكاره الى المحاب ، ومن الرغبة والحرص الى الزهد والقناعة ، فضلاً عن توليد المعارف الجديدة ^(١) .

والخلاصة ان العلوم لا تحصر في التعلم ومباشرة الاسباب المألوفة ، بل يجوز ان تكون المجاهدة سبيلاً اليها . فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم واكتساب فانما حصلت بطريق الكشف والإلهام . انها نور يقذفه الله تعالى في قلوب أصفياء عباده والمخلصين من خلقه الذين يسعى نورهم بين ايديهم وبإيمانهم . هذا هو العلم الرباني والعلم اللدني الذي لا يمكن ان يستقصى في علم المعاملة ، علم اهل الظاهر والعالم المادي المحسوس . فالقول فيه يطول ولا يليق الا بعلم المكاشفة ، علم اهل الباطن والعالم الروحاني المعقول « فمن انكشف له شيء منه فقد يبهره بحيث يدهش ويُغشى عليه » ^(٢) . انه علم مضمون به على غير اهل لا يجوز تسطيره في الكتب او التفريط فيه على أسماع اهل الظاهر الذين لا يعلمون من الحق شيئاً . فلنقتصر على ما ذكرناه فانه كاف للاستحاث على المجاهدة وطلب الكشف فيها . ولمثل هذا فليعمل العاملون ^(٣) .

خاتمة . — هذا هو الغزالي المتصوف بالفطرة والفكرة ، وهذه هي فلسفته ومجمل آرائه . ولئن كان تصوفه مطبوعاً بطابع الافلاطونية المحدثة

١ - الإحياء ، ج ٤ ص ٣٥٤ .

٢ - ج ٤ صفحة ٢٨٧ .

٣ - ج ٣ صفحة ٢١ و ٢٣ .

فانه مطبوع ايضاً بطابع الاسلام وبمفهوم الغزالي للاسلام . بل لا يقل الطابع الاسلامي عنده عن طابع الافلاطونية المحدثه اذا لم يكن اشد منه قوة وبروزاً . فانما كان افلاطون والافلاطونية المحدثه وأرسطو وجميع التراث العقلي والروحي الذي انتقل اليه ، ادوات في يد الغزالي المسلم الذي نهج للفلسفة وللإسلام معاً سبلاً غير مطروقة ، فجعلها مشروعاً عاماً ومحجة واضحة . لقد رد على الفرق والفلاسفة ورجال الدين معاً ، فأفلقت حجته وقوي جانبه وأبدى من قوة المعارضة وشدة النقد وجبروت العقل ومثانة الحجة ما حطم به الفلسفة وقضى على المفهوم المتعجر للدين . وما زال يشيد بالدين وبسمو بمعانيه حتى أقامه منتصراً داحراً كل محاولات العقل وشكوكه . وان مجادلاته في الوصول الى الله ليست بأقل شأنًا في تاريخ الفكر الانساني من مذاهب الذين جاءوا قبله او بعده فاغنوا التجارب الروحية وأمدوها بالنسخ والحياة . لقد كان قمة شامخة في دنيا الاسلام وحدثاً من احداثه العظيمة .

ومن اجل هذا فلا غرو ان يضي عليه العالم الاسلامي لقبه الخالد (حجة الاسلام) .

الفصل التاسع

ابن رشد

(٥٢٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٢٦ - ١١٩٨ م)

نشأته . - هو ابو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن احمد بن رشد المعروف في اوروبا باسم (Averroès) وُلد بمدينة قرطبة ، وهي سوق العلم ومركز العلماء في ذلك الحين . وكان له من اسرته العريقة تراث ضخم : فقد كان والده ابو القاسم احمد قاضي قرطبة ، وكان جده - ويُعرف مثله بأبي الوليد بن رشد - قاضي القضاة في الاندلس كلها ، وأمير الصلاة بالمسجد الجامع في قرطبة ، وله فتاوى مخطوطة لا تزال محفوظة بمكتبة باريس تدل على ملكة النظر والقدرة على التفكير والمحاكمة العقلية التي سيرثها عنه حفيده . وكان الاثنان - الأب والجد - من أئمة المذهب المالكي ، مذهب اهل المغرب والاندلس .

وقد ورث ابن رشد عن ابيه كثيراً من مواهبها الفطرية ، فسلك بطبيعة تربيته وتاريخ اسرته مسلكها في حب العلم والاقبال على التحصيل . فأتقن علم الكلام على طريق الاشاعرة ، ودرس الفقه على مذهب مالك ، وروى الحديث عن ابيه ابي القاسم واستظهر عليه (الموطأ) حفظاً ، وهو الكتاب الاول والأساسي لمذهب الامام مالك ، مما امله لتولي مركز القضاء

في اشبيلية وقرطبة كأبيه وجده . ثم تتلمذ على ابي جعفر هرون ، ودرس عليه الطب ولزمه مدة وأخذ عنه كثيراً من علوم الحكمة ، أي الفلسفة التي اولى بها ولماً شديداً حتى انقطع اليها ، فبرع فيها وكانت مصدر شهرته وذووع صيته . فقد وصل منها الى ما لم يدركه سواه فكانت له فيها الامامة دون اهل عصره ، كما يقول ابن الآبار .

اجتماعه بالخليفة . - وكان ابن طفيل يعرف له طول باعه في الفلسفة وعلوم الاوائل ، فقدمه الى الأمير ابي يعقوب يوسف الذي كان معنياً باجتذاب العلماء والفلاسفة اليه . وخبر هذا التقديم الذي يقصه علينا ابن رشد نفسه له مفزاه . فقد روى عبد الواحد المراكشي صاحب (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) ان تلميذ ابن رشد الفقيه ابا بكر بُندود بن يحيى القرطبي أخبره انه سمع الحكيم ابا الوليد يقول غير مرة :

« لما دخلت على أمير المؤمنين ابي يعقوب وجدته هو وأبا بكر بن طفيل ليس معها غيرهما . فأخذ ابو بكر يشي عليّ ويذكر بيتي وسلفي ويضم الى ذلك أشياء لا يلبثها قدرتي . فكان اول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد ان سألتني عن اسمي واسم ابي ونسبي ان قال : « ما رأيهم في السماء - يعني الفلاسفة - أقديمة هي أم حادثة ؟ فأدركني الحياء والخوف ، فأخذت أتعلل وانكر اشتغالي بعلم الفلسفة ، ولم اكن أدري ما قرر معه ابن طفيل . ففهم امير المؤمنين مني الروع والحياء ، فالتفت الى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألتني عنها ويذكر ما قاله ارسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج اهل الاسلام عليه . فرأيت منه غزارة حفظ لم اظنها في احد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت ، فعرف ما عندي من ذلك . فلما انصرفت أمر لي بجال وخلعة سنية ومركب » .

ثم كان ابن طفيل نفسه هو الذي أوعز الى ابن رشد بتلخيص ارسطو وشرحه ، اذ يستطرد صاحب « المعجب » ايضاً قائلاً :

« اخبرني تلميذه عنه قال : استدعاني ابو بكر بن طفيل يوماً فقال لي : سمعت اليوم امير المؤمنين يشتكي من قلق عبارة ارسطوطاليس او عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غموض اغراضه ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب اغراضها بعد ان يفهمها فهماً جيداً ، لقرَّب مأخذها على الناس . فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل . واني لأرجو ان تقي به لما اعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك الى الصناعة . وما ينبغي من ذلك إلا ما تعلمه من كبر سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي الى ما هو اهم عندي منه .

« قال ابو الوليد : فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم ارسطوطاليس » (١) .

مكانته في بلاط الموحدين . — وهنا لمع نجم ابن رشد ونال حظوة كبيرة لدى الخليفة . فقد عينه هذا الاخير طبيباً خاصاً له الى جانب طبيبه الفيلسوف ابي بكر بن طفيل ، كما ولاه وظيفة القضاء بقرطبة . وكانت ابن رشد ينتقل معظم الوقت مع بلاط الخليفة سواء بالغرب او الاندلس . ولما توفي ابن طفيل سنة ٥٨١ هـ - ١١٨٥ م انفرد ابن رشد بمنصب الطبيب الخاص . ولبت على مكانته في بلاط الموحدين حتى توفي الخليفة ابو يعقوب يوسف سنة ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م وخلفه في الملك ولده الخليفة ابو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور الذي أبقى ابن رشد على ما كان عليه من الحظوة والمقام . وكان يعظّمه ويكبّره الى حد انه كان يجلسه مباشرة الى جانبه ويتعدى بموضعه مواضع شيوخ الموحدين الاكابر . وحينئذ جرى ما لم يكن بالحسبان ، وكانت محنة فيلسوفنا القاسية .

نكبته . — فقد كان ابن رشد خلال ذلك قد ذاعت شهرته الطبية والفلسفية ذيوماً عظيماً حتى كثر حساده وشائثوه الذين نقموا عليه آراءه وأفكاره ونفسوا عليه منزلته لدى الخليفة وعلو مكانته . ففشروا حول

١ — المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، طبعة مصر ، صفحة ١٥٦ - ١٥٩ .

اسمه دعاية مسمومة وأنكروا عليه اشتغاله بالحكمة وعلوم الاوائل ، ورموه بالمروق والخروج على الدين واشتدوا في السعاية به عند المنصور حتى احفظوا عليه قلب الخليفة وأوغروا صدره . فلم يرَ مناصاً من الاصغاء اليهم ، رغم ما كان يسبغه على الفيلسوف من تقدير وعطف ، لا سيما وقد كان في حرب مع ألفونس التاسع ملك قشتالة ، وبالتالي في أمس الحاجة الى رضى الشعب الذي كان يسيطر عليه خصوم الفيلسوف ومتهموه والمتعصبون عليه . من كان الخليفة مضطراً الى مصانعتهم والسير في ركابهم . فلم يتخرج من مسايرتهم في بعض ما يبغون الى ان تتكشف الازمة وتزول الغمة . وانتهى الامر بادانة الفيلسوف وتلاميذه ، وباحراق كتب الفلسفة كلها ما عدا الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم الى معرفة مواقيت الصلاة واتجاه القبلة ، وبإبعاد ابن رشد عن أوار المعركة بنفيه من قرطبة واعتقاله ببلدة اليسانة . وكان ابن رشد يومئذ قد جاوز السبعين من عمره . كما قضى الخليفة على زملائه بالنفي الى جهات اخرى ، وصودرت كتب الجميع وأمر باحراقها أينما وجدت ، الا ما كان منها في الطب والحساب والمواقيت كما ذكرنا .

وهناك اسباب اخرى لغضب المنصور على الفيلسوف غير هذه ، بعضها شخصي وبعضها يمس العقيدة والفكر :
منها اختصاصه بأبي يحيى اخي المنصور ووالي قرطبة ، وقد كان بين الاخوين مودة وجفاء .

ومنها ان الفيلسوف كان - كما يروي لنا القاضي ابو مروان الباجي - متى حضر مجلس المنصور وتكلم معه او بحث عنده في شيء من العلم ، يخاطب المنصور بأن يقول : « تسمع يا اخي » فلم يكن يلزم نفسه رعاية ما يراعيه حاشية الملوك من الملق والأدب الزائد او مصانعة السلطان . وكان المنصور يُسرُّ له الجرأة في مخاطبته .

ومنها - وهو ما يدخل في باب ما يسمى اليوم بالعيب في الذات

الملكية - ان ابن رشد قال في شرحه لكتاب (الحيوان) لأرسطو عندما أتى على ذكر الزرافة : « ورأيت الزرافة عند ملك البربر ، مشيراً بذلك الى المنصور الذي رأى في ذلك إهانة له ولإسرته .
ومنها ورود عبارة بخطه في بعض تلاخيصه حاكياً عن بعض قدماء الفلاسفة : « فقد ظهر ان الزهرة احد الآلهة » .

ومنها انه شاع في المشرق والأندلس لعده على السنة المنجمة ان ربحاً عاتية ستهب في يوم كذا وتهلك الناس . واستفاض ذلك حتى اشتد جزع الناس واتخذوا الغيران والانفاق تحت الارض توقياً منها . فاستدعى والي قرطبة طلبتها وقاضيا - وهو ابن رشد - وفاوضهم فيها . فقال احد الحاضرين : ان صح امر هذه الريح فهي ثانية الريح التي اهلك الله بها قوم عاد ، إذ لم تعلم ريح بعدها يعم اهلكها . فانبرى ابن رشد ولم يتألك ان قال : والله ، وجود قوم عاد ما كان حقاً ، فكيف سبب هلاكهم ! فسقط في ايدي الحاضرين واكبوا هذه الزلة التي لا تصدر إلا عن صريح الكفر والتكذيب لما جاء به القرآن .

وأخيراً هناك سبب عام لنكبة ابن رشد أهم من هذه الأسباب جميعاً يقف وراءها ويفذيها ويؤجج لظاها . ألا وهو هجومه المستمر على المتكلمين من الأشاعرة هجوماً لا هوادة فيه ، وهم الذين كانوا يمثلون السلطة الدينية في الأندلس في زمن الموحدين . لذلك اتهمه اعداؤه بأشنع التهم وأكثرها تنفيراً للناس منه ، فقالوا انه ملحد مارق مبتدع خارج عن الملة .

والخلاصة ان الأسباب الرئيسية لنكبة ابن رشد تتخطى الخليفة والفيلسوف معاً وتكن في الصراع القائم بين الفلاسفة والفقهاء ، بين مطالب العقل ونوازع الوجدان ، بين المبادئ السامية والمثل الرفيعة وبين دواعي الغريزة والأنانية الفردية . وقد اجتمعت هذه الأسباب كلها لإدانة الفيلسوف الذي لم تكن ظروفه الخاصة سوى مناسبة طارئة لتفجير الأزمة وإلهاب الصراع .

وعلى كل حال لبث ابن رشد في معتقله باليسانة مدة لا تعرف على وجه الدقة . ومعظم المؤرخين يرجحون ان النكبة وعقوبتها والعفو عنها لم تطل اكثر من سنة . فإن جماعة من اكابر اهل اشبيلية خاطبوا المنصور - وربما كان ذلك بإيعاز منه - في شأن ابن رشد وزملائه وتشفعوا لديه في سبيل اقالتهم والعفو عنهم ، ونفقوا عن الفيلسوف تهمة المروق والزبغ وشهدوا بحسن ايمانه وسلامة عقيدته وبأنه على غير ما نسب اليه . ونفى ابن رشد عن نفسه من جهة اخرى تهمة العيب في حق المنصور بوصفه اياه بملك البربر وقال انه انما كتب « ملك البربر » ولكنها تصحفت على القارىء . وفي هذه الاثناء كانت الفاشية قد انجابت والعاصفة قد هدأت ؛ وكان المنصور قد استعاد سيطرته على الموقف ، فاستجاب لشفاعتهم وعفا عن ابن رشد وصحبه . ومن يدري ؟ فلعل المنصور هو الذي اوعز الى هذه الجماعة بطلب الشفاعة للفيلسوف ورفاقه . والدليل على ان المنصور انما فعل ما فعل مدفوعاً بضغوط الظروف والأحداث لا انتقاماً منه او اضطهاداً له اقتصراره على نفي الفيلسوف دون اعدامه ، ثم استقدامه اليه . وهكذا استرد ابن رشد حظوته في بلاط الموحدين وعاد الى مراکش ، حيث كان المنصور ، ليلحق بحاشيته ولكنها عودة لم تطل . فقد وافاه الاجل في السنة نفسها التي عاد فيها وهو في الخامسة والسبعين من عمره ، فدفن أولاً بمراكش لمدة ثلاثة اشهر فقط ، ثم نقل منها الى قرطبة مسقط رأسه وموئل أسرته ودفن بها في روضة آباءه . قال ابن عربي الذي شهد نقله : « ولما جعل التابوت الذي فيه جسده على الدابة ، جعلت تواليفه تعادله من الجانب الآخر . وقلنا في ذلك :

هذا الإمام وهذه اعماله يا ليت شعري هل أنت آماله ؟ ،
وبموته فقدت الفلسفة اكبر نصير لها في الاندلس والعالم الاسلامي عامة .

آثاره . - وضع ابن رشد كتباً ورسائل كثيرة في شتى العلوم التي كانت معروفة في عصره . وقد اختلف المؤرخون في عدد مؤلفاته ، لكنها لا تقل

على كل حال عن سبعين مؤلفاً ضاعت اصول الكثير منها وبقيت ترجماتها محفوظة باللغة العبرية واللاتينية . وقد ذكر رينان عن فهرست عربي قديم محفوظ في خزانة الاسكوريال ثمانى وسبعين رسالة او كتاباً لابن رشد في الفلسفة والطب والفقه وعلم الكلام .

ويمكن تقسيم هذه الآثار الى قسمين :

أ - شروح وملخصات ، ب - مصنفات شخصية اصيلة مبتكرة .
وليس من الضروري ان نسرد هنا اسماء هذه المؤلفات بنوعها جميعاً ، لأننا لن نأتي عندئذ بجديد ، بل سنجتزئ بأهمها .

أ - اهم شروح ابن رشد وملخصاته :

جوامع سياسة افلاطون (وهو تلخيص كتاب الجمهورية)

تلخيص كتاب الكون والفساد (لأرسطو)

تلخيص كتاب السماء والعالم (لأرسطو)

تلخيص كتاب ما بعد الطبيعة (لأرسطو)

شرح السماع الطبيعي (لأرسطو)

شرح كتاب السماء والعالم (لأرسطو)

شرح كتاب المقولات (لأرسطو)

تفسير ما بعد الطبيعة (لأرسطو)

تلخيص كتاب النفس (لأرسطو)

تلخيص كتاب المجسطي في الفلك (لبطليموس)

تلخيص كتاب العلل والأعراض (لجالينوس)

مقالة في ما خالف ابو نصر لأرسطو في كتاب البرهان من ترتيبه

وقوانين البرهان والحدود

الفحص عن مسائل وقعت في العلم الالهي في كتاب الشفاء (لابن سينا)

شرح ارجوزة ابن سينا في الطب

مختصر كتاب (المستصفى) للغزالي

ب - اهم المصنفات المبتكرة الاصلية :
تهافت التهافت (وينقض به كتاب التهافت للغزالي)
الرد على ابن سينا في تقسيمه الموجودات الى ممكن على الاطلاق
وممكن بذاته وواجب بغيره وواجب بذاته
مقالتان في علم النفس

مقالة في العقل

كتاب الكليات (في الطب)

فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال
الكشف عن مناهج الادلة في عقائد الملة (في العقائد وعلم الكلام)
بداية المجتهد ونهاية المقتصد (في الفقه)

اسلوب ابن رشد . - من الصعب الحكم على اسلوب ابن رشد الحقيقي ،
لأن المؤلفات التي وصلت الينا منه باللغة العربية نادرة جداً ! وأما سائر
كتبه فهي كما قلنا منقولة الى اللاتينية والعبرية ، وغني عن البيان ان
الترجمة لا تنبئ بدقة عن اسلوب المؤلف . وأهم كتاب في الفلسفة المحضة
وصل الينا منه في العربية هو « تهافت التهافت » الذي يرد فيه على الغزالي .
وأغلب الظن انه من اواخر كتبه ، ولذلك يتجلى فيه نضجه وثمرات
كهولته . وهناك كتب اخرى وصلت الينا اقل منه شأنًا ، فلنتخذ نموذجاً
للحكم على اسلوبه الفلسفي .

وقد صرح ابن رشد بغرضه من تأليف هذا الكتاب فقال في مقدمته :
« فان الغرض في هذا القول ان نبين مراتب الاقاويل المثبتة في كتاب
(التهافت) لأبي حامد في التصديق والاقناع وقصور اكثرها عن رتبة
اليقين والبرهان » (١) .

تناول ابن رشد في كتابه هذا حجج الغزالي والمسائل العشرين التي
ردّها على الفلاسفة ، فلم يدع اعتراضاً إلا فندها او - في بعض الحالات -

١ - تهافت التهافت ، صفحة ٥٥ .

أقره ، ولا برهاناً إلا أظهر صحته أو ضعفه ، بدقة لا تخلو من الغموض .
فهو في هذا الكتاب ينظر الى الغزالي نظره الى رجل فقيه يعتمد الأدلة
الجدلية لا البرهانية ، ويهاجمه مهاجمة عنيفة ويرميه بضعف الحجة ووهن
البرهان ، ويتهمه بأنه يغيّر ويبدل في اقوال الفلاسفة ويأخذ ما يوافقه
منها ويدع ما لا يوافقه ، ويصفه بالخبث والسفسطة ، ومن ثم يخرج من
حظيرة الفلسفة والفلاسفة . وهو يتخذ من بعض اقواله ذريعة للاستطراد
في قضايا فلسفية مختلفة تتصل بالموضوع من قريب او بعيد . فيبسطها
بسطاً تلبين فيه شمائل العمق والغوص على المعاني ، ويفصلها تفصيلاً دقيقاً
نم عن معرفة غزيرة واطلاع واسع وقدرة على التحليل المنطقي والموضوعية
التي تتجلى في انصاف الخصم والاعتراف له ببعض المواقف المعقولة
والاعتراضات الصحيحة . وينبغي ان نشير هنا الى انه لا بد لمن اراد
فهم ردود ابن رشد من الاطلاع على (تهافت) الغزالي بإمعان وروية قبل
البدء بكتاب (تهافت التهافت) .

وأسلوب ابن رشد في مناقشته للغزالي مثال للأسلوب العلمي الرصين
الذي يتميز بالجفاف والدقة والعمق . ولذلك فان المتصفح لكتابه لا يرى
فيه تلك الجزالة والعذوبة والإغداق التي يراها في كتاب الغزالي ، ولا
يحبس فيه تلك العاطفة المشبوبة التي يحسها وهو يقرأ « تهافت الفلاسفة » .
فالغزالي شاعر عاطفي قلق يود ان يستولي على لبّ القارئ بأية وسيلة
ممكنة وان يقتنصه بشق الطرق التي تتراوح بين البرهان والجدل والخطابة ،
وأن يحمله على الايمان بتعاليمه هو وعلى ان الفلاسفة قد ضلوا ضلالاً
بعيداً عندما خاضوا في قضايا ما وراء الطبيعة ووصلوا فيها الى نتائج
تخالف ما نص عليه الشرع . وأما ابن رشد فهو باحث مترن غلب عقله
هواه الى حد بعيد . فهو لا يميل لإرادته على القارئ بل يضع بين يديه
الحقيقة الناصعة ويبين له وجوه الاختلاف والاتفاق فيها ويترك له الخيار
في اتخاذ الموقف الذي يريد ، وسواء عليه بعد ذلك اقتنع ام لم يقتنع .

فهو يكتب ابتغاء الحقيقة لا ليمتلق القارىء وينتزع موافقته . فحسبه انه وضع أمامه جميع العناصر المطلوبة للبحث ، وليكن موقفه بعد ذلك ما شاء له ان يكون .

وهو مالك لزام موضوعه يستقصي جميع اطرافه وشوارده . فان أسهب واستطرد واطال لم تفته الغاية بالتطويل ولم يغيب عن نظره أفق البحث ، بل ظل يدور فيه ويستجمع عناصره بدقة وامانة . وان اوجز وقصر استوعب فجمع واوعى . فله على نفسه وموضوعه سلطان لا تجمع به الجوامع ولا تشرذ به الشوارد ، ولا تنأى به مشاغل الطريق عن المقصد والغاية .

والخلاصة ان اسلوب ابن رشد العلمي يكاد يبلغ القمة في الكمال لولا انه يشوبه أحياناً قليلة ما يشوب أسلوب الغزالي من الميل الى تسفيه آراء الخصم وتحقيره والتشهير به ، وهي صفات ليست من العلم في شيء . ومع ذلك فقد استجاز ابن رشد الاتصاف بها عندما حكم على الغزالي بأنه « شرير جاهل » مما لا يليق برجل من معدن ابن رشد ان يتفوه به . ولكن هذه الشوائب على كل حال تظل قليلة نسبياً في وقت عزّ التجرد الخالص وحيث كان التنزه عن الهوى مطلباً عسيراً دونه خبط القتاد . فلكل جواد كبوة ، ولكل عظيم هفوة .

شخصيته . - كان ابن رشد إمام عصره في الفقه وعلوم الدين ومن اعظم الأطباء الذين انجبههم العالم الاسلامي في عصوره المختلفة ، وكان ثالث ثلاثة من أئمة الحكمة الاندلسية وعباقره التفكير الذين ظهوروا خلال القرن السادس للهجرة وهم : ابن باجة وابن طفيل وابن رشد .

وقد وصفه الذين ترجموا له بحملة من الأوصاف الفريدة التي تدل على شرفه في العلم والنفس ، وكان على شرفه أشد الناس تواضعاً وانخفاضهم جناحاً . 'عني بالعلم منذ صغره الى كبره ' ، حتى 'حكى عنه انه لم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه ليلة بنائه على امله ، وانه

سوّد فيها صنف وقيّد وألّف وهذّب واختصر نحواً من عشرة آلاف ورقة ، ومال الى علوم الأوائل ، فكانت له فيها الإمامة دون اهل عصره . وكان يُفزع الى فتواه في الطب كما يُفزع الى فتواه في الفقه ، مع الحظ الوافر من الاعراب والآداب . وهو لم يتخذ من مناصب الدولة التي تقلب فيها سبيلاً الى الإثراء ، بل وهب نفسه للآخرين . فقد تأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة لم يصرفها في ترفيع حال ولا جمع مال ، إنما قصرها على مصالح اهل بلده ومنافع اهل الاندلس عامة . وهو كريم معطاء يبذل عونه لقصّاده ويحذب عليهم ، سواء كانوا من محبيه او من شائنيه . وقد أثر عنه في قضائه انه كان يتخرج كثيراً من الحكم بالموت . فاذا لم يجد منه مناصباً أحاله على مساعديه ليراجعوه ويمحصوه وليعيدوا النظر فيه قبل ابرامه .

وكان يتعفف عن حضور مجالس الانس والطرب والخوض في احاديث المجنون وسقط القول والتنازع بالألقاب . بل لقد بلغ من تعفّفه عما لا يراه خليقاً به انه احرق شعره الذي نظمه في الغزل في عهد الصبا . والمتواتر من جملة اخباره انه كان أبعد الناس عن الملق والمداينة وزخرف القول في ألقاب الملوك والأمراء ، فكان يرسل الكلام على سجيته دون بهرج او تزويق . وقد رأينا كيف كان يخاطب الخليفة في مجلسه فيقول له : « يا اخي » فشرف النفس اولى عنده من المصانعة والتفاق وتزييف الألفاظ .

وكان ابن رشد مخلصاً للحق يسمى اليه ويحدّث في طلبه ، ولا يستنكف عنه ايّنا وجده . وكان يدعو الى نبذ التعصب والهوى بغير حق ، وقبول الآراء الصحيحة والأخذ بها دون اعتبار للدين او المذهب ، وسواء جاءت من المسلم او من غير المسلم ، فذلك أجمل بالانسان وأدعى الى الانصاف . وفي هذا يقول في كتابه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) : « يجب علينا ان نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك ،

وسواء كان ذلك الغير مشاركاً لنا في الملة او غير مشارك في الملة . فإن الآلة التي تصح بها التزكية ليس يعتبر في صحة التزكية بها كونها آلة لمشارك لنا في الملة او غير مشارك اذا كانت فيها شروط الصحة « (١) » . ويقول في موضع آخر : « يجب علينا ان ألقينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظراً في الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان ان ننظر في الذي قالوه من ذلك وما اثبتوه في كتبهم ، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم » (٢) .

اجل لقد كان الحق رائده في مناقشاته وابجائه ، والأمانة العلمية هي التي كانت تقود خطاه فيما قام به من دراسات وتحقيقات . فهو في مناقشته للغزالي في كتابه (تهافت التهافت) يعترف له بأخطاء الفلاسفة ولا سيما العرب منهم . وكان لا يتحامل على خصمه هذا بل يقر بنواحي الصواب في أقواله . لكنه يعيب عليه انه سريع الأخذ بأقل « وضع فاسد منسوب الى الفلاسفة ، شديد السرور به ، مما لا يدل على روح فلسفية علمية صحيحة . وكان ابن رشد ايضاً يتوخى الدقة ومنتهى الأمانة في تحقيق ارسطو وتصفية أقواله مما دخلها من عناصر افلاطونية غريبة عنها . فلم يكن كغيره من المشائين العرب يقبل كل ما نسب الى المعلم الاول ، بل لقد اعتمد اسلوب المقارنة بين النسخ المتعددة لفهم ارسطو . فقد تناول الترجمات المنسوبة اليه وراح يقابل بعضها ببعض ويصحح بعضها ببعض ، فيقابل أقوال ارسطو في كتاب بأقواله في كتاب آخر في الموضوع الواحد والفكرة الواحدة ليتوصل الى حقيقة مذهبه وبقدمه للعالم على الوجه الصحيح ، فتم بذلك عن مقدرة علمية نادرة وتفكير حصيف . ولئن كان حظه من النجاح في هذا الباب أقل مما يتوقع من أمثاله فذلك لأن

١ - فصل المقال ، صفحة ٣١ .

٢ - المصدر السابق صفحة ٣٣ .

الترجمات كانت غامضة ، لما في فهم ارسطو من صعوبة ولأن النقلة لم يكونوا عادة فلاسفة ، فترجموا اكثر الأحيان دون ان يفهموا . ثم جاء الشراح فصبغوا ارسطو بصبغة افلاطونية محدثة . ورغم كل ذلك فقد استطاع ابن رشد لمقابلته بين الترجمات واطلاعه على الشروح اليونانية واستيعابه لكل تأليف ارسطو ، ان ينجح في شرح ارسطو نجاحاً كبيراً وأن يبلغ فيه شأوا لم يبلغه أي دارس لأرسطو في القرون الوسطى كلها ، رغم ما تسرب الى فلسفة هذا الأخير من الشبه والأضاليل ورغم تعذر الرجوع الى النصوص الأصلية والمظان العلمية الموثوقة لدراسته آنذاك . وهكذا قبض لابن رشد ان يكتب أروع صفحة في تاريخ الفلسفة المشائية سواء في معرض الرد على خصومها من المتكلمين عامة او في معرض تقويم ما اصابها على ايدي المشائين العرب من اعوجاج وتنقيتها مما قد علق بها من الشوائب . فحسبه هذا المجد الذي لا يضاهى .

وإذا كان شديد المراس في هجومه على خصومه فلم يفعل ذلك تشفياً او استعلاء . فهو في حملته على المتكلمين لم يدحض آراءهم شغفاً منه بقهر الآخرين او كلفاً بمخالفتهم والسخرية بهم ، ولا رغبة في ايقاعهم في مهاوى الحيرة والشك . فما كان أبعد عن ان ينهج معهم هذا النهج . انه ينشد الحق ويريد اظهاره للملأ . كيف لا وهو في معرض نقده للغزالي يعجب له كيف احلّ لنفسه ان يقول في احد كتبه وهو (تهافت الفلاسفة) انه لا يريد الوصول الى الحقيقة في هذا الكتاب ، وإنما يريد ان ينقض آراء الفلاسفة وأن يشوش عليهم نظرياتهم وأن يفهمهم ببيان تداعي مذاهبهم وتناقضها فيما بينها ، دون ان يهديهم مع ذلك الى سبيل الرشاد ؟ فقد وصف فيلسوفنا هذا المسلك بأنه ما كان ينبغي للغزالي ان يرضاه لنفسه ، لأنه يتنافى مع روح العلم ، وذلك لأن الفيلسوف الحق هو الذي يبحث عن الحقيقة جهده ، فإذا هو استطاع الوصول اليها فعليه ان يعرضها على خصومه عرضاً واضحاً حتى يفيدوا منها هم الآخرون . فالحقيقة ضالة كل

باحث ، اينما وجدها التقطها .

وهكذا نشد ابن رشد الحقيقة لذاتها ، فعلا مقامه ونبه صيته وكُتِبَ في الخالدين .

ابن رشد وأرسطو . — من المعروف ان ابن رشد معجب بأرسطو يشيد به وينافح عنه ويرى نفسه فخوراً بالانتساب اليه والتلمذة على كتبه . وهذا حق . فابن رشد معجب بأرسطو غاية الإعجاب ، وهذا لا ضير فيه . فكل مفكر ثابه في القرون الوسطى ، وكل ذي عقل وسداد في الرأي ، وكل من اوتي بسطة في العلم والحكمة آنذاك ، كان يبدي إعجابه بأرسطو ويجعل منطلقه ارسطو ، ويبني نظريته الى الكون والحياة والوجود على فلسفة ارسطو . فأرسطو كان بداية كل تفكير عقلي ورمز كل تحرر ذهني والمحور الذي تدور حوله كل حركة تجديد وانعتاق . فكما يعجب مفكرون اليوم بكوبرنيك وغاليليو وكبلر وديكارت ونيوتن واينشتاين ، كذلك كان المفكرون في القرون الوسطى يعجبون بأرسطو واضرابه . فلكل مرحلة من مراحل التاريخ منارات ومراكز للاشعاع تستضيء بها المراحل التالية التي تعقبها وترى كل شيء من خلالها ، حتى اذا ما خبا نورها برق نور آخر على انقاضها فتغذى بزيتها واستمد منه حياة وقوة .

وهكذا ابن رشد : فإذا ما ابدا إعجابه بأرسطو فإنه لم يخرج عن ان يسير في تقليد متبع تقتضيه طبيعة الأشياء ومنطق التطور ، وأن يردد فكرة مألوفة ، سبق لفلاسفة العصور الوسطى ان رددوها من قبل . لكن هذا الإعجاب يجب ألا يصرفنا عن الطابع الاصيل لفيلسوفنا . فلئن أشاد بأرسطو وتوفر على شرحه بدقة وأمانة وإخلاص ، فذلك ليتخذ منطلقاً له ويكون له اداة للتعبير عن آرائه الخاصة وذريعة لإظهار شخصيته واستقلاله في التفكير . وسنرى كيف انه وهو يشرح ارسطو قد اتى بآراء لم تخطر ببال ارسطو ، بل بآراء من شأنها لو اطلع عليها المعلم الاول ، ان ينكرها ويشور عليها . ومن اليسير علينا ان نتعرف على هذه

الآراء في شق كتبه ، سواء تلك التي يشرح فيها ارسطو او تلك التي هي من وضعه وتصنيفه . فاصلته لا بد ان تتكشف في الحالين على السواء . يقول رينان : « ان ابن رشد لم يطمح الى اكثر من ان يكون شارحاً . إنما لا يُخدع بهذا التواضع الظاهر . ان العقل البشري ضنين ابدأ باستقلاله . قيّده بنص ، فانه يستعيد حريته بتأويل هذا النص . وقد يفسد النص ولا يرضى التخلي عن اخض حقوقه : حق التفكير الشخصي » .

لقد كان ابن رشد في شرحه لأرسطو بدعاً من الشراح ، كما كان في التفكير الشخصي بدعاً من المفكرين .

فهو اولاً بدع من الشراح لأن تفسيره لفلسفة ارسطو يختلف منهجاً وعمقاً عن تفسير المشائين العرب الذين سبقوه ، ولا يخلو من قوة في الحجاج يسخرها للرد على هؤلاء المشائين — ولا سيما الفارابي وابن سينا — مبيناً ما صح عنده من مذهب (الحكيم) ، وثابذا ما جاء به هؤلاء المتأخرة من فلاسفة الاسلام ، من أقوال نسبوها اليه بغير حق . فقد كان شراح ارسطو اليونان — كالاسكندر الافروديسي Alexandre d'Aphrodite واثمسطيوس Thémistius وسمبليقيوس Simplicius يؤلفون ما يعرف بالجوامع او التلاخيص يوجزون فيها غرض ارسطو في قضية من قضايا الفلسفة . لكن هذه الجوامع او التلاخيص لا ترتفع الى مرتبة الشروح بالمعنى الدقيق للكلمة . ولما جاء شراح ارسطو العرب تأثروا بالشراح اليونان وأفادوا من منهجهم . ولئن تفوقوا عليهم في الابتكار وقوة الشخصية إلا انهم ظلوا دون ابن رشد . فهذا الأخير لم يقتصر على الجوامع والتلاخيص ، بل لقد اضاف اليها اسلوباً جديداً لم يكن للشراح قبله به عهد استفاده من تفسير القرآن . وبذلك كانت له على ارسطو ثلاثة شروح : الاكبر والاوسط والاصغر . فالأكبر كان يثبت فيه نصاً لأرسطو فيتناوله بالتفسير والتعليق فقرة فقرة وعبارة عبارة . وقد يستطرد احياناً الى ايراد نصوص مستمدة من تأليف ارسطو الاخرى ، وقد يعمد ايضاً الى التخريج اللغوي للألفاظ

المفسرة . والراجع ان ابن رشد قد اخذ هذه الطريقة عن التفسير التي وضعت لآي القرآن الكريم . وذلك كما فعل في كتاب (المقولات) وتفسير (ما بعد الطبيعة) وشرح (السماع الطبيعي) .

والأوسط ، وفيه ينقل فقرات طويلة لأرسطو ، فيحذف منها اجزاء ويضيف اليها شروحا ، ويعرض آراء مفسرين ، ويناقش ويرجح . وإذا بدت له بعض الكلمات غامضة احيانا شرحها بكلمات وجيزة كما فعل في كتاب تلخيص كتاب (النفس) لأرسطو .

والأصغر وفيه يضرب ابن رشد صفحا عن كلام ارسطو ويحمل مذهبه ، وقد يزيد عليه او يرجع رأي احد المفسرين والفلاسفة على آخر . ومن هذا النوع مجموعة الرسائل المسماة (الرسائل الطبيعية الصغرى) Parva Naturalia . هذا ويسمى الشرح الحقيقي (الاكبر) بالعربية - كما يقول رينان - (الشرح) او (التفسير) . ويسمى الاوسط (التلخيص) ، ويسمى الاصغر (جوامع) .

هذا من حيث المنهج ، وأما من حيث العمق ، فقد استطاع ابن رشد ، بما أوتي من ذكاء فادر وعقل راجح ومقدرة على النقد فائقة ، ان ينفذ الى اغوار فلسفة ارسطو ويقف على اسرارها ويميز الدخيل فيها من الاصيل ، ويستخلصها من الشوائب التي كانت قد علقت بها على يد الشراح الاسكندرانيين الذين سار العرب على آثارهم . واذا كان ابن رشد لم يبلغ الغاية في هذا السبيل فان ذلك كان مطلباً عسيراً في وقت لم يعمد تحقيق النصوص الفلسفية ، وحيث كان الناس يرون ان تحقيق النصوص الدينية أولى من تحقيق النصوص الفلسفية . لا سيما وأن النصوص اليونانية الاصلية لم تكن مبنولة للشراح العرب الذين يؤخذ عليهم الاحاطة بفلسفة اليونان دون لغتهم .

وإذ نصب ابن رشد نفسه شارحاً لفلسفة ارسطو وتطهيرها من الشوائب ، فلا بد ان يتخذ من الفارابي وابن سينا والغزالي موقفاً معيناً تليه عليه

نزعتة الى إحقاق الحق . فنراه يقف موقفاً مزدوجاً في هذا الدليل :
فهو يقف مع ابن سينا ضد الغزالي حين يراه متفقاً معه في الرأي ،
وبعبارة أخرى حين يراه قد صدر عن فلسفة أرسطو ، فهذا من شأنه
ان يضيف الى مذهبه سنداً جديداً .

ومن جهة أخرى حين يراه خالف المعلم الاول فابتدع ما لم يذهب
اليه ، نراه يندد به ويقول انه ليس ثقة فيما يروي عن القدماء وأنه انما
ضله المترجمون والشرّاح الاسكندرانيون . فابن سينا قد اخذ عن فورفوروس
الصوري ، وفورفوروس هذا ليس من الحذاق . وبذلك اتاح ابن سينا الفرصة
للغزالي لمهاجمة الفلسفة والفلاسفة ، بينما ابن سينا - هو والفارابي - هو الذي
يستأهل الرد .

وإذن فلا عجب ان رأينا فيما يلي شدة من فيلسوف قرطبة على الشيخ
الرئيس في هذه المسألة او تلك ، لأن الغرض الذي كان يهدف اليه مما كتب
انما هو بيان الحق سواء كان الحق مع الشيخ الرئيس او مع حجة الاسلام .
فالمهم شرح أرسطو .

وعلى كل حال فان ابن رشد قد خطا في شرح أرسطو - منهجاً وعمقاً -
خطوة بعيدة المدى لم يبلغها احد من قبله ، حتى صار يُعرف في القرون
الوسطى كلها باسم (الشارح) Commentator وهو اللقب الذي اطلقه
عليه دانتي في الكوميديا الإلهية .

وكما كان ابن رشد بدعاً من الشراح ، كذلك كان بدعاً من المفكرين .
فقد تجاوز الشرح والتفسير وأتى بأراء وأفكار هي من ثمرات عبقريته
الخاصة ؛ وأشد ما يكون ذلك ظهوراً في معرض رده على الاشاعة خاصة
والتكلمين « من اهل ملتنا عامة » ، وكذلك عندما يعالج بعض القضايا
الفلسفية الهامة ويتصدى للرد على (تهافت) الغزالي ، ولا سيما عندما يناقش
مسألة اتصال الحكمة بالشرعية ويضع نظرية للتوفيق بينها ، مما سنراه على
وجه التفصيل في سياق هذه الدراسة .

ويجب ان نبادر منذ الآن الى القول بأن مذهب ابن رشد قد اسيء فهمه كثيراً ، بل لا يكاد يوجد مذهب فلسفي شوه وحرّف كما شوه مذهب ابي الوليد وحرّف . فالترجمات اللاتينية لكتبه كثيراً ما كانت بعيدة عن الاصل ولم تكن امينة في النقل . وقد جاء على هذه الترجمات عهد لم يستطع فيه كثير من المدرسين التفرقة بين ابن رشد الفيلسوف وابن رشد الشارح ، او بينه وبين الفلاسفة السابقين عليه ، ولا التمييز بين الآراء التي كان يعرضها فيلسوفنا على انها آراؤه الخاصة هو او تلك التي كان يبسطها على انها آراء غيره من المفكرين . كل ذلك كان نتيجة للفوضى العقلية التي سادت اوروبا الغربية في القرن الثالث عشر ، حتى اننا الى عهد قريب لم نكن نعرفه إلا من خلال التراجم ، لأن رينان في كتابه (ابن رشد ومذهبه) لم يرجع الى أي نص عربي . أما مونك فتدّرس المخطوطات العربية الموجودة بباريس ، ولكنه حين كتب نبذته عن ابن رشد لم يستعن إلا بالتراجم اللاتينية والعبرية . لذلك يجب إلزام الحذر الشديد بازاء كل ما ينسب الى ابن رشد وعدم الاعتماد على الترجمات اللاتينية بل على نصوص عربية موثوقة .

تفرقه بين العالم في الشاهد والعالم في الغائب . - اذا اردنا ان نفهم فلسفة ابن رشد على حقيقتها يجب علينا ان نعي قبل كل شيء بتفرقه المشهورة بين عالم الغيب وعالم الشهادة او بين الغائب والشاهد كما يسميها ايضاً ، أي بين الخالق والمخلوق . وهي تفرقة ترجع في اصولها الاولى الى قوله تعالى « ليس كمثله شيء » ، وإلى قول السلف « كل ما خطر ببالك » ، فالفهم بخلاف ذلك . وقد سار على هذه التفرقة عامة المسلمين وخاصتهم . فالمسلمون جميعاً - او قل اكثرهم - ينزهون الله عن صفات الحوادث ويفرقون بينه وبين العالم ، في حل كثير من المشاكل التي كانت تعترضهم . ولم يفعل ابن رشد سوى ان يمضي في طريق معبد شقه له من قبله . وأقرب فيلسوف اليه اخذ بهذه التفرقة هو ابن طفيل . لكنها لم تتبلور

وتتحدد او تصبح عماداً لمذهب كامل في الوجود إلا عند ابن رشد .
فابن طفيل وان قال بها إلا ان هناك فرقاً كبيراً في أهمية هذه التفرقة
عند كليهما ، وهو انها عند ابن طفيل جزء ثانوي من مذهبه ، او قل هي
حيلة يرجع اليها عند الحاجة فقط . لكن ابن رشد يستخدمها بمهارة نادرة
جديرة بالإعجاب في حل جميع المشكلات الدينية الفلسفية على وجه
التقريب . فهي عنده المحور الذي انما يدور عليه مذهبه والأساس الذي
يشد جميع اجزائه بعضها الى البعض الآخر .

فالمعلوم ان ابن طفيل قال في معرض كلامه على اللبس والخلط اللذين
يقع فيها الانسان عندما يطبق على العالم المعقول ما يعرفه عن العالم
المحسوس : «العالم المحسوس منشؤه الجمع والافراد . وفيه تقهم حقيقة ،
وفيه الانفصال والاتصال والتعيز ، والمغايرة والاتفاق والاختلاف . فما ظنه
بالعالم الإلهي الذي لا يقال فيه كل ولا بعض ، ولا ينطق في امره بلفظ
من الألفاظ المسموعة إلا وتوهم فيه شيء على خلاف الحقيقة ، فلا يعرفه
إلا من شاهده ، ولا تثبت حقيقته إلا عند من حصل فيه » (١) .

لكن ابن رشد وان اخذ بوجهة نظر ابن طفيل ، فانه لا يأخذ بها
كما هي ، بل يحدث فيها تغييراً جوهرياً . ذلك انه يرى - خلافاً لابن
طفيل - ان الحدس الصوفي الذي يقال انه يكشف عن عالم الغيب على
حقيقته ليس بالوسيلة الصالحة للوقوف على وجه الخلاف بين ذلك العالم
وعالمنا المحسوس ، وإنما وسيلة ذلك ، البحث العقلي الذي يفيد اليقين القائم
على البراهين ، أي اليقين الذي لا يملك احد تكذيبه ما دام يعتمد على
المقدمات والمعلومات المطلوبة لإنتاج النتائج التي توصل الى ذلك اليقين .
وهناك اختلاف آخر بين تفرقة كل من ابن طفيل وابن رشد . فبينما
نرى هذه التفرقة ثانوية عند ابن طفيل ولا يلجأ اليها إلا عند الحاجة
فقط ، أي عندما يجد صعوبة في توضيح اجزاء مذهبه ، اذا بها تصبح

اساسية تتغلغل في صميم مذهب ابن رشد الذي يعتمد عليها بالذات لكي يبرهن لنا على ان الصفات الالهية مغايرة للصفات الانسانية ولا تشبهها الا في اشتراك الاسم . « واذا فهم معنى الصفات الموجودة في الشاهد وفي الغائب ظهر انهما باشتراك الاسم اشتراكا لا يصح معه النقلة من الشاهد الى الغائب » كما يقول . وفيما عدا ذلك لا وجه للمقارنة بينهما . كما سيستخدمها ايضا لإظهار الفارق الكبير بين عملية الخلق الالهي وعملية الخلق كما يفهمها الانسان في عالمه المحسوس ، وللتفرقة بين العلم الالهي والعلم الانساني ، ولحل مشكلة الخير والشر والعدل والجور وغير ذلك . وبكلمة واحدة لا يمكن فهم فلسفة ابن رشد بدون التفرقة الحاسمة الفاصلة بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، او بين العالم في الشاهد والعالم في الغائب .

والخلاصة لا يحوز المباحث في الدين والفلسفة بحسب تفرقة ابن رشد المذكورة ان يطبق المعاني الانسانية على الامور الالهية . لقد جاء في الكتاب العزيز قوله تعالى : « ليس كمثله شيء » . ولكن الفلاسفة وبخاصة علماء الكلام ، والاشاعرة على نحو اخص ، وهم أشد خصوم ابن رشد لبدأ ، نسوا في حومة لججهم ان يرجعوا الى هذه الآية الكريمة دائما ، فعالجوا صفات الله كما لو كانت صفات انسانية ، وتكلموا عن الإرادة والعلم والفعل والايجاد والخلق بمعانيها الانسانية ، فوقعوا في شق انواع التناقض وتخططوا في النتائج المتعارضة ، كل ذلك بسبب المماثلة بين الخالق والمخلوق ، وتشبيه الله وصفاته بالانسان ، وقد كان الأولي بهم ان يعترفوا من اول الامر ان نسبة الصفات الى الله ليست كنسبتها الى الانسان ، وان الخوض فيها للوقوف على حقيقتها طمع في غير مطمع وتعمق في الجدل لا يجدي ، وإلحاف في اللجج والمشغبة لا يعقبه غير الوبال ، أي انه كان احرى بهم ان يعودوا الى رأي السلف ويتركوا امر هذه الصفات الى الله ، وأن يكتفوا بالتسليم بوجود هذه الصفات دون البحث في حقيقتها ، لأن المرء لا يستطيع ان يعبر عنها إلا بلغة انسانية وهي لغة قاصرة ، فقياس الغائب على الشاهد تشبث بالغرور واستمراء

للبدعة . إذ كيف لنا ان نطبق المقولات الانسانية على الله ؟ وكيف يجوز للمخلوق المتناهي ان يتناول الى معرفة حقيقة صفات اللامتناهي ؟ وليس في هذا دعوة الى رفض العقل والى الايمان بالأسرار ، وإنما فيه دعوة صريحة الى التمييز بين المعطيات المختلفة وعدم الخلط بين الخصائص المتباينة ، كما فيه ايضاً تعيين لخصائص العقل وبيان للحدود التي يمكن ان تصل اليها اضواءه والمدى الذي ينفذ اليه شعاعه .

التوفيق بين الحكمة والشريعة . - لقد حاول كل فيلسوف مسلم التوفيق بين الحكمة والشريعة ، ولكن ابن رشد كان اماماً في هذا الباب . ففي البيئة التي كانت تحيط به - وهي بيئة مليئة بالتعصب على الفلسفة والفلاسفة وعلى كل نظر عقلي متحرر يخرج على مألوف القوم - كانت محاولة التوفيق بين دين المسلمين وفلسفة الاغارقة مسألة حياة او موت بالنسبة الى مصير الفلسفة وكل من يتصدى للدفاع عنها والدود عن حياضها . لذلك لا نعرف احداً من الفلاسفة السابقين على ابن رشد من بذل في هذا السبيل ما بذله هو من جهد ، ولا خصص لمشكلة التوفيق من كتاباته قدر ما خصص هو لها . فهو لم يمس هذه المشكلة عرضاً كما فعل بعض اسلافه ؛ بل لقد درسها دراسة مستفيضة وأظهر في معالجتها من البراعة والحدق ما هو عنوان اصالته ومعقل الطرافة في تفكيره الفلسفي كله .

أجل ان مسألة التوفيق بين الحكمة والشريعة قد أثرت قبل ابن رشد بزمان طويل ، وعولجت بصور شتى ، بالإشارة والتلميح نارة ، وبالتفصيل والتدليل نارة . فأراء الفارابي وابن سينا مثلاً لم تكن إلا ضروباً من التقريب بين الاسلام وبين الفلسفة الارسططاليسية ، ولكنه تقريب تغلب عليه الإشارة والتلميح . وكذلك أخوان الصفا . واما ابن طفيل فيغلب على أقواله بعض التفصيل والتصريح : لأن لقاء حي بن يقظان بأسال واتفاقها على العيش معاً محاولة صادقة للتوفيق اكثر عمقاً من ذي قبل . ولكن ابن طفيل على كل حال لم يواجه المشكلة مواجهة مباشرة ، بل ظل يحاور ويداور للوصول اليها ، ويتعایل عليها بالقصص والرموز والتشبيهات والاستعارات . وهكذا فالفارابي

وابن سينا وأخوان الصفا وابن طفيل لم يفعلوا أكثر من ان أشاروا اجمالاً الى ضرورة الاتفاق بين الدين والعقل ، دون ان يعنوا بالبرهنة التفصيلية المنهجية على وجهة نظرم عناية ابن رشد بها . وبعبارة اخرى ان جميع المحاولات السابقة على ابن رشد قد اقتصرت على إثارة المشكلة ولكنها لم تحدها ولم تبرهن عليها ولم تعثر على حل منهجي منظم لها كالحل الذي عثر عليه ابن رشد. فإثارة المشكلة كيفما اتفق ، شيء ، وتحديددها والبرهان عليها والعثور على حل منهجي لها شيء آخر . فشتان بين الاثنين . وبينما عرض لها السابقون على ابن رشد في ثنايا كتبهم وأبحاثهم ، فان ابن رشد قد أفرد لها كتابين حدددها في احدهما (فصل المقال) وعالجها ورسم أبعادها من الوجهة النظرية البحتة ، وفصلها في الآخر (الكشف عن مناهج الأدلة) وخاض في جزئياتها من الوجهة التطبيقية. كما أفصح عنها ايضاً في ثنايا كتابه القيم (تهافت التهافت) ؛ فكان قدراً في معالجته وكان بدءاً في حله .

وقد رأى ابن رشد في دراساته الدينية والفلسفية وفي حملة الغزالي على الفلسفة وتنبيهه الى مزالقها ، ان الاخلاص للحق يوجب ان يدافع عنه . انه رأى الأثر المشؤوم لضربة الغزالي للفلسفة وتعصب الفقهاء والعامّة على التفكير العقلي الفلسفي واضطهاد الامراء والفلاسفة ، فقام يدعو الى الانتصاف للفلسفة ورد اعتبارها اليها واحيائها والتوفيق بينها وبين الشريعة .

وهو في دعوته هذه لم يعتدّ بالدين وحده دون العقل ، ولا بهذا وحده دون ذاك ، بل لقد حاول ان يسلك طريقاً وسطاً ، وذلك ببيان ان كلا من الحكمة والشريعة في حاجة الى الاخرى وان لكل منهما طلابها وروادها . انها يعبران عن حقيقة واحدة ، كل على نحوه الخاص ، ومن ثم لا ينبغي ان يكون بينهما شقاق او خلاف . كما انه من اجل ذلك لا يجوز ان يقع بسببها شقاق او خلاف بين رجال كل منها رغم ما قد يوجد من تعارض ظاهري في بعض المسائل ورغم ما كان من اعتقاد كثير من رجال الدين - على رأسهم الغزالي - ان بين هذين الطرفين او بين هذين التعبيرين عن الحقيقة الواحدة شقاقاً قوياً وخلافاً واضحاً لا يمكن انكاره

او تجاهله . ومعنى هذا ان ابن رشد قد اختار في مسألة العلاقة بين الدين والفلسفة الوضع الذي يختاره كل مؤمن بالدين والعقل والفكر معاً . فهو متدين عميق في تدينه ، مؤمن برسالة موسى وعيسى ومحمد ، وهو الى جانب ذلك فيلسوف جريء لا يتساهل في حقوق العقل ، ومفكر صريح لا يتوانى في زجر من يحاول النيل من حقوق التفكير الحر .

يتساءل ابن رشد في مطلع كتابه (فصل المقال) عن النظر في الفلسفة وعلوم المنطق هل هو امر « مباح بالشرع ام محظور ام مأمور به ، إما على جهة النذب وإما على جهة الوجوب » ^(١) ؟ وقد فطن بمنتهى سداد الرأي الى ان الكلام على الشيء لا بد فيه من البدء بتعريفه . لذلك فان الجواب على هذا السؤال إنما يتوقف على تحديد كلمة (فلسفة) التي يراد معرفة حكم الشرع فيها . فالفلسفة في رأيه هي « النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع ، اعني من جهة ما هي مصنوعات » ^(٢) . فالحكم الذي سيصدره ابن رشد على الفلسفة إنما ينصب على الفلسفة بهذا المعنى فقط ، لا بأي معنى آخر يمكن ان يكون لها ، إذ للفلسفة معان اخرى اختار فيلسوفنا واحداً منها وجعله محوراً لأحكامه .

فأما ان الشرع قد دعا الى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به فذلك ظاهر في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى ، مثل قوله سبحانه : « فاعتبروا يا اولي الابصار » . وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلي ، او العقلي والشرعي معاً ، وكقوله تعالى ايضاً : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » . وهذا نص بالحث على النظر في جميع الموجودات ، عاليها وسافلها . وكقوله عز من قائل : « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، وكقوله ايضاً مشيداً بالذين يذكرون الله ويتفكرون في خلقه » ويتفكرون

١ - فصل المقال ، صفحة ٢٧ .

٢ - نفس المصدر والصفحة .

في خلق السموات والارض ، الى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى ^(١) .
فاذا تقرر ان الشرع قد اوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها ،
وكان الاعتبار ليس شيئاً اكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه
منه ، وهو ما يعرف بالقياس عند المناطقة ، فينبغي علينا ان نجعل نظرتنا
في الموجودات بواسطة القياس العقلي .

ولما كان القياس انواعاً شتى ، فلا بد ان يكون القياس البرهاني هو
الذي دعا اليه الشرع لأنه أتم انواع الاقيسة وأصحها على الاطلاق . فهو
يبدأ من مقدمات اولية يقينية تكون واضحة في ذاتها ، لذلك كانت نتائجه
يقينية صادقة لا تتخلف . ودونه القياس الجدلي ، وهو يبدأ من مقدمات
ظنية محتملة مأخوذة من بادي الرأي ، ومن ثم فان نتائجه لا تفيد اليقين .
ودونه في الرتبة ، القياس الخطابي ، ويعتمد على مقدمات مشهورة يراد بها
السيطرة على عواطف السامع ومشاعره . ودونه اخيراً القياس المفاطبي ،
ويعتمد على مقدمات تبدو صادقة ولكنه ينتهي الى نتائج غير مقبولة .
لذلك لا بد لمن يريد التصدي للاستدلال على وجود الصانع وطلب
معرفته من طريق مصنوعاته ان يُلم بأنواع البراهين ويفرق بينها ويقف
على شروطها . ومعنى ذلك ان البحث النظري في امور الدين لا سبيل
اليه إلا بدراسة المنطق والتمكن فيه ومعرفة كيف يكون القياس برهانياً
او غير برهاني ، للوصول الى الاستنباط الصحيح . فالمنطق يتنزل من النظر
منزلة الآلات من العمل ^(٢) .

فان كان لم يتقدم احد من قبلنا بفحص عن القياس العقلي وأنواعه
فيجب علينا ان نبتدىء بالفحص عنه ، وأن يستعين في ذلك المتأخر
بالتقدم حتى تكمل المعرفة به . وهذا امر واضح بذاته ، لا في الصنائع
العملية فقط ، بل وفي العملية ايضاً ، فانه ليس منها صناعة يستطيع ان

١ - المصدر السابق صفحة ٢٨ .

٢ - المصدر السابق صفحة ٢٨ - ٢٩ .

يفشها شخص واحد ، فكيف بصناعة الصنائع وهي الحكمة ؟ (١)
وهكذا فلا غنى لنا عن ان نستعين بما انتهى اليه القدماء حتى ولو كانوا
على غير ملتنا ، لأن من العبث ان ننبد ما كتبه القدماء ونستأنف البحث
من جديد . فالمنطق لا يعدو ان يكون آلة في ايدينا تتوصل بها في عصمة
اذهانتنا عن الخطأ في الفكر ، ولا شأن لهذه الآلة بجملة القوم الذين وضعوها
« فان الآلة التي تصح بها التركيزية ليس يعتبر في صحة التركيزية بها كونها
آلة لمشارك لنا في الملة او غير مشارك اذا كانت فيها شروط الصحة .
وأعني بغير المشارك من نظر في هذه الاشياء من القدماء قبل ملة الاسلام ،
كما يقول ابن رشد (٢) .

فان قيل ان القياس العقلي بدعة لم يكن لمسلمي الصدر الاول عهد بها
أجاب ابن رشد بأن القياس الفقهي ايضاً لم يكن لمسلمي الصدر الاول
عهد به ، وإغما استنبط فيما بعد . فاذا كان الاول بدعة فكيف لا يكون
الآخر بدعة ايضاً ؟ ان الفقيه يعتمد على القياس الشرعي في استنباط
الاحكام ، فهو إذن على علم بأنواع الاقيسة الفقهية . وكذلك الفيلسوف ،
فهو يعتمد على القياس العقلي في استنباط النتائج ، ولا يحيد هذا الاستنباط
إلا بمعرفة انواع الاقيسة والتمييز بينها لاستخدام البرهاني منها . فكيف
يباح للفقيه ما يحرم على الفيلسوف ؟ كيف يباح الاستدلال في الفقه ولا
يباح في الفلسفة ؟ لا سيما اذا كانت غايته الاستدلال على وجود الخالق
وتقرير عقائد الدين ؟ وبعبارة اخرى ، ان القياس الشرعي لا يخرج عن ان
يكون نوعاً من القياس العقلي لأنه تطبيق للعقل على الشرع . والاستدلال
على وجود الله وتقرير عقائد الدين تطبيق للعقل على الشرع ايضاً . فلا
قياس - فقهياً كان او غير فقهي - بدون أعمال للعقل وإرهاق لحده .
فالعقل حاضر في كل قياس ، فلا خطر منه على الدين ، ولو كان الدين

١ - المصدر السابق صفحة ٣١ .

٢ - المصدر السابق صفحة ٣١ .

يخشى العقل لما حث على التأمل والتفكير في خلق السموات والارض ،
ولما اهاب الله تعالى به اكثر من مرة في كتابه العزيز ، ولما جعله معياراً
لتمييز الحق من الباطل . فواجب إذن ان نجعل نظرتنا في الموجودات
بالقياس العقلي^(١) .

يخلص معنا من كل ذلك ان الاطلاع على كتب الفلسفة وعلوم الاوائل
واجب بالشرع . فكما انه لا حرج علينا في استخدام آلة القدماء التي هي
المنطق في تصحيح تفكيرنا وعصمة اذهاننا عن الخطأ ، فكذلك لا حرج
علينا في الرجوع الى حكمتهم والفحص عما انتهوا اليه في باب النظر
في الموجودات . فما ينطبق على آلة النظر ينطبق على مادته ومضمونه .
فلقد سبق الاغريق المسلمين في علوم الحكمة فاطلع هؤلاء عليها ، فلا
ضير عليهم ان يأخذوا منها ما يرونه حقاً ويدعوا ما يرونه باطلاً . وفي
ذلك يقول ابن رشد : « يجب علينا اذا ألفينا لمن تقدمنا من الامم السالفة
نظراً في الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان ، ان
تنظر في الذي قالوه من ذلك وأثبتوه في كتبهم : فما كان منها موافقاً
للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق
للحق نبهنا عليه وحذرتنا منه وعذرناهم »^(٢) . ولا عبرة بقول من يحرم
النظر في كتب القدماء من الحشوية وأهل الظاهر ما دام الشرع يحثنا على
التفكير في الصنعة لمعرفة الصانع ، فاذا ضلّ في هذا النظر ضالاً أو
أثم آثم لضعف في فطرته أو لفساد في طبيعه ، فليس يمنع ذلك من الخوض
في كتب الحكمة ، إذ ان مثل هذا الضرر انما يلحق بالنظر العقلي في
الموجودات بالعرض لا بالذات ، كما لا يمنع العطشان شرب الماء البارد
العذب لأن قوماً شربوا به فماتوا ، فان الموت عن الماء بالشرب امر
عارض ، وعن العطش ذاتي وضروري . وشتان بين ما يلحق بالذات وما

١ - المصدر السابق صفحة ٣٠ - ٣١ .

٢ - المصدر السابق صفحة ٣٣ .

يلحق بالعرض (١) .

واذا كان الامر كذلك ، اي اذا كان الدين نفسه هو الذي يأمر على سبيل الوجوب بالاشتغال بالفلسفة وعلوم الاوائل ضمن الشرائط والأحوال التي ذكرنا ، فما ذلك إلا لأن الفلسفة حق ، وإلا لما اوجبها الشرع ، وإذن فلا يمكن ان يكون ثمة خلاف بين الدين والفلسفة « فان الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له » كما يقول ابن رشد (٢) . وكيف يمكن ان يكون هناك تناقض بين الحكمة والشرعة « وهما المصطحبتان بالطبع ، المتعابقتان بالجواهر والغريزة » (٣) ؟

وهكذا لم يفتأ ابن رشد يردد القول بأن الفلسفة الصحيحة لا يمكن ان تتنافى مع الدين لأن « الحكمة هي صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة » على حد قوله (٤) . فهؤلاء الذين يحاربون احدهما باسم الاخرى ليسوا في الحقيقة إلا جهالاً لها . أما اولئك الذين يحزمون باستحالة التوفيق بين الدين والفلسفة فهم اولئك الذين يجهلون حقيقة الدين او الذين أساءوا فهم الفلسفة ونسبوا انفسهم اليها ظلماً وعدواناً .

ويختم ابن رشد كلامه في هذا الباب بقوله : « فقد تبين من هذا ان النظر في كتب القدماء واجب بالشرع... وان من نهى عن النظر فيها من كان أهلاً للنظر فيها ، وهو الذي جمع امرين : احدهما ذكاء الفطرة ، والثاني العدالة الشرعية والفضيلة العلمية والخلقية ، فقد صد الناس عن الباب الذي دعا الشرع منه الناس الى معرفة الله ، وهو باب النظر المؤدي الى معرفته حق المعرفة ، وذلك غاية الجهل والبعد عن الله تعالى » (٥) .

١ - المصدر السابق صفحة ٣٣ - ٣٤ .

٢ - صفحة ٣٥ .

٣ - صفحة ٥٨ .

٤ - صفحة ٥٨ .

٥ - صفحة ٣٣ .

هذا وعندما نلاحظ خلافاً أو تعارضاً بين النص ونتيجة البرهان الفلسفي يجب ان نحكم ان هذا لا يمكن ان يكون الا في الظاهر وان البحث العميق كفيل بازالته . وهذا شبيه بما يجري في الدين نفسه : فقبل ان يظهر بين الدين والفلسفة ما نعرف من خلاف وخصومة ظهر تعارض بين الآيات ، وللتوفيق بينها لجأ العلماء الى التمييز في بعض النصوص بين المعاني الظاهرة والمجازية وبين المعاني الباطنة الحقيقية . فكانت المشاكل التي من هذا الضرب 'تحل' بكشف المعنى الباطن للنص المتشابه ، وطريقة التوفيق هذه التي سموها التأويل تكفي لإزالة كل ما يُظن من خلافه وتناقض بين الدين والفلسفة .

وهكذا فالشريعة قسمان كما يقول ابن رشد : ظاهر ومؤول . فالظاهر منها فرض الجمهور ، والمؤول فرض العلماء . فأما الجمهور فيجب عليهم حمل النص على ظاهره وترك تأويله ، وأما العلماء فيجب عليهم تأويله اذا كانت تنطبق عليه شروط التأويل ، ولكن لا 'يحل' لهم ان 'يفصحوا' للجمهور بتأويله ، كما قال علي رضي الله عنه : « حدثوا الناس بما يفهمون ، أتريدون ان يكذب الله ورسوله ؟ » وقد كان المسلمون الأولون يفرقون حقيقةً بين الظاهر والباطن في الشرع ، ويقررون انه لا يجوز ان يصرح بالتأويل إلا لمن هو أهل له ^(١) .

والسبب فيما نرى من تباين بين هذين الضربين من الأقاويل في الشرع هو اختلاف الناس في الفِطَر والعقول وتباين قرائحهم في التصديق . ولذلك انقسموا بانقسام مراتب الاقيسة الثلاث في المنطق : فمنهم الخطابيون وهم الجمهور الغالب الذي يصدق بالاقاويل الخطابية ؛ ومنهم الجدليون وهم علماء الكلام الذين يرتفعون قليلاً عن العامة ، ولكنهم دون الخاصة بكثير ؛ ومنهم أخيراً البرهانيون بطبيعتهم وبالحكمة التي أخذوا انفسهم بها ، وهم طبقة الخاصة . وقد دعت الشريعة الناس من هذه الطرق الثلاث ، فعمّ

التصديق كل انسان إلا من جحدھا عناداً بلسانه او من لم تتقرر عنده طرق الدعاء فيها ، لإغفال في نفسه . قال الله تعالى : « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » . ولذلك فالشريعة تتضمن هذه الطرق الثلاث ^(١) .

ويعد ابن رشد علماء الكلام اقرب الى الجمهور منهم الى الفلاسفة ، ولذلك فعلى الجمهور وأشباههم من علماء الكلام الجدليين - الذين لا يطبقون الوصول الى التأويل الصحيحة الايمان بظواهر النصوص الشرعية وما ضرب لهم من رموز وأمثال ؛ وللعلماء ، اهل البرهان ، الايمان بالمعاني الحقيقية التي ضربت الامثال والرموز لتقريبها الى الازهان ، وذلك بتأويل هذه النصوص .

وينبغي ان نحافظ على ان يكون كل نوع من هذين التعليمين محصوراً في طائفته الخاصة وعلى ألا يختلط احدهما بالآخر ، لأن جعل الناس شرعاً واحداً في التعليم خلاف المحسوس والمعقول . ولهذا نرى فيلسوفنا يحذر من الخوض مع الجمهور في دقائق الشرع والتصريح بالتأويل - ولو كانت صحيحة - للجمهور الذي لا يستطيع فهمها ، لأن ذلك من شأنه ان يثير الشكوك والشبهات ويؤدي الى الكفر . يقول ابن رشد :

« ولذلك نرى ان من كان من الناس فرضه الايمان بالظاهر فالتأويل في حقه كفر ، لأنه يؤدي الى الكفر ، فمن أفشاء له من اهل التأويل فقد دعاه الى الكفر ، والداعي الى الكفر كافر . ولهذا يجب ألا تثبت التأويلات إلا في كتب البراهين ، لأنها اذا كانت في كتب البراهين لم يصل اليها إلا من هو من اهل البرهان » ^(٢) .

هذا والتأويل لا يكون بلا حدود ولا ضوابط ، بل له شروط وأحكام وقواعد لا بد من التمسك بها . فان ما أدى اليه البرهان اما ان يكون

١ - انظر ٣٤ - ٣٥ و ٤٧ - ٥٥ .

٢ - صفحة ٤٨ .

قد سكت عنه الشرع او عرف به . فان كان مما سكت عنه فلا تعارض هناك ، وهو بمنزلة ما سكت عنه من الاحكام فاستنبطها الفقيه بالقياس الشرعي . وإن كانت الشريعة قد نطقت به فلا يخلو ظاهر النطق ان يكون موافقاً لما أدى اليه البرهان او مخالفاً ، فان كان موافقاً فلا قول هناك ، وإن كان مخالفاً يُطلب تأويله اي اخراج دلالة اللفظ فيه عن الدلالة الحقيقية الى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بمعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشيئه او سبيه او لاحقه او مقارنه ، او غير ذلك من الاشياء التي 'عددت في تعريف اصناف الكلام المجازي ، وهو تعريف التأويل عند فيلسوفنا . وحجته في جواز ذلك ان الفقهاء يعتمدونه في الكثير من الاحكام الشرعية ، فكم بالحري ان يفعل ذلك صاحب العلم بالبرهان (او الفيلسوف) ؟ قالفقيه عنده قياس ظني ، والعارف بالبرهان عنده قياس يقيني . ويقطع ابن رشد بأن كل ما أدى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع فذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي . وهذه القضية لا يشك فيها مسلم ولا يرقاب بها مؤمن ، وما اعظم ازدياد اليقين بها عند من زاول هذا المعنى وجربه ، وقصد هذا المقصد من الجمع بين المعقول والمنقول .

ولهذا المعنى اجمع المسلمون على انه ليس يجب ان 'تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها ، ولا ان تخرج كلها من ظاهرها بالتأويل . واختلفوا في المؤول منها وغير المؤول . فالأشعريون مثلاً يتأولون آية الاستواء^(١) وحديث النزول^(٢) ، والحنابلة تحمل ذلك على ظاهره ... ،^(٣) .

واذا أخطأ العالم في فهمه لألفاظ الشرع فان كان خطأه من قبيل شبهة

١ - آية الاستواء : الرحمن على العرش استوى .

٢ - حديث النزول: ينزل الله الى سماء الدنيا وقت السحر ، فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من داع فاستجيب له ؟ حق يطلع الفجر .

٣ - فصل المقال ، صفحة ٣٦ .

عرضت له فهو معذور . ولذلك قال عليه السلام : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله اجران ، وان أخطأ فله اجر » . وأي حاكم اعظم من الذي يحكم على الوجود بأنه كذا او ليس بكذا . وهذا الخطأ المصفوح عنه في الشرع انما هو الخطأ الذي يقع من العلماء الذين خصهم الله بالتأويل اذا نظروا في الاشياء العويصة التي كلفهم الشرع النظر فيها . وأما الخطأ الذي يقع من غير اهل العلم فهو إثم .

وعلى كل حال ، ان الخطأ في الشرع على نوعين : خطأ يُعذر فيه من هو من اهل النظر في ذلك الشيء الذي وقع فيه الخطأ ولا يُعذر فيه من ليس منهم ؛ وخطأ لا يُعذر فيه احد سواء كان من اهل النظر او لم يكن . فان وقع هذا الخطأ في مبادئ الشريعة فهو كفر ، وان وقع في الفروع فهو بدعة ^(١) . وفي ذلك يقول ابن رشد :

« وهذا النحو من الظاهر ان كان في الاصول فالتأويل له كفر : مثل من يعتقد انه لا سعادة اخروية هاهنا ولا شقاء ، وانه انما قصد بهذا القول ان يَسْلِمَ الناس بعضهم من بعض في ابدانهم وحواسهم ، وانها حيلة ، وأنه لا غاية للانسان إلا وجوده المحسوس فقط . واذا تقرر هذا فقد ظهر لك من قولنا ان ههنا ظاهراً في الشرع لا يجوز تأويله . فان كان تأويله في المبادئ فهو كفر ، وان كان فيما بعد المبادئ فهو بدعة . وههنا ايضاً ظاهر يجب على اهل البرهان تأويله ، وحملهم إياه على ظاهره كفر ، وتأويل غير اهل البرهان له وإخراجه عن ظاهره كفر في حقهم او بدعة . ومن هذا الصنف آية الاستواء وحديث النزول ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام في السوداء إذ اخبرته ان الله في السماء : « اعتقها فانها مؤمنة » . إذ كانت ليست من اهل البرهان » ^(٢) .

١ - صفحة ٤٣ - ٤٤ .

٢ - صفحة ٤٦ .

بين ابن رشد والغزالي . - قلنا ان ابن رشد قد عالج مشكلة التوفيق بين الحكمة والشريعة من الوجهتين النظرية والعملية . فأتى عليها في (فصل المقال) نظرياً ، حيث اثارها وحددها ووضع حلاً منهجياً لها ، ثم عالجها من الوجهة العملية التطبيقية في كتابه (الكشف عن مناهج الادلة) ، فعرض في الفصل الاخير من هذا الكتاب لعدة مسائل يكمل بها برهنته على صدق نظريته . كما ناقشها ايضاً في كتابه (تهافت التهافت) في ثنايا رده على المسائل العشرين التي حمل بها الغزالي على الفلاسفة .

وإذ نحن فرغنا من بحث مذهب ابن رشد في مشكلة التوفيق بين الحكمة والشريعة نظرياً ، فلنعرض لمذهبه فيها من الوجهة العملية . فنقول :

من المعلوم ان الغزالي كتب في الرد على الفلاسفة كتابه المشهور (تهافت الفلاسفة) للتشهير بالفلاسفة والاعلان عن تناقضهم وتهافت آرائهم كما مر معنا . وقد نجح في ذلك نجاحاً كبيراً ، فإنه بهذا الكتاب قد طعن الفلاسفة طعنة لم تقم لها بعده في الشرق قائمة . الى ان جاء ابن رشد بعده بمئة عام او تزيد فأقام نفسه بالنسبة الى الفلسفة مقام الغزالي بالنسبة الى الدين ، مدافعاً عنها حامياً لها ، ذائداً عن تعاليمها . وقد تناول كتاب الغزالي (تهافت الفلاسفة) فرداً عليه بكتاب يعارضه سماه (تهافت التهافت) ، ويقصد بذلك تناقض الأفكار التي يعتقد الغزالي انه هدم بها آراء الفلاسفة وفي هذا الكتاب ردّ ابن رشد على الغزالي وناقشه اقواله في المسائل التي حمل فيها على الفلاسفة ونقض اكثر ما قاله فيها ، مدافعاً عن الفلسفة والفلاسفة ، مبرئاً لهم من جميع التهم التي رماهم الغزالي بها ، وبالتالي مبيناً لنا موقفه من كل منها . وليس من غرضنا هنا ان نلم بجميع هذه المسائل وإنما سنكتفي منها برد ابن رشد على المسائل الثلاث التي اثارها الغزالي في الفصل السابق وهي مسألة قدم العالم ومسألة السببية ومسألة روحانية النفس . وجلّ اعتمادنا على كنه الثلاثة التي تقدم ذكرها : فحسبنا انها

ليست شروحا على ارسطو وإنما هي تمثل قمة من قم التفكير الشخصي الاصيل وتعبير عن مجهود جبار للتوفيق بين الفلسفة والدين .

أ — مسألة قدم العالم . — الشائع ان ابن رشد يقول بقدم العالم وينكر حدوثه ، ليكون بذلك على وفاق مع ارسطو . ولكن ليس الأمر بهذه البساطة . وإنما هو يقول بالحدوث ويؤكد ان العالم قد خلقه الله في غير زمن ومن غير مادة ، أي انه قد خلقه من العدم ، وقال له كن فكان . ففكرة الزمن لا تنطبق على افعاله تعالى بل هي تنطبق على الاشياء المادية او على افعال الانسان . وبعبارة اخرى ان خلق الله للعالم امر ليس له مثيل في عالم الحس : فإنه لم يكن هناك حركة قبل خلق العالم لأن الحركة إنما تكون للأجسام ، فإذا لم توجد الحركة لم يوجد الزمن ، إذ الزمن هو مقياس الحركة : فنحن إنما نعرف عدد السنين والحساب بناء على حركة الاجرام السماوية .

ولتوضيح هذا المعنى ينطلق ابن رشد من تفرقة السابقة التي هي مفتاح فلسفته : التفرقة بين العالم في الشاهد والعالم في الغائب . فالباري سبحانه ليس من شأنه ان يكون في زمان ، بينما العالم شأنه ان يكون في زمان^(١) . فتقدم الله على العالم إنما هو تقدم الوجود والذي ليس بمتغير ولا في زمان ، على الوجود المتغير الذي في الزمان ، وهو نوع آخر من التقدم^(٢) . فقد قام البرهان على ان ههنا نوعين من الوجود : أحدهما في طبيعته الحركة ، وهذا لا ينفك عن الزمان ، والآخر ليس في طبيعته الحركة ، وهذا أزلي وليس يتصف بالزمان^(٣) . كما قام البرهان ايضاً على ان الذي ليس في طبيعته الحركة هو العلة في الوجود الذي في

١ — ابن رشد : تهاقت التهاقت صفحة ١٣٦ .

٢ — صفحة ١٤٠ .

٣ — صفحة ١٣٨ .

طبيعته الحركة ^(١) . واذا كان ذلك كذلك فتقدم احد الوجودين على الآخر ليس تقدماً زمنياً . لذلك فكل من شبه تقدم الوجود الغير متحرك على المتحرك بتقدم الوجودين المتحركين احدهما على الآخر فقد أخطأ . وعلى هذا لا يصدق على الوجودين لا انها معاً ولا ان احدهما متقدم على الآخر . فقول الغزالي « ان تقدم الباري سبحانه على العالم ليس تقدماً زمنياً » قول صحيح . ولكن تأخر العالم عنه لا يفهم في هذه الحالة إلا تأخر المعلول عن العلة . فإذا كان التقدم ليس زمنياً ، فالتأخر ليس زمنياً ايضاً ^(٢) .

ولما كان هذا المعنى عسيراً على التصور فان الشرع قد سلك بالجمهور طريق التمثيل بالشاهد ، وان لم يكن لذلك مثال في الشاهد . إذ لا يمكن للجمهور ان يتصوروا على كنهه ما ليس له مثال في الشاهد ، فأخبر تعالى ان خلقه للعالم وقع في زمان وانه خلقه من شيء ، لأنه لا يعرف في الشاهد موجود إلا بهذه الصفة ، فقال سبحانه مخبراً عن حاله قبل وجود العالم : « وكان عرشه على الماء » وقال تعالى : « ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة ايام » وقال ايضاً : « ثم استوى الى السماء وهي دخان » الخ . فيجب ألا يتأول شيء من هذا للجمهور وإلا بطلت الحكمة الشرعية ^(٣) .

اما ان يقال لهم ان عقيدة الشرع في العالم انه محدث ، وانه خلق من غير شيء ومن غير زمان ، فذلك شيء لا يمكن ان يتصوره العلماء فضلاً عن الجمهور . فينبغي ألا يعدل في الشرع عن التصور الذي وضعه للجمهور ولا يصرح لهم بغير ذلك . فإن هذا النوع من التمثيل في خلق العالم هو الموجود في القرآن وفي التوراة وفي سائر الكتب المنزلة . فالتمثيل الذي

١ - صفحة ١٣٩ .

٢ - صفحة ١٤١ .

٣ - ابن رشد ، منهاج الادلة ، صفحة ٢٠٥ .

جاء في الشرع في خلق العالم يطابق معنى الحدث الذي في الشاهد .
لكن الشرع لم يصرح فيه بهذا اللفظ ، وإنما اطلق عليه لفظ الخلق
والفطور ، وذلك تنبيه منه للعلماء على ان حدوث العالم ليس مثل الحدث
الذي في الشاهد . وإذن فلما استعمال لفظ الحدث او القدم بدعة في
الشرع ، وموقع في شبهة عظيمة تقسد عقائد الجمهور^(١) .

ويحاول ابن رشد ان يضيق شقة الخلاف في هذه المسألة بين المتكلمين
والفلاسفة بحيث يجعله خلافاً لفظياً . وذلك انهم اتفقوا على ان ههنا اصنافاً
ثلاثة من الموجودات : طرفان وواسطة ، فاتفقوا في تسمية الطرفين واختلفوا
في الواسطة .

فأما الطرف الاول فهو موجود ووجد من شيء ، أي عن سبب فاعل
ومن مادة ، والزمان متقدم على وجوده . وهذه هي حال الاجسام التي
يدرك تكوينها بالحوس ، كتكون الماء والهواء والارض والحيوان والنبات
وغير ذلك . وقد اتفق الجميع على تسمية هذا الصنف من الموجودات
بالموجودات المحدثه^(٢) .

وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولم يتقدمه
زمان . وهذا ايضاً اتفق الجميع على تسميته قديماً . وهذا الموجود إنما يدرك
بالبرهان : وهو الله تبارك وتعالى . فهو فاعل الكل وموجده والحافظ له .

وأما الصنف من الموجود الذي بين هذين الطرفين فهو موجود لم يكن
من شيء ولا تقدمه زمان ، ولكنه موجود عن شيء أي عن فاعل ،
وهذا هو العالم بأسره . ففيه شبه من الوجود المحدث وشبه من الوجود
القديم . فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدث
سماه قديماً ، ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث سماه محدثاً . وهو في
الحقيقة ليس محدثاً حقيقياً ولا قديماً حقيقياً : فان المحدث الحقيقي فاسد

١ - صفحة ٢٠٥ - ٢٠٦ .

٢ - ابن رشد : فصل المقال ، صفحة ٤٠ - ٤١ .

ضرورة^٢، والقديم الحقيقي ليس له علة . ومنهم من سماه (محدثاً ازلياً) ، وهو افلاطون وشيعته ، لكون الزمان متناهيًا عندهم من الماضي . وهكذا فالمذاهب في العالم ليست متباعدة حتى يُكفّر بعضها بعضاً . فلا ينبغي للمسلمين إذن ان يتخذوا من هذا الخلاف اللفظي سبباً لالقاء التهم جزافاً بلا مبرر . ويشبه ان يكون المختلفون في تأويل هذه المسائل العويصة أما مصيبين مأجورين وأما مخطئين معذورين . فإن التصديق بالشيء من قبل الدليل القائم في النفس هو شيء اضطراري لا اختياري ، أي ليس يسعنا فيه ان نصدق او لا نصدق كما يسعنا ان نقوم او لا نقوم . وإذا كان من شرط التكليف الاختيار ، فالمصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له - اذا كان من اهل العلم - معذور^(١) .

ب - مسألة السببية . - ومن المسائل التي عاجلها ابن رشد بحجراً ودقة ندرتين مسألة السببية التي تناولها الغزالي قبل ابن رشد ووقف منها موقف الإنكار . ولقد كان الاثنان مبدعين في معالجة هذه المسألة ، كل من الوجهة التي تناولها منها : هذا مبدع في الإنكار والإسراف في الإنكار ، وذاك مبدع في انكار الانكار مسرف فيه . ولا يزال الحوار بين المدرستين قائماً في فلسفاتنا العلمية الحديثة ، وإن اتخذ اشكالاً جديدة وتعابير مختلفة وصيغاً متباينة ومبررات لا عهد للأقدمين بها . فالصراع بين الحتمية واللاحتمية ، وبين اليقين والاحتمال ، بين المعقول واللامعقول في الميكانيكا الموجية مثلاً ، انما هو امتداد طبيعي لكل من وجهتي النظر اللتين يمثل احدهما ابن رشد والأخرى يمثلها الغزالي .

فمن المعلوم ان الغزالي ذهب في تفسير السببية مذهباً فريداً : وهو أن الاقتران بين ما يُعرف بالسبب وما يُعرف بالمسبب انما هو اقتران عرضي جائز ، مردّه الى حكم العادة ، لا الى الضرورة العقلية . ان الفلاسفة الذين

يقولون بالسببية لا دليل لهم عليها إلا ما يشاهدون من اقتران بين الاسباب والمسببات ، لكن هذه المشاهدة لا تدل على حصول الشيء بالشيء المقترن به ، بل على حصوله عنده ، وشتان بين الاثنين . فما نرى من تلازم بين السبب والمسبب ليس ضروريا اذن وإنما هو وليد العادة فقط لأن الله — وهو الفاعل الوحيد القادر على كل شيء — قادر على خرق العادة متى شاء ، وعندئذ يرتفع الاقتران بين ما يُعتقد في العادة سببا وبين ما يُعتقد مسببا ، وهو ما يحدث في المعجزات .

ويردّ ابن رشد على الغزالي في هذه المسألة بأن « للأشياء ذوات وصفات هي التي اقتضت الافعال الخاصة بوجود موجود ، وهي التي من قبلها اختلفت ذوات الاشياء وأسمائها وحدودها ، فلو لم يكن لموجود موجود فعل يخصه لم تكن له طبيعة تخصه ، ولو لم تكن له طبيعة تخصه لما كان له اسم يخصه ولا حدة ، وكانت الاشياء كلها شيئا واحداً ولا شيئا واحداً »^(١) . فالماء مثلا له طبيعة تخصه وهو كونه مادة سائلة بها يكون الرّي والرطوبة ، والنار لها طبيعة اخرى تخصها وهو كونها جسما شفافا به يكون الاحراق والضوء . فلو لم يكن لكل من النار والماء طبيعة تخصه لما كان له فعل يخصه ، ولكان الماء والنار شيئا واحداً .

والفعل والانفعال بين الاشياء انما يقعان بإضافة من الاضافات التي لا تتناهى : ولذلك لا تفعل النار مثلا فعل الاحراق كلما دنت من جسم حساس ، لأنه لا بُدّ — لحصول الاحراق — ان يكون هنالك موجود له الى الجسم الحساس اضافة ما لا تعوق تلك الاضافة الفاعلة للنار ، فهناك اذن شروط ضرورية لا بد من تحققها ليتحقق المشروط . وهكذا فللأشياء حقائق وحدود هي ضرورية في وجود الموجود وفي

١ — تهافت التهافت ، ص ٧٨٢ - ٧٨٣ .

صدور أفعاله عنه ^(١) .

وينتج عن هذا ضرورة أن من السفطة انكار الاسباب التي يكون عنها أفعالها الخاصة بها كما نشاهد في الأمور المحسوسة ، فما السببية إلا التعبير عن هذه الطبائع وما ينتج عنها من أفعال خاصة بها . وهذا يبين بحكم العقل ، إذ العقل كما يقول ابن رشد أيضاً : « ليس هو شيئاً أكثر من ادراك الموجودات بأسبابها ، وبه — أي بهذا الادراك — يفترق عن سائر القوى المدركة . فمن رفع الاسباب فقد رفع العقل » ^(٢) . وبالتالي فقد أبطل العلم وأنكر أن يكون هنالك علم واحد ضروري . « ومن يضع أنه ولا علم واحد ضروري ، يلزمه ألا يكون قوله هذا ضرورياً » ^(٣) . فإبطال الاسباب اذن يُبطل في نفس الوقت حجة مبطلها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى من جحد الاسباب فقد جحد الصانع الحكيم وجعل وجود المسببات عن الاسباب بالاتفاق وبغير مقصد ، فلا تكون هناك حكمة أصلاً ولا تدل على صانع بل إنما تدل على الاتفاق . فقول الفيزائي أن الله أجرى العادة بهذه الاسباب قول بعيد جداً عن مقتضى الحكمة ، بل هو مبطل لها لأن المسببات أن كان يمكن أن توجد من غير هذه الاسباب فأي حكمة في وجودها عن هذه الاسباب ؟ وأي دلالة فيها على الصانع ؟ فلو لم يكن شكل يد الإنسان وعدد أصابعها ومقدارها ضرورياً في الإمساك الذي هو فعلها وفي احتوائها على جميع الأشياء المختلفة الشكل وموافقتها لإمساك آلات جميع الصنائع ، لكان وجود أفعال اليد عن شكلها وعدد أجزائها ومقدارها هو بالاتفاق ، ولأن لا فرق بين أن يخص الإنسان باليد أو بالحافر ، وبالجملة متى رفعنا الاسباب والمسببات لم يكن هناك شيء يُردُّ به على القائلين بالاتفاق ، أعني الذين

١ - صفحة ٧٨٣ - ٧٨٤ .

٢ - صفحة ٧٨٥ .

٣ - صفحة ٧٨٥ .

يقولون لا صانع هنا . فالحكيم انما يفعل لمكان سبب من الاسباب ، فاذا رأينا فعلاً ليس في ترتيبه حكمة دلّ ذلك على الاتفاق ، وأما اذا كانت تتجلى فيه مظاهر الحكمة فلا بد ان يكون صادراً عن فاعل حكيم مختار ، وصانع مريد متقن لصنعتة ^(١)

ولما كان واجباً ان يكون هنا ترتيب ونظام لا يمكن ان يوجد اتقن منه ولا أتم ، لم يمكن ان يوجد ذلك عن الاتفاق . وأي اتفاق في الموجودات ان كانت على الجواز ، أي ان كان يستوى فيها ان توجد على هذا الوجه او ذاك من الوجود ، لأن الجائز ليس اولى بالشيء من ضده ؟ وأي نقص في الحكمة اعظم من ان تكون الاشياء كلها يمكن ان توجد على صفة اخرى فوجدت على هذه الصفة ؟ ومن يدري ، فلعل تلك الصفة المعدومة افضل من الموجودة ^(٢) .

اجل ان القول بالجواز هو اقرب الى ان يدل على نفي الصانع من ان يدل على وجوده ، ومعنى ذلك انه متى لم يُعقل ان هنا اوساطاً بين المبادئ والغايات في المصنوعات يُرتب عليها وجود الغايات لم يكن هنا نظام ولا ترتيب . وإذا لم يكن هنا نظام ولا ترتيب لم يكن هنا دلالة على ان لهذه الموجودات فاعلاً مريداً عالماً ، لأن الترتيب والنظام وبناء المسببات على الاسباب هو الذي يدل على انها صدرت عن علم وحكمة ^(٣) .

والذي قاد الغزالي والمتكلمين من الاشعرية الى نفي الاسباب انما هو الهروب من القول بفعل القوى الطبيعية في الموجودات ، ولئلا يدخل عليهم القول بأن هنا اسباباً فاعلة غير الله . وهيئات ! فلا فاعل هنا إلا الله ، وان ما سواه من الاسباب التي سخرها ليست تسمى فاعلة إلا مجازاً ، إذ كان وجودها انما هو به وهو الذي صيرها اسباباً ، بل هو الذي يحفظ

١ - ابن رشد : مناهج ادلالة ، صفحة ١٩٩ - ٢٠١ .

٢ - صفحة ٢٠١ - ٢٠٢ .

٣ - صفحة ٢٠٢ - ٢٠٣ .

وجودها في كونها فاعلة ، ويحفظ مفعولاتها بعد فعلها ، وهو المخترع لجواهر جميع الاشياء التي تقترن بها اسبابها لأنه يعلمها ، وعلمه بها هو العلة في وجودها وفي وجود جميع ما يلزم عنها وفي حفظ وجودها في نفسها .
فحقائق الاشياء إذن ثابتة ، والأسباب قائمة ، ومن قال بنفيها فقد أبطل الحكمة وأبطل العلم - إذ العلم إنما هو معرفة الأشياء بأسبابها ، والحكمة هي المعرفة بالأسباب الغائية - وأسقط جزءاً عظيماً من موجودات الاستدلال على وجود الصانع العالم ، يحدده جزءاً من موجودات الله ، وبالتالي فقد جحد الصانع الحكيم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^(١) .

ج - روحانية النفس . - لقد حاول الغزالي تمجيز الفلاسفة عن إقامة البرهان العقلي على ان النفس الانسانية جوهر روحاني قائم بنفسه ، غير متحيز وليس يحسم ولا منطبع في جسم ، ولا هو متصل بالبدن ولا هو منفصل عنه .
وليس معنى ذلك ان الغزالي ينكر روحانية النفس ، بل هو من أشد الناس ايماناً بها . فهي قضية من قضايا الشرع لا مدخل للعقل فيها ، فضلاً عن انها واضحة بذاتها لا تحتل البرهان . وكذلك لا يقل ابن رشد عن الغزالي ايماناً بروحانية النفس . وهو هنا إنما يدافع عن الفلاسفة الذين يقولون بروحانيتها والذين يتصدى الغزالي للرد عليهم وتمجيزهم عن إقامة البرهان العقلي على روحانيتها ، وبذلك فإن ابن رشد يسير في خط الفارابي وابن سينا خاصة والاتجاه الافلاطوني عامة ، هذا مع انه محسوب على ارسطو ويؤمن انه إنما يدافع عن ارسطو ويدور في فلكه .

المعلوم ان الغزالي اورد عشرة ادلة رد فيها على الفلاسفة الذين يؤكدون قدرة العقل على إثبات الروحانية ، ففند آراءهم وأظهر بطلان حججهم وإن كان أشد ايماناً منهم بروحانيتها . وعند عرضنا لهذه الأدلة اقتصرنا منها على ستة فقط هي الاول والخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع . وسنعرض

هنا لرد ابن رشد على اعتراضات الغزالي على هذه الأدلة تباعاً . ولكي تتجنب التكرار سنثبت هنا رد ابن رشد على اعتراضات الغزالي وسنحيل على ما ذكرناه أعلاه بصدد أدلة الفلاسفة واعتراضات الغزالي عليها .

فابن رشد في مناقشته لاعتراضات الغزالي على الدليل الأول يرى - على طريقة الفلاسفة الذين ينتقدون الغزالي - أن كل ما هو في جسم فانه يقبل الانقسام . وعكس النقيض صادق أيضاً : فان ما لا يقبل الانقسام فليس محل في جسم . وهذا بيّن في امر المعقولات الكلية ، فهي ليست تقبل الانقسام أصلاً ، وإذن فليس محلها جسماً من الاجسام ، ولا القوة عليها قوة في جسم . فلزم ان يكون محلها قوة روحانية تدرك ذاتها وغيرها .. هذا هو الذي يعتمد ارسطو في بيان ان العقل مفارق (١) .

وفي مناقشته لاعتراض الغزالي على الدليل الخامس يصف ابن رشد هذا الاعتراض بأنه في غاية السفسطة والشعوذة . إذ لا يمكن ان تنخرق العادة فيبصر البصر ذاته . فقلوبه انه لا يبعد ان يكون إدراك جسماني يدرك نفسه ، ممتنع . ذلك ان الإدراك شيء ثالث يوجد بين طرفين : فاعل ومنفعل . ويستحيل على الحس بطبيعته ان يكون فاعلاً ومنفعلاً في آن واحد ومن جهة واحدة . فاذا وجد فاعلاً ومنفعلاً فمن جهتين : أي ان الفعل يوجد له حينئذ من جهة الصورة ، والانفعال من قبل الهيولى . فالركب لا يعقل ذاته ، وإلا كان الجزء الذي يعقل فيه غير الذي به يعقل ، وكانت ههنا بالتالي ازدواجية تمنع عقله لذاته . فلو عقل ذاته في هذه الحالة لعاد المركب بسيطاً ، وذلك مستحيل .

وبعبارة أخرى ليس في العقل اجزاء كما للحواس اجزاء ، وإنما هو يدرك ذاته بذاته دون ان يتميز فيه الجزء المدرك عن الجزء المدرك . أي لا يمكن الجمع بين كون الذات مركبة وكونها تدرك نفسها . فلو فرضنا ان ذاتاً ما

١ - ان رشد : تهافت التهافت ، صفحة ٨٢٦ - ٨٢٨ ، انظر أعلاه صفحة ٦٨٤-٦٨٥ .

مركبة ثم عرفنا انها تدرك نفسها تبين بطلان التركيب فيها وقلنا انها بسيطة ضرورة. وهذا معنى قول ابن رشد : فلو عقل المركب ذاته لمعاد بسيطاً^(١) .

وأما اعتراض الغزالي في الدليل السادس على ان ما هو جسم او قوة في جسم فليس يعقل ذاته بدليل ان الحواس لا تعقل ذاتها ، فهو استقرار لا يفيد اليقين . فاذا كانت الحواس حقاً لا تدرك ذاتها - وهو استقرار مستوفى ، إذ ليس هنا حاسة سوى الحواس الخمس - فلا يستتبع ذلك ان جميع القوى المدركة الاخرى ليست في جسم^(٢) .

ويفرق ابن رشد هنا كذلك بين مجرد الإدراك وبين إدراك الحد : فنحن ندرك النفس وندرك اشياء كثيرة ولكننا لا ندرك حدها ، أي ماهيتها ، إذ لو كنا ندرك حد النفس مع وجودها لكنا ضرورة نعلم من وجودها انها في جسم او ليست في جسم^(٣) .

كما يفرق ابن رشد في هذا الموضع ايضاً بين علمنا بأن النفس في الجسم وبين ان لها قواماً بالجسم . فاذا كان الجسم بمنزلة الآلة للنفس فليس لها قوام به وإنما هي مستقلة عنه^(٤) .

وأما الدليل السابع فيؤكد ابن رشد ويدافع عنه حتى ليتجاهل اعتراض الغزالي عليه . فان العقل اذا ادرك معقولاً قوياً ثم عاد يعقبه الى إدراك ما دونه ، كان إدراكه له اسهل . وذلك مما يدل على ان إدراكه ليس بجسم ، لأننا نجد القوى الجسمية المدركة تتأثر عن مدركاتها تأثراً يضعف به ادراكها ، حتى لا يمكن ان تدرك ما ادراكه هين بأثر ادراكها ما ادراكه صعب 'بجهد'. فلما وجد الفلاسفة ان قابل المعقولات لا يتأثر عن المعقولات قطعوا على

١ - صفحة ٨٤١ - ٨٤٢ ، انظر اعلاه صفحة ٦٨٥ - ٦٨٦ .

٢ - صفحة ٨٤٥ ، انظر اعلاه صفحة ٦٨٦ .

٣ - صفحة ٨٤٦ .

٤ - انظر صفحة ٨٤٦ - ٨٤٧ .

ان ذلك القابل ليس يحسم ^(١) .

ويناقش ابن رشد اعتراض الغزالي على الدليل الثامن بما ملخصه اثنا اذا فرضنا ان القوى المدركة موضوعها الحار الفريزي (أي البخار الحار الذي يحرك الحيوان) ، وكان الحار الفريزي يدركه النقص بعد سن الاربعين فقد ينبغي ان يكون العقل في ذلك كسائر القوى فيشيخ بشيخوختها . أما اذا فرضنا ان القوى المدركة موضوعها غير موضوع القوى الحاسة ، لم يكن العقل كسائر القوى فلا يشيخ بشيخوخة الحار الفريزي الذي هو موضوع الحس . وبالتالي فان القوى المدركة مستقلة عن القوى الحاسة ، ولذلك فلا يلزم ان تستوى اعمارها . فجوهر العقل إذن غير جوهر النفس ^(٢) .

ويقر ابن رشد اعتراض الغزالي على الدليل التاسع ويصفه بأنه صحيح ، غير انه يستدرك بأن هذا الدليل لم يستعمله احد من القدماء لإثبات بقاء النفس وإنما استعملوه ليرهنوا على ان في الاشخاص جوهرأ يظل مستمراً من الولادة الى الموت هو ما يسميه ابن سينا بالإنية ، وعلى ان الاشياء ليست في سيلان دائم تتجدد فيه جميع جزئياتها ، كما اعتقد كثير من القدماء ، بل يبقى فيها ما يربط ماضيها بحاضرها بمستقبلها ، وهذا هو النفس ^(٣) .



خاتمة

هذا غيض من فيض ابن رشد الذي كان إمام عصره في العلم والفلسفة ، كما كان حسه المرفه وعقله المفكر . في شخصه وصلت الفلسفة الاسلامية الى غايتها القصوى وهي فهم فلسفة ارسطو والتوفيق بينه وبين الاسلام ، وبه استقرت ووصلت الى خاتمة المطاف . لقد كان ابن رشد نهاية مرحلة طويلة

١ - صفحة ٨٤٨ - ٨٤٩ ، انظر اعلاه صفحة ٦٨٦ - ٦٨٧ .

٢ - صفحة ٨٥٢ ، انظر اعلاه صفحة ٦٨٧ - ٦٨٨ .

٣ - صفحة ٨٥٤ ، انظر اعلاه صفحة ٦٨٨ - ٦٨٩ .

ازدهت بالفكر والحضارة وتمعنت بالفلسفات العميقة في الحياة والكون والمصير . فلم تقم للمذاهب الفلسفية ، باللغة العربية ، قائمة من بعده وانتقل التراث الفلسفي الاسلامي الى ايدي اليهود لينهلوا منه ، والى اقطاب الفكر المسيحي ليتعاهدوه وينعموا بخيراتة .

لكن قبل ان يضمحل الفكر الاسلامي في نهاية القرون الوسطى ويدخل في سباته العميق اومض ايماضته الأخيرة ، ولكنها ايماضة اقرب الى العصر الحديث منها الى العصور الوسطى ، عصور العبقريات الدينية او الاحلام الافلاطونية التي تتفارت في تماسكها الارسططاليسي ووعيا المنطقي .

انها ايماضة ابن خلدون ..

الفصل العاشر

ابن خلدون

(٧٣٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م)

حياته

هو ولي الدين ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خالد بن عثمان ابن هانئ بن الخطاب بن كريب بن معديكرب بن الحارث بن وائل ابن 'حجتر'. فهو سليل اسرة من اعرق الاصول العربية اليمانية في حضرموت ، نزع بعض افرادها الى الحجاز في العصور السابقة على الاسلام واشتهر منهم في صدر الاسلام : وائل بن حجر الذي تنتهي اليه السلسلة المذكورة وأحد صحابة النبي عليه السلام ، وخالد بن عثمان (المعروف بخلدون)^(١) الذي دخل الاندلس مع الفتح الاسلامي سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) فاستقر هو وأسرته في قرمونة ، ثم في اشبيلية ، وحدث بعد ذلك ان انتقلت تلك الاسرة الى تونس وفيها اقامت ، الى مولد ابن خلدون .

وقد عني ابن خلدون هذا بتدوين تاريخ مفصل لحياته منذ نشأته حتى قبيل وفاته ووقف على ذلك كتاباً على حدة سماه (كتاب التعريف بابن خلدون

١ - جرت عادة اهل الاندلس والمغرب على زيادة الواو والنون في الأعلام للدلالة على تعظيم اصحابها (خلدون ، حمدون ، زيدون النخ) .

ورحلته شرقاً وغرباً) وقد ذكر في هذا الكتاب انه وُلد بتونس في غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ (سنة ١٣٣٢ م) ورُبي في حجر والده الى ان أَيْفَعَ . وقرأ القرآن ودرس الفقه وتعلّم صناعة العربية والعلوم العقلية والمنطق وسائر الفنون الحكيمة والتعليمية .

ولم يزل منذ نشأ وفاض مكبّاً على تحصيل العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، الى ان بلغ الثامنة عشرة من عمره ، إذ حدث حادثان خطيران عاقاه عن متابعة دراسته وكان لهما أثر كبير في مجرى حياته . اما احدهما فحادث (الطاعون الجارف) الذي انتشر سنة ٧٤٩ هـ في معظم انحاء العالم شرقيه وغربيه . وقد كان هذا الطاعون نكبة كبيرة وصفها ابن خلدون بأنها « طوت البساط بما فيه » . وكان من كوارثه ان « ذهب الاعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواي رحمهما الله » على حد عبارته . وأما الحادث الآخر فهو هجرة معظم العلماء والأدباء الذين افلتوا من هذا الوباء الجارف من تونس الى المغرب الاقصى سنة ٧٥٠ هـ .

فتوقف عن الدراسة وأخذ يتطلع الى تولي الوظائف العامة . فاستدعاه ابو محمد بن قافراكين - المستبد على الدولة يومئذ بتونس - الى (كتابة العلامة) عن السلطان ابي اسحق بن ابي يحيى ، وهي وضع عبارة « الحمد لله والشكر لله » بالقلم الغليظ بما بين البسمة وما بعدها من مخاطبة او مرسوم . وان هذا اول عهد ابن خلدون بمناصب الدولة .

ثم انه ذكر لأبي عنان ملك المغرب الاقصى ، وكان يجمع العلماء في بلاطه ، فاستقدمه اليه سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) ونظمه في مجلسه واستعمله في كتابته والتوقيع بين يديه . على ان ابن خلدون يقول لنا انه قبيل هذا المنصب على كره منه لأنه لم يعمد مثله لسلفه ، فقد كانت نفسه تطمع الى الوزارة ، فاشترك في الدسائس والمؤامرات السياسية التي انتهت به الى السجن مراراً . وتوالت عليه الوظائف بعد ذلك تترى ، فقد كان جميع الحكام يخطبون وده . فكثير منافسوه واشتدت السعيات فيه عند اصحاب السلطان . وفي هذه

الاثناء كان ابن خلدون قد تزوج ابنة القائد محمد بن الحكيم من قسنطينة (شمالي الجزائر) فرزق منها بضعة اولاد . ثم رحل الى الاندلس وقصد ابن الاحمر صاحب غرناطة وصارت له عنده حظوة ، وهناك سافر عنه - سنة خمس وستين وسبعمائة - الى الطاغية ملك قشتالة لإتمام عقد الصلح بينه وبين ملوك العدو . فلقى الطاغية باشبيلية وعان آثار سلفه بها وعامله من الكرامة بما لا مزيد عليه . وطلب الطاغية منه المقام عنده ، وأن يردّ عليه تراث سلفه باشبيلية فرفض ابن خلدون . وانصرف عنه ورجع الى السلطان . فأقطعه قرية من اراضي السقي بمرج غرناطة لنجاحه في السفارة التي انتدبه لها . ثم لم يلبث الاعداء وأهل الفكر والسعايات ان اوغروا صدر الوزير ابن الخطيب على ابن خلدون فتنكّر له . وفي هذه الاثناء استدعاه سلطان بجاية اليه فاستأذن السلطان ابن الاحمر بالارتحال دون ان يذكر له شأن ابن الخطيب إبقاءً للمودة ، وترك الاندلس الى افريقيا بعد ان قضى فيها نحو سنتين ونصف . فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدمه ، وكان يوماً مشهوداً . وقولى ابن خلدون الحجابة لهذا السلطان وهو أعلى منصب في الدولة ، ويشبه منصب رئيس الوزراء ، ولكن عرش هذا الامير لم يلبث ان اغتصبه مفتصب . فظل ابن خلدون يتنقل من خدمة امير الى خدمة امير آخر . وبعد احداث كثيرة وفتن متلاحقة قلبت له ظهر المجن اعتزم الاجازة الى الاندلس ، فلم يكذبصل اليها حتى أغروا به السلطان ابن الاحمر فاستوحش منه وأسعف بإجازته الى العدو .

وظلّ ابن خلدون يتقلب في البلاد ويراقب الأحداث عن كثب ويتعقب سيرها ليرى ما عسى ان تنطوي عليه من قوانين تخضع لها ظواهر الاجتماع ويمكن تعميمها في احوال مشابهة اخرى وفي مسرح آخر غير شمالي افريقية . فكانت مشاهداته واختباراته مواد صالحة وأساساً لكتابة (مقدمته) العظيمة ومدداً لبحثه وتفكيره . وما زال حظه من المناصب السياسية بين مد وجزر ونجته بين تألق وخبر حتى شتم تكاليف السياسة ، فهجر المناصب ومال الى

العزلة ولحق بأحياء اولاد عريف ، فلقوه بالتحف والكرامة ، وأقام بينهم اياماً وأنزلوه بأهله في قلعة اولاد سلامة (وتقع في مقاطعة وهران بالجزائر) فأقام بها اربعة اعوام متخلياً عن الشواغل . وكان يومئذ في نحو الخامسة والأربعين من عمره وقد نضج تفكيره وآذن ان يؤتى اكله . فبدأ بكتابة مؤلفه التاريخي العظيم وهو مقيم بالقلعة : كتب (المقدمة) أولاً واستغرق في كتابتها خمسة اشهر فقط . ثم اخذ في اتمام تاريخه . وإذا كان ينقصه في مقامه المنعزل كثير من المراجع الضرورية فقد تشوف الى مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد الا بالامصار ، بعد ان املى الكثير من حفظه وأراد التنقيح والتصحيح ، فاعتزم الرحلة الى تونس حيث قرار آبائه . فحيا سلطان تونس وفادته وبر مقدمه وبالغ في تأنيسه وبعث الى الأهل والولد وألقى عصا التسيار .

وأفاضوا في السعاية عند السلطان فلم تنجح ، وقد كلفه بالاكباب على تأليف هذا الكتاب لتشوقه الى المعارف والأخبار... ثم كثرت سعاية البطانة بكل نوع من انواع السعيات . ولما كان المغرب قد ضاق به وتجهمت في وجهه الاندلس اعتزم الرحلة الى المشرق يرجو آفاقاً أرحب . وكان بالمرسى سفينة لتجار الاسكندرية مبحرة الى الاسكندرية ، فتطارح على السلطان وتوسل اليه في تخليه سبيله لقضاء فريضة الحج فأذن له .

وأقام ابن خلدون بالإسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج ، ولم يقدر عامئذ . فانتقل الى القاهرة ، وانثال عليه طلبة العلم بها فجلس للتدريس بالجامع الأزهر فيها . ثم اتصل بالسلطان الظاهر برقوق فأبر مقامه وانساء غربته وولاه قضاء المالكية . فقام به لا تأخذه بالله لومة لائم ولا يرغبه عنه جاء ولا سطوة ، معرضاً عن الشفاعات والوسائل ؛ فكثر الشغب عليه من كل جانب وأظلم الجو بينه وبين اهل الدولة . وكان قد بعث يستقدم اهله وولده من تونس فأصاب السفين قاصف من الريح ففرقت ، وذهب الموجود والسكن والمولود . فعظم المصاب والجزع ورجع الزهد ، واعتزم على الخروج من

المنصب، ووافق السلطان على تخليه سبيله من هذه العهدة، وانشطه من عقابها. ورتع فيما كان راتعاً فيه من قبل، عاكفاً على تدريس علم، او قراءة كتاب، او أعمال قلم من تدوين او تأليف .

ثم مكث بعد العزل ثلاث سنين، واعتزم على قضاء فريضة الحج . فودّع السلطان وخرج من القاهرة منتصف رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة، وبعد قضاء الفريضة رجع الى القاهرة فتلقاء السلطان بمهود مبرقه وعنايته . وعكف على قراءة العلم وتدريسه . وتولى ابن خلدون القضاء بمصر بعد ذلك مراراً كما عُزل مراراً، وكان هذا العزل بدسائس أقرانه وحساده من العلماء والقضاة . فقد كان يعيش في جو محموم دائم من الدسائس والسعايات . ولما غزا تيمورلنك بلاد الشام اتصل به ابن خلدون وطمع في ان ينال حظوة عنده فأكرم تيمورلنك مثواه، ثم أجازته وصرفه . فعاد الى مصر وظل فيها الى ان ادركته الوفاة في السادس والعشرين من رمضان سنة ٨٠٨ هـ (١٦ آذار ١٤٠٦) بعد ان بلغ الثامنة والسبعين من عمره .

آثاره . - يُنسب لابن خلدون عدة كتب لم يصل اليها منها سوى أهمها وهو (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) في ايام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر) . فهو الكتاب الوحيد الذي وصل اليها منه بمقدمته ولاحقه في (التعريف بابن خلدون)، كما وصلت اليها نسخة اخرى مستقلة من (التعريف) اكثر استيعاباً لتاريخ حياته من النسخة الملحقه بكتاب (العبر) .

ويتألف كتاب (العبر) من ثلاثة اجزاء :

الجزء الاول : « في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنایع والعلوم وما لذلك من العلل والاسباب » . وهذا الجزء هو المعروف باسم « مقدمة ابن خلدون » التي قال بها شهرته العظيمة، وهي التي تهمننا هنا .

الجزء الثاني « في اخبار العرب وأجيالهم واولهم منذ بدء الخليفة الى هذا

العهد وفيه الامام ببعض من عاصرهم من الأمم والمشاهير ودولهم مثل النبط
والسريان والفرس وبني اسرائيل والقبط ويونان والترك والروم .
الجزء الثالث يتناول « اخبار البربر ومواليهم من زناقة وذكر اوليتهم
وأجياهم ، وما كان بديار المغرب خاصة من الملك والدول » .
وينتهي بكتاب مستقل ضمّنه ابن خلدون تاريخ حياته وجعل عنوانه :
(التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً) .

والجزء الاول او (المقدمة) من الاعمال الكبرى للفكر الانساني على مر
العصور . فهي حدث هام في عالم التأليف المغربي جعل ابن خلدون من رواد
الفكر العالمي . إذ وضع فيها الأسس الاولى لفلسفة الحضارة وعلم التاريخ
وعلم الاجتماع كما سنرى في حينه . وهي فوق ذلك دائرة معارف شاملة لم يدع
فيها ابن خلدون علماً من العلوم إلا تناوله وعرض أمهات مسائله واستوفى
اغراضه ونوّه بأبرز ما ألفه المؤلفون فيه . ولذلك فقلما ظفر كتاب من عناية
الباحثين في العالم كله على اختلاف اجناسهم وألوانهم وأديانهم ولغاتهم بمثل ما
ظفرت به (مقدمة) ابن خلدون . فنُرجمت الى عشرات اللغات وُكُتبت
عنها آلاف الفصول ، وتوفرت على دراستها خير القرائح وانتالت على الازهان
بوحى منها سوانح الافكار والمعاني .

اسلوبه . - ينقسم الكلام في اسلوب ابن خلدون الى قسمين اثنين :
أسلوبه في الديباجة وأسلوبه في سائر كتاباته . فهو لم يلتزم اسلوباً واحداً
في كتاباته كلها ، بل لقد كان له اسلوب مسجع ركيك يعكس الاسلوب
الذي كان سائداً في عصره ، ويظهر في ديباجة (المقدمة) ، وأسلوب آخر
سهل مرسل يظهر في سائر كتاباته . فقد كتب ابن خلدون الديباجة بأسلوب
مسجع متكلف محشو بالاستعارات ومحسنات البديع ، جرياً على عادة الكتّاب
آنئذ في الافتتاحيات التي كانت وسيلة لإظهار البراعة والتمكن من مفردات
اللغة والقدرة على اللعب بالألفاظ والتراكيب . فكان لزاماً على ابن خلدون
ان يحاري عصره في ذلك حتى لا يُنسب الى الضعف ، ولكنه لا يمضي في

هذه المجازاة بغير حدود ، بل نراه يحد من طغيان هذه الروح ويضع لها قيوداً تظهر في كتاباته الأخرى ، وهنا تبرز شخصيته ، حيث تخلص من قيود السجع ومحسنات البديع التي كان النثر العربي مكبلاً بها . وقد اعترف ابن خلدون بهذا الاتجاه الخاص الذي سلكه في أسلوبه . إذ يقول في كتابه (التعريف) « واستعملني السلطان أبو سالم في كتابة سره والترسيل عنه والإنشاء لمخاطبته ، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل دون أن يشاركني أحد ممن يفتحل الكتابة في الإسجاع ، فانفردت به يومئذ وكان مستغرباً بين أهل الصناعة » .

وإذ تحرر ابن خلدون من قيود السجع وكان يومئذ قاعدة الكتابة كما قدمنا ، وعدل عنه إلى السهل المرسل ، فقد أصبح يجري على السجية ويهتم بإبراز المعاني والآراء أكثر من اهتمامه بالصيغ والألفاظ ، حتى لمكان يضعي بالسبك اللغوي للحفاظ على روح المعنى وعلى منطق البحث ووضوح الغاية .

لكن ذلك لا يعني أن ابن خلدون كان واضحاً في كل كتاباته . تقصّر جملة فتبدو جلية واضحة وقد تطول فتغمض وتتعمد . مصطلحه قلق أحياناً : فهو يستعمل اللفظ الواحد في أكثر من معنى ، ويؤدي المعنى الواحد بأكثر من لفظ ، ويمنح الألفاظ والعبارات من المعاني ما يخرج بها عن معانيها المشهورة المتعارفة ، وتحس وأنت تقرأه بالصعوبة التي كانت يعانيها في التعبير عن بعض أفكاره بوضوح . وهذا راجع بدون شك إلى جودة الموضوعات التي كان ابن خلدون يتصدى لمعالجتها والتي لم يسبقه أحد إلى الكتابة فيها . فللعبارة عنها كان لزاماً عليه أن يشتق لها من بعض الأصول العربية مفردات لم يسبق اشتقاقها منها وأن يستعمل كثيراً من المفردات في معان جديدة لم يسبق استعمالها فيها ، وإن كانت تمت إلى معانيها الأصلية بعلاقة من العلاقات المقررة في علم البيان . لذلك جاء فكره أحياناً غير محكمّ وعباراته غير دقيقة .

فإذا أردنا دراسة (مقدمة ابن خلدون) لا بدّ لنا إذن ان نفهم مبدئياً تعابير ومصطلحاته لنفهم آراءه ونظرياته .
من ذلك مثلاً انه يطلق كلمة (العمران) على الاجتماع الانساني و (علم العمران) على البحوث التي تدرس ظواهر هذا الاجتماع للكشف عن القوانين المسيرة لها . فعلم العمران عند ابن خلدون إذن هو علم الاجتماع في اصطلاحنا اليوم . وكذلك قد يتوسع ابن خلدون في كلمة (بدو) حتى تناول اهل الريف من الفلاحين . كما يستعمل كلمة (التوحش) للسكنى في الصحراء والتوغل فيها بعيداً عن الحضارة ، دون ان يقصد ما ينصرف اليه الذهن في العادة من (الوحشية في الطبع) . و (العصبية) ايضاً لها في مصطلح ابن خلدون معنى أخص من معناها المؤلف ، إذ تدل عنده على القوة والمنعة الناشئتين من روابط القرابة بين افراد العشيرة او القبيلة .
لكن أم مصطلحات ابن خلدون وأكثرها تعقيداً إنما هي كلمة (عرب)، فهو يستعمل هذه الكلمة استعمالات مختلفة لا تنحصر في معنى واحد . فهو يستعملها غالباً للدلالة على البدو والقبائل الرحل . ومن هنا اقتران هذه الكلمة عنده بالتوحش والحراب والعيث والانتهاج والأمية . وقد يستعملها ايضاً ليقصد بها الحضّر من العرب وحدهم . وقد يستعملها اخيراً لتشمل البدو والمستقرين من العرب في القرى والامصار . وكثيراً ما يلجأ الى الوصف والتخصيص ليتضح مقصده . ولموضع هذا اللبس في كلمة (عرب) وقعت اخطاء عظيمة في فهم موقف ابن خلدون من العرب ، حتى لقد ظننت به الظنون .

فإذا استثنينا هذه الحالات التي تضطرب فيها عبارة ابن خلدون وهي قليلة نسبياً ، ظلّ اسلوبه مع ذلك من الاساليب العلمية المثقفة الرصينة التي تقيد ذوقاً لغوياً رفيعاً وذوقاً ادبياً ومقدرة فائقة على معالجة الموضوعات العقلية والبحوث الاجتماعية والحضارية . ففي هذا الاسلوب - على هنائه - من الفنى والعمق وقوة التدليل وترايط الفكرة وحسن الأداء والتناسق

ما يغرى بمتابعة المطالعة واستكمال القراءة حتى آخر كلمة فيها . إذ لابن خلدون منهج خاص في التأليف : فهو يسير ما وسعه سيراً منطقياً فيبرهن ويعمل ، وينتقل من الخاص الى العام ، والعكس ، على نظام مرسوم . ويُعنى بالترتيب والتبويب والقسمة الى اجزاء ومقدمات وفصول . و (المقدمة) من اوضح الامثلة على ذلك . فقد بدأها بخطبة او ديباجة ، تلتها مقدمة في فضل التاريخ ومغالط المؤرخين . ثم قسم الكتاب الاول الى ستة فصول : يعرض في الاول للعمران البشري بوجه عام في ست مقدمات ، وفي الثاني للعمران البدوي ، وفي الثالث للدولة والخلافة : وهما فصلان طويلان ومتعادلان وتحت كل منهما اقسام ، ويعرض في الرابع للعمران الحضري وهو صغير كالفصل الاول ، وفي الخامس للمعاش ووجوه الكسب ، وفي السادس للعلوم والتعليم وهو اطول الفصول . وتقسيمة متدرج متلاحق ، فيه ربط وتنسيق وحسن اداء .

اخلاقه واطلاعه وخصائص تفكيره

كان ابن خلدون لساناً فصيحاً حسن التوصل متوقفاً الذهن خصب التفكير دقيق الملاحظة كبير النفس زاخر النشاط ، متمكناً في العلوم التي انتهى اليها ارتقاء الثقافة ونشاط الترجمة والنقل في العالم العربي على عهده . فهو ثمرة يانعة لحضارة تمّ نضجها وبلغت غايتها في العصور الاسلامية المعروفة بعصور الانحطاط . يقلب الاخبار على وجهها ويكشف عن زيفها ، ويتبع الظواهر الانسانية المختلفة ويستنتج منها ما يستنتج من احكام . حفظ القرآن في صغره وجوَّده بالقراءات ، وتلقى على ابيه ثم على كبار مشايخ تونس وفاس طائفة كبيرة من العلوم النقلية واللغوية والعقلية ، فدرس التفسير والحديث والفقه المالكي وأصول الفقه وعلم الكلام واللغة في مختلف فروعها ، كما درس المنطق والفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية . وعلى الرغم من شؤون السياسة التي استأثرت بقسط كبير من نشاطه ، فإنه لم ينقطع عن متابعة الدراسة ، واستيعاب التراث الثقافي القديم ، ومتابعة

الحركة الفكرية في عصره ، والاطلاع على ما يظهر في العالم حوله من بحوث وآراء . فإن ما كتبه في الباب الاول (المقدمة) عن الجغرافيا وفي الباب السادس عن العلوم وأصنافها يدلان على قدم راسخة في العلم ومختلف فروع . فهو مؤلف موسوعي لم يغادر أي فرع من فروع المعرفة السائدة وقتئذ في العالم العربي إلا ألمّ به ووقف على اصوله ومناهجه ومسائله . وكان ابن خلدون الى جانب تمكنه في البحوث العلمية محدثاً بارعاً ، رائع المحاضرة ، يخلب الباب سامعيه بمنطقه وذلاقة لسانه وبلاغة عباراته . كيف لا وهو من اعلام الادب العربي وأمرأه البيان . وقد رأينا كيف كان له أسلوبه الخاص في الترسيل والكتابة والمخاطبات تحدى به الاساليب الركيكة السقيمة السائدة التي كانت تنوء باغلال السجع ومحسنات البديع . وحتى الشعر فقد ألمّ به ونظم عدة قصائد ، ولكنه لم يكن شاعراً مطبوعاً . فالشعر ليس ملكة له .

وكان ابن خلدون فوق ذلك مؤمناً متديّناً وذلك ظاهر في كل ما كتب وأنتج . فإن المتتبع لجميع مباحث (المقدمة) والتعابير الواردة فيها يتأكد من عمق ايمان الرجل ومن اعتقاده الراسخ بوجود الله . وإذا كان بعض المتحاملين قد نعوا عليه ورود بعض الآيات والتعابير الدينية في إبحائه العلمية ، فإن ذلك لم يؤثر في حريته الفكرية ونزاهته العلمية ونقده المنهجي ، فتراه يسجل الوقائع بموضوعية اخاذة دون ان تؤثر آراؤه الدينية في حكمه عليها . ثم يضيف الى ذلك ما يقتضيه المقام من الآيات والتعابير والأقوال المأثورة . وهو لا يميل كثيراً الى الحجاج العقلي في شؤون الدين بل يؤثر الايمان بما وضعه والسكوت عما لم يتضح . فرأيه في ذلك اقرب ما يكون الى السلف وأهل السنة . فهو يأخذ بظاهر الأمور الدينية المتعلقة بالعقائد والعبادات ويكره التعمق فيها ، كما كان السلف في صدر الاسلام . وهو يرى ألاّ تعارض بين العقل والشرع سوى ان كل واحد منها من طور غير طور الآخر ، إلا ان طور العقل قاصر عن بعض الادراكات

كالروح والبعث ، وان نطاقه ضيق .

وهو مفكر متزن لا يصدر احكاماً جارفة ولا يميل مع عاطفة او هوى ، بل تراه يقيد استنتاجاته كلها بما هو مشاهد في الاجتماع الانساني او بما بلغه او عرفه او تضافرت عليه الادلة . وقلما نعثر في (المقدمة) على آثار الاندفاع وراء المجرعات والاسترسال في طريق الاستنتاج والانسياق في التعميم .

ونعم ابن خلدون فوق هذا وذاك بقسط وافر من الجرأة والطموح والثقة بالنفس الى حد المفامرة . وكان لا يخلو من دهاء وحسن الحيلة ، شهدت بذلك وفادته وتصرفاته . وكان معتداً بنفسه الى حد انه كان نهائياً للفرص ، يسعى الى مصلحته الشخصية أولاً . هكذا فللرجل هنات ، ومن ذا الذي يرضى سجايه كلها ؟

ومها اختلف الرأي في شخصية ابن خلدون فإن هذه الحلال والمواهب قد حملته الى ذروة الحوادث وجعلت منه شخصية ظاهرة في تاريخ الدول المغربية كلها ، تأخذ بقسط بارز في تطورات تلك الدول وتقلباتها وتشترك أحياناً في عوامل نهوضها او سقوطها ، وأحياناً تثير بينها ضرام الكيد والتنافس والقتال . وكانت احوال الدول والقصور المغربية في ذلك العصر مما يفسح مجال النهوض والتقدم للطامعين ذوي الكفاية والعزم . فاستطاع ان ينعم بالزعامة والنفوذ الواسع بين أشد القبائل شكيمة وأجفاها طباعاً وأن يظفر بثقة الولاة والحكام والأمراء . وكان له من حياته وتقلبه في المناصب وأسفاره خبرات جمة ومشاهدات عظيمة في شؤون الاجتماع الانساني وقف بها على اسرار السياسة وتقلبات الدول وسبب نشوئها وتطورها وازدهارها وانهيارها ، خاصة وانه قضى نحو ربع قرن في خوض غمار السياسة ودسائس الولاة والحكام ، متقلباً في خدمة القصور والدول المغربية والاندرلسية يدرس امورها ويستقصي احوالها ويتتبع سيرها وأخبارها ، ويتغلغل بين القبائل يتأمل طبائعها ويتفهم منازعها ويتعمق

أحداثها وظواهرها ، ويستوعب ذلك كله بنظرة واحدة ولحظة شاملة جمع فيها دقة الرياضي وملاحظة العالم ومقدرة الفيلسوف على الاستنتاج واسلوب الأديب في الشرح والبسط . وله قدرة عظيمة على المقارنة والموازنة بين الملاحظات والآراء لاستخراج القوانين وتعميم النتائج ، فتراه يجمع الظواهر ويستقرئ أوجه التشابه بينها ويردها بعضها إلى بعض ويبحث عن أسبابها ويفرق بين ما ينجم عنها وما يترتب عليها بطريق اللزوم ، حتى ينتهي إلى القوانين العامة التي تخضع لها في سيرها وتعاقبها . وهكذا فاستقراء الظواهر واستخلاص القوانين هما إخص ما يمتاز به رجل العلم ومن أم خصائص ابن خلدون . لذلك جاءت (المقدمة) فتحاً كبيراً في عالم البحوث التاريخية والاجتماعية وحدثاً عظيماً في تاريخ العلم والفكر كما سنرى .

ابن خلدون والفلسفة . - يشبه موقف ابن خلدون من الفلسفة والفلاسفة موقف الغزالي الذي تأثر به ابن خلدون غاية التأثير . فالغزالي في نظره فقيه وأصولي ومتكلم وفيلسوف ، وهو يشيد به ويذكره بكثير من التجلية والاحترام ويحذو حذوه في نقد الفلسفة وتوجيه المطاعن إلى أصحابها ، رغم أنه كان ملأها مستبحراً في علومها . إن نقد ابن خلدون مغاير لنقد الغزالي بعض المغايرة : فالمفكران يصدران عن مقدمات مختلفة أحياناً ، ولكنهما على كل حال يصلان إلى نتائج واحدة ؛ أو على الأقل متقاربة .

وكما نفهم ابن خلدون من هذه الناحية لا بد أن نذكر أن هناك منهجين أساسيين للمعرفة : (١) المنهج الفلسفي (٢) والمنهج العلمي . فأما المنهج الفلسفي فهو داء أنه بالتأمل العقلي وبمجموعة من الأقيسة المنطقية المنسقة والقواعد الصورية الثابتة يمكن الوصول إلى معرفة حقائق الأشياء وما فيها من خواص وصفات . فهو إذن يعتمد على قوانين العقل وانسجام الفكر مع ذاته بصرف النظر عن الوجود الخارجي . وأما المنهج العلمي (ويقال له المنهج الوضعي أيضاً) فيعتمد على الواقع

والمشاهدة والتفكير المنظم الذي يضع الفروض ويستخلص القواعد .
وهكذا فعلى قدر ما يوغل المنهج العلمي الوضعي في الواقع لياخذ
نتائجه منه يغوص المنهج الفلسفي المنطقي في العقل وحده وينقب فيه
ليستخرج منه ما يمكنه من صيغ وقضايا وأنظار في الله والكون
والحياة .

فأي المنهجين اتخذ ابن خلدون ؟

يجب ألا نتردد في ان نعدّ ابن خلدون بين اصحاب المنهج العلمي .
فالنزعة التي يصطبغ بها تفكيره هي النزعة التجريبية ، وتحت تأثير هذه
النزعة ألّف في التاريخ وعلم العمران ، كما أرّخ للعلوم في تلك الصفحات
الرائعة التي تزخر بها (المقدمة) . وتظهر هذه النزعة ايضاً في الفصل الذي
عقده لإبطال الفلسفة وفساد منتحلها . ففي هذا الفصل من (المقدمة)
يؤكد ابن خلدون ان التجربة وفحص الحقائق الجزئية واستقراء الحوادث
الشخصية ومباشرة الكون عن طريق الحواس والعقل ، كل اولئك هو
الدعامة التي يقوم عليها العلم بحقائق الاشياء . اما ما عدا ذلك من بحوث
ونظريات ميتافيزيقية مجردة مبنية على المنطق الصوري ، فلا تفيد علماً
حقيقياً ، لأنها بحكم تجريدها بعيدة عن الواقع العياني المحسوس . فالأقيسة
المنطقية ليست بالأداة التي تكفل للعالم الوصول الى الحقيقة لأنها من طبيعة
اخرى غير طبيعة الاشياء المحسوسة . فان معرفة هذه الاشياء لا تلتسنى
إلا بالمشاهدة والتجربة . اما ما يزعمه البعض من إمكان الوصول الى الحقيقة
بمجرد استعمال قوانين المنطق فانه وهم كاذب . لذلك ينبغي علينا ان
نتفكر فيما تؤديه الينا التجربة الحسية ولا نوغل في التجريد . ففي تجريدنا
للمعاني الكلية من الموجودات الحسية ، ثم في زعمنا بعد ذلك ان الاولى
مطابقة للثانية - وهو ما يسمونه بالعلم الطبيعي - لقصوراً وأي قصور ،
إذ أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التي تستخرج بالحدود والأقيسة
- كما في زعمهم - وبين ما في الخارج ، غير يقينية . فتلك احكام ذهنية

كلية عامة ، والموجودات الخارجية متشخصة بموادها ، اي ان احكام المنطق لما كانت احكاماً كلية فهي لا تطابق العالم الخارجي لأنه متشخص وهي كلية . « ولعل في المواد ما يمنع من مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي . اللهم إلا ما يشهد له الحس في ذلك فدليله شهوده ، لا تلك البراهين ، فإن اليقين الذي يجدونه فيها ؟ » (١) .

والذي يرمي اليه ابن خلدون هنا هو ان النتائج التي تصل اليها الفلسفة انما هي نتائج ظنية لا تفيد اليقين . انها تقيم بناءها على العقل وأقيسته ولا تلتفت الى الواقع إلا شزراً . فالكليات التي تصل اليها بهذه الاقيسة لا تطابق الجزئيات المتشخصة دائماً . وهي اذا طابقتها احياناً فالحس هو الذي يشهد بهذه المطابقة ، لا تلك البراهين والأقيسة . فإذا الحس والتجربة الحسية والملاحظة العينية - لا المعاني الكلية الفارغة - هي المعيار الذي يجب ان تقاس به معارفنا .

ان ابن خلدون يريد من الباحث ان يستملي الواقع ويعنى بالتجربة ويجمع الظواهر المحسوسة ليستخلص منها حكماً عاماً . فالتجربة هي وسيلة المعرفة والوصول الى الحقيقة (٢) .

ولكن المعرفة ليست وليدة الحس وحده ، بل للذهن وقواه مدخل فيها . فابن خلدون يتحدث عن قوى ذهنية هي ما نسميه (الفكر) الذي يكون الآراء ويفيد العلم او الظن ، ويدفع الى الانتاج والعمل (٣) . لكن الفلاسفة يغفلون في قيمة الفكر ويمضون في استغلاله الى حد يتجاهلون معه الواقع المحسوس ، فلا يرون غير أقيسة الفكر واستنتاجات الفكر ، ومن هنا شطحات الفلاسفة .

ولا يقف ابن خلدون عند هذا ، بل يحاول ان يبطل الفلسفة من

١ - ابن خلدون : المقدمة ج ٤ صفحة ١٢٠٢ - ١٢٠٣ .

٢ - المقدمة ج ٣ صفحة ٩٧٨ - ٩٧٩ .

٣ - صفحة ٩٧٦ - ٩٧٧ .

بحدورها . فيقول أن الفلاسفة يدعون أن الوجود بأسره يمكن ادراكه ببضاعة العقل . وهذا في نظر ابن خلدون هراء . إذ الوجود عند كل مدرك منحصر في مداركه لا يعدوها . فالأصم إنما ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات ، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات . وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات ، ولئن أقر الأصم والأعمى بالمسموعات والمرئيات فلأنما يُقرّان بهما تقليداً للآباء واتباعاً للكافة في إثبات هذه الاصناف ، لا بمقتضى فطرتها وطبيعتها ادراكها . ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات^(١) . ومعنى هذا أن الحقيقة الوجودية شيء ، وما يدركه العقل منها شيء آخر . وإذن فلن يحصل الإنسان في نفسه ما عليه الوجود كله . فإذا علمت هذا فلعلّ هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا . فالخسر مجهول والوجود أوسع من أن يحاط به أو يستوفى ادراكه بحملته روحانياً وجسمانياً . فللعقل حد يقف عنده ولا يتعدى طوره ، حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته . فما العقل إلا ذرة من ذرات الوجود فكيف يحيط بهذا الوجود وهو جزء منه ؟

ومن الأمور التي لا يدركها العقل بأدواته ومقولاته حقيقة الألوهية وحقيقة النفس وأحوالها ومصيرها بعد مفارقة البدن ، ومنها حقيقة النبوة والخلق والملائكة وجميع الموجودات الروحانية . فالموجودات التي وراء الحس ذواتها مجهولة لنا ، ولا يمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها ، لأن تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية الجزئية المتشخصة إنما هو ممكن فيما هو مدرك لنا ، ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى نجرد منها ماهيات أخرى ، فلا يتأتى لنا برهان عليها . فما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه^(٢) .

١ - صفحة ١٠٣٧ و ج ٤ صفحة ١٢٠٥ - ١٢٠٦ .

٢ - المقدمة ، ج ٤ صفحة ١٢٠٣ .

ولئن كان ابن خلدون ينكر على العقل كفايته في النظر في هذه الامور فانه لا يقدح فيه عندما يتصدى لمعرفة ما يقع في دائرة اختصاصه . فالعقل ميزان صحيح ، غير انك لا تطمع ان تزن به امور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره . فان ذلك طمع في محال^(١) .

وكذلك لا ينكر ابن خلدون المنطق من حيث هو آلة لتنظيم المعرفة ، وإنما ينكره فقط اذا اريد به ان يكون أداة لتوليد المعرفة . اي ان المنطق عنده ميزان دقيق يُصحح به العلم ، لكنه ليس وسيلة لكسب العلم . فالمنطق لا يفيد إلا في نطاق ضيق جداً هو النطاق الذي يخص ترتيب الأدلة . انه لا يفيد علماً جديداً ولكنه يصف لنا طريق العلم ويرسم لنا السبيل الذي يجب ان نسلكه في تفكيرنا . فوظيفة المنطق مقصورة فقط على تنظيم الاقيسة لكي لا تفقد علينا الحقائق بسبب الخلط والغلط في التصرف فيها . انه مجرد اسلوب صحيح في القياس والاستدلال وترتيب القضايا ، وله من الفضل بقدر ما يحفظ من الزلل وما يشهد من اذهاننا ويسدد خطانا في أقيستنا بحيث يجعلها مستوفية لشروط الانتاج وبحيث تنتج نتائج صحيحة . ومن هنا كان المناطقة غير قادرين على الوصول الى النتائج الصحيحة في الامور الإلهية وفي الامور السياسية وغيرها . فالمنطق لا يمد معرفة جديدة ما لم تكن لمقدماته شواهد من الحس . وعندئذ فالشواهد الحسية هذه هي سبب العلم الجديد وليس سببه المنطق بأقسيته وقواعده . فاذا اجتمع عدد كبير من هذه الشواهد امكن تنسيقها وتمحيصها وتحقيقها وتصحيحها . اي ان المنطق ميزان دقيق يُصحح به العلم وليس له ذلك الشأن الاساسي الذي يجعله له الفلاسفة . ويستطيع فعول النظار ان يستغنوا عن الصناعة المنطقية لأنهم منطقة

بالفطرة لا بالتحصيل . ويزيد ابن خلدون ذلك ايضاحاً بمقارنة يعقدها بين المنطقي والرجل العامي الذي لم يعتد على التجريد الذهني ، فيقول ان هذا الاخير كثيراً ما يكون اصدق حكماً من المنطقي . إذ هو « لقصور فكره عن ذلك وعدم اعتياده إياه يقتصر لكل مادة على حكمها وفي كل صنف من الاحوال والاشخاص على ما اختص به ، ولا يُعَدِّي الحكم بقياس او تعميم ، ولا يفارق في اكثر نظره المواد المحسوسة ، ولا يجاوزها في ذهنه ، كالسابع لا يفارقه البر عند الموج ... فيكون مأموناً من الخطر في سياسته مستقيم النظر في معاملة ابناء جنسه ، فيحسن معاشه وتندفع آفاته ومضاره باستقامة نظره . ومن هنا يتبين ان صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس ، فانها تنظر في المعقولات الثواني . ولعل المواد فيها ما يمانع تلك الاحكام وينافياها عند مراعاة التطبيق اليقيني » (١) .

وبعبارة اخرى يريد ابن خلدون ان يقول بلغة العصر ان المنطق تحليلي . فما في المقدمات يظهر في النتيجة دون زيادة ولا نقصان ، فهو لا يأتي بجديد . وأما العلم فهو تركيبي . لذلك اذا اردنا الحصول على معارف جديدة فانما سبيلها التجربة والشواهد الحسية ، ثم يتولى المنطق بعد ذلك تنظيمها وتنسيقها .

وينتهي ابن خلدون من نقده لمنهج الفلاسفة الى انهم لا يصلون بمنهجهم هذا الى يقين : لأن البرهان المنطقي القائم على الكليات العقلية لا يفضي الى علم يقيني ، لكنه يفضي الى امور ظنية مقدرة في الازهان فقط . والعلم الحق إنما هو العلم الذي يستمد أحكامه من الاشياء الجزئية المعينة بوجودها الخارجي . وهذا ظاهر في السياسة مثلاً : فإن العلماء يقيسون الأمور بما اعتادوه من القياس الفقهي حيث يجرّدون في أذهانهم كليات عامة لا تطابق

الواقع ، ولهذا يقومون في الغلط كثيراً حين ينظرون في السياسة . ان السياسة تحتاج الى مراعاة الواقع والنظر في كل حالة جزئية بما يلائمها من الاحكام ، وهذا هو عكس ما يفعل العلماء ومن يشبههم من اهل الذكاء والكينس من اهل العمران .

ويكاد ابن خلدون في إبطاله للعلم الإلهي - او علم ما بعد الطبيعة - يقطع بعدم إمكان هذا العلم على نحو ما فعله الفلاسفة المحدثون مثل اوغيسيت كونت وثمانويل كنط ، فهو يقول ان العلم الإلهي موضوعه الروحانيات وهي ليست مدرّكة لنا ، فلا يتأتى لنا برهان عليها . وهذا القول النافذ العميق هو اساس الفلسفة الوضعية وقطب الرّحى فيها . ورغم تأثر ابن خلدون بابن سينا ، إذ قرأ له كتاب (الشفاء) و (الإشارات) و (النجاة) فإنه يسخر من العاكفين على هذه الكتب وأمثالها يبعثون اوراقها ويتوثقون من براهينها ويلتمسون هذا القسط من السعادة فيها ، ولا يعلمون انهم يستكثرون بذلك من الحجب والموانع منها^(١) . ولعلّ هذه الحملة التي شنها ابن خلدون على الفلسفة آخر طعنة وجهت الى الفلسفة بعد طعنة الغزالي قبل ذلك بثلاثة قرون ، وإن كان ابن خلدون يصل الى هدفه عن طريق تعليقات ومقدمات لم يسبقه الغزالي اليها .

ولئن اخذ ابن خلدون على الفلسفة عقمها وضحالتها ، فإنه لم ينكر مع ذلك أن لها ثمرة مفيدة وهي انها تشعذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجاج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين . لأن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الاحكام والإتقان هو شرط عملية التفلسف بكل ما فيها من علوم طبيعية ورياضية ، إذ يستولي الناظر فيها ، بكثرة استعمال البراهين بشروطها ، على ملكة الإتقان والصواب في الحجاج والاستدلالات . لأنها ان كانت غير وافية بمقصودهم (يعني الفارابي وابن سينا وابن رشد

ومن اليهم) فهي اصح ما علمناه من قوانين الانظار . هذه هي ثرة هذه الصناعة ، مع الاطلاع على مذاهب اهل العلم وآرائهم . ومضارها ما علمت . فليكن الناظر فيها متحرزاً جهده من معاطيبها . وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ، ولا 'يكن' احد عليها وهو خلو من علوم المسئلة ، فقل ان يسلم لذلك من معاطيبها ، (١) .

والخلاصة ان ابن خلدون ينمى على الفلاسفة دعواهم العلم بكل شيء والإحاطة بجميع الكائنات . والحق انهم لا يعلمون شيئاً ما داموا يطلقون احكاماً متعسفة لا سبيل الى إثباتها او التحقق منها ، ويوغلون في التجريد حتى لكأنما انطبق عليهم ما وصفهم به ابن خلدون من انهم يبحثون في صور « قد تجرّدت من موادها » . فهم حين كانوا يتعرضون لبحث القضايا التي تهز العالم الاسلامي كقضية الخلافة مثلاً نخدم يناقشونها وكأنهم يعيشون في عالم آخر . ولم كان حقيقاً بهم ان يتوفروا على دراسة واقعهم ومعرفة هذا العالم المليء بالمشاكل والمعضلات الصارخة التي تلح في طلب الحل السريع . فملكوت المادة والعالم المحسوس اولى بالنظر والدراسة من ملكوت السماء وعالم العقول المفارقة . فإذا فرغنا - وهيئات - من حل ما يحيط بنا من مشاكل أمس بحياتنا وأدخل في نظام وجودنا ، فلا حرج علينا بعد ذلك ان نتطلع الى مشاكل اخرى غريبة عنا لا تمسنا في قليل او كثير . فلننصرف الى دراسة واقعنا دراسة منهجية علمية ، فذلك اجدى لنا وأقوم .

فلسفة التاريخ . - لقد كان التاريخ قبل (مقدمة ابن خلدون) لونا من ألوان الأدب ونوعاً من المسامرة وسرد الحوادث يتوخى امتناع النفوس ومؤانستها وإثارة كوامنها بذكر التهويلات والأعاجيب والأوهام . أجل

هكذا كان التاريخ قبل ابن خلدون عند العرب او غير العرب . فقد نظروا اليه جميعاً نظرتهم الى ديوان اخبار وجمعية حوادث ، ولم يعدوه علماً من العلوم له اصوله وأسسُه ومناهجُه . فكانوا اذا عرضوا للدولة مثلاً نسقوا اخبارها ، محافظين على نقلها دون ان يبحثوا بدايتها او يذكروا السبب الذي رفع من رايها ، ولا علة الوقوف عند غايتها . فهم يتجاهلون العلية ، ولا يبنون بحتمهم على أسس علمية منهجية .

فلما جاء ابن خلدون لم يشأ ان ينظر الى التاريخ كرواية تدوّن ، بل كعلم يستحق الدرس . وقد أراد ان يكتب التاريخ على أسس علمية منهجية تعتمد على الشرح والتحليل ، فدرس أحداثه وظواهره يجرّد منها قوانين عامة ونواميس مطردة . ففناط عظمة ابن خلدون ومعقد الطرافة فيه انه لم يتقدمه باحث عربي او يوناني قدحت في ذهنه هذه الفكرة الجريئة : تجريد القوانين والنواميس العامة المسؤولة عن سير التاريخ . فلا هيرودوت ولا أفلاطون ولا ارسطو كانوا أنداداً له في هذا الباب ، وجميع من عدام – باستثناء ثوكيديدس Thucydide الى حد ما – لا يستحقون ان يُذكروا معه .

قبل ابن خلدون كان الفلاسفة والعلماء يعتقدون ان الطبيعة وحدها هي المحكومة بالقوانين . فالنار تشبُّ الى أعلى ، والماء يجري حدوراً ، والمعادن تتمدد بالحرارة ، والاجسام تسقط الى اسفل الخ . فأما حوادث التاريخ وظواهر المجتمع فلا ضابط لها من قانون ، بل إنما تسيّرُها الأهواء واطماع رجال السياسة والقوى الخارقة . وحسب ابن خلدون فخراً انه لم يفرق بين ظواهر التاريخ والمجتمع وظواهر الطبيعة من حيث خضوعها جميعاً لنظام واحد شامل .

وهكذا فلئن كنا نجلُّ ابن خلدون فليس ذلك لانه جاء بموسوعة تاريخية عظيمة في عصره ، بل لانه قام بمحاولة فذة رائدة في فهم التاريخ وتحليل أحداثه وردها الى عللها واسبابها القريبة والبعيدة . فهو كؤرخ لم

يأتِ بجديد ، وربما وجد بين المؤرخين العرب والعجم من يتفوق عليه كثيراً ، ولكنه كصاحب نظرية في التاريخ كان عديم المثال حتى ظهور فيكو Vico بعده بأكثر من ثلاثمائة عام . وبعبارة أخرى إن التاريخ عنده لم يعد سرداً للحوادث بل أصبح تعليلاً لها . وما هو يبين حقيقة التاريخ أحسن بيان ويعرفه تعريفاً علمياً صحيحاً حين يقسم التاريخ الى ظاهر وباطن فيقول : ان التاريخ « في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون تنمو فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال ، وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال » . ولكنه « في باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيقة ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق . فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق ، وجدير بان يعد من علومها وخليق » (١) .

نرى من هذا ان مفهوم التاريخ قد اكتسب عند ابن خلدون ثراء عظيماً ، لأنه لم يعد ينحصر في تدوين الوقائع ، بل لقد وجّه الأذهان الى ضرورة تعليلها تعليلاً علمياً منهجياً يعتمد على الملاحظة والمقارنة ودراسة البيئة وأصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران . فالتاريخ ليس حوادث مفككة تأتي فرادى وإنما هو ترابط واتصال وتشابك في الزمان والمكان لا حد له . فقد كان ابن خلدون يحرص دائماً على ربط حوادث جرى المؤرخون قبله على عادة فصلها بعضها عن بعض والنظر اليها مفككة منعزلة عن سياقها وظروفها وملابساتها . ولذلك فان الاخبار كما يقول ابن خلدون « اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق » (٢) .

١ - المقدمة ج ١ ، صفحة ٢٠٩ .

٢ - صفحة ٢١٩ .

وهكذا فالجديد في دراسة ابن خلدون التاريخية إنما هو المنهج .
أما سرد الوقائع وجمع الحوادث فأمر قافه يلتقي فيه مع المؤرخين
التقليديين ، وكثيراً ما هم ! فهو أول من قال بأن التاريخ علم كسائر
العلوم الأخرى ، له موضوعه ومنهجه الذي ينتهي به إلى طائفة من
القوانين العامة التي يمكن بها تفسير الأحداث البشرية تفسيراً علمياً يردُّ
كل حدث إلى أسبابه وعوامله .

أما موضوع هذا العلم فهو الأحداث البشرية الماضية في علاقاتها مع تطور
المجتمعات وعلاقات هذا التطور مع الظواهر الطبيعية .

وأما منهجه فهو النقد والاستقصاء والملاحظة : نقد الأخبار نقداً علمياً
ونقد الطرق المتبعة عند المؤرخين والتعرف إلى مواطن الخبر ، واستقصاء
مطائنه ومناقشة الروايات والمقارنة بينها ، وبذلك تكمل الرواية وتحقق
الدراية ما عسى أن يكون في الخبر من تحريف أو مبالغة أو تزوير .
إذ كثيراً ما يتطرق الكذب إلى الروايات تشيئاً لرأي أو زلفى لحاكم
أو رئيس وما إلى ذلك مما سيأتي بيانه . فهناك صنائع للأخبار والروايات
يدلسون ويضيفون لحاجة في نفوسهم . وما أحوج المؤرخ إلى اطلاع واسع
ومعرفة مستفيضة تعينه على النقد والتحصيل . ولا بد له أيضاً من دقّة
في الملاحظة تكشف له عن الأمور الثابتة والعرضية وتقيس الغائب بالشاهد ،
فتقارن بينها وتوازن لمعرفة ما بين الشاهد والغائب من الوفاق ، أو بَوْن
ما بينها من الخلاف ، وتعليل ما يتفق منها وما يختلف .

ويعدد ابن خلدون الأسباب التي يتطرق الكذب للخبر من قبلها .
« فمنها التشيعات للآراء والمذاهب : فإن النفس إذا كانت على حال
الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التحصيل والنظر حتى تتبين
صدقه من كذبه ، وإذا خامرها تشييع لرأي أو نيحة قبلت ما يوافقها من
الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشييع غطاء على عين بصيرتها عن
الانتقاد والتحصيل فتقع في قبول الكذب ونقله ؛

« ومن الاسباب المقتضية للكذب في الاخبار ايضاً الثقة بالناقلين ،
وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح ؛
« ومنها الذهول عن المقاصد : فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما
عين او سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب ؛
« ومنها توهم الصدق وهو كثير ، وإنما يحيى في الاكثر من جهة الثقة
بالناقلين ؛

« ومنها الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من
التلبيس والتصنع ، فينقلها المخبر كما رآها ، وهي بالتصنع على غير الحق
في نفسه ؛

« ومنها تقرّب الناس في الاكثر لأصحاب التجلّة والمراتب بالثناء
 والمدح وتحسين الاحوال وإشاعة الذكر بذلك ، فيستفيض الإخبار بها على
غير حقيقة . فالنفوس مولعة بحب الثناء ، والناس متطلعون الى الدنيا
 وأسبابها من جاه او ثروة ، وليسوا في الاكثر براغبين في الفضائل ولا
متنافسين في اهلها ؛

« ومن الاسباب المقتضية له ايضاً - وهي سابقة على جميع ما تقدم -
الجهل بطبائع الاحوال في العمران : فان كل حادث من الحوادث - ذاتاً
كان او فعلاً - لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من
احواله . فاذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود
ومقتضياتها ، أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب ، (١) .
وهكذا فانه « كثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط
في الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غشاً او سميناً ، لم
يعرضوها على اصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة
والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار ،
فضلّوها عن الحق وقاهوا في بيسداء الوم والغلط ، ولا سيما في احصاء

الأعداد من الاموال والعساكر اذا عرضت في الحكايات ، إذ هي مُظنة الكذب ومطية الهذر ، ولا بد من ردها الى الاصول وعرضها على القواعد ، (١) .

« وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني اسرائيل وأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه ، بعد ان اجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها ، فكانوا ستمائة الف او يزيدون ، (٢) .

فالمسعودي هنا انما وقع في شطط لا يقرّه عقل لأنه كان جاهلاً بطبائع الاحوال : إذ كيف يتسع التيه لمثل هذا العدد الضخم ؟ كيف يصطف مثل هذا الجيش الجرار ويتحرك للقتال في تلك الارض الضيقة ؟ وكذلك كان المسعودي جاهلاً بطبيعة العمران نفسه فضلاً عن جهله بطبيعة الاحوال حين رعم مثل هذا الزعم : فالقاعدة التاريخية ان « لكل مملكة من الممالك حصّة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها . تشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة » . وان مملكة يكون لها من حملة السلاح ستمائة الف او يزيدون ينبغي لحدودها ان تتعدى المدى الذي عُرف لمملكة اسرائيل قديماً . فما دام ذلك لا يُعقل حصوله في الآتي (الحاضر) فكذلك لا يُعقل حصوله في الماضي « فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء » (٣) .

لذلك كان لزاماً علينا في تحقيق الاخبار ان نعرضها على مقياس العقل والبرهان ونقارن الوقائع التاريخية بأشبابها . ذلك ان الظروف المتشابهة ينتج عنها في نظر ابن خلدون وقائع متشابهة ، الأمر الذي يجعلنا نستطيع بمعرفة الحاضر معرفة صحيحة ان نعرف ما لم يتكامل لنا معرفته من

١ - صفحة ٢١٩ - ٢٢٠ .

٢ - صفحة ٢٢٠ .

٣ - صفحة ٢٢٠ .

الحوادث الماضية ، بل نستطيع في ضوء الحاضر استشفاف امور المستقبل .

وإذ قد بين ابن خلدون جملة المزالق والأسباب التي توقع المؤرخين في الكذب ، كان لا بدّ له من إيجاد المعايير التي يستطيع بها كل مؤرخ وكل قارئ للتاريخ تمحيص الاخبار وتمييز صدقها من كذبها . وهذه المعايير قد استفاد ابن خلدون بعضها على الأقل من علم التعديل والتجريح في الحديث . وهي على درجات . أهمها معرفة « طبائع العمران » ، وهو احسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الاخبار وتمييز صدقها من كذبها . وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة ، ولا يُرجع الى تعديل الرواة حتى يُعلم ان ذلك الخبر في نفسه ممكن او ممتنع . وأما اذا كان مستحيلا فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح . ولقد عدّ اهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل . وإنما كان التعديل والتجريح هو المُعتبر في صحة الاخبار الشرعية لأن معظمها تكاليف انشائية اوجب الشارع العمل بها ، حتى حصل الظن بصدقها . وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط .

« وأما الاخبار عن الواقعات فلا بدّ في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة . فلذلك وجب ان يُنظر في إمكان وقوعه ، وصار فيها ذلك أم من التعديل ومقدماً عليه إذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط ، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة . وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة ان ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ، ونميز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً لا يُعتدّ به وما لا يمكن ان يعرض له . وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الاخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه . وحينئذ فلإذا سمعنا عن شيء من الاحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه ، وكان

ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه ،^(١) .

في هذا النص بيان للمعايير التي يقترحها ابن خلدون لتحيص الاخبار . فأول شيء يجب على المؤرخ ان يقوم به هو دراسة الاحوال العامة للعمران في العصر الذي يعالجه والأوضاع التي تسود فيه . ثم يبدأ بعد ذلك بتطبيق ما نسميه اليوم (المنهج التاريخي المقارن) فيوازن ويقارن بين الوقائع الخاصة في العصر الذي يدرسه ، ويبين الوقائع الماثلة لها في العصور الاخرى والروح العامة التي تسود في كل عصر ، والظروف الخاصة بكل واقعة من الوقائع . وعندئذ سيظهر له ان ثمة وقائع مستحيلة يجب اسقاطها نهائياً ولا مجال للنظر في تعديلها او تحييصها فهي زائفة أساساً . وهناك وقائع محتملة يجب دراسة كل منها على حدة وفق الاحوال العامة للعصر الذي وقعت فيه ، وبذلك نستطيع معرفة نصيبها من الصحة ومن الزيف . وأما الاخبار الشرعية فهي لما كانت تكاليف انشائية أي مجرد اوامر ونواه ، فالمطلوب فيها توثيق الرواة ومعرفة ما يمكن ان يوجه اليهم من تجريح كما يقول رجال الحديث . فالمنهج المقارن إذن يكشف لنا أولاً عن الوقائع المستحيلة فتستبعد ، ثم الوقائع المحتملة فتستبقى الى ان يُثبت في امرها ويُعرف ما يكون فيها من الصحة والزيف .

ولكن يؤخذ على ابن خلدون هنا انه وضع نظرية دون ان يتم بتطبيقها . فهو قد ذكر مغالط المؤرخين وبين المعايير التي يُعرف بها صدق الخبر من كذبه ، ومع هذا فإنه في كتابه (العبر) لم يطبق هذه المعايير في رواية الاخبار بل سار سيرة المؤرخين السابقين الذين تقدم ، وارتكب نفس المغالط التي ارتكبوها ونقل روايات ضعيفة لا تثبت امام النقد . ولعله لم يجد من الوقت متسعاً لتطبيق نظرياته على كل اجزاء التاريخ

فترك للأجيال اللاحقة هذه المهمة ، بل لعله وضع مؤلفه التاريخي أولاً ثم اتبعه بكتابة (المقدمة) بعد ذلك على عادة المؤلفين ، وإن كان المشهور غير ذلك ، وعندئذ يكون من الصعب استدراك ما فات . ومهما تكن بواعثه على هذا التقصير فذلك لا يعفيه من المسؤولية .

وهناك ناحية أخرى ظهر فيها فضل ابن خلدون وجعلت له ميزة على سائر المؤرخين الذين سبقوه أو عاصروه ، ويمكن ان تعدّ نتيجة منطقية لنظريته العلمية في فهم التاريخ . وهي اهتمامه بتقصي الاسباب والعلل والدواعي للواقعات والحوادث . فقد تبين له بعد استقراء حوادث التاريخ ودراستها ان اكبر قواعد البحث التاريخي هي ان الحوادث يرتبط بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول . ولذلك نجده في (المقدمة) يقرر استقراءاته في صورة قضايا عامة ثم يبدأ في تحليلها بذكر عبارتي « والسبب في ذلك » ، « وذلك لان » . ويقرر ابن خلدون رأيه في ربط الاسباب بالمسببات بقوله : « أتنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الاسباب بالمسببات واتصال الاكوان بالاكوان واستحالة بعض الموجودات الى بعض »^(١) . وقوله ايضاً في تعريف التاريخ بأنه « نظر وتحقيق » ، وتعليل للكائنات ومباديا دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق »^(٢) . ولذلك ينقد من سبقه من المؤرخين لغفلتهم عن ذكر أسباب الوقائع والأحداث . فهم يحافظون « على نقلها وما او صدقاً ، لا يتعرضون لبدايتها ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتها وأظهر من آيتها ، ولا علة الوقوف عند غايتها »^(٣) . فالتاريخ ظاهرة طبيعية كأي ظواهر الطبيعة الأخرى ، لها قوانين وسنن تسير على مقتضاها وتجري في مجار تهيئها لها عوامل مختلفة في ظل قانون السببية الذي تخضع

١ - صفحة ٣٥٢ .

٢ - صفحة ٢٠٩ .

٣ - صفحة ٢١٢ .

له الاحوال الطبيعية سواء بسواء . فلكل حادث سبب معقول يرجع اليه حدوثه . فإذا تبينت الاسباب فهت الحادث وأثبتته ، وإلا حق لك ان ترقاب وتبحث . هذا هو قانون السببية يجب تطبيقه على التاريخ وحوادث التاريخ ، بعد ان كان مقصوراً على الطبيعة وظواهر العالم المادي .

وإذا كانت غاية العلم التنبؤ ، وإذا كان ابن خلدون ينادي بإدخال السببية في مجال البحث التاريخي ، ولما كانت معرفة السبب من شأنها ان تساعد على معرفة المسبب ، فإن ملامح المستقبل لا بد ان تعود الى اسباب تتفاعل في الوقت الحاضر . وإذن فالمستقبل يمكن التنبؤ به ، او على الاقل هناك اساس علمي للتنبؤ بالمستقبل وبالتالي فالتاريخ علم .

وهناك ناحية اخرى ايضاً تسمو بابن خلدون الى مقام رفيع جداً ، وذلك لتعرضه لوجهة نظر جديدة تنظر الى التاريخ باعتباره سلسلة من التغيرات الاجتماعية التي لا تقف عند حد . فقد عني ابن خلدون بظاهرة الصيرورة او فكرة التطور التدريجي في الحياة الاجتماعية عناية فائقة ، وكان ذلك حجر الزاوية في تحقيقاته التاريخية . وهو يعد من هذه الوجهة ايضاً متفوقاً على جميع المؤرخين الذين تقدموا عليه او كانوا معاصرين له . فقد لاحظ بمنتهى سداد الرأي تبدل الاحوال في الامم والأجيال ، وتنبه الى ان لكل جيل احواله وعوائده التي لا تبقى على وتيرة واحدة بل تختلف باختلاف الزمان والمكان . يقول ابن خلدون : « ومن الغلط الخفي في التاريخ الدهول عن تبدل الاحوال في الأمم والأجيال بتبدل الاعصار ومرور الايام . وهو داء دوي شديد الخفاء ، إذ لا يقع إلا بعد احقاب متطاولة ، فلا يكاد يتقطن له إلا الآحاد من اهل الخليفة . وذلك ان احوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، إنما هو اختلاف على الايام والأزمنة وانتقال من حال الى حال . وكما يكون ذلك في الاشخاص والأوقات والأمصار ، فكذلك يقع في الآفاق

والاقتطار والازمنة والدول . سنة الله قد خلت في عبادته ، (١) .

ولئن بدت هذه الملاحظة في ايماننا من الوضوح بحيث لا تحتاج الى فضل بيان ، فما ذلك إلا لأن التقدم العلمي الهائل في الوقت الحاضر قد جعل الاحداث تترى سراعاً ، والتغيرات تتتالي كالبرق ، وأساليب الحياة تتبدل بين عشية وضحاها . لقد أَلَفْنَا التبدل والتغير في هذا العصر حتى لم نعد نتصور الأمور تجري على خلاف ما نرى . فالتاريخ اليوم يسير في دقائق معدودة ما لم يسره في آلاف السنين في الماضي . انه يقفز قفزات مذهلة لا ندري الى أين ستفضي بنا . فإذا جاء رجل في القرن الرابع عشر كإبن خلدون ولمح بنظرته الشاملة المستوعبة ديبب التاريخ في وقت كان كل شيء يبدو ساكناً راكداً لا حراك فيه ، كان ذلك دليلاً على عبقرية الرجل وبعد نظره وقوة ملاحظته .

لذلك ليس بصحيح ما اتهم به ابن خلدون من انه عدو فكرة التطور والتقدم في التاريخ . فهو في الواقع اول من قال بهذه الفكرة وأول من نادى بها بين المؤرخين القدماء ، وهي جماع الامر كله في فلسفة التاريخ ، لان فلسفة التاريخ إنما تنصب على فكرة التقدم المطلق للحياة البشرية . وهي فكرة لم تظهر — إذا استثنينا ابن خلدون — إلا في القرن الثامن عشر في اوروبا ، بعد ان أنضجتها تجارب وأحداث كثيرة ، ومهد السبيل اليها ما بلغته الانسانية آنذاك من تقدم نسبي في العلم والمعرفة . وبمقدار ما كان من الصعب ان يتطرق الذهن اليها قبل ذلك اصبح من السهل رؤيتها بعد ان تبلورت واتضحت معالمها . واما ابن خلدون فقد نفذ اليها ببصره واستشف جميع أبعادها وهي لا تزال جنيئاً في ضمير الغيب .

وأخيراً يدرك ابن خلدون مبلغ شمول موضوعه وتشابكه بغيره من

الموضوعات الأخرى ، عندما يؤكد ان المؤرخ الصحيح محتاج الى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبها الى الحق وينكبان به عن المزالات والمغالط . لان الاخبار اذا اعتُمد فيها مجرد النقل ولم تُحكّم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال من الاجتماع الانساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها العشور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق^(١) .

ويوضح ابن خلدون ما يقصده بالمأخذ والمعارف في موضع آخر من (المقدمة) فيقول : « فإذا احتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق والعوائد والنسحل والمذاهب وسائر الاحوال ، والاحاطة بالحاضر من ذلك ، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق ، او بون ما بينها من الخلاف ، وتعليل المتفق منها والمختلف ، والقيام على اصول الدول والملل ، ومبادئ ظهورها واسباب حدوثها ، ودواعي كونها ، واحوال القائمين بها ، واخبارهم ، حق يكون مستوعباً لاسباب كل حادث ، واقعاً على اصول كل خبر . وعندئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والاصول ، فان وافقها وجري على مقتضاها كان صحيحاً ، وإلا زيفه واستغنى عنه »^(٢) .

فالحدث التاريخي اذن ليس بسيطاً ، بل هو ظاهرة معقدة متعددة الوجوه والجوانب يحتاج تفسيرها الى الكثير من الحذر . ومعنى هذا ان علم التاريخ لا يكتفي بنفسه ، وإلا كان يدور في الفراغ . فهو محتاج الى العلم باصول العادة وقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم في سيرها واخلاقها وعوائدنا ونحلكها باختلاف الزمان والمكان والنخ . وأسباب ذلك كله . وبالتالي ان علم التاريخ محتاج الى علم العمران لا يستغني عنه ، فلا قيام له إلا به ، وإلا كان نقلاً للحوادث وسرداً للوقائع لا يتميز فيه غثه من ثمينه .

١ - صفحة ٢١٩ .

٢ - صفحة ٢٥١ - ٢٥٢ .

والفرق بين التاريخ وعلم العمران « ان التاريخ إنما هو ذكر الاخبار الخاصة
 بعهد او جيل . فأما ذكر الاحوال العامة للآفاق والاجيال والاعصار فهو
 أس* للمؤرخ تنبني عليه اكثر مقاصده وتبين له اخباره » ^(١) وهذا هو علم
 العمران . فعلم العمران اذاً هو أس* لعلم التاريخ . او قل هو موضوع علم
 التاريخ ^(٢) . فكيف يستغني العلم عن موضوعه ؟ وبعبارة اخرى « ان
 حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض
 لطبيعة ذلك العمران من الاحوال كالتوحش والتأنس والعصبيات واصناف
 التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول
 ومراتبها ، وما ينتحله البشر باعمالهم ومساعيمهم من الكسب والمعاش والعلوم
 والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران من الاحوال » ^(٣) . فإذا كان
 التاريخ خبراً عن الاجتماع الانساني فكيف يستغني الخبر عن الخبر عنه ؟
 فحاجة التاريخ الى علم العمران واضحة اذن لا نزاع فيها .

هذا هو مجمل آراء ابن خلدون في التاريخ اشتهرت فيما بعد باسم
 (فلسفة التاريخ) لأن اصحابها يستنبطون نظرياتهم من حقائق التاريخ .
 ويطلق على هذه الآراء ايضاً اسم (فلسفة الحضارة) لأنها دراسة للحضارة
 الانسانية في تناسقها الداخلي وسيرها المنظم . وأول من لمس هذه البحوث
 لمساً خفيفاً رقيقاً هو المؤرخ اليوناني توكيديدس Thucydide الذي ظهر
 في القرن الخامس قبل الميلاد وكتب في تاريخ حروب البيلوبونيز . وكانت
 له نظرات عامة في تاريخ اليونان ضمّنها تفسيراً للأحداث ونقداً لها ،
 ولكنه لا يسمو الى مرتبة ابن خلدون في العمق والشمول وقوة التحليل
 والتعليل . فضلاً عن ان هذا الاخير لم يطلع على كتابات توكيديدس ولم
 يكن في مقدوره ان يطلع عليها لا شيء إلا لأنها لم تنقل الى العربية .

١ - صفحة ٢٥٧ .

٢ - صفحة ٢٦٥ .

٣ - صفحة ٢٦١ .

فابن خلدون اذن هو مؤسس فلسفة الحضارة والتاريخ ، لأنه اول من عالج شؤون الحضارة والتاريخ بصورة علمية منظمة .

وأول من افتح هذه البحوث في اوروبا العلامة الايطالي فيكو Vico (المتوفى سنة ١٧٤٤) في كتابه (العلم الحديث) Science nouvelle الذي ظهر بعد (مقدمة ابن خلدون) بأكثر من ثلاثة قرون . وكان لبحوث فيكو صدى كبير في الدراسات الاجتماعية حتى لقد عدّه بعضهم بسبب هذه البحوث أبا لعلم الاجتماع . وقد شاعبه في بحوثه هذه عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين أشهرهم ليسنغ Lessing وهردر Herder وكنط Kant في المانيا ، وفولتير وكوندورسيه Condorcet في فرنسا . وميزة ابن خلدون من هؤلاء ، وأمثالهم انه كان طليعتهم جميعاً ، وأن بحوثه لا تعتمد إلا على الملاحظة واستقراء الحوادث كما تقدم معنا ، ولا تستهدف غير الاغراض العلمية الخالصة ، بينما نرى ان جميع من بحثوا في فلسفة التاريخ من بعده قد تأثرت دراساتهم بعوامل متعددة ، فاختلط فيها الاتجاه العلمي بالتوجيه الفلسفي والميول الشخصية ، فخرج كل واحد منهم بنظرية في الحضارة تتفق مع مذهبه هو . ثم ان اولئك المفكرين الاوروبيين قد انحصرت دراساتهم في تطور الحضارة ، وأما ابن خلدون فكانت دراسته شاملة للحضارة الانسانية في مجموعها ، سواء في ذلك نواحي التطور او نواحي السكون والقرار فيها . فدراسة ابن خلدون اذن اوسع مضموناً وأسلم منهجاً .

لذلك لم يكن توينبي Toynbee شيخ المؤرخين المعاصرين وفيلسوفهم - مبالغاً حين قال في كتابه (دراسة التاريخ) : « ان ابن خلدون قد انتج اعظم كتاب من نوعه ابدعه انسان في كل زمان ومكان ، » .
علم العمران

قلنا ان علم العمران عند ابن خلدون هو موضوع التاريخ . لذلك فان

تمحيص التاريخ انما يكون بمعرفة طبائع العمران ، وهو احسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الاخبار وتمييز صدقها من كذبها . فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ، ونميز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً لا يُعتدُّ به وما لا يمكن ان يعرض له . وعندئذ فاذا جمعنا عن شيء من الاحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه ، وكان لنا ذلك معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب . فعمل العمران اذن انما هو امتداد لعلم التاريخ الذي لا يكمل إلا به ^(١) .

ويفخر ابن خلدون بأنه هو واضع هذا العلم ومبدعه ، او على حد تعبيره ، أطلعه الله عليه « من غير تعليم ارسطو ولا إفادة موبدان » ^(٢) . فلقد أحسَّ ابن خلدون بأصالته وجدة عمله وأنه من فتوحات العقل في لحظات الوحي والإلهام التي سالت « فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر ، حتى امتخضت زبدتها وتآلفت نتائجها » كما يقول .

اجل انه علم مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ، أعر عليه البحث وأدى اليه الفوث ، وليس هو من علم الخطابة الذي موضوعه الاقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور الى رأي او صدم عنه . ولا هو ايضاً من علم السياسة المدنية التي موضوعها تدبير المنزل او المدينة بما يجب بمقتضى الاخلاق والحكمة ، ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه ^(٣) .

انه علم مستنبط النشأة لم يقف ابن خلدون على الكلام في منحاه لأحد من الخليفة ، لا لغفلتهم عن ذلك ، فلعلهم كتبوا فيه واستوفوه

١ - المقدمة ، ج ١ صفحة ٢٦٤ - ٢٦٥ .

٢ - صفحة ٢٦٨ .

٣ - صفحة ٢٦٦ .

لم يصل اليُنا . فالعلوم كثيرة والحكماء متعددون ، وما لم يصل اليُنا من العلوم أكثر مما وصل ^(١) .

وكل ما وقع لابن خلدون من مسائل هذا العلم عند القدماء انما هي كلمات متفرقة لحكماء الخليفة غير مستوفاة ، ولكنها لا تخلو من العبرة . وحتى كتاب ارسطو في (السياسة) ليس فيه شيء ذو بال ولا معطى حقه من البراهين ، فضلاً عن أنه مختلط بغيره . وكذلك نجد في كلام ابن المقفع وما يُستطرد في رسائله من ذكر السياسات ، الكثير من المسائل التي وردت في (المقدمة) ، ولكنها غير مبرهنة ، فهو انما يذكرها على منحنى الخطابة في اسلوب الترسل وبلاغة الكلام ، وهذا لا يغني في البحث العلمي . وكذلك لمس القاضي ابو بكر الطرطوشي في كتابه (سراج الملوك) هذا العلم لمأ خفيفاً ، فبوّبه على ابواب تقترب من ابواب (المقدمة) ومسائلها ، ولكنه لم يصادف فيه الرمية ولا اصاب الغرض ولا استوفى المسائل ولا اوضح الادلة ، انما هو يبوّب الباب للسالة ثم يستكثر في الأحاديث والآثار وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس والهند والمأثور عن دانيال وهرمس وغيرهم ، ولا يكشف عن التحقيق قناعاً ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجاً ، انما هو نقل وتركيب شبه بالمواعظ ، فكانه حوّم على الغرض ولم يصادفه ، ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله . وأما ابن خلدون فانك اذا تأملت كلامه في فصل الدول والملك وأعطيته حقه من التصفح والتفهم عثرت في اثناؤه على تفسير ما جاء عند غيره غامضاً ، وتفصيل اجماله مستوفى بأوعب بيان وأوضح دليل وبرهان ^(٢) .

ولا يمكننا بالطبع ان نأتي هنا على جميع مسائل هذا العلم عند ابن خلدون ، ولذلك فسكتفي بأهمها .

١ - صفحة ٢٦٦ .

٢ - صفحة ٢٦٨ - ٢٦٩ .

نشأة العمران

ان الاجتماع الانساني ضروري . ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم « الانسان مدني بالطبع » ، فالبشر لا يمكن حياتهم ووجودهم إلا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروراتهم . واذا اجتمعوا دعت الضرورة الى المعاملة واقتضاء الحاجات ، ومدت كل واحد منهم يده الى حاجته يأخذها من صاحبه ، لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض ، فيأمنه الآخر عنها بمقتضى الغضب والأنفة ومقتضى القوة البشرية في ذلك ، فيقع التنازع المفضي الى المقاتلة وسفك الدماء وإزهاق الأرواح ، وتكون النتيجة انقطاع النوع الانساني ، وهو مما خصه البارئ سبحانه بالمحافظة وكتب له البقاء . لذلك يستعمل بقاء الناس فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض . وهذا الوازع يجب ان يكون واحداً منهم تكون له الغلبة والسلطان واليد القاهرة ، حتى لا يصل احد الى غيره بعدوان . وهذا معنى الملك . وهو خاصة للناس طبيعية لا بد لهم منها . وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم كالنحل والجراد لما استقرى فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من اشخاصها متميز عن سائرهما في خلقه وجثثانه ، إلا ان ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الفطرة والهداية ، لا بمقتضى الفكرة والسياسة ^(١) .

ان البشر لا بد لهم من الحكم الوازع . ويعتقد بعض الفلاسفة ان ذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر ، وانه لا بد ان يكون متميزاً عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه ، حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير إنكار ولا تزيف . وهذه القضية في نظر ابن خلدون غير برهانية ، اذ الوجود وحقيقة البشر قد تم من دون نبوة وشرع سماوي ، بما يفرضه الحاكم لنفسه او بالعصية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته . فاهل الكتاب والمتبعون للأنبياء قليلون

بالنسبة الى الجيوس الذين ليس لهم كتاب فانهم اكثر اهل الأرض ، ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلاً عن الحياة ^(١) .

هذا ورغم ان البواعث على الاجتماع وال عمران واحدة عند الناس جميعا ، فإن المجتمعات مختلفة . والسبب في ذلك انهم لا يعيشون في اقليم واحد بل هم موزعون على اقاليم متعددة تختلف فيما بينها في طبيعة الارض والتربة والهواء وما ينتج عن ذلك من اختلاف وجوه المعاش وطريقة الحياة .

أثر الاقليم

يعزو ابن خلدون الى الاقليم تأثيراً خاصاً . فهو عنده أساس هام لاختلاف الظواهر الاجتماعية . فالى اختلاف الاقاليم يرجع في نظره اختلاف الناس في ألوانهم وجسومهم وميولهم وامزجتهم وسلوكهم وتصرفاتهم وكثير من صفاتهم البدنية والخلقية ، والى ما يعود ما يميز المجتمعات بعضها من بعض في العادات والتقاليد والافكار وشؤون الاسرة ونظم الحكم والسياسة . فالامم تختلف ألوانها ونشاطها وشجاعتها وكثرة عددها او قلتها وما فطرت عليه من الطبائع باختلاف مساكنها على سطح الأرض من جبل او سهل او صحراء ، ومن منطقة باردة او حارة او معتدلة ، ومن منزل خصب الى واد غير ذي زرع

لهذا يقسم ابن خلدون المعمور من الأرض الى سبعة اقاليم متساوية في العرض مختلفة في الطول . فالاقليم الاول اطول مما بعده ، وكذا الثاني الى آخرها ، فيكون السابع اقصرها . وتضعف درجة العمران تبعاً لتوزيع الحرارة والبرودة في هذه الاقاليم : فكلما أفرط الحر او البرد قل العمران ، وكلما اعتدلا استفحل العمران واشتد . وهذه الاقاليم تبدأ من خط الاستواء . فالاقليم الاول والثاني اقل عمراناً مما بعدهما ، وما وجد من عمران فيتنقله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندي الذي في الشرق منها . وأمم هذين الاقليمين وأناسيها ليست لهم الكثرة السالفة ، وامصاره ومدنه كذلك .

والثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك : فالقفار فيها قليلة ، والرمال كذلك او معدومة ، وأممها وأناسيها تجوز الحد من الكثرة ، وأمصارها ومدنها تجاوز الحد عدداً ، والعمران فيها مندرج ما بين الثالث والسادس . والجنوب خلاء كله، وذلك لإفراط الحر وقلة ميل الشمس عن سمت الرؤوس^(١) والعمران فيه اما ممتنع او ممكن أقل . وكذلك الشمال حيث ينقطع التكوين لإفراط البرد والجفاف . إلا أن الخلاء فيه اقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب . وليس وراءه إلا الخلاء والقفار كالحال فيما وراء الاقليم الاول من جهة الجنوب . فالحر يكون عند المسامته، وما يقرب منها اكثر منه فيما بعد، لأن الضوء سبب الحر والتسخين . وإفراط الحر يفعل في الهواء تجفيفاً ويبيساً يمنع من التكوين . وكلما نزلت الشمس عن المسامته صار الحر الى الاعتدال... فيكون التكوين ، ويتزايد على التدرج الى ان يفرط البرد في شدته ... فينقص التكوين ويفسد . إلا ان فساد التكوين من جهة شدة الحر اعظم منه من جهة شدة البرد ، لأن الحر اسرع تأثيراً في التجفيف من تأثير البرد في الجهد... وأن كيفية البرد لا تؤثر عند اولها في فساد التكوين كما يفعل الحر، إذ لا تجفيف فيها إلا عند الافراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع . فلهذا كان العمران في الربع الشمالي اكثر وأوفر ، والله اعلم ،^(٢) .

هذا وان تاريخ الحضارة يؤيد قول ابن خلدون بوجود علاقة وثيقة بين درجة الحرارة ودرجة العمران : فالحضارات العريقة كالحضارة المصرية والبابلية والفارسية واليونانية والرومانية والعربية انما نشأت في الاقاليم المعتدلة وما جاورها وهي التي يسميها ابن خلدون بالاقليم الثالث والرابع والخامس ، وما ذلك إلا لأن سكانها اعدل اجساماً وألواناً وأخلاقاً وعقلاً وأدياناً ، حتى ان النبؤات انما وجدت فيها كما يقول ابن خلدون .

١ - صفحة ٢٨٥ .

٢ - صفحة ٢٨٧ - ٢٨٨ .

أما ما يذكره ابن خلدون من ان استفحال العمران في الاقاليم المائلة الى البرودة أكثر منه في الاقاليم المائلة الى الحرارة فهو ايضاً صحيح ، وما ذلك إلا لأن الحرارة تسبب الخمول والكسل .

وعلى كل حال يؤكد ابن خلدون ان المعمور من هذا المنكشف من الارض إنما هو وسطه : لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال . ولما كان الجنبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد ، وجب ان تتدرج الكيفية من كليهما الى الوسط فيكون معتدلاً . فالاقليم الرابع أعدل العمران ، والذي حافته من الثالث والخامس اقرب الى الاعتدال ، والذي يليها من الثاني والسادس بعيدان من الاعتدال ، والاول والسابع أبعد بكثير . فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات كالفواكه ، بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال . وسكانها من البشر أعدل أجساماً والواناً واخلاقاً وادياناً . حق النبوات فلانما توجد في الاكثر فيها ... واهل هذه الاقاليم اكمل لوجود الاعتدال لهم : فتجدم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم واقواتهم وصنائعهم ... ويبعدون عن الانحراف في عامة احوالهم . وهؤلاء اهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقيين والهند والسند والصين ، وكذلك الاندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين ، ومن كان مع هؤلاء او قريباً منهم في هذه الاقاليم المعتدلة . ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لأنها وسط من جميع الجهات ، (١) .

وهذا القول ينم عن ملاحظة دقيقة ما لبث ابن خلدون ان أيدها بالمقارنه بينها وبين سكان المناطق المختلفة عنها واثر المناخ في طريقة بنائهم للمساكن ومعاملاتهم ونظم معيشتهم ، وكلها لا تخرج في روحها عما نقرؤه في كتب الانثروبولوجيا وعلماء الاجناس المحدثين . ويستطرد ابن خلدون في كلامه على احوال المناطق البعيدة عن الاعتدال قائلاً :

« واما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الاول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع احوالهم: فبناؤهم بالطين والقصب، واقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من اوراق الشجر يخصصونها عليهم او الجلود، وأكثرهم عرايا من اللباس، وفواكه بلادهم وأدومها غريبة التكوين مائلة الى الانحراف... وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات المعجم. حتى لينقل عن الكثير من السودان اهل الاقليم الاول انهم يسكنون الكهوف والغيابض ويأكلون العشب، فانهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضاً. والسبب في ذلك انهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض امزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات المعجم، ويبعدون عن الانسانية مقدار ذلك^(١).

وكذلك احوالهم في الديانة ايضاً: فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جانب الاعتدال وهو في الاقل النادر: مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الاسلام وما بعده الى هذا العهد، ومثل اهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالاسلام لهذا العهد... ومن سوى هؤلاء من اهل تلك الاقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً... فالدين مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم، وجميع احوالهم بعيدة من احوال الاناسي قريبة من احوال البهائم^(٢).

والحر يورث ايضاً الخفة والطيش والحق وكثرة الطرب. ويضرب ابن خلدون مثلاً لذلك بالسودان الذين نجدهم «مولعين بالرقص على كل توقيع، موصوفين بالحق في كل قطر»^(٣) كما يقول. والسبب في ذلك ان للهواء تأثيراً في اخلاق البشر. فالحرارة مفسية للهواء والبخار، مخلخلة له زائدة في كميته، ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه ومن هنا طيشه وخفته.

١ - صفحة ٣٣١.

٢ - صفحة ٣٣٢.

٣ - صفحة ٣٣٦.

وهذا شبيه بما يحدث للمتغنين بالحمائم اذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في ارواحهم فتسخنت لذلك ، حدث لهم فرح ، وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور . اما سكان التلول الباردة فانهم متحفظون لا يظهرون مشاعرهم ويتميزون بالرصانة والرزانة وبُعْد النظر والتدبر في العواقب ، لا سيما امور المعاش فترام مطرقين اطراق الحزن يفرطون ، في نظر العواقب ، حتى ان الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويبيكر الاسواق لشراء قوته ليومه مخافة ان يُرْزَأ شيئاً من مدخره ، (١) .

هذا واذا كان الاقليم المعتدل هو اصلح الاقاليم للحياة فليس معنى هذا ان جميع الاقاليم المعتدلة يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد العيش ، بل فيها ما يوجد لأهل خصب العيش من الحبوب والحنطة والفواكه لزكاه المتأبث واعتدال الطبيعة ووفور العمران ، وفيها الارض الجذباء التي لا تنبت زرعاً ولا عشباً . فطبيعة الارض والتربة لها دخل في الابدان والطباع ، الأخلاق . ان سكان الارض المجذبة كأهل الحجاز مثلاً تجدم يقتصرون في غالب احوالهم على الالبان فتموضهم من الحنطة والحبوب والفواكه احسن معاض . وهم احسن حالاً في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش : فألوانهم أصفى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتم وأحسن وأخلاقهم أبعد من الانحراف وأذهانهم أثقب في المعارف والادراكات . والسبب في ذلك ان كثرة الاغذية وكثرة الاخلاط الفاسدة العفنة ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بعد اقطارها في غير نسبة ، ويتبع ذلك انكشاف الألوان وقبح الاشكال من كثرة اللحم ، وتغطّي الرطوبات على الازهمان والأفكار بما يصعد الى الدماغ من انجرتها الرديئة ، فتجنيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال . فإنا نجد اهل الاقاليم الخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والفواكه يتصف اهلها غالباً بالبلادة في اذهانهم والترهل في اجسامهم .

١ - نفس المصدر والصفحة .

واعلم ان أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة . فنجد المتقشفين من اهل البادية او الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ احسن ديناً وإقبالاً على العبادة من اهل الترف والخصب ، بل نجد اهل الدين قليلين في المدن والأمصار لما يعمتها من القساوة والغفلة المتصلة بالإكثار من اللحم والأُدْم ولُبَاب البُر . ويختص وجود العبادة والزهادة لذلك بالمتقشفين في غذائهم من اهل البوادي . وكذلك نجد حال اهل المدينة الواحدة في ذلك مختلفاً باختلاف حالها في الترف والخصب . وكذلك نجد هؤلاء الخصبين في العيش المتغمسين في طبيباته من اهل البادية وأهل الحواضر والأمصار اذا أصابهم القحط وأخذتهم المجاعة يسرع اليهم الهلاك اكثر من غيرهم لأنهم لم يعتادوا قلة الاقوات وفقدان الأدم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء . وأما المتعودون على الخشونة والجوع فيسلمون من الهلاك الذي يعرض لغيرهم . فللمرء من دهره ما تعودا ^(١) .

ولابن خلدون نقد بارع لنظرية العبرانيين في لون أهل السودان . فهو يبين ان هذا اللون أثر من آثار الاقليم والبيئة لا من آثار الخرافة القائلة بأنهم اسودوا لسواد أبيهم حام الذي انقلب اسود بدعوة ابيه نوح . يقول ابن خلدون :

« وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات ان السودان هم أولاد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من ابيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه ؛ وينقلونه في ذلك حكاية من خرافات القصص . ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة ، وليس فيه ذكر السواد ، وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيداً لوُلِد اخوته لا غير . وفي القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات . وذلك ان هذا اللون شمل اهل

الاقليم الاول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب ، (١) .
وللإقليم أثر في بياض البشرة ايضاً . ويستشهد ابن خلدون على ذلك بأن
نظير « هذين الاقليمين مما يقابلها من الشمال الاقليم السادس والسابع ، شمل
سكانها ايضاً البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال ... وتوسطت بينهما
الاقاليم الثلاثة : الخامس والرابع والثالث ، فكان لها في الاعتدال - الذي
هو مزاج المتوسط - حظ وافر . والرابع ابلغها في الاعتدال غاية لنهايته في
التوسط كما قدمناه ، فكان لأهله من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه
مزاج أهويتهم . وتبعه عن جانبيه الثالث والخامس وإن لم يبلغا غاية التوسط ،
لميل هذا قليلاً الى الجنوب الحار وهذا قليلاً الى الشمال البارد ، إلا انهما لم
ينتهيما الى الانحراف . وكانت الاقاليم الاربعة منحرفة وأهلها كذلك في خلقهم
وخلقهم . فالأول والثاني للحر والسواد ، والسابع والسادس للبرد
والبياض ... » (٢) .

هذه هي مجمل الآراء التي أبداهما ابن خلدون في تأثير الاقليم في حياة
البشر وكان فيها رائداً لعلماء الغرب . فهو المصدر الاول والأصيل لجميع
البحوث المتصلة بدراسة البيئة وظواهر المناخ دراسة علمية ، لأنه اول من
عالج بطريقة علمية ظواهر البيئة وبيّن آثارها في حياة السكان ونظمهم
السياسية والاجتماعية والأخلاقية والعقلية . ثم أعقبه في أوروبا - ابتداء من
القرن الثامن عشر - ثلة من العلماء توفروا على دراسة هذه الظواهر وكشف
قوانينها والوقوف على احوالها . وأول هؤلاء هو منتسكيو في كتابه
(روح القوانين) . فقد اهتم هذا المفكر بدراسة القوانين ونظم الحكم
وعلاقتها مع الاقليم والمناخ ، وبالغ في آثار البيئة الجغرافية في احوال العمران
حتى لقد جعلها السبب الرئيسي في اختلاف الأمم في الشرائع والقوانين
والعادات والتقاليد ومستوى الحضارة وشكل الحكومة ونظم السياسة

١ - صفحة ٣٣٢ .

٢ - صفحة ٣٣٢ - ٣٣٣ .

والاقتصاد والحرب والأخلاق الخ . ونسب الى هذه البيئة عدداً من النظم المعقّدة التي لا يمكن تفسيرها بالرجوع الى عامل واحد فقط . وقد تعسف في هذا الاتجاه حتى انتهى الى نوع من (الحتمية) الصارمة التي تربط الصفات الاجتماعية بطبيعة الارض والمناخ وتستخلصها منها على وجه الضرورة . ثم جاء بعد منتسكيو آخرون ساروا على نهجه وأمعنوا في التعسف واغتصاب النتائج ، نذكر منهم على سبيل المثال لا للحصر فريدريك راتسل F. Ratzel وجان برون J. Brunhes من أعلام مدرسة الجغرافيا البشرية ، وديبون دي غور D. de Nemours احد زعماء المذهب الفيزيوقراطي . واذا كان العلماء المعاصرون قد ثاروا على هذه الحتمية وطعنوا فيها فإن فضل السبق في ذلك انما يعود لابن خلدون ، إذ لم تلت به دراسة كما انتهت بغيره .

الباحثين الى تلك الحتمية الصارمة التي تفسر الصفات الانسانية بالخصائص الجغرافية والمناخية وحدها . فهو لم يقتصر على عامل واحد هو عامل البيئة والاقليم يفسر به كل شيء ، بل ادخل في حسابه عوامل اخرى كالدين والعصبية والظروف الاقتصادية والتربية والتعليم وغير ذلك . كما إن التأثير لا يحدث من جانب واحد فقط ، جانب الطبيعة العمياء دون الانسان بل الانسان بدوره يؤثر هو ايضاً في الطبيعة ويجعلها أداة بين يديه وحافزاً ، بعد ان كانت قيداً يكبله بالأغلال . فهو الذي صنع التاريخ والحضارة بحكم اتصاله بالآخرين وبفضل التعاون وتضافر الجهود . فلولا الانسان لما كان تاريخ ولا كانت حضارة ، ولظلت الطبيعة عمياء بكاء ليس لها من الامر شيء . فبالانسان أصبحت كل شيء وغدا هو المتحكم فيها ، المسخر لها ليصنع تاريخه وحضارته . هذا ما يقوله لسان حال فيلسوف التاريخ والحضارة في القرن الرابع عشر عبد الرحمن بن خلدون .

البدو والحضر

ان اهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلاحة والغراسة والزراعة والقيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج

فضلاتها . وهم يعيشون في القرى والارياف لأنها متسع لما لا تتسع له الحواضر في المزارع والمسارح للحيوان وغير ذلك . وهم في معاشهم إنما يقتصرون على الضروري من الاقوات والملابس المساكن وسائر الاحوال والعوائد بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلفة العيش من غير مزيد عليه . وهم يتخذون البيوت من الشعر والوبر او الشجر او من الطين والحجارة غير مزخرفة . فهم إنما قصدوا الاستظلال والكنّ والدفء ، لا ما وراءه ، وقد يأوون الى الغيران والكهوف . وأما اقواتهم فيتناولون منها يسيراً بعلاج او بغير علاج البتة ، إلا ما مسّته النار . فمن كان معاشه منهم في الزراعة والفلاحة كان المقام به اولى من الطعن ، وهؤلاء هم سكان المدر والقرى والجبال . ومن كان معاشه في السائمة كالغنم والبقر فهم 'ظعن' في الاغلب لارتداد المسارح والمياه لحيواناتهم ؛ فالتقلب في الارض اصلح بهم . وهم لا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة . وأما من كان معاشهم في الإبل فهم اكثر ظعنًا وأبعد في القفر مجالاً ، لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا تكفي الإبل في قوام حياتها ، فضلاً عن ان الإبل تتأذى بالبرد في الشتاء ، فهي اصعب الحيوان فصلاً ونحاضاً وأحوجها الى الدفء ، فيضطر القائمون عليها الى إبعاد النجعة وطلب الكلأ في مواضعه القاصية . وربما منعتهم الحامية عن ارتياد التلول فاوغلوا في القفار أنفة ، فكانوا لذلك أشدّ الناس توحشاً . وهم ينزلون من اهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم . وهؤلاء هم العرب . وفي معنهم ظعون البربر وزناقة بالمغرب ، والاكراد والتركمان والترك بالشرق ، إلا ان العرب أبعد 'نجعة' وأشدّ بداءة لأنهم يختصون بالقيام على الإبل فقط ^(١) .

والبدو أبعد الناس عن اختلاط النسب وفساده . فالصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معنهم ، وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الاحوال وسوء المواطن . فالقفر مكان الشظف والسغب حملتهم عليه الضرورة ورُبيت فيه اجيالهم حتى صار لهم إلفاً وعادة وتمكّن

خلقاً وجبة . ولذلك لا ينزع اليهم احد من الامم ليسام في حالهم ولا يأنس بهم انسان، بل لو وجد واحد منهم السبيل الى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه ، فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط انسابهم وفسادها ^(١) .

هذا وان اهل البدو اقرب الى الخير من الحضرة الذين تلوثت نفوسهم بفضون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا . وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا فإنما ينحصر ذلك في المقدار الضروري ، لا في الترف ولا في شيء من اسباب الشهوات ودواعيها . وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق أقل بكثير مما نجده عند اهل الحضرة . فهم اقرب الى الفطرة الاولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الخلق . ولذلك يسهل علاجهم عن علاج الحضرة ^(٢) .

وكذلك اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضرة ، لأن اهل الحضرة ألقوا جنوبيهم على مهاد الراحة والدعة ، وانغمسوا في النعم والترف ، ووكلوا امرهم في المدافعة عن اموالهم وانفسهم الى واليهم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم ، واستناموا الى الأسوار التي تحوطهم . فلا تهيجهم هبة ^(٣) ولا يُنتفر لهم صيد . فهم آمنون مطمئنون قد ألقوا السلاح ، وتوالت على ذلك منهم الاجيال ، وتزوّجوا منزلة النساء والولدان . وأما اهل البدو فلأنهم لتفردم عن الأسوار والابواب ، قائمون بالمدافعة عن انفسهم لا يكلونها الى سوام ولا يثقون فيها بغيرهم . وهكذا صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية ، يرجعون اليها متى دعاهم داع او استنفرهم صارخ ^(٤) .

العصية

وكما كانت الجليل اعرق في البداوة وأكثر توحشاً كان اقرب الى التغلب

١ - صفحة ٤٢٥ .

٢ - المقدمة ، صفحة ٤١٤ - ٤١٥ .

٣ - الصوت المزعج .

٤ - صفحة ٤١٨ - ٤١٩ .

على سواء إذا تقاربا في العدد وتكافأ في القوة . والذي يُحدد هذه القوة إنما هي العصبية . فالدفاع لا يصدق إلا إذا كان القائمون به اهل عصبية وأهل نسب واحد ، لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويُخشى جانبهم ، إذ نُعرة ^(١) كل احد على نسبه وعصبيته أم . وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوي ارحامهم قوي في الطبائع البشرية ، وبها يكون التعاضد والتناصر ، وتعظم رهبة العدو لهم . فالمدوان لا يُتوهم على احد مع وجود العصبية له ^(٢) .

هذا وكل امر 'يحمل الناس عليه من نبوة او اقامة ملك او دعوة ، لا بدّ فيه من العصبية . إذ بلوغ الغرض من ذلك كله إنما يتم بالقتال عليه ، لما في طبائع البشر من الاستعصاء ، والقتال لا بدّ فيه من العصبية .

والعصبية على نوعين : خاصة وعامة . فكل حي او بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام فيبينهم ايضاً عصبيات اخرى لانساب خاصة هي أشد التحاماً من النسب العام لهم . والنُعرة تقع سواء من اهل النسب الخاص او من اهل النسب العام ، إلا أنها في النسب الخاص أشد لقرب اللُحمة ^(٣) .

والعصبيات الخاصة ليست على درجة واحدة من القوة ، ففيها العصبية الضعيفة والعصبية القوية والعصبية الاقوى فالأقوى . ولما كانت الرياسة لا تتم إلا بالغلَب، والغلَب إنما يكون بالعصبية ، فقد وجب ان تنحصر الرياسة في العصبية الاقوى وتم لأهلها . ولا تزال الرياسة فيهم ما داموا اقوياء . لأن كل عصبية منهم اذا احست بغلَب عصبية الرئيس لهم اقرؤا بالإذعان والإتباع ^(٤) .

والعصبية لا تدوم على وقيرة واحدة من القوة والمنعة ، بل هي تتبع الحسب قوة وضعفاً وتدوم بدوامه . انها كائنة فاسدة ككل شيء في العالم

١ - النعرة هي الصياح في حرب او شر. والمقصود بها هنا التعصب لذوي الارحام ونجدتهم.

٢ - صفحة ٤٢٣ .

٣ - صفحة ٤٢٨ .

العنصري . فالعلوم تنشأ ثم تدرس . وكذلك الصنائع وأمثالها ، وكذلك
الحسبُ ايضاً وبالتالي العصبية ، فإن نهايتها في اربعة ابناء :
وذلك ان باني المجد عالم بما عناه في بنائه ومحافظ على الخلال التي هي
اسباب كونه وبقائه ؟

وابنه من بعده مباشر لأبيه قد سمع منه ذلك وأخذه عنه ، إلا انه مقصر
في ذلك تقصير السامع بالشيء عن المعاني له ؛
ثم اذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة ، فقصر عن الثاني
تقصير المقلد عن المجتهد ؛

ثم اذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء
مجدم واحتقرها ، وتوهم ان ذلك البنيان لم يكن بمعاونة ولا تكلف ، وإنما
هو امر وجب لهم منذ اول النشأة بمجرد اتسايمهم ، وليس بعصاة ولا بخلال ،
لما يرى من التجارة بين الناس ، ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سببها ، ويتوهم
انه النسب فقط ، فيربأ بنفسه عن اهل عصبية ويرى الفضل له عليهم ،
ووثوقاً بما فيه من استتباعهم وجهلاً بما اوجب ذلك الاستتباع من الخلال التي
منها التواضع لهم والأخذ بجماع قلوبهم . وهكذا يحتقرهم فينفضون عنه
ويحتقرونه بدورهم وينضمون الى سواه بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله .
فتنمو فروع هذا وتذوي فروع الاول ، وينهدم بناء بيته ^(١) .

واشترائط الاربعة في الأحساب إنما هو في الغالب ، وإلا فقد يدمر البيت
من دون الاربعة ويتلاشى وينهدم . وقد يتصل امرها الى الخامس والسادس ،
إلا انه في انحطاط وذهاب . لكن الغالب اربعة اجيال : بانٍ ، ومباشر له ،
ومقلد ، وهادم . فقد جرت العادة على ان الاعقاب الاربعة غاية في الانساب
والحسب ^(٢) .

هذا وكثيراً ما يؤخذ على نظرية ابن خلدون في العصبية انها نظرية ضيقة

١ - صفحة ٤٣٥ - ٤٣٦ .

٢ - صفحة ٤٣٦ - ٤٣٧ .

جداً . فالعصبية بحسب اصحاب هذا المأخذ لا معنى لها بالنسبة الى مجتمع يوناني او روماني او حديث بل ينحصر معناها وأهميتها في المجتمعات القبلية . فهي لا تنطبق إلا على البيئات المنغلقة المنطوية على نفسها كالبدو الرُّحَّل الذين يضربون في الفيافي والقفار ولا يفتحون على العالم الخارجي، بخلاف حياة الحضرة التي تفسح المجال للاختلاط وتقوم فيها انواع متعددة من الروابط . بل حتى المجتمعات المنغلقة نفسها — ولا سيما بعض الشعوب البدائية — ليس من الضروري ان تعتمد في وحدتها على العصبية التي تعني صلة الرحم ورابطة الدم ، بل فيها نوع آخر من الروابط هو الرابطة الطوطمية ، أي اقتساب اعضاء القبيلة — انتساباً معنوياً لا دموياً بالطبع — الى أب خرافي غير تاريخي قد يكون حيواناً وقد يكون نباتاً ، وقد يكون مظهراً من مظاهر الطبيعة .. وهكذا فالرابطة هنا معنوية لا تنحصر في رابطة الدم .

ان مصدر اساءة فهم ابن خلدون في هذه المسألة في نظرنا هو إرادة قصر معنى العصبية عنده على رابطة الدم والنسب وحدها . مع ان ابن خلدون نفسه لا يقصرها على هذا المعنى ، بل يدخل فيها روابط اخرى قد تكون اكثر اهمية . فهي عنده مجرد عامل ربط وجذب . انها نوع خاص من انواع العلاقات الاجتماعية ، انها كل ما يؤدي الى وجود الجماعة المتلاحمة المتماسكة التي تستشعر فيما بينها التعاطف والحمية المتبادلة والمبادرة الى مناصرة اعضائها في « الممانعة والمدافعة » على حد تعبير ابن خلدون ، سواء كان ذلك بطريق الدم او بغير طريقه . فالعبارة إنما هي في هذه « الممانعة والمدافعة » التي تتأتى بأشكال مختلفة وصور متباينة . فهي « إنما تكون من الالتحام بالنسب او ما في معناه » وهكذا فعبارة ابن خلدون « او ما في معناه » تخرج العصبية عن مدلولها المتداول وتعطيها معنى اوسع يدخل فيه كل ما من شأنه ان يساعد على التماسك والتناصر ، وبالتالي كل ما تكون به « الممانعة والمدافعة » كالولاء والحلف مثلاً . ويؤيد ذلك قول ابن خلدون « ومن هذا الباب الولاء والحلف إذ تُعزى كل احد على اهل ولائه وحلفه للأئمة التي تلحق النفس من اهتمام

جارها او قريبها او نسيبها «^(١) فالولاء والحلف ليسا من النسب في شيء ومع هذا فهما داخلان في معنى العصبية . فاللُحمة « الحاصلة من الولاء مثل لُحمة النسب او قريباً منها ... بمعنى ان النسب انما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الارحام حتى تقع المناصرة والنصرة ، وما فوق ذلك مستغنى عنه ، إذ النسب امر وهمي لا حقيقة له ، ونفعه انما هو في هذه الوصلة والالتحام «^(٢) . وتحقق الوصلة والالتحام ايضاً بالرق والاصطناع . يقول ابن خلدون : « ان المقصود في العصبية من المدافعة والمغالبة انما يتم بالنسب لأجل التناصر في ذوي الارحام والقربى والتخاذل في الاجانب كما قدمناه . والولاية والمخالطة بالرق او بالحلف تنزل منزلة ذلك : لأن امر النسب وإن كان طبيعياً فانما هو وهمي ، والمعنى الذي كان به الالتحام انما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصعبة بالمربى والرضاع وسائر احوال الموت والحياة . واذا حصل الالتحام بذلك جاءت النُصرة والتناصر ، وهذا مشاهد بين الناس . واعتبر مثله في الاصطناع : فانه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من الوصلة تنزل هذه المنزلة وتؤكد اللُحمة ، وإن لم يكن نسب فثمرات النسب موجودة . فاذا كانت هذه الولاية بين القبيل وبين اوليائهم قبل حصول الملك ، كانت عروقتها اوشج وعقائدها أصح ونسبها أصرح » . ويقول في هذا المعنى ايضاً : « اذا اصطنع اهل العصبية قوماً من غير نسبهم او استرقوا العبدان والموالي والتحموا بهم ... ضرب معهم اولئك الموالي المصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدها كأنها عصبته ، وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها » . وقال في وظيفة القضاء والنظر في المظالم بأنها لما كانت « من مراسم الدين ، فكانوا لا يولون فيها إلا من اهل عصبيتهم من العرب ومواليهم بالحلف او بالرق او

١ - صفحة ٤٢٤ .

٢ - صفحة ٤٣٣ - ٤٣٤ .

بالاصطناع ممن يوثق بكفايته او غنائه فيما يُدفعُ اليه ، (١) .

وهكذا فالوُصلة والالتحام تأتيان أولاً وبالأصالة ، والنسب يأتي ثانياً وبالتبع . ومعنى ذلك ان كل ما يؤدي الى الوصلة والالتحام هو المقصود بالذات ، اما النسب فيأتي بالعرض . فالنسب انما هو مَثَل من أمثلة الترابط وليس عَلَماً عليها كلها ، مستغرقاً لجميعها . فهناك اذن رابطة النسب ، وهناك رابطة الحلف والولاء ، وهناك رابطة الري والاصطناع . هذه هي الروابط التي كانت معروفة على عهد ابن خلدون والتي تدخل في مفهوم العصبية عنده . ولئن كانت هناك روابط اخرى لم يذكرها كرابطة الطوطم ورابطة الحزب والمبدأ السيامي وسائر انواع الروابط التي تجمع الشمل وتلم الشعث ، فهذه الروابط داخلة في مفهوم العصبية عنده بالقوة ، ما دام ان المقصود بالعصبية انما هو الوُصلة والالتحام كما تقدم . واذا كان ابن خلدون لم يذكر هذه الروابط الاخيرة فما ذلك إلا لأنها لم تكن معروفة لعهده ، وحسبه انه ذكر أمثلة على الترابط الذي يكون بالعصبية دون ان يستغرقها جميعاً .

وعلى ذلك فاذا قال ابن خلدون ان الوصول الى الحكم انما يكون بالعصبية ، فمعنى ذلك انه انما يحتاج الى نوع من التأييد والمناصرة ، اما ان يتصدى احد للحكم دون مساندة من اهله وقبيله فهو واهم . والعصبية بهذا المعنى الواسع لا تزال عنصراً اساسياً في مفهوم الحكم بدلوله الحديث سواء كان حكماً فردياً واستبدادياً ام برلمانياً ديمقراطياً . فلا بد لمن يتصدى للحكم اليوم ان يرشحه حزب معين او كتلة خاصة « حتى تقع المناصرة والشُرة » . فالجماعة التي تدين بمبدأ واحد وتنادي بشعار واحد يكون التناصر بين اعضائها اقوى واشد من اي جماعة اخرى لا يجمعها مبدأ ولا تربطها عقيدة . هذا فيما نرى كل ما يقصد ابن خلدون بالعصبية . فلئن لم يعرفها اليونان والرومان قديماً

والمجتمعات الراقية اليوم ، بمعنى رابطة الدم ، فقد عرفوها بمعنى رابطة الحلف والولاء ورابطة الرق والاصطناع ، ورابطة الحزب والمبدأ والعقيدة .
الدولة

هذا والغاية التي تجري اليها العصبية انما هي الملك والدولة . وذلك لأن العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل امر 'يُجتمع عليه . ولما كان الناس بفطرتهم يحتاجون في كل اجتماع الى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض ، فلا بد ان يكون متغلباً عليهم بتلك العصبية ، وإلا لم تتم قدرته على ذلك ، وهذا التغلب هو الملك . ويفرق ابن خلدون هنا بين الملك والرياسة . فالرياسة انما هي سؤدد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في احكامه ، وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر . وصاحب العصبية اذا بلغ الى رتبة طلب ما فوقها . فاذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع ووجد السبيل الى التغلب والقهر موطاً سهلاً لم يتركه لأنه مطلوب للنفس ، ولا سبيل له الى الملك إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعاً^(١) .

ثم ان القبيل الواحد وإن كان فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة ، فلا بد من عصبية تكون اقوى من جميعها تغلبها وتستتبها وتلتهم جميع العصبيات فيها حتى تصير كأنها عصبية واحد كبرى^(٢) .

ثم اذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبيعتها التغلب على اهل عصبية اخرى بعيدة عنها . فان كافأتها او مانعتها وقع القتال بينها ، وان غلبتها واستتبعتها التحمت بها وزادت قوة الى قوتها ، وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الاولى وأبعد . وهكذا دائماً لا تزال تكبر وتوسع حتى تكافيء بقوتها قوة الدولة التي تسمى العصبية الى ابتلاعها . فان ادركت الدولة في هرمها ولم يكن لها ممانع من اولياء الدولة اهل العصبيات ، استولت عليها وانتزعت الامر من يدها وصار الملك اجمع لها . وان انتهت

١ - صفحة ٤٣٩ .

٢ - صفحة ٤٣٩ - ٤٤٠ .

قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وإنما قارن حاجتها الى الاستظهار والاستعانة بأهل العصبية الأخرى ضمنها الدولة اليها وانتظمتها في أولياتها تستظهر بها على تحقيق مقاصدها ، وذلك كما وقع للترك في دولة بني العباس ^(١) .

وإن عاقبا عن بلوغ الغاية عوائق - كالانغماس في الترف والنعم وحصول المذلة - وقفت في مقامها ^(٢) .

واعلم ان هذه الاطوار طبيعية للدول . فان الغلب الذي يكون به المُلْك انما هو بالعصبية وبما يتبعها من شدة البأس وقوة الشكيمة ، ولا يكون ذلك غالباً إلا مع البداوة . فطور الدولة من اولها بدابة . ثم اذا حصل المُلْك تبعه الرفه واتساع الاحوال . والحضارة انما هي تفضن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والأثاث والأبنية وعوائد المنزل وأحواله . فلكل واحد منها صنائع في استجاداته والتأنيق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضاً ، وتتكثر باختلاف ما تنزع اليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد . فصار طور الحضارة في المُلْك يتبع طور البداوة ضرورة ^(٣) ، لضرورة تبعية الرفه للمُلْك ^(٣) .

والخلاصة ان البدو اصل للمدن والحضر وسابق عليها ، لان اول مطالب الانسان انما هو الضروري ، ولا ينتهي الى الكمال والترف إلا اذا كان الضروري حاصلًا . فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة . ثم اذا اتسعت احوال البدو المنتحلين للعاش الطبيعي وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه وتم لهم المُلْك ، عاجوا الى الدعة وسكنت اليها نفوسهم واستكثروا من الاقوات والملابس والتأنيق فيها ، وتوسعة البيوت واختطاط المدن والامصار . ثم تزيد احوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف التي تبلغ مبلغها

١ - صفحة ٤٤٠ .

٢ - صفحة ٤٤١ - ٤٤٤ .

٣ - صفحة ٤٨٨ .

في التأتق في علاج القوت واستجادة المطايخ وانتقاء الملابس الفاخرة ، واتخاذ القصور والمنازل الفخمة والتطاول في البنيان . هؤلاء هم الحضّر ومعناه الحاضرون اهل الامصار والبلدان . ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ، ومنهم من ينتحل التجارة ، وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من اهل البدو . ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري اليها ، وينتهي بسعيه الى مقترحه منها . فهو انما يريد ان يتخلص من السغب ونكد العيش وشظف الاحوال ليتقدم الى الخصب وغضارة النعم ، وما دري ان ذلك من شأنه ان يوهن الدولة ويؤذن بنجراها وذهاب البأس من أهلها .

هكذا تنتقل الدولة من البداوة الى الحضارة ، إذ إن طور الحضارة في المثلّك يتبع طور البداوة ضرورة^(١) ، لضرورة تبعية الرفه للملك^(١) .

ومن هنا نظرية ابن خلدون في اعمار الدولة . فالدولة لها اعمار طبيعية كما للأشخاص ، وهي في الغالب لا تعدو اعمار ثلاثة اجيال . والجيل هو عمر شخص واحد من العمر المتوسط ، وهو بلوغ سن الاربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء الى غايته^(٢) .

وإنما قال ابن خلدون ان عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة اجيال لأن الجيل الاول لم يزالوا على خلق البداوة وخشوتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد . فلا تزال بذلك سورة العvisية محفوظة فيهم ، فحدهم مرهف ، وجانبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبون^(٣) ؛

والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة الى الحضارة ، ومن الشظف الى الترف والخصب ، ومن الاشتراك في المجد الى انفراد الواحد به وكسل الباقيين عن السعي فيه ، ومن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة .

١ - صفحة ٤٠٨ و ٤١٣ .

٢ - صفحة ٤٨٥ .

٣ - صفحة ٤٨٦ .

فتتكسر سَوْرَةُ العصبية بعض الشيء ، وتؤنس منهم المهانة والخضوع .
لكن يبقى لهم مع ذلك الكثير من صفات العصبية بما ادركوا الجيل الاول
وباشروا احوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسميهم الى المجد ، ومرارهم في
المدافعة والحماية ، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية ؛

وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ،
 ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ، ويبلغ فيهم
الترف غايته بما بلغوه من النعم وغضارة العيش . فيصيرون عيالاً على
الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم او تسقط العصبية
بالجملة ، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ، فاذا غزاهم غازٍ لم يقاوموا
مدافعتهم . فيحتاج صاحب الدولة حينئذ الى الاستظهار (الاستعانة) بسواهم
من اهل النجدة ويستكثر الموالي ، ويصطنع من يُغني عن الدولة بعض
الفناء ، حتى يتأذن الله بانقراضها ، فتذهب الدولة بما حلت .

فهذه كما ترى ثلاثة اجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها^(١) .

ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع كما مرّ من ان المجد
والحسب انما هو في اربعة آباء .

وهذه الاجيال الثلاثة عمرها مئة وعشرون سنة على ما مر . ولا تعدو
الدول في الغالب هذا العمر - بتقريب قبله او بعده - إلا ان عرض لها
عارض آخر من فقدان الغازي الطالب بها ، فيكون الهرم عدئذ حاصلًا
مستولياً لكن الطالب لم يحضرها ، ولو قد جاء لما وجد مدافعاً^(٢) .

ويقول ابن خلدون في وصف هذا الهرم بأنه من الامراض المزمنة ،
التي لا يمكن علاجها لأنه امر طبيعي في الدولة ، والأمور الطبيعية لا
تبدل . وقد يقننه كثير من اهل الدول ممن له يقظة في السياسة فيرى
ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم ويظن انه مما يمكن علاجه وارتفاعه ،

١ - صفحة ٤٨٦ - ٤٨٧ .

٢ - صفحة ٤٨٧ .

فياخذ نفسه باستدراك ما وقع للدولة واصلاح مزاجها عن ذلك الهرم ،
ويظن انه إنما لحقها بتقصير من قبله من اهل الدولة وغفلتهم . ولكن
هيات ! وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توه ان الهرم قد ارتفع عنها ،
فيومض 'ذبالها ايماضة الخمود' كما يقع في الذبال المشتعل ، فإنه عند مقاربة
انطفائه يومض ايماضة توه انها اشتعال ، وما هي في الحقيقة الانطفاء^(١) .
ويؤكد ابن خلدون نظريته في اعمار الدولة على نحو آخر يختلف
قليلاً عن النحو السابق في زيادة التفصيل . فالدولة تنتقل في اطوار مختلفة
وحالات متجددة ، ويكتسب القائلون بها في كل طور 'خلقاً' من احوال
ذلك الطور لا يكون مثله في الطور السابق ، لأن الخلق تابع بالطبع
لمزاج الحال الذي هو فيه كما يقول ابن خلدون^(٢) . وحالات الدولة
وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة اطوار :

الطور الاول : طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع ، والاستيلاء
على الملك وانتزاعه من ايدي الدولة السابقة . فيكون صاحب الدولة في
هذا الطور اسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة
والحماية ، لا ينفرد دونهم بشيء ، لأن ذلك مقتضى العصبية التي وقع بها
الغلب وهي لم تزال بعد بحالتها ؛

الطور الثاني : طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم
عن التطاول للمساهمة معه والمشاركة في الحكم . ويكون صاحب الدولة
في هذا الطور معيناً باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع ، والاستكثار
من ذلك لجذع انوف اهل عصبية وعشيرته المقاسمين له في نسبه . ولا
يزال يدافعهم عن الأمر ويردهم على اعقابهم حتى يقر الأمر في نصابه
وينفرد اهل بيته بما يبني من مجده ؛

الطور الثالث : طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع

١ - صفحة ٦٩٢ - ٦٩٣ .

٢ - صفحة ٤٩٣ .

طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت . فيستفرغ وسعه في الجباية وضبط الدخل والخرج واحصاء النفقات والقصد فيها ، وتشيد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والامصار المتسعة والهيكل المرتفعة ومنح الجوائز والهدايا للوفود وأشرف الامم ووجوه القبائل ، وبث المعروف في اهل ، هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته وجنوده في احوالهم بالمال والجاه وأدراار ارزاقهم . وهذا الطور آخر اطوار الاستبداد من اصحاب الدولة ، لأنهم في هذه الأطوار كلها مستقلون بآرائهم بانون لعزمهم ، موضحون الطرق لمن بعدهم .

الطور الرابع : طور القنوع والمسالمة . ويكون صاحب الدولة فيه قائماً بما بنى اولوه ، مسالماً لأنظاره من الملوك والحكام مقلداً للماضين من سلفه ، فيتبع آثارهم حذر النمل بالنمل ، ويقتفي طرقهم بأحسن مناهج الاقتداء ، ويرى في الخروج عن تقليدهم فساد امره وأنهم أبصر بما بنوا في مجده ؛ الطور الخامس : طور الإسراف والتبذير . ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفاً لما جمع اولوه في سبيل الشهوات والملاذة والكرم على بطانته والتقتير على جنده ، واصطناع اخدان السوء ، وتقليد جليل الاعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجباية . وكل اولئك مؤذن باهتضام الدولة ، وعلامة على المرض المزمن فيها فساد العصبية التي كان بناء الغلب عليها ، ومرض قلوب اهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان . فيضطغتون عليه ويتخاذلون عن نصرته ويتربصون به الدوائر . وهكذا يكون مخرباً لما كان سلفه يؤسسون ، وهادماً لما كانوا يبنون . وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا يُطعم في برئها منه ، الى ان تنقرض ويذهب رسمها^(١) .

منازع الملك

ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك كما قدمنا . وإذا كان

الملك غاية للعصبية فهو غاية لفروعها وامتعاتها ايضاً ، وهي الخلال الحميدة ، لأن وجوده دون امتعاته كوجود شخص مقطوع الاعضاء ، او ظهوره عرياناً بين الناس . واذا كان وجود العصبية فقط من غير انتحال الخلال الحميدة نقصاً من اهل البيوت والاحساب ، فما ظنك بأهل الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب ؟ فإذا كانت القبيلة إنما همها ان تستولي على النعمة وتشارك اهل النعم والخصب في نعيمها وخصبها دون ان تسمو آملها الى شيء من منازع الملك ولا اسبابه ، ذهبت خشونة البداوة فيها وضعفت عصبية افرادها وبسالتها فأذنوا بالإنقراض . فالملك إنما يحصل بقوة العصبية وسورة القلب وإذعان الآخرين لها ، وكل ما يفل الحد ويكسر الشوكة يبيد خضراءها ويذهب بريحتها^(١) .

ومن طبيعة الملك الانفراد بالمجد ، وذلك لأن الملك إنما هو بالعصبية ، والعصبية تتألف من عصبيات كثيرة تكون احداها اقوى من سائرهما فتغلبها وتستولي عليها حتى تصيرها جميعاً في ضمنها ، وبذلك إنما يكون الاجتماع والقلب ، وبذلك إنما تكون الدول . وتلك العصبية إنما تكون لقوم اهل بيت ورياسة فيهم ، ولا بد ان يكون واحد منهم رئيساً لهم غالباً عليهم . وعندئذ يستيقظ فيه خلق الكبر والأنفة ، فيأنف من المساهمة والمشاركة مع غيره ، ويحيى بعد ذلك خلق التآله الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السيادة من انفراد الحاكم . فتجدع حينئذ انوف العصبيات وتفلج شكائهم عن ان يسمو الى مشاركته في التحكم ، وتُقرع عصبيتهم عن ذلك ، فينفرد بالمجد ما استطاع حتى لا يترك لأحد منهم في الأمر لا طاقة ولا جلا ويستبد به دونهم^(٢) .

كذلك من طبيعة الملك الترف : لأن الأمة اذا تغلبت وملك ما بأيدي اهل الملك قبلها كثر رياسها ونعمتها ، فتكثر عوائدهم ويتجاوزون

١ - صفحة ٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٨ .

٢ - صفحة ٤٧٩ - ٤٨٠ .

ضرورات العيش وخشونته الى نوافله ورقته وزينته ، ويتفاخرون في المطاعم والملابس والفرش والآنية . وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفهم فيه ^(١) .

ومن طبيعة الملك ايضاً الدعة والسكون . وذلك ان الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة ، والمطالبة غايتها الغلب والملك واذا حصلت الغاية انقضى السعي اليها . قال الشاعر :

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
وهكذا فإذا حصل الملك اقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه ، وآثروا الراحة والسكون والدعة ، ورجعوا الى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس . فيبنون القصور ، ويحرون المياه ، ويفرسون الرياض ، ويستمتعون بأحوال الدنيا ، ويؤثرون الراحة على المتاعب ، ويتأنقون في احوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا ، ولا يزال ذلك يتزايد فيهم الى ان يتأذن الله بأمره ^(٢) .

وعلى كل حال ان الدولة في اول امرها تكون بعيدة عن منازع الملك لأنه لا بد لها من العصبية التي بها إنما يتم امرها ويحصل استيلاؤها ، والبداءة هي شعار العصبية . والدولة ان كان قيامها بالدين فإنه بعيد عن منازع الملك ، وإن كان قيامها بعز الغلب فقط ، فالبداءة التي بها إنما يحصل الغلب ، بعيدة ايضاً عن منازع الملك ومذاهبه . فإذا كانت الدولة في اول امرها بدوية ، كان صاحبها على حال القضاة والبداءة والقرب من الناس وسهولة الإذن ^(٣) .

فإذا رسخ عزه وصار الى الانفراد بالمجد واحتاج الى ان يخلو الى نفسه عن الناس للحديث مع اوليائه في خواص شؤونهم لما يكثر حينئذ من

١ - صفحة ٤٨٠ - ٤٨١ .

٢ - صفحة ٤٨١ .

٣ - صفحة ٦٨٧ .

بجاشيته ، طلب الانفراد عن العامة ما استطاع واتخذ الإذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه وأهل دولته ، واتخذ حاجباً له عن الناس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة .

ثم اذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحال خلق صاحب الدولة الى خلق الملك ، وهي خلق غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها الى مداراة الملوك ومعاملتهم بما يجب . وربما جهل تلك الخلق بعض من مباشر هؤلاء الملوك فوقع فيما لا يرضيهم فسخطوه وصاروا الى حالة الانتقام منه . فانفرد بمعرفة هذه الآداب الخواص من أوليائهم وحجبوا غير أولئك الخاصة عن لقاء الملوك في كل وقت ، حفظاً على هؤلاء من معاينة ما يسخطهم ، وعلى الناس من التعرض لعقابهم . فصار لهم حجاب آخر يفضي الى مجالس الأولياء فقط ويحجب دونه من سواهم من العامة . والحجاب الاول يكون في اول الدولة ، كما حدث لأيام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني امية . ثم لما جاءت دولة بني العباسي وجدت الدولة من الترف والعز ما هو معروف ، وكملت خلق الملك على ما يجب فيها ، فدعا ذلك الى الحجاب الثاني ، وصار بباب الخلفاء داران : دار الخاصة ودار العامة . ثم حدث حجاب ثالث وهو عند محاولة الحجرة على صاحب الدولة والاستبداد عليه . يحجب بطانته وخواص أوليائه عنه . وهذا الحجاب لا يقع في الغالب إلا في اواخر الدولة ، ويكون دليلاً على هرم الدولة ونفاد قوتها .

وجوه الكسب

ان الانسان مفتقر بالطبع الى ما يقوته ويموته في حالاته وأطواره من لدن نشوئه الى أشده الى كبره . ويد الانسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستغلاف في الارض . وأيدي البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك . وما حصلت عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بعموض . فالانسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طور الضعف سعى في اقتناء المكاسب لينفق ما آتاه الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته

يدفع الاعواض عنها . وقد يحصل له ذلك بغير سعي كالطير المصلح للزراعة وأمثاله ، إلا انه حق الزراعة لا بدّ من سعيه معها ^(١) .

وقد خلق الله الذهب والفضة قيمة لكل متمول ، وهما الذخيرة والقنية لأهل العالم في الغالب ، وان اقتنى الانسان سواهما في بعض الاحيان فإنما هو لقصد تحصيلها ، لأن قيمتهما الذاتية ثابتة في رأي ابن خلدون ^(٢) ، فلا يقع لهما ما يقع لغيرهما من حوالة (تغير) الاسواق التي هما عنها بمنزل . فهما اصل المكاسب ، وهما القنية والذخيرة ^(٣) .

ولا بد في كل مكسوب ومتمول من العمل الانساني ، وإلا لم يقع انتفاع . واذا 'فقدت الاعمال او قلّت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب ؛ ألا ترى الى الامصار القليلة السكان كيف يقلّ الرزق والكسب فيها او 'يفقد لقلة الاعمال الانسانية . وكذلك الامصار التي يكون عمرائها اكثر يكون اهلها اوسع احوالاً وأشد رفاهية لكثرة الاعمال فيها ^(٤) .

ثم ان تحصيل الرزق وكسبه .

إما ان يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ، ويسمى حينئذ مغرماً وجبابة ؛

وإما ان يكون من الحيوان الوحش باقتناصه وأخذه برمييه من البر او البحر ، ويسمى اصطلياداً ؛

وإما ان يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله (منتجاته) المنصرفة بين الناس في منافعهم ، كاللبن من الانعام ، والحرير من دودة القز ، والعسل من النحل ، او ان يكون من النبات في الزرع والشجر

١ - المقدمة ، ج ٣ صفحة ٨٩٣ - ٨٩٥ .

٢ - وهو رأي فاسد لأن قيمتهما تتغير تبعاً لموامل عدة .

٣ - صفحة ٨٧٦ .

٤ - صفحة ٨٩٧ - ٨٩٨ .

بالقيام عليه واعداده لاستخراج ثمره ، ويسمى هذا كله فلاحه . فالفلاحه عند ابن خلدون تشمل اذن الزراعة وتربية الحيوان ؛ وإما ان يكون الكسب من الاعمال الانسانية ، اما في مواد معينة وتسمى الصنائع (من كتابة ونجارة وخباطة وحياسة الخ) او في مواد غير معينة ، وهي جميع الامتيازات والتصرفات ؛ وإما ان يكون في البضائع واعدادها للاعواض ، اما بالتقلب بها في البلاد او احتكارها وارتياب حوالة الاسواق فيها ، ويسمى هذا تجارة . فهذه وجوه المعاش وأصنافه .

فأما الفلاحه فهي اقدم وجوه المعاش ، إذ هي بسيطة وطبيعية وفطرية ، لا تحتاج الى نظر ولا الى علم . ولذلك لا ينتحلها احد من اهل الحضر في الغالب ولا من المترفين ، والذي ينتحلها يختص بالمذلة . وأما الصنائع فهي متأخرة عن الفلاحه لأنها تتصرف فيها الافكار والأنظار ، ولهذا لا توجد غالباً إلا في اهل الحضر . والصنائع منها البسيط ومنها المركب ، والبسيط هو الذي يختص بالضروريات ، والمركب هو الذي يكون للكاليات . والصنائع في الامصار الصغيرة ناقصة ، ولا يوجد منها إلا البسيط . فاذا تزايدت حضارتها ودعت امور الترف فيها الى استعمال الصنائع اخذت في النضج والتكامل بمقدار استفحال العمران . فالصنائع انما تكمل وتستجد بكمال العمران الحضري وكثرته .

وأما التجارة فانها وإن كانت طبيعية في الكسب فالأكثر من طرقها ومذاهبها انما هي تخيلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضلة . والتاجر اما ان يختزن السلعة ويتعين بها حوالة الاسواق من الرخص الى الغلاء فيعظم ربحه ، واما ان ينقلها الى بلد آخر تتفق فيه تلك السلعة اكثر من بلده الذي اشتراها فيه فيعظم ربحه ايضاً ^(١) .

هذا وقد ربط ابن خلدون وجوه المعاش بسائر وجوه النشاط الانساني ودرس دراسة علمية قيمة مختلف الظواهر الاقتصادية . وقد رأينا طرفاً من هذه الدراسة عند كلامه على البدو والحضر وحياة كل منها .

والحق ان الذين كتبوا في المسائل الاقتصادية قبل ابن خلدون لم تكن كتاباتهم تتصف بصفات البحث العلمي للظواهر الاقتصادية ، وإنما كل ما كتبه القدماء في هذا الشأن من اغريق او رومان او عرب ، كان من قبيل الدراسات الاخلاقية او الابحاث التشريعية .

اما ابن خلدون فإنه اول من توفر على دراسة هذه الظواهر دراسة علمية منهجية عمادها الكشف عن الاسباب ومقارنة النتائج للوصول الى القوانين التي تحكم هذه الظواهر وتضبط سيرها . وقد تمخضت هذه الدراسة عن نظريات عميقة سبقت عصرها بقرون عديدة ولا تزال صادقة حتى اليوم . ولئن كان العلم قد تجاوزها بسبب تعقد الاقتصاد الحديث وتطور المجتمعات الصناعية ودخول عوامل جديدة لها اثرها البالغ في تكييف البنيان الاقتصادي في المجتمعات المعاصرة ، فلا تزال تثير الانتباه حتى اليوم لما فيها من نظرة علمية رائدة وتفكير منهجي رصين ، ولأنها الاساس لكل دراسة مادية واقعية لظواهر الاقتصاد .

ينحوي ابن خلدون منحى في الاقتصاد يتضمن بذور المذهب المعروف باسم (المادية التاريخية) لكارل ماركس . فهو يرى « ان اختلاف الاجيال في احوالهم إنما هو باختلاف نحلتهن من المعاش »^(١) ، اي ان اختلاف طرق المعيشة ووسائل الانتاج بين الناس هو السبب في اختلاف احوالهم . فالأساس الاقتصادي اذن هو الذي يفسر بالدرجة الاولى ما نرى بين الناس من تباين وتنوع .

ومما يلفت النظر ان ابن خلدون يربط بين دواعي الاجتماع ودواعي الاقتصاد والحاجة الى تقسيم العمل ، فيعود بها جميعاً الى بداية واحدة

١ - المقدمة ، ج ٢ صفحة ٤٠٧ .

ومنطلق واحد . فالاقتصاد قديم قدم قانون تقسيم العمل ، وهذا قديم قدم الاجتماع الانساني . فهذه الاطراف الثلاثة عند ابن خلدون متداخلة متضايقة يشد بعضها بعضاً ويدعو بعضها بعضاً . فلنستمع اليه يتابع عبارته السابقة قائلاً : « فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكالي . فمنهم من ينتحل الفلح من الفراسة والزراعة ، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها » (١) .

واذا كان اختلاف طرق المعيشة بين الناس هو السبب في اختلاف احوالهم ، فان اختلاف البدو عن الحضار انما يرجع الى ان البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الانعام وأنهم مقتصرون على الضروري من الاقوات والملابس المساكن وسائر الاحوال والعوائد ... فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح ، كان المقام به اولى من الظعن ... ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم 'ظعن' في الاغلب لارتباد المسارح والمياه لحيواناتهم ، فالتقلب في الارض اصلح بهم ... ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة ... وأما من كان معاشهم بالابل فهم اكثر ظعنًا وأبعد في القفر مجالاً ، لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الابل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة والتقلب فصل الشتاء في نواحيه ، فراراً من أذى البرد الى دفء هوائه وطلباً لماخض النتاج في رماله ... فكانوا لذلك اشد الناس توحشاً ، وينزلون من اهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجيم . وهؤلاء هم العرب ، وفي معنهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب ، والأكراد والتركمان والترك بالشرق . إلا ان العرب أبعد 'نجمة' وأشد بدابة ، لأنهم يختصون بالقيام على الابل فقط » (٢) .

١ - المقدمة ، ج ٢ صفحة ٤٠٧ .

٢ - صفحة ٤١٢ - ٤١٣ .

ومعنى هذا ان العامل الاقتصادي هو المسؤول عما نرى في البدو عامة والعرب خاصة من توحش . فالعرب لا ينزلون في القفار اذن لانهم متوحشون بطبيعتهم ، بل ان التوحش قد عرض لهم بسبب عامل اقتصادي بحت وهو ان ابلهم لا تستغني في « قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه المملحة ، والتقلب فصل الشتاء في نواحيه ، فراراً من أذى البرد الى دفء هوائه وطلباً لماخض النتاج في رماله » كما تقدم في النص السابق .

فما تسميه بمزاج الأمة او بطبيعتها شأنه اذن شأن سائر النظم الاجتماعية في نظر ابن خلدون ، لانه ايضاً نتيجة لوسائل الانتاج المستعملة عندها وعوائد حياتها . فهذا المزاج وهذه الطبيعة ليسا امرأ نهائياً لا يتغير ولا يتبدل ، وانما هو وليد وسائل الانتاج . فاذا تبدلت هذه الوسائل عند أمة تبدلت نظمها الاجتماعية وعوائد حياتها وتغير مزاجها السابق . وقد قال ابن خلدون فعلاً ان « الجيل الواحد يختلف احواله في ذلك باختلاف الاعصار . فكما نزلوا الارياض وتقنقوا النعم وألّفوا عوائد الخصب في المعاش والنعم ، نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبدأوتهم . واعتبر ذلك في الحيوانات المعجم بدواجن الطباء والبقرة الوحشية والحُمُر ، اذا زال توحشها بمخالطة آدميين واخصب عيشها ، كيف يختلف حالها في الانتهاض والشدة ، حتى مشيتها وحسن ادبها . وكذلك الآدمي المتوحش اذا آنس وألّف . وسببه ان تكون السجاي والطبائع انما هو عن المألوفات والعوائد » ^(١) « واصله ان الانسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه . فالذي ألفه في الاحوال حتى صار خلقاً وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبيلة » ^(٢) .

والعامل الاقتصادي في نظر ابن خلدون كدخل في الاجسام والاخلاق

١ - صفحة ٤٣٨ .

٢ - صفحة ٤١٩ .

والعقول والعبادة . فاختلف احوال العمران في الخصب والجوع له آثار بعيدة المدى في أبدان البشر واخلاقهم وعقولهم ودينهم . ولذلك نجد « الفاقدين للحبوب والأدُم من اهل القفار احسن حالاً في جسومهم وأخلاقهم من اهل التلول المتغمسين في العيش : فالوانهم اصفى وأبدانهم أنقى ، واشكالهم أتم واحسن ، واخلاقهم أبعد من الانحراف ، واذهانهم أثقب في المعارف والادراكات ... فإننا نجد اهل الاقاليم المخصصة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدُم والفواكه يتصف اهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم والحشونة في أجسامهم . وهذا شأن البربر المتغمسين في الأدُم والحنطة مع المتقشفين في عيشهم المقتصرين من الشعير او الذرة ... فتجد هؤلاء احسن حالاً في عقولهم وجسومهم . وكذا اهل بلاد المغرب على الجملة المتغمسون في الادُم والبر مع اهل الاندلس المفقود بأرضهم السمن جملة ، وغالب عيشهم الذرة : فتجد لأهل الاندلس من ذكاء العقول وخفة الاجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم .

« واعلم ان أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة . فنجد المتقشفين من اهل البادية والحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ احسن ديناً وإقبالاً على العبادة من اهل الترف والخصب . بل نجد اهل الدين قليلين في المدن والأمصار لمسا يعمها من القساوة والغفلة المتصلة بالإكثار من اللُحمان والأدُم ولباب البر . ويختص وجود العبّاد والزُهّاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من اهل البوادي . وكذلك نجد حال اهل المدينة الواحدة في ذلك مختلفاً باختلاف حالها في الترف والخصب . وكذلك نجد هؤلاء المخصبين في العيش المتغمسين في طبيباته من اهل البادية وأهل الحواضر والأمصار ، اذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات يسرع اليهم الهلاك اكثر من غيرهم ... » (١) .

وهذه ملاحظة قيّمة لابن خلدون يؤيدها علم الصحة الى حد بعيد .
فان عدداً كبيراً من الامراض التي تصيب الانسان كأمراض الكبد
والكلتين وضغط الدم وتصلب الشرايين إنما سببها الافراط في الطعام والإكثار
من المأكّل الدسمة ، مما يؤدي الى تراكم السموم في الجسم وإجهاد الأجهزة
التي تقوم بإفراز العصارات المختلفة لهضمه . كما ان ذلك يؤدي من ناحية
اخرى الى الترهّل ويضعف قدرة المرء على الحركة ، وينتج عن ذلك
الحولُ وبلادةُ الذهن وغلظُ القرينة .

ويحلل ابن خلدون تحليلاً اقتصادياً فذاً في مواضع مختلفة من (المقدمة)
كيف يكون الترف والدعة ، وبالتالي كيف يكون العامل الاقتصادي ،
نذيراً بهرم الدولة فيقول :

« ان طبيعة الملك تقتضي الترف كما قدمناه ، فتكثر عوائدهم وتزيد
نفقاتهم على أعطياتهم ولا يفي دخلهم بخرجهم ، فالفقير منهم يهلك ،
والترّف يستغرق عطاءه بترفه ، ثم يزداد في اجيالهم المتأخرة الى ان
يكثر العطاء كله عن الترف وعوائده ، وتمسّهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم
بمحصر نفقاتهم في الغزو والحروب ، فلا يجدون وليجة عنها ، فيوقعون بهم
العقوبات وينتزعون ما في أيدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم ، او
يؤثرون به ابناءهم وصنائع دولتهم ، فيضعفونهم لذلك عن اقامة حوالهم
ويضعف صاحب الدولة بضعفهم .

« وأيضاً اذا كثّر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصراً عن حاجاتهم
ونفقاتهم ، احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان الى الزيادة في اعطياتهم
حق بسدّ خللهم ويزيح عنهم . والجباية مقدارها معلوم ، ولا تزيد ولا
تنقص ، وإن زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة
محدوداً . فاذا وزعت الجباية على الاعطيات ، وقد حدثت فيها الزيادة
لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم ، نقص عدد الحامية
حينئذ عما كان قبل زيادة الاعطيات . ثم يعظم الترف وتكثر مقادير

الاعطيات لذلك ، فينقص عدد الحامية ، وثالثاً ورابعاً الى ان يعود العسكر الى أقل الأعداد ، فتضعف الحماية لذلك ، وتسقط قوة الدولة ، ويتجاسر عليها من يحاورها من الدول او من هو تحت يديها من القبائل والمصائب ، ويأذن الله فيها بالفناء الذي كتبه على خليقته .

« وأيضاً فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها ... فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلاً عليه ، ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر ، فتكون علامة على الإدبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته ، وتأخذ الدولة مبادئ العطب ، وتتضعف احوالها وتنزل بها امراض مزمنة من الهرم الى ان يقضى عليها .

« ... ان طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه . واذا اتخذوا الدعة والراحة مألفاً وخلقاً صار لهم ذلك طبيعة وجبيلة شأن العوائد كلها وايلافها . فتري اجيالهم الحادثة في غضارة العيش ومهاد الترف والدعة وينقلب خلق التوحش ، وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك : من شدة البأس وتعود الافتراس وركوب البيداء ، وهداية القفر ؛ فلا يفرق بينهم وبين السوق من الحضر إلا في الثقافة والشارة ، فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم ، وتتخضع شوكتهم ، ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم . ثم لا يزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع احوالهم وينغمسون فيها ، وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة وينسلخون عنها شيئاً فشيئاً ، وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالاً على حامية اخرى ان كانت لهم » (١) .

وهناك ناحية اقتصادية هامة بحثها ابن خلدون تؤدي الى مضاعفات كثيرة في المجتمع وتتصل باتساع العمران وعلاقة ذلك بازدياد الترف وفرص

العمل والكسب فيقول : « متى زاد العمران زادت الاعمال ثم زاد الترف تابعاً للكسب وزادت عوائده وحاجاته واستنبطت الصنائع لتحصيلها ، فزادت قيمتها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية » (١) .

في هذا النص الصغير جمع ابن خلدون طائفة من النظريات يكفي لبيان اهميتها انها كانت موضوعاً لدراسة مبتكرة قام بها دركالم في كتابه المشهور (في تقسيم العمل الاجتماعي) للحصول على الدكتوراه . ثم جاء بعده كثير من علماء الاجتماع وأصحاب المذاهب الاشتراكية فأخذوا بها وأفادوا منها وصاغوها صياغات مختلفة منهم بوغليه Bouglé الذي صاغها في قانون خلاصته « ان التغير الكمي يؤدي الى تغير كيمي » .

ويؤيد ابن خلدون رأيه قائلاً : « وبلغنا لهذا العهد عن احوال القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم ما يُقضى منه المذهب ، حتى ان كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون الى النقلة الى مصر لذلك ، لما يبلغهم من ان شأن الرفه بمصر اعظم من غيرها . ويعتقد العامة من الناس ان ذلك لزيادة ايثار في اهل تلك الآفاق على غيرهم او اموال مختزنة لديهم ، وأنهم اكثر صدقة وايثاراً من جميع اهل الامصار . وليس كذلك ، وإنما هو لما تعرفه من ان عمران مصر والقاهرة اكثر من عمران هذه الامصار التي لديك ، فعطمت لذلك احوالهم » (٢) .

ان العامة تعتقد ان الرفه في مصر يرجع الى حب المصريين للبذل والعطاء او الى اموال اختزنوها لديهم . وينفي ابن خلدون ذلك مؤكداً انه إنما يرجع الى اسباب عمرانية اقتصادية بحجة تزيد بها الاعمال ووجوه الكسب . فتتعدد الحاجات ويتفنن الناس في ارضائها ، وتكثر الكاليات وتستجد الصنائع ويرتفع مستوى المعيشة ، وينتشر الرخاء ، وتعم الرفاهية بين الناس على اختلاف طبقاتهم ، وبكلمة واحدة ان دوافع البر والإحسان

١ - المقدمة ج ٣ صفحة ٨٦٠ .

٢ - صفحة ٨٦١ - ٨٦٢ .

في مثل هذه الاحوال لا ترجع الى بواعث انسانية مجردة بل الى عوامل وقوى اقتصادية محسوسة ، لأن كثرة العمران تؤدي الى كثرة المكاسب التي يسهل بسببها البذل والايثار على مبتغيه على حد عبارة ابن خلدون .

ويبين ابن خلدون كيف تتأثر الصنائع بالحالة الاقتصادية في البلاد صعوداً وهبوطاً . فيذكر « ان الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته ، والسبب في ذلك » :

اولاً : « ان الناس ما لم يُستوف العمران الحضري وتتمدن المدينة ، إنما هم في الضروري من المعاش وهو تحصيل الاقوات .. فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الاعمال ، ووفت بالضروري وزادت عليه ، 'صرف الزائد حينئذ الى الكالات من المعاش' .

ثانياً : « ان الصنائع والعلوم إنما هي للانسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات ، والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية ، فهو مقدم عليه لضروريته على العلوم والصنائع ، وهي متأخرة عن الضروري . وعلى مقدار العمران تكون جودة الصنائع للتأنيق فيها حينئذ واستجادة ما يُطلب منها ، بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة . وأما العمران البدوي او القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط ، خاصة المستعمل في الضروريات . وإذا وجدت هذه لا توجد فيه كاملة ولا مستجادة وإنما توجد فيه بمقدار الضرورة ، إذ هي كلها وسائل الى غيرها ، وليست مقصودة لذاتها .

« وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكالات كان من جللتها التأنيق في الصنائع واستجادتها ، فكلت بجميع متماتها ، وتزايدت صنائع اخرى معها ، مما تدعو اليه عوائد الترف وأحواله .

« وقد تنتهي هذه الاصناف - اذا استبحر العمران - الى ان يوجد منها كثير من الكالات ، والتأنيق فيها في الغاية ، وتكون من وجوه المعاش في مصر لمتعلها ، بل تكون فائدتها من اعظم فوائد الاعمال ، لما يدعو اليه الترف في المدينة مثل الدهان والصفار ومعلم الغناء والرقص .. ومثل الوراقين

الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها . فإن هذه الصناعة إنما يدعو إليها الترف في المدينة ، من الاشتغال بالأمور الفكرية وأمثال ذلك . وقد تخرج عن الحد - إذا كان العمران خارجاً عن الحد - كما يبلغنا عن أهل مصر : ان فيهم من يعلم الطيور المعجم والحمر الإنسية ، ويتنخيل أشياء من المعجائب ، بإيهاهم قلب الأعيان وتعليم الحُداء والرقص والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الاثقال من الحيوان والحجارة ، وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب ، لأن عمران امصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة ،^(١) .

ويربط ابن خلدون أخيراً بين استجداء الصنائع وكثرتها وبين قانون العرض والطلب فيقول : « ان الصنائع إنما تستجد وتكثر اذا كثر طالباها ، ويعمل ذلك بما يلي :

« والسبب في ذلك ظاهر . وهو ان الانسان لا يسمح بعمله ان يقع مجاناً ، لأنه كسبه ومنه معاشه . إذ لا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه ، فلا يصرفه إلا فيما له قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع . وإن كانت الصناعة مطلوبة وتوجه إليها التفاف ، كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التي تنفق سوقها وتجلب للبيع . فتجتهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم . واذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها ولا يوجه قصد الى تعلمها ، فاختصت بالترك وفُقدت للاهمال ،^(٢) .

ان آراء ابن خلدون في الاقتصاد وأهمية العامل الاقتصادي في حياة الافراد والجماعات كثيرة متنوعة . فهي تشمل خمسين فصلاً من فصول (المقدمة) بحث فيها الاقتصاد المرسل ومستوى المعيشة وأسعار الأشياء بحسب كثافة السكان ، وغلاء الحاجيات والأجور والأعمال او رخصتها تبعاً لقانون العرض والطلب ، وارتفاع الأجور في المدن المستبصرة في العمران

١ - صفحة ٩٢٤ - ٩٢٦ .

٢ - صفحة ٩٢٨ .

وأساببه الى غير ذلك من الابحاث الاقتصادية الهامة . ويطول بنا المقام لو أردنا استقصاءها جميعاً في هذه العجالة . وحسبنا ان نقول ان ابن خلدون كان اول من اعطى العامل الاقتصادي أهميته ، وجعل منه أساساً من الأسس الرئيسية لتفسير تطور الافراد والجماعات ، وفهم حياتهم السياسية والدينية والاخلاقية والعقلية . وكذلك كان اول من نادى بأن الاحوال الاقتصادية لا تسير اعتباطاً وفق الاهواء والنزوات ، بل هي تتبع قوانين ثابتة كسائر الامور الطبيعية . ولئن كان ابن خلدون رائداً لأصحاب المدرسة الاقتصادية في اوروبا ، إلا انه يمتاز منهم بأنه لم ينظر الى الحقيقة الاجتماعية من هذه الزاوية وحدها بل نظر اليها من عدة زوايا مختلفة . فهو يذهب في الربط بين القوى الاقتصادية مذهباً فذاً يدل على مدى إدراكه لأهميتها ، ولكنه لم يقل في هذه الاهمية غلو اصحاب المدرسة الاقتصادية الذين جاؤا بعده ببضعة قرون . فلئن قال بالعامل الاقتصادي فهذا العامل تحدّه عوامل اخرى لا تقل عنه اهمية ، من شأنها ان تهذبه وتخفف من غلوئه حتى لا يحور او يخرج عن السمت : كالعصية والدين والأقليم والتربية والتعليم الخ .

وبكفي ابن خلدون فخراً انه اخرج الابحاث الاقتصادية من نطاق التصورات المثالية والنصائح العملية والمناقشات الفقهية والدينية الى نطاق البحث العلمي ، في وقت لم يكن في حساب ان احد انها تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها سائر الاشياء والموجودات . ولم يبدأ العلماء بالكشف عن هذه القوانين وتدوينها قبل النصف الأخير من القرن الثامن عشر . وهنا تظهر اصاله ابن خلدون الذي سبقهم الى الكشف عنها بمدة لا تقل عن اربعة قرون .

العلم والتعليم

العلم والتعليم عامل هام يؤثر في العمران البشري ويسمو به الى أعلى المراتب . والعلم والتعليم لهما معنى واسع جداً عند ابن خلدون . فهو لم يفرق

بين التعليم النظري والتعليم العملي ، بل لقد ربط بينهما في وحدة عقلية
جسمانية منسجمة تعمل متناسقة متعاونة لاكتساب مهارة او لحذق معرفة
حتى تحصل « الملكة » التي هي عمل عقلي جسمي في آن واحد . ولذلك
يعد العلم والتعليم من جملة الصنائع لأن الصنائع إنما تكون بمحصول الملكة .
إذ الصنائع عنده تنقسم - كما يقول - « الى ما يختص بأمر المعاش ،
ضرورياً كان او غير ضروري » ، وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصة
الانسان من العلوم والصنائع والسياسة ، ومن الاول الحياكة والجزارة
والنجارة والحدادة وأمثالها ، ومن الثاني الوراقنة - وهي معاناه الكتب
بالانتساخ والتجليد - والفناء والشعر وتعليم العلم » (١) .

وهذه الصناعة لا بد منها في كل مجتمع على درجة من التماسك والترابط ،
او كما يقول ابن خلدون « ان العلم والتعليم ضروري في العمران البشري »
و « ان العلم والتعليم ضروري في البشر » . وإن ما يظهر على اهل الحضرة
من آثار الذكاء والكمال في العقل « إنما هو من رونق الصنائع والتعليم » .
ومعنى ذلك بلغة العصر ان هذه الصناعة ظاهرة اجتماعية ضمن الظواهر
الاجتماعية المميزة للجنس البشري . فهي تظهر في المجتمع نتيجة عقل الانسان
الذي يسعى الى المعرفة وانتحال العلوم والصنائع . فلا بقاء للمجتمع المتحضر
إلا بهذه الصناعة ، ولا حياة له إلا بازدهارها واطراد نموها . فكلما تقدم
المجتمع واستبحر العمران كثرت العلوم وازدهرت . يدل على ذلك قول
ابن خلدون : « ان العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعمم الحضارة ،
والسبب في ذلك « ان تعليم العلم من جملة الصنائع . وقد كنا قدمنا ان
الصنائع فإنما تكثر في الامصار ، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلّة
والحضارة والترّف ، تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة . لأنه امر
زائد على المعاش . ففقط اعمال اهل العمران عن معاشهم ، انصرفت
الى ما وراء المعاش من التصرف في خاصة الانسان وهي العلوم والصنائع .

ومن تشوف بفطرته الى العلم ممن نشأ في القرى والامصار غير المتعدنة ، فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي ، لفقدان الصنائع في اهل البدو كما قدمناه . ولا بد له من الرحلة في طلبه الى الامصار المستبحرة ، شأن الصنائع كلها ، ^(١) .

ثم يستشهد على ذلك بأحوال المدن الاسلامية الكبيرة فيقول : « واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة : لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستولت فيها الحضارة ، كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في اصطلاحات التعليم » ^(٢) .

ولا بد للعلم والتعليم من معلم ينتقل به تراث المعرفة من السلف الى الخلف ؛ وللاتصال الشخصي هنا اهمية كبيرة في نجاح التعليم وتمكين العلم في النفس . ولقد فطن ابن خلدون لهذه الناحية حينما بحث في فوائد الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة ، فذكر « ان البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل ، قارة علماء وتعليم وإلقاء ، وقارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة ، إلا ان حصول الملكات من المباشرة والتلقين اشد استحكاماً وأقوى رسوخاً ، ولا سيما عند تعدد الأساتذة وتنوعهم . وهذا الرأي لابن خلدون يتفق مع الآراء التربوية الحديثة التي تلح على فكرة الاتصال الشخصي او « لقاء المشيخة » على حد تعبير ابن خلدون ، وذلك عن طريق الرحلة وتعدد الشيوخ الذين يتلقى عليهم طالب العلم . لأن التعليم في مثل هذه الحالة اكثر رسوخاً في النفس لما يتوافر له من عوامل اهمها الاستماع والنظر وما يتصل بهما من ضروب التأثير والانفعال المرتبط بالكلام والحركة والالقاء وكافة انواع التصرفات الشخصية الاخرى .

وللتعليم غايات متعددة عند ابن خلدون وأغراض متباينة نظرية

١ - صفحة ٩٩٠ .

٢ - صفحة ٩٩٠ - ٩٩١ .

وعملية . فهو أولاً يتقف عقل الانسان ويزيد مداركه ويوسع آفاقه ويساعده على الخلق والتوليد . فالفكرة الجديدة التي تنبثق من عقل الانسان ترقى الى النفس فتثير فيها من جديد افكاراً اخرى وتزيد من قدرته على التوليد والخلق . والعلوم والصنائع التي يفتعلها من الخارج تساعده على قبول المزيد منها وقورثه مضاء واضاءة . وهكذا . وفي ذلك يقول ابن خلدون :

« ولا شك ان كل صناعة مَرْتَبَةٌ يرجع منها الى النفس أثر يكسبها عقلاً جديداً تستعد به لقبول صناعة اخرى ، ويتبها بها العقل لسرعة الادراك للمعارف ... وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الاحوال المعادية يزيد الانسان ذكاء في عقله وإضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس ، إذ قدمنا ان النفس انما تنشأ بالادراكات وما يرجع اليها من الملكات » (١) .

وهذه العملية المتبادلة بين العقل ومنتجاته عملية مستمرة لا تقف عند حد . وهنا ايضاً تتفق آراء ابن خلدون مع احدث الآراء التربوية : فكل فكرة جديدة تنبثق في عقل الفرد ، وكل خبرة يعانها ، وكل معرفة يحصل عليها ، تؤثر في عقله ويظهر هذا التأثير في حياته وسلوكه وتفاعله مع المخلوقات والأشياء .

وللتعليم غاية اخرى عملية وهي كسب الرزق . إذ لما كان « العلم والتعليم صنعة من الصنائع » وكانت الصنائع انما تنشأ في المجتمع لضرورتها لحياة افراده في اول الامر ثم لكونها سبيلاً الى التعيش والارتقاء ، كان المعلم صانعاً محترفاً لمهنة التعليم التي هي صنعة من جملة الصنائع ، وكان العلم والتعليم وسيلة تساعد صاحبها على ان يحيا حياة طيبة في مجتمع راق متحضر يجد فيه مجالاً للعمل والتوجيه والارشاد .

وينتقد ابن خلدون كثرة الحفظ في التعليم وبذل الجهد في سبيل

اتقانه ، فتخال انك امام ناقد عصري فذ . فالاهتمام بالحفظ من شأنه ان يصرف المتعلم عن اجادة العلم والنفاز الى لبه . فالتعليم صناعة انما غايتها اثبات (ملكة) العلم في نفوس المتعلمين ، لا حمل المتعلمين على حفظ فروع العلم ، وذلك انما يتم « بحصول ملكة في الاحاطة بمبادئ العلم وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من اصوله » . ويضرب ابن خلدون لذلك مثلاً بالتعليم الذي كان سائداً في اقطار المغرب ، ذلك التعليم الذي لم يساعد المتعلمين على « حصول الملكة والحدق في العلوم » . لأن جل ما كان فيه إنما هو الاهتمام بالحفظ والعناية بالاستظهار ، وإهمال « النقاش والمناظرة في المسائل العلمية » . لذلك لم تكن لأغلب المتعلمين في تلك البلاد القدرة على الاشتراك في المناقشات والمناظرات في المجالس العلمية لاهتمامهم بالحفظ وحده . فالمطلوب في التعليم انما هو تكوين « ملكة التصرف في العلم والتعليم » وهذه « الملكة العلمية » كما يسميها لا تحصل بمجرد حفظ فروع العلم وأصوله ، وإنما تحصل بالمحاورة والمناظرة والمفاوضة في مواضيع العلم . فان المحاورة والمناظرة هي التي تولد ملكة التصرف وملكة استنباط الفروع من الاصول . وهذا رأي في غاية السداد والحكمة وهو لب فلسفة التربية الحديثة لا يسع المرء إلا ان ينحني امامه وينوء بفضله . وإتينا لنجد طريقة المناظرة والمناقشة في التدريس من الطرق المتبعة في ارقى المدارس وخاصة النموذجية منها لما لها من فوائد تعليمية معروفة لا تُنكر .

ولتحقيق هذه الغاية يضع ابن خلدون مجموعة من القواعد يمكن تلخيصها فيما يلي :

أولاً : مراعاة مقدرة المتعلم العقلية فيما يلقي اليه من نوع العلم ومقدار ذلك النوع « فإن قبول العلم والاستعداد لفهمه ينشأ تدريجاً ... واذا أُلقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي يبعد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في

نفسه ، فتكاسل عنه وانحرف في قبوله وتمادى في هجرانه . وإنما اتى ذلك من سوء التعليم . وهذا التحليل العميق لا تخفى على أحد قيمته التربوية الثمينة .

ثانياً : التدرج بالمتعلم من السهل الى الاقل سهولة في ثلاثة تكرارات . فيعطي المتعلم في اول الأمر مسائل من كل باب من الفن هي اصول ذلك الباب ، « ويُقَرَّب له في شرحها على سبيل الاجمال ... » وعند ذلك تحصل له ملكة في ذلك العلم . ثم يرجع به الى الفن ثانية ... ويستوفي الشرح والبيان ، ويخرج عن الاجمال ... فتجود ملكته . ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصاً ولا مبهماً ولا منلقاً إلا اوضحه وفتح له مقفله . فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته . هذا وجه التعليم المفيد . وهو انما يحصل في ثلاثة تكرارات ، وقد يحصل للبعض في اقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه . وهذه ايضاً ملاحظة ثمينة في التعليم لها اهميتها المثلى .

ثالثاً : ويحسن بالمتعلم ألا يشتغل إلا بعلم علم « حتى يعيه من اوله الى آخره » ، ويحصل أغراضه ويستولي من ملكة ينفذ بها في غيره : لأن المتعلم اذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعدادها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض الى ما فوق . وهذه القاعدة لا يمكننا ان 'نقر' ابن خلدون عليها . فلئن اقررناه على جميع القواعد الاخرى وأشدنا بفضلها فيها وسبقه علماء التربية المحدثين ، فلا يسعنا إلا ان نرفض هذه القاعدة التي تتنافى مع الواقع . إذ قد ثبت ان الانسان يمكنه - بل من الخير له - ان يتعلم اكثر من فن واحد في وقت واحد وان تعلم اي فرع من فروع المعرفة لا يقتصر امره على انه لا يعيق تعلم اي فرع آخر ، بل انه على العكس من شأنه ان يساعد كثيراً على تعلمه .

رابعاً : ينبغي عدم التطويل « على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأنه ذريعة الى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها عن بعض ، فيتسر حصول الملكة بتفرقها » . فالملكة انما تحصل بتتابع الفعل وتكراره ، فاذا تنوسي الفعل لطول المدة بين الدرس والدرس

تتوسيت الملكة الناشئة عنه . وهذه النظرية من أمهات نظريات التعلم في الوقت الحاضر .

خامساً : لا يجوز استعمال العنف . فالشدة على المتعلمين مضرّة بهم ، ولا سيما في اصغر الولد ، إذ ان « ارهاق الحد في التعليم مضر بالتعلم ، لأنه من سوء الملكة ، ومن كان مرباه بالعنف والقهر من المتعلمين او المماليك او الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ، ودعا الى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الايدي اليه بالقهر عليه . لذلك صارت له هذه عادة وخلقاً وفسدت معاني الانسانية التي له » .

ويعود ابن خلدون مرة اخرى فيشبه الأمة بالفرد : فالأمة التي تقع في قبضة القهر يحري لها ما يحري للفرد حتى تفقد انسانيتها . ويضرب لذلك مثلاً رائعاً بما حدث لليهود فيقول : « وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر وثال منها العسف . واعتبره في كل من 'يملك امره عليه ، ولا تكون الملكة الكافّة له رفيقة به ، تجد ذلك فيهم استقراراً . وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من 'خلق للسوء ، حتى انهم يوصفون في كل أفق وعصر بالحرّج ، ومعناه في الاصطلاح المشهور : بالتخايب والكيد ، وسببه ما قلناه » . وهذه ملاحظة عميقة لابن خلدون تلخص تجارب ونظريات عديدة في التحليل النفسي وعلم الاجتماع المعرفي .

سادساً : ومن الافضل الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة ، اي اصحاب الاختصاص وكبار رجال العلم : إذ في ذلك « مزيد كمال في التعلم » . وذلك لما تقدم معنا من اهمية الاتصال الشخصي في نجاح التعليم وتمكين العلم في النفس .

سابعاً : يجب على المتعلم ألا يركن الى جهده الواعي وحده . فالتعليم عند ابن خلدون لا يحصل كله بالاستعداد والجد : فان هنالك جزءاً منه يتلقى بالفتح من لدن الله . وفي ذلك يقول ابن خلدون : « فاذا عرض

لك ارتباك في فهمك أو تشبيب بالشبهات في ذهنك فاطرح ذلك وانتبه
حجب الالفاظ وعوائق الشبهات ، واترك الامر الصناعي جملة ، واخلص
الى قضاء الفكر الطبيعي الذي 'فطرت' عليه ، وصرّح نظرك فيه ، وفرّغ
ذهنك فيه للغوص على مرامك منه ، واضعاً قدمك حيث وضعها اكابر
النظار قبلك : متعرضاً للفتح من لدن الله ، كما فتح عليهم من رحمته
وعلمهم ما لم يكونوا يطمون .

وهذه النظرية - رغم ملاساتها الدينية - سليمة جداً من وجهة نظر
علم النفس ، لأنها تحليل صادق للحظات الإلهام والإشراق في حياة كثير
من العباقرة عندما يصرفون النظر عن مسائل اعجزهم حلها ، وما هي
إلا اوقات معدودة حتى تختبر حلولها في منطقة اللاوعي فتنشال عليهم
المعاني والأفكار .

ثامناً : يجب تجنب معوقات التعليم . وهذه المعوقات شتى منها :

كثرة المؤلفات في العلم الواحد ، إذ يعجز المتعلم عن قراءة بعضها
فضلاً عنها كلها .

ومنها تعدد المذاهب والآراء الصناعية ، اي الاجتهادات والشروح
والاستطرادات والتعليقات الشخصية التي يضيع فيها المتعلم بين فلان
وفلان . فأحرى بالمتعلم ان يفهم المسائل في ذاتها من الخوض في آراء
المختلفين فيها .

ومنها اخيراً اختصار كتب التعليم وحشوها بالمعاني الكثيرة حتى
تصبح ابواب العلم أحاجي وألغازاً يصعب على عقل المتعلم المبتدئ ان
يفهمها ويستخرج المسائل من بينها . وغني البيان ما لهذه الآراء مجتمعة من
قيمة تربوية عظيمة .

والعلوم عند ابن خلدون نوعان :

« علوم مقصودة بالذات » كالتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام

والطبيعيات والآليات ، وهذه لا خرج من التوسع فيها ، إذ يزيد طالبها تمكناً من ملكته وإيضاحاً لمعانيها المقصودة .

ثم علوم هي وسيلة آلية لهذه العلوم ، كالنحو والحساب والمنطق ، فلا ينبغي أن ينظر فيها ، إلا من حيث هي آلة لغيرها ، أي للعلوم المقصودة بالذات . فلا ينبغي التوسع فيها ولا التعمق ، لأن ذلك يفقدها خاصيتها وهي كونها مجرد أداة فقط تساعد على دراسة العلوم المقصودة بالذات . فكل توسع في هذه العلوم مضيق للوقت ، وعائق يحول دون إتقان المتعلم للعلوم التي هي أهم منها ، وعلى حد قول ابن خلدون فإن « التوسع في دراسة هذه العلوم الآلية تضيق للعمر وشغل بما لا ينبغي... وربما يقع فيها انظار لا حاجة بها في العلوم المقصودة » فهي نوع من اللغو ، وهي أيضاً مضرّة للمتعلمين على الإطلاق ، لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم من وسائلها . فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد ؟ لذلك يجب على المتعلمين لهذه العلوم ألا يستبحروا فيها وأن ينبهوا المتعلم على الغرض منها . فمن نزعت به همة بعد ذلك إلى شيء من التوغل ، فليرق له ما شاء من المراقى صعباً أو سهلاً^(١) .

تكشف هذه الآراء لابن خلدون عن خبرة فائقة في التربية وعلم النفس أقر المختصون أكثرها كما رأينا في حينه . فهي زبدة تجارب امتحنها هذا المفكر الفذ والرائد الألمي العظيم صاحب العبقرية الثرة السامقة والنظرة النافذة والدهن النضيج والومضة التي لا تجود كثيراً بمثليها الدهور والآباد .

نقد (مقدمة ابن خلدون) :

لا تخلو (مقدمة ابن خلدون) من بعض العيوب والانحرافات التي رأينا جانباً منها ، بعضها من قبيل الهنات والزلات التي يمكن أن تغتفر له ،

١ - انظر المقدمة ، ج ٤ صفحة ١٢٣٠ - ١٢٤٧ .

خاصة اذا ما قيست بما اسدى للفكر البشري من خدمات لا ينكرها إلا مكابر ، وبعضها لا يضع صدورها عنه وكان ينبغي ان ينأى بنفسه عن الوقوع فيها . وهناك مطاعن وُجّهت الى ابن خلدون يغلب عليها التجني او سوء الفهم ينبغي اعطاء فكرة عنها ليكون لنا رأي شامل في ابن خلدون . فلنبحث هذه المطاعن بحثاً موضوعياً دون ان نطنب في تفكير ابن خلدون او ان ننتقص منه ، متوخين تقويمه تقويماً موضوعياً يثبت الحقيقة في واقعها بلا تحيز او محاباة .

فيؤخذ عليه أولاً ما نرى في (المقدمة) احياناً من تداخل بين توخي العلم الصحيح يجمع الحقائق والكشف عن القوانين وبين الدعوة الى الاصلاح والإرشاد ، وهذا ليس من صفات رجل العلم في شيء . وللد على هذا الاعتراض حسبنا ان نقول انه ليس من الجائز ان نحكم على القرن الرابع عشر (او القرون التي سبقت) بعقلية القرن العشرين . ان التداخل بين ميادين الدراسة المختلفة كان شيئاً مألوفاً جداً في الماضي ، وان التمييز بين ما يرجع الى العلم الخالص وما يرجع الى الدعوة والاصلاح لم يُعرف ولم يتبلور في الاذهان إلا في العصر الحديث . فلا نطلب من القدماء ان يفكروا بعقلية المحدثين . ومع هذا فقد استطاع ابن خلدون ان يتخلص من هذا التداخل في مواضع لا حصر لها من (المقدمة) . لكنه لم يتخلص منه تخلصاً تاماً . فإذا لم تتبلور هذه التفرقة في ذهنه تبلورها في اذهاننا نحن اليوم فعذره واضح ، فلا نحمله ما لا يحتمل .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى هناك من علماء الاجتماع (بومان Bowman) من ينادي اليوم بصعوبة الفصل بين الاهتمام بالناحية العلمية في دراسة المجتمع ، والاهتمام بالإصلاح الاجتماعي . فالصلة وثيقة جداً بينهما بحيث يكاد يكون من المتعذر وضع حد واضح يفصل احدهما عن الآخر . فالدعوات الإصلاحية والتوجيهية في نظر هذا الفريق من العلماء تدخل في نطاق علم الاجتماع بحسبانها جزءاً لا يتميز منه .

ويؤخذ على ابن خلدون ايضاً النقص الكبير في استقراء الظواهر وجمع الشواهد التي تؤيد وجهة نظره . فهو إنما درس الشعوب الاسلامية بصورة عامة وشعوب اهل افريقية على وجه الخصوص في عصر معين ، وانتهى الى نتائج ناقصة جعل منها قوانين عامة ظن انها تصدق في كل زمان ومكان .

وهذا المأخذ يبدو وجيهاً ، لولا انه يغفل ناحية هامة ، وهي ان الظواهر التي استقرأها ابن خلدون والشواهد التي جمعها لم تقتصر على الشعوب الاسلامية وشمال افريقيا بل تناولت جميع الأمم التي تنامي علمه اليها وجميع العصور التي امكنه التوغل فيها ، كل ذلك بحسب ما كانت تسمح به الامكانيات العلمية والتاريخية في عصره والعزلة النسبية التي كانت تميز المجتمعات في زمنه . وإذا كانت القوانين التي وصل اليها ذات مسحة عامة ولها صفة الاطلاق نوعاً ، فإنها كانت على كل حال صادقة في عصره وفي الرقعة الجغرافية والتاريخية التي كان يعيش فيها . أما ما سوف يحدث بعد ذلك ، وهل سوف يطرأ عليها في المستقبل البعيد ما يغيرها فأمر لا يمكن التنبؤ به ، لا سيما في المرحلة التاريخية والظروف العلمية والثقافية التي كانت يحيا فيها ، والتي كان يسيطر عليها جو من الاستاتيكية والركود يصعب فيه تصور تغيرات غير منتظمة - كالتي تحدث الآن - في مصائر المجتمعات والشعوب . فالتنبؤ في شؤون الاجتماع حيث تتشابك العلاقات الانسانية والعوامل الجغرافية والظروف التاريخية ، وحيث تتداخل وتتعدد ، أمر في غاية الصعوبة والعسر ان لم يكن مستحيلًا كل الاستحالة . وحسبه ان يكون القوانين التي وصل اليها قد توخى فيها الأمانة والصدق والنزاهة والتجرد والموضوعية ، وأن يقيم علمه على دعائم راسخة متينة ، وأن يجمع له من الشواهد والأدلة ما تتسع له إمكانياته ، هذا كل ما يطلب من رجل العلم وهذا ما ينبغي ان تكون عليه الدراسة الصحيحة المثلى ، لا سيما في عصر ابن خلدون . وفضلاً عن ذلك ان تاريخ العلم حافل بالأشخاص الذين وضعوا القوانين التي لا تقل فجاجة وتسرعاً عن قوانين ابن خلدون

فتناولتها الأجيال التالية بالتعديل والصقل والتهديب والحذف والزيادة نتيجة لظهور كشف جديد او معلومات لم تكن بالحسبان . فلا تتوقع من مكشف لقانون - بله من واضع لعلم بكامله - ان يكتشف قانونه هذا مبرأ من كل عيب ، او يضع علمه خالصاً من كل شائبة ففي نقدنا للأعمال والآثار والمآثر - وبخاصة اذا كانت تتصل بالقدماء - يجب ان نذكر دائماً المرحلة التاريخية التي عاش اصحابها فيها والإمكانات العلمية الضحلة التي كانت بين ايديهم . فلنحذر - كما قلت سابقاً وكما سأظل اقول دائماً - ان نحكم على القدماء بحسب معاييرنا ومقاييسنا التي انضجتها تجارب طويلة وخبرات مريرة حتى وصلت الى حالتها الحاضرة .

بل حتى لو صرفنا النظر عن هذه الاعتبارات جميعاً وسلمنا بنقص استقرار ابن خلدون وبأن مقارناته محدودة لم تتعد العرب والبربر وشمال افريقيا ، فليس في هذا ما يضير ابن خلدون في شيء ، بل هذه هي الطريقة المثلى لدراسة المجتمعات ، وهي الطريقة التي تقتطع بيئة محدودة او مجتمعاً معيناً بالذات وتحصر الدراسة فيه لتخرج بنتائج دقيقة : وذلك كدراسة ايفانز بريشارد لبدو برقة وشمال افريقيا في كتابه *The Sanusi of Cyrenaica* ومرغريت ميد لمجتمعات محدودة بجزيرة غينيا الجديدة في كتابها *Sex and Temperament in three Primitive Societies* الخ . فأمثال هذه الدراسات المحصورة في نطاق ضيق لا يكون موضوعها معالم مجردة كما هو حال الدراسات التي تجري على نطاق واسع جداً وتدور في الفراغ - دراسة الانسانية مثلاً - بل إنما يكون مجالاً محدداً ملموساً في متناول الضبط العلمي والطريقة المنهجية الموجهة . وهذا ما يفعله علماء الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا والفلك و... عندما يحصون دراساتهم في مجال معين من مشاهداتهم لا يتخطون ، حتى اذا ما فرغوا منه انتقلوا الى غيره . وهكذا ثم يصدرن بعد ذلك تعميمات تشمل هذه المجالات مجتمعة ، وبهذه المثابة فإن دراسة ابن خلدون تعد خير دراسة لواقعنا الاجتماعي الذي لا يزال

حق الآن يتميز بحساسيته الشديدة للقيم البدوية والمفاهيم العشائرية والقبلية ويتأثر أكثر من أي مجتمع آخر بالتفاعل بين البداوة والحضارة . لقد وضعت نظريات كثيرة لفهم واقعنا الاجتماعي الحديث والقديم وكلها لا تخلو من النقص ، وما لم نعالج هذا الواقع على ضوء نظرية ابن خلدون التي هي اقرب الى فهمه وسبر اغواره من أي نظرية حديثة اخرى مستوردة من الخارج فلن يكتب لنا النجاح . فهي نظرية علمية طبيعية رائدة انضجتها تربة هذه البلاد وتغذت بلبانها فعرفت موطن الداء فيها . فيجب ان تكون عمدتنا في كل محاولة علمية في هذا السبيل .

ومن المطاعن التي توجه لابن خلدون اخيراً ما يقال من سيطرة عنصر اللامعقول على تفكيره ، فهو على الرغم من ايمانه العميق بقانون السببية وبخضوع وقائع العمران لها ، يؤمن - فيما يرى الطاعنون به - بالخوارق والمغيبات والتأثيرات العلوية . وهذا المظن غير صحيح في نظرنا . فابن خلدون يؤمن بالعقل الى ابعد مدى وان كان يضع له حدوداً . فحدود اي شيء داخلية في تعريفه ، فضلاً عن ان ذلك عمل علمي بحث يمكن وصفه بأنه بحث في طاقة العقل نفسه كما قلنا في مناسبة سابقة . فالعقل لا مدخل له في نظر ابن خلدون في كثير من الامور ولا سيما امور الدين - وابن خلدون رجل متدين كما مرّ معنا - « وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيها . غير انك لا تطمع ان تزن به امور التوحيد والآخرة وحقائق النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره ، فانه طمع في محال »^(١) على حد قول ابن خلدون .

وهناك مطاعن اخرى توجه في العادة لابن خلدون ، إلا انها لا تخرج عما ذكرنا ولكن تشفع له اننا لا نعرف احداً من الناس قبله قد شاد صرحاً رائعاً كالصرح الذي شاده مفكرنا العربي العظيم ، فهو اول فيلسوف

عرفه الفكر الانساني وصل الى القمة في دراسة الظاهرة التاريخية - الاجتماعية .
وحين يمتد نشاط الانسان العقلي الى ميادين واسعة كالتي امتد اليها نشاط
ابن خلدون ، فان من حقه علينا ان نعفو عن كثير من هنائه ومزلاته .
ان ابن خلدون رجل منطق ، ولكن هذا لا يمنع ان يقع في كثير
من الاخطاء . وهو يضع قواعد ومناهج للبحث ، ولكن كتابه (العبر)
أىكة مشتبكة الاغصان من سوء النظام والتهافت والسقوط . بيد اننا
اذا ما توغلنا في هذه الاىكة التقينا فيها بكثز من الحكمة والنشاط العقلي
شقاً طرقات كثيرة في ميدان البحث العلمي .

ان (المقدمة) توحى بعمق تفكير صاحبها ونفاذ بصيرته وبعد نظره
وخصب معالجته . فاذا ما انتقصنا من تقديرنا له كل ما فيه من عيوب ،
فإنه يبقى بعدها « سيد العارفين » . وذلك دليل مشجع على ما يمتاز به
العقل البشري من قدرة لا نهاية لها . وهو الهام مطمئن للذين يكدهون
في سبيل فهم افعال الناس وسبر أغوارها والغوص الى أعماقها .
وان ابن خلدون المعجب بما ابدعه من علم وما أتى به من آراء ،
لأعلم الناس بمعجزه وأدراهم بمحدوده اذ يقول :

ونحن ألهمنا الله الى ذلك إلهاماً ، وأعثرنا على علم جعلناه سن بكنره
وُجيهنة خبره^(١) فان كنت قد استوفيت مسائله ، وميزت عن سائر
الصنائع انظاره وانحساءه ، فيوفيق من الله وهداية . وان فاتني شيء في
احصائه واشتبته بغيره مسائله ، فللناظر الحق اصلاحه ، ولي الفضل لأنني
نهجت السبيل واوضعت له الطريق ، والله يهدي بنوره من يشاء .

ومكذا فحسبه فخراً انه نهج السبيل واوضح الطريق .

اشعاع ابن خلدون بعد وفاته . -

لم يخلف ابن خلدون تلاميذ مباشرين سوى عدد قليل جداً ، وما
عدا هذا النفر القليل فان الذين تأثروا به انما تتلمذوا على كتبه وانتفعوا

١ - مثل على من يحيى بالخبر الصادق .

بها بطريق النقل والاقتباس دون ان يحضروا مجلسه . ولكن مها يكن من تأثر العرب بكتابات ابن خلدون فإنها لم تستطع ان تؤتي أكلها فيهم ، اذ كانوا في شغل عنها وعن كل عمل فيه خلق وأصالة . لقد خبا نورهم وأفل نجمهم فتحولوا عنه وعن آثاره . لقد كان الذبالة التي تسبق الفناء والوهج الأخير من حضارة عاشت طويلا وامتد بها الاجل حق غلبها تنازع البقاء ، فترنحت وهوت لتفسح المجال لحضارة اخرى تخلفها وتصل ما انقطع من امرها . ولكل أجل مكتوب .

وفي القرن السادس عشر عادت (المقدمة) الى الحياة عندما بدأ المؤرخون العثمانيون يعنون بها ويقتبسون منها ويستلهمون ما فيها من آراء وأفكار دون ان يتعدوا ذلك الى الابتكار والخلق . نذكر منهم على سبيل المثال طاش كبرى زاده (١٥٦١) وحاجي خليفة (١٦٥٧) و خليل باشا زاده (المعروف باسم طبيعي بك) (١٦٦٥) . ثم اخذت الترجمات التركية تترى بعد ذلك . فترجم القسم الاكبر من (المقدمة) محمد صاحب (المعروف باسم بيروي زاده ١٧٤٩) ثم أتم الترجمة بعده احمد جودت (١٨٩٥) .

وعن طريق الاتراك اتخذت (المقدمة) طريقها الى اوربا منذ اخريات القرن السابع عشر . وكان اول من تكلم على ابن خلدون هو دربلو d'Herbelot في المكتبة الشرقية Bibliothèque orientale سنة ١٦٩٧ فأتى على نبذة من حياته وبعض مقتطفات من (المقدمة) معثرة بالأخطاء . ثم يعثر سيلفستر دي سامي Silvestre de Sacy ما بين سنتي ١٨٠٦ - ١٨١٠ على بعض اجزاء منها مترجمة الى الفرنسية . وبعد ترجمة دي سامي ظهرت عام ١٨١٢ رسالة باللغة الالمانية للمستشرق النمساوي فون هامر بورغشتال Von Hammer Purgstall عن (اضمحلال الاسلام بعد القرون الثلاثة الاولى للهجرة) أشار فيها الى اهمية ابن خلدون وخلع عليه لقب د مونتسكيو

العرب ، . وأول من ترجم (المقدمة) ترجمة كاملة دقيقة وأمينه الى لغة اوروبية هو البارون دي سنان Baron de Siano الذي نقلها الى الفرنسية سنة ١٨٦٨ . ومنذ ذلك الحين لم ينقطع الاهتمام بترجمة (المقدمة) وإعادة ترجمتها من جديد . فترجمت الى الإيطالية والالمانية والانكليزية والبرتغالية والاوردية ، بالإضافة الى الفرنسية .

وهكذا لم ينقطع الاهتمام بابن خلدون منذ القرن السابع عشر ، بل ان هذا الاهتمام لا يزال يشتد ويتعاضد . لكن المسألة التي ما انفكت تشغل الأذهان هي معرفة ما اذا كان لهذه الترجمات أثر في قيام الابحاث التاريخية والاجتماعية في اوروبا . فعلى الرغم من ان ابن خلدون يجب ان يُعدّ أباً لفلسفة التاريخ ورائداً لعلم الاجتماع فانه من الوجهة العملية لم يُقدّر له - على ما يبدو حتى الآن على الاقل - ان يكون ذا تأثير مباشر في تطور هذين الفرعين الهامين من فروع العلوم الانسانية . إذ لم يظهر حتى الآن ما يشير الى احتمال اطلاق المشتغلين بها من الغربيين على (المقدمة) . وليس على المرء هنا الا ان يتكهن ويرجم بالظنون .

فهنالك من يقول باحتمال اطلاق اوغست كومت على (المقدمة) او على بعض اجزاء منها عن طريق بعض تلاميذه من المصريين . ويرى البروفسور نتيل شميت N. Schmidt ان آثار ابن خلدون كانت معروفة في الاندلس خلال القرن الخامس عشر . وهذا الرأي لا يخلو من الصواب ، لأن ابن خلدون عرف الاندلس كما مرّ معنا في ترجمته ورحل اليها مرتين واتصل فيها بعدد غير قليل من ادبائها ومفكرها . ولئن كان قد كتب (المقدمة) بعد ذلك عندما نزل بقلمه بني سلامة ، الا انه ظل على اتصال بأصدقائه فيها يرسلونه ويراسلهم مدة لا تقل عن عشرين عاماً . فمن المستبعد والحالة هذه ان تبقى اروع آثاره غير معروفة في الاندلس .

نعم ان مؤلفاته لم تنتقل الى اوروبا عن طريق الافدلس بل وصلت اليها متأخرة عن طريق المشرق كما رأينا ، لكن ذلك راجع - فيما يرى شميت - الى احراق الكتب العربية الهائلة في باب الرملة بغرناطة سنة ١٤٩٩ عند اجلاء العرب عن الافدلس نهائياً . وعلى كل حال لا نستطيع ان نقطع في هذه المسألة الشائكة بقول فصل او رأي حامم . فإن هي إلا ظنون ، وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً .

الفصل الحادي عشر

انتقال التراث

كان اختلاط العرب بالامم اللاتينية في القرون الوسطى اختلاط قنال وحروب ومعارك اولاً ، ثم اختلاط حضارة وثقافة وأفكار بعد ذلك . ومن هنا كان التأثير والتأثر ، ومن هنا كان التفاعل وانتقال التراث من الشرق الى الغرب .

وتعددت المسالك التي سلكها هذا التراث في طريقه الى الغرب . فقد غزت نهضة العرب عقول اللاتين وافهامهم ، فهبوا لمقاومتها او الاندماج فيها والمساهمة في خيراتها .

وهكذا كان لقاء فكان اخصاب .

لقاء بين فكر بلغ غاية نضجه وتطوره ، وفكر اخذ يعمي وجوده ويتلمس الطريق لبدأ المسير بين ثقافة يانعة اكتملت وآتت اكلاها ، وثقافة ناشئة اجتذبتها البريق وأخذ منها كل ماأخذ .

وكان الأخصاب الذي اسفر عنه هذا اللقاء فذاً رائعاً ، لا ينضب معينه ولا ينقطع مدده ، بل تراه يمدق ويزداد تدفقاً كلما تقاذفته الرياح واستطال به الزمن . فهو يتجدد باستمرار وينمو ثم ينمو ، ولا يزيده ذلك

إلا قوة وعطاء . وحسبنا للدلالة على ما فيه من قوة وحيوية ان حضارتنا اليوم بكل شمولها وإيعادها وآثارها الخارقة التي بلغت حد الاعجاز هي من نتاج هذا الاخصاب .

وقد تمت عملية الاخصاب هذه بين الفكرين العربي والاوروبي (١) في صقلية وجنوب ايطالية من ناحية ، (٢) والاندلس ومدينة طليطلة من ناحية اخرى . وكان هناك اتصال ثالث في الحروب الصليبية لا يهملنا هنا .

(١) فأما صقلية التي افتتحها العرب سنة ٢١٢ هـ على يد الاغالبة ، فقد وفدوا اليها بعقلياتهم وثقافتهم ومذاهبهم ووفدت معهم اليها طائفة من الكتب العربية او المنقولة الى العربية متنوعة في ثقافتها ، ومن هنا بدأ التلاقح والاخصاب . فما هي إلا فترة قصيرة استراحت فيها بعض الراحة من الحروب والفتن حتى انتجت انتاجاً متنوعاً في الفقه والحديث واللغة والفلسفة والطبيعة والطب والهندسة والنجوم ، وكان ذلك في اواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للهجرة .

وفي بلرم Palrme التي اتخذها العرب عاصمة لهم في صقلية انشأوا اول مدرسة للطب لم يعد مثلها في العالم اللاتيني آنذاك . وعلى غرار هذه المدرسة انشأت مدارس للطب في بلاد ايطاليا ، وساعد على ذلك انتقال الباباوات الى افينيون Avignon بفرنسا فغلا الجو للعلم العربي والقرائح العربية زمناً طويلاً .

وطالت ايام العرب في صقلية الى سنة ٤٨٤ هـ حيث سقطت في ايدي النورمان الذين ساروا على نهج العرب في التسامح وتنشيط الحركة العقلية في الجزيرة ، فأبقوا المسلمين على عاداتهم ودينهم ولسانهم ، واستعملوا فريقاً كبيراً منهم في حروبهم وحاشيتهم . فكان منهم القواد والعظماء والعلماء في خدمة الدولة الجديدة ، وظلت اللغة العربية لغة رسمية في الجزيرة طوال حكم النورمان ، بل لقد تعلم هؤلاء العربية ، ومنهم من برز فيها ونظم فيها الأشعار . وهكذا تخلق النورمان بأخلاق وعيائهم وعاملوم معاملة

نادرة في التسامح الديني والسياسي ، حق اتهم الباباوات امراء النورمان
بالإسلام ، وما زالوا بهم حق قضوا عليهم بهذه التهمة الكاذبة التي لا اساس
لها من الصحة .

وفي هذه الأثناء لم ينقطع سيل الكتب والعلماء عن غزو صقلية بل
لقد ظلت هذه الجزيرة تستورد الكتب والعلماء من الخارج كما كانت تفعل
في العصر العربي . وساعد على ذلك ما ذكرناه من تسامح النورمان بإزاء
المسلمين ومساعدتهم ايما مساعدة . فقد انشأ رجار (روجر) اكااديمية كان
يعمل فيها العلماء المسلمون مع العلماء النصارى واليهود جنباً الى جنب .
وأحس بالحاجة الى ترجمة العلوم العربية الى اللاتينية فاستحضر الكتب
الجغرافية المؤلفة بالعربية او المترجمة اليها من اليونانية مثل (كتاب العجائب)
للسموذي و (كتاب الجغرافية) لبطليموس وأرسطوس . وهو الذي استقدم
من بر العدو^(١) . الشريف الإدريسي وبالغ في اكرامه وطلب اليه ان
يبقى في صقلية وأن يحقق له اخبار البلاد بالمعينة لا بما ينقل من الكتب
ونذب لذلك اناساً اذكياء ، وجهزهم رجار الى اقاليم الشرق والغرب
والشمال والجنوب وأنفذ معهم بعض المصورين ليصوروا ما شاهدوه عياناً .
ولما تكامل ذلك كله اثبتته الشريف الإدريسي في مصنف سماه (نزهة
المشتاق في اختراق الآفاق) . وهو من خير ما كتب في الجغرافيا . وعمل
الإدريسي لرجار كرة ارضية من الفضة كانت من اجل ما ابتدعته قريحة
عربية رسم فيها العالم ببرد وبحره وجباله وسهوله وأنهاره وبحيراته ومدنه
وممالكه .

وفي ايام غليالم الاول والثاني ازدهرت حركة الترجمة الى اللغة اللاتينية
سواء من اللغة العربية او اليونانية . وكان من اشهر المترجمين عن اليونانية
انريكو اريستيبو E. Aristippo الذي ترجم (الآثار الملوية) لأرسطو

١ - بر العدو هو ما سامت الاندلس وصقلية من شمال افريقيا ، ويعنون بالعدو المغرب
الأقصى والأوسط والأدنى .

ومحاورتي (فيدون) و (مينون) لأفلاطون . وأشهر المترجمين عن العربية يوجين البارمي E. de palerme الذي ترجم الى اللاتينية كتابي (المسطي) و (المناظر) لبطليموس وكتاب (كلية ودمنة) او على الأقل لعله ساعد في ترجمته .

(٢) هذا هو بعض شأن صقلية في نقل التراث الفكري العربي الى اوروبا وهو شأن قليل جداً اذا ما قيس بشأن الأندلس ، ولذلك آثاره الكلام على هذه الأخيرة بعد الكلام على صقلية ، خلافاً للعرف المتبع في العادة .

لقد كان الاسبان جيواناً للمسلمين الاندلسيين ربطتهم بهم الاسباب المتصلة زماناً بعد زمان ، ولم تقتصر علاقاتها على الغرب ، بل قامت بينها صلات ملية ايضاً . وعن طريق هذه العلاقات عرف نصارى الشمال ما كان للمسلمين في الجنوب من فظم سياسية وإدارية ودينية وتجارية وثقافية وتنبهوا الى قدرها ، ومن الطبيعي ان يميل الى النسيج على منوالها .

وعندما كتب للاسبان الانتصار على العرب في حربيهم الطويلة مع المسلمين - التي يسميها كتابهم بحرب الاسترداد Reconouista وتمكنوا من استعادة طليطلة عام ٤٧٨ م (١٠٨٥ م) وتقرير مصير الجزيرة بذلك ، اخذ ملوك قشتالة يعملون على رفع مستوى الثقافة بين شعبهم ، بنقل كموز الثقافة الاسلامية الى لغاتهم . ومن ثم ظهرت في طليطلة (مدرسة المترجمين) Collegio de Tradutores Toledanus التي نقلت العلوم الاغريقية وما اضافها العرب اليها من شروح وتعليقات الى المدارس الاوروبية . فقد كانت هذه المدينة موئلاً للعلم منذ عهد بعيد تمتاز بمكتباتها العظيمة التي نقلت اليها من المشرق آلاف المجلدات ، كما انضم اليها جزء لا يستهان به من مكتبة الحكم الثاني وكان بها جماعة حرة من المترجمين يعملون في هذه المكتبات ينتمون الى طوائف ثلاث يحاور بعضها بعضاً : المسلمين والنصارى واليهود . وكان اليهود هم همزة الوصل بين الطائفتين الآخرين ، سواء في التجارة او في نقل

العلوم . ولا بدّ من التنويه هنا بفضل ريمونديو Raimondo (١١٥٢) اسقف طليطلة وكبير مستشاري ملوك قشتالة آنذاك . فهو الذي شجع حركة الترجمة ونقل الكتب العربية الى الكتب اللاتينية وكان فعله هذا حدثاً حاسماً كان له أبعاد الأثر في مصير أوروبا كما يقول رينان . ثم توالى خلفاؤه من الاساقفة في تشجيع هذه الحركة والحذب عليها حتى استمرت أكثر من قرن .

وكانت الطريقة المتبعة في النقل ان يتولى يهودي مستعرب ترجمة النص العربي ويعليه باللغة الاسبانية العامية ، ثم يقوم احد المترجمين الاسبان بنقله الى اللغة اللاتينية . وكان اهتمام النقلة منصرفاً في اول عهد الاسبان بالترجمة الى العلوم العربية المنقولة عن اليونانية لحاجة الاوروبيين الى مصدر جديد يدم بالمعرفة غير مصدر الرهبان ورجال الدين . فكانت العلوم العربية هي ذلك المصدر ، لا سيما ما كان منها منقولاً عن اليونانية . ثم اتجه المترجمون بعد ذلك الى نقل الآثار العربية الاصلية .

وكان على رأس المترجمين الاسقف دومينيكوس غونديسالفلي Gundisalvi (ويسمى في بعض النصوص غونديساليينوس Cundisalpinus) المتوفى سنة ١١٨٠ وهو من كبار كنيسة طليطلة . وقد شاركه في الترجمة غالباً يوحنا بن داود Johannes Aben David المعروف بالاشبيلي او الاسباني . فنقلا بعض مؤلفات ابن سينا (النفس) و (الطبيعة) و (ما وراء الطبيعة) وبعض آثار الغزالي (مقاصد الفلاسفة) وابن جبرول (ينبوع الحياة) . وهناك مترجم آخر سمي يوحنا هذا هو يوحنا الاسباني الفلكي الذي ترجم من العربية الى اللاتينية بعض كتب ابي معشر الفلكي والفرغاني عام ١١٣٤ وبعض كتب في الرياضة للخوارزمي انتقل بفضلها النظام العشري في الحساب الى أوروبا ، وبفضل هذه الكتب ايضاً عرفت أوروبا (الصفر) فأدخلته في نظامها العددي ، وبذلك استغنت عن الطريقة القديمة في الحساب ، وهي الطريقة التي كانت تعتمد على القيم العددية للحروف

الايحدية . كما اشترك في حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية ايضاً مترجم ايطالي فذّه هو من اقدم المستشرقين الغربيين هو جيراردو الكريموني المتوفى سنة ١١٨٧ الذي انتزعه فريدريك الاول (وكان مهتماً جداً بعلم النجوم العربي) من قلب مدينته كريمونا وأرسله الى اسبانيا ، وقد اوصاه بحلب (المحسّطي) لبطليموس من مدينة طليطلة . فانطلق اليها وهدفه (محسّطي) بطليموس وهو لا يدري انه قد ترجم من قبل كما مر معنا . فوجد طليطلة حافلة بعيون الفكر العربي ، فبقي فيها ما ينيف على العشرين سنة لم يقتصر فيها على نقل (المحسّطي) بل نقل ايضاً الى اللغة اللاتينية فلسفة الكندي وغير ذلك من الكتب العربية النفيسة في الطب والفلك والفلسفة والرياضيات . وقد ذكر سارطون قائمة تشمل ٨٧ كتاباً نقلها جيراردو هذا عن العربية ، ثم عاد بهذه الذخائر الى موطنه كريمونا .

هذا واستمرت حركة الترجمة في طليطلة في القرن الثالث عشر . ومن اشهر النقلة فيها في ذلك القرن ميخائيل سكوتس (الاسكتلندي) Michel Scotus الذي ترجم بعض كتب ارسطو وابن سينا ، كما كان اول من ترجم بعض كتب ابن رشد الى اللاتينية (السماء والعالم) و (رسالة في النفس) وذلك بمساعدة اندريا اليهودي الذي كان يعاونه في الترجمة ويفسر له ما يقرأ . ومن المترجمين الكبار ايضاً ماركوس اسقف طليطلة الذي ترجم من العربية بعض آثار جالينوس ، كما ترجم القرآن الكريم وبعض الكتب في علم التوحيد . وكان هناك ايضاً مترجم آخر هو هرمان الالماني Hermanus Alemanus الذي ترجم شرح ابن رشد على الاخلاق لأرسطو سنة ١٢٤٠ وتلخيص الخطابة لابن رشد ايضاً .

ولم تكن هذه الترجمات على درجة واحدة من القوة والمتانة ، لكن ارقاها بدون شك انما هي الترجمات الواضحة ، البليغة في بعض الاحيان ، التي قام بها عميد المترجمين اللاتين فونديسالفى بمساعدة شريكه يوحنا الاشيلي . اما الترجمات الاخرى فلا تخلو من الركاكة في عبارتها

والاضطراب والغموض في معناها . لذلك لم يكن بد من إعادة النظر في الكثير منها وترجمتها من جديد .

وبلغ الاهتمام بنقل آثار العرب الى اللاتينية أوجّه في عهد الفونسو العاشر (الملقب بالحكيم) . ففي هذا العصر تداولت ايدي الاسبان كتباً عربية في الحكيم والألغاز نقل اصحابها فيها حشداً من آراء فلاسفة الاسلام ومفكرهم . ونُقلت عن العربية كتب في الالعب - كالشطرنج - واستُعملت الموسيقى الاندلسية في صياغة الاغاني الاسبانية ، وذاعت بينهم ترجمات لكتب عربية مشرقية في الحكمة والقصص مثل (السندباد) و (الف ليلة وليلة) عرفها الناس عن طريق صورها العربية . كما نُقلت العشرات من كتب الفلك من اللغة العربية الى اللغة الاسبانية . وأنشئ كذلك معهد للدراسات العليا في مرسية ثم نُقل الى اشبيلية بعد ذلك وانتُدب فيه اساتذة من المسلمين لتدريس الطب والعلوم . وظلت طليطلة كذلك مركزاً للثقافة الاسبانية .

وكانت هناك بواعث حدت بالاسبان الى قدارس كتب العرب : منها الدفاع عن النصرانية وذلك بتمعرف آراء الخصم والوقوف عليها تمهيداً لمعارضتها وإظهار تفوق العقيدة المسيحية عليها . ومن هذه البواعث ايضاً مجرد الرغبة في تحصيل العلم والمعرفة لا سيما اذا ذكرنا ذلك الفقر المدقع في ثقافة الاسبان ونهمهم الى كل ما يرفع المستوى العقلي بينهم . فالمغلوب مولع دوماً بتقليد الغالب كما يقول ابن خلدون وكما يقول منطق التاريخ والحضارة ، يستوي في ذلك المغلوب ثقافياً وحضارياً والمغلوب عسكرياً . وعلى كل حال لقد نشطت حركة الترجمة والنقل في صقلية واسبانيا أيما نشاط بحكم اتصال هذين البلدين بالعرب وتمرسهم بثقافتهم وأفكارهم . وأخذت هذه الثقافات والأفكار تتسرب الى اوروبا ابتداء من القرن الحادي عشر . وتسابق الرجال من ذوي العقول النيرة الى بليرم وطلليطلة لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية . وكان معظم هؤلاء من الانكليز

- كما ذكرنا من قبل - مثل أدلارد الباثي Adelard of Bath الذي ترجم زيج الخوارزمي المعروف عند العرب باسم (السند هند) وفي أوروبا باسم Tablas Astronomicas . ولم يظهر في أوروبا آنذاك كتاب واحد إلا وقد ارتوت صفحاته بالإنابيع العربية واستمد منها الوحي والالهام ، وظهرت فيه بصمات الفكر العربي واضحة جلية سواء من حيث اللفظ والكلم أو من حيث المعنى والمضمون .

وكان لهذه الموجة الطاغية اثرها البالغ العظيم في الدعوة الى اصلاح الديني وقيام حركة النهضة في أوروبا وازدهار العلم والفكر فيها .
والخلاصة ان أوروبا لم تستيقظ من سباتها العميق الا على علوم العرب وآدابهم وآثارهم . فحضارة العرب كلها انما أشعت في صقلية والاندلس ومنها انطلق الاشعاع . وكل موجة علم او معرفة قدمت الى أوروبا إنما كان مصدرها هذان البلدان او ما جاورهما .

هكذا كان اللقاء بين الفكرين العربي واللاتيني ، وهكذا كان التلاقح فلا يُنبج فكر إلا بعد لقاء ينتقل به التراث من السالف الى الخالف .
فلا اخصاب إلا بعد لقاء .

هذه سنة الفكر في جولته في الآفاق .

دليل الاعلام

٢٤٦ - ٣٧٠ ، ٤٤٣ ، ٤٧٣ ،
- ٥٧٧ ، ٦٨١ ، ٧٢١ ، ٧٢٧ ،
٧٣٤ - ٧٣٦ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٥٩ ،
٧٦٢ ، ٧٨١ ،

ابن شهدا : ٣١٥
ابن الصلاح : ٣٢٦
ابن طفيل : ٤٤٤ ، ٤٨٠ - ٤٨٢ ،
٥٦٣ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٩ ،
٧٢٨ ، ٧٤١
ابن عربي : ٧٢٥
ابن المقفع : ٢٩٤ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ،
٣٠٩ ، ٣٤٤ ، ٧٩٧
ابن نباتة : ٥٩٩
ابن النديم - ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣ ،
٣٠٥

ابو اسحق ابراهيم بن بكوش ٣١٧
ابو بشر متى : ٣١٧ ، ٣٧١
ابو البقاء : ٣٣٥
ابو بكر الصديق : ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،
٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ،
ابو بكر بن القوطية ٣٦١
ابو بكر محمد بن السري بن سهل
النحوي المعروف بابن السراج ٣٧١
ابو جعفر المنصور (انظر المنصور)

ابراهيم بن حبيب الفزاري : ٣٠٦ ،
٣١٠

ابقرط : ٣٠٣ ، ٣٢٤ ، ٣٣٣
ابن ابي الحديد : ٢٧٩
ابن ابي اصيبعة : ٣٧٢
ابن الاثير : ٢٧٨ ، ٢٢٦
ابن الازدق (انظر : ابو راشد نافع)
ابن بشكوال : ٣٦١
ابن البطريق (انظر يوحنا بن -)
ابن بهلة (انظر صالح بن -)
ابن تاشفين (يوسف) : ٦١١
ابن حجر : ٣٢٦ ، ٣٢٧
ابن خلدون :

٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٤٦ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤
ابن خلكان : ٣٢٦ ، ٣٧٨
ابن دهن : ٣٠٦
ابن رشد : ٤٤ ، ١٨٤ ، ٢٦٤ ، ٣٣٧ ،
٣٤٦ ، ٣٧٨ ، ٤٠٤ ، ٤٨٣ ، ٧٢٠ ،
- ٧٦٣ ، ٧٨١

ابن الرومي : ٣٠٧
ابن السبكي : ٦٠٩
ابن سينا : ٤٤ ، ٢٦٤ ، ٣٢٨ ، ٣٤١ ،

٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ،
 ٣٥٧ - ٣٦٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ ،
 ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ ،
 ٣٨٤ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ -
 ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤١١ ،
 ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٨ ،
 ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ،
 ٤٤٠ ، ٤٤٤ ، ٤٥٣ ، ٤٥٨ ،
 ٤٧٢ ، ٤٨٠ - ٤٨٢ ، ٤٨٥ ،
 ٤٨٧ - ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦ ،
 ٤٩٧ ، ٥٠١ - ٥٠٣ ، ٥٠٥ ،
 ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥٢١ ، ٥٢٧ ،
 ٥٦٠ ، ٦٦٣ ، ٧١٩ ، ٧٢١ ،
 ٧٢٢ ، ٧٢٤ ، ٧٢٦ ، ٧٣١ -
 ٧٣٦ ، ٧٥٢ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ،
 ٧٦٢ ، ٧٨٣ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ .

ارسطو ديم : ١٠٨
 ارسطوفان : ٩٤ ، ٩٥ ، ٣١٢
 اسبوسيبوس : ١٥١ ، ١٥٢
 اسحق بن حنين : ٣٠٧ ، ٣١٠
 الاسكندر الافروديسي : ١٦٤ ، ١٨٤ ،
 ٣٠٨ ، ٣١٧ ، ٧٣٤
 الاسكندر الاكبر : ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،
 ٢١٨ ، ٢٩١ ، ٣٩٦
 اسكينز الاسفتوزي : ٩٥
 الاشعري (انظر : ابو موسى)
 اصطفن الاسكندري - ٢٢٣ ، ٢٩٢ ،
 ٣٠٦

افرو قلوبس : ٣٢٢
 افلاطون : ٥ ، ٨ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥١ ،
 ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ،
 ١١٢ - ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ ،
 ١٥٦ - ١٦١ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ،
 ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ،
 ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،
 ١٩١ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ،
 ٢٠٦ - ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،

ابو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي
 (انظر الخوارزمي)

ابو جعفر هرون : ٧٢١
 ابو حيان التوحيدي : ٣١٨
 ابو الخير الحسن بن سوار : ٣١٦
 ابو راشد نافع بن الازرق : ٢٧٣
 ابو الريحان البيروني : ٣٠٦ ، ٣٠٩
 ابو سهل الفضل بن ابي سهل بن
 نوبخت : ٣١٠

ابو طالب المكي : ٦٩٠
 ابو عبدالله محمد بن ابراهيم الفزاري
 الكوفي : ٣٠٩ ، ٣١٠ ،
 ابو عثمان الدمشقي : ٣١٠
 ابو العلاء المعري : ٤٨ ، ٥٧٩ - ٦٠٥
 ابو علي الجبائي (انظر الجبائي)
 ابو الفداء : ٢٧٨ ، ٣٦١
 ابو قتيلة (انظر يوحنا القس)
 ابو محمد الصفاني - ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،
 ٣٣٥

ابو موسى الاشعري : ٢٧١ ، ٢٧٢
 ابو نصر الاسماعيلي : ٦٠٧
 ابو نواس : ٤٨
 ابو الهذيل العلاف : ٢٩٣ ، ٦٣٢
 ابو يزيد البسطامي : ٦٩٠
 ابيقورس : ٤٥٨
 اتانس الراهب : ٣١٦ ، ٣١٧ ،
 الاحنف بن قيس : ٢٧٨ ، ٢٧٩
 ادم متر : ٣١١

ار بن ارمينيوس البامفيلي : ١٣٧
 ارخميدس : ٢١٧

ارسطو : ٥ ، ٤٤ ، ٥١ ، ٩٤ - ٩٦ ،
 ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،
 ١١٤ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٦ ،
 ١٥١ - ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٣ ، ٢٣٥ ، ٢٦٤ ، ٢٩٢ ،
 ٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ - ٣٠٩ ، ٣١٥ ،
 ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧ -

انكسيمندريس : ٨٧	٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ -
انكسيمبني : ٨٧	٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ ،
انو شروان : ٣٠٩	٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
انيتوس : ١١٠	٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣٢٠ - ٣٢٢ ،
انيقريس : ١١٣	٣٣٣ ، ٣٤٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ،
اهرون بن اعين : ٣٠٦	٣٧٣ ، ٣٧٨ - ٣٨٠ ، ٣٨٧ ،
اوغسطين (القديس) : ٥٧٧ : ٦١٥	٣٩٢ - ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ -
ايراتوسيتين : ٢١٧	٤٠٧ ، ٤١٢ ، ٤٢٨ ، ٤٣٢ ،
الباقلائي : ٢٩٣	٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٥٣ ، ٤٥٨ ،
البخاري : ٣٢٦ ، ٣٢٧	٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٧٢ ، ٤٨٠ -
	٤٨٢ ، ٤٨٨ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ،
	٥٢١ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤٦ ،
	٥٥١ ، ٥٦٠ ، ٧١٩ ، ٧٢١ ،
	٧٢٦ ، ٧٥٥ ، ٧٨٣ ،
ب	
بختيشوع : ٣٠٦	افلو طر خس : ٣٠٨
بدوي : ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٤٠	افلو طين : ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ -
برغسون : ١٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،	٢٤٥ ، ٢٦٤ ، ٣٠٧ ، ٣٢٠ ،
٣٥٦ ، ٥٣١	٣٤٣ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ ، ٤٢١ ،
برقلي (انظر افروقلوس)	٤٢٢ ، ٤٢٨ ، ٤٥٣ ، ٤٥٨ ،
بركلي : ٦٧٩	٤٧٢ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٥٦٠ ،
برميندس : ٨٧	اقريطياس : ١١٣
بروكلمان : ٣٧٤	اقليدس : ١١٣ ، ٢١٧ ، ٢٩٩ ،
برونو : ٩٥	٣٠٣
بروتا غوراس : ٩٠ ، ٩٥ ، ١٢١ ،	اكاديموس : ١١٤
١٣٩	اكزينوفانس : ٨٧
بريكليسي : ٢٩ ، ٩٣ ،	اكزينوفون : ٩٤ ، ١٠٨ ،
بسكال : ٦١٥	القيادس : ٩٥
بشر بن المعتز : ٦٣٣	امام الحرمين (انظر ضياء الدين
بطليموس : ١١٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨ ،	الجويني)
٧٢٦	امبيدوقليس : ٨٧
بلوتارك (انظر افلو طرخس)	امونيوس الحمال (سكاس) : ٢٢٣ -
بندار : ٣١٢	٢٢٦
بوذا : ٦٥	امينتاس الثاني : ١٥١ ، ١٥٢
بوزيدونيوس : ٥٤٢	اندرونيقوس الروديسي : ١٥٤ ،
بوغليه : ٨٣١	١٨٧
بول كراوس : ٢٩٤	اندريه الكريتي (القديس) : ٣٠٢
بيبرس (نظر الظاهر -)	انكساغوراس : ٨٧

بيشاس : ١٥٢
البيروني (انظر : ابو الريحان)

جوستينيان (انظر يوستيتيان)
جيراردو الكريموني : ٣٢٢

ت

تاج الملك : ٤٧٥
تامسطيوس : ١٨٤ ، ٥٤٢ ، ٧٣٤
تشوانغ - سي : ٧٣
تهانوي : ٣٣٥
توكيديدس : ٧٨٣ ، ٧٩٤
توما الاكويني : ٣١٧ ، ٤٩٧
توينبي (ارنولد) : ٧٩٥
تيو خراسطس : ١٥٣

ث

ثابت بن قرة : ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٠
ثمارة بن اشرس : ٦٣٣
تمسطيوس (انظر تمسطيوس)
ثيوفراسطس (انظر يتوفراسطس)

ح

الحارث المحاسبي : ٦٩٠
حام : ٣٦٨ ، ٨٠٤
حبيش بن الاعسم : ٣٠٥ ، ٣١٥
الحجاج بن مطر : ٣٠٣
الحسن بن فاطمة : ٣٦١
الحسن بن علي : ٢٧٨ ، ٢٧٩
الحسن بن موسى النوبختي : ٣١٠
الحسن البصري : ٢٨٢
الحلاج (الحسين بن منصور) : ٧٠٩
حمد بن مسلحة الانصاري : ٢٧٧
حنين بن اسحق : ٢٩٩ ، ٣٠٥ - ٣٠٧
٣١٥ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ - ٣٢٧ ، ٣٢٥

خ

خالد بن يزيد بن معاوية - ٢٩٢ ،
٣٠٣
الخطيب البغدادي - ٢٢٤
الخليل بن احمد : ٣٠٧
الخوارزمي (ابو جعفر محمد بن
موسى) : ٣١٠
الخوٲاص : ٧٠٩

د

دانتى : ٧٣٦
دوكايم : ٢٦٢ ، ٨٢١
دريد بن الصمة : ٥٩٩
دوغا : ٣٤١

ج

جابر بن حيان : ٢٤٦
الجاحظ : ٢٢٦ ، ٢٢٢
جاليانوس : ٢٢٧
جالينوس : ٣٠٣ ، ٣١٥ ، ٢٢٢ -
٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٢ ، ٥٤٤ ، ٧٢٦
الجبائي : ٦٣٤
الجرجاني - ٢٣٥
جرير - ٢٨٣
الجعفران : ٦٣٣
الجنيد : ٦٩٠
جهم بن صفوان - ٢٨٣ - ٢٨٥
الجوزجاني : ٤٧٣ ، ٤٧٥

ديتريسي (ديتريشي) : ٣٢٦ ،

٣٧٤

ديكارت : ١٦٢ ، ٣٠٨ ، ٥١٢ ،

٥٣٣ ، ٦١٥ ، ٦٢٣ ، ٦٢٨ ،

٧٣٣ ٦٣٥

ديمقريطس : ٨٧

ديوجين الابولوني : ٥٤٣

ديون : ١١٣

ديونيسوس الاول : ١١٣

ديونيسوس الثاني (الاكبر) : ١١٤

ديونيسوس الاريوباغي : ٣٢٢

سي

سابور : ٢٢٦

ساينا - ٢٢٧

سارطون - ٧٨ ، ٧٩

سام : ٣٦٨

السبكي : ٣٢٦

سبينوزا : ٢٤٢

السجستاني : ٣٠٥

سعد بن ابي وقاص : ٢٧٧

سعد بن عبادة : ٢٦٩

سعد بن مالك : ٢٧٧

سقراط : ٥ ، ٨ ، ٢٩ ، ٤٨ ، ٩١ ،

٩٢ ، ٩٣ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٢١ ،

١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٨ - ١٤٠ ،

١٥٧ ، ١٦٢ - ١٦٥ ، ١٧٨ ،

١٨٨ ، ٢٢٨ ، ٣٥٧ ، ٣٩١ ،

٤٠٥ .

سمبليوس : ٧٣٤

السمعاني : ٣٢٦

سنتيانا : ٢٦٤

سهروردي : ٢٩٢

سهل بن هرون : ٢٩٦ ، ٣٠٤

سوفوكليس : ٣١٢

السرائي : ٣١٨

سيف الدولة : ٣٧٢ ، ٤٥٢ ، ٥٨٠

سيف الدين لاجين : ٣٦١

السيوطي : ٢٩٢

شي

الشبلي : ٦٩٠

شكسبير : ٤٨

شلم : ٢٦٤

شمس الدولة : ٤٧٥ ، ٤٧٦ ،

شمويلدز : ٣٣٩ ، ٣٤١

شهرستاني : ٢٢٧ ، ٢٦٩ ، ٦٣٤

و

راتزل : ٨٠٦

الرادكاني (احمد بن محمد) : ٦٠٧

الرازي (ابو بكر محمد بن زكريا) :

٤٤٦

الرازي (فخر الدين) : ٥٦١

راما كريشنا : ٦٧

الراوندي : ٤٤٦

الرشيد (هرون) : ٢٩٥ ، ٢٩٧

٣٠٣ ، ٣١٠

روزنتال (فرانتز) : ٣١٦ ، ٣٣٠ ،

٣٢٢ - ٣٢٦

روسو : ٦١٥

روفائيل : ٤٨

رينان : ٤٣ ، ٧٨ ، ٣٣٨ - ٣٤٢ ،

٣٦٨ ، ٦٨١ ، ٧٢٦ ، ٧٣٤ ،

٧٣٥ ، ٧٣٧

ز

الزبير : ٢٧١ ، ٢٧٢

زيد بن حارثة : ٢٧٧

زينون : ١٧٢ ، ٤٥٨

شرازي : ٢٩٢ ، ٤٧٥
شيرشميدت : ١١٦
شيرشرون : ١٥٣ ، ١٦٤
شينفلر : ٢٦٣
شفيتسر : ٢٦٣

ص

صاعد الاندلسي : ٢٩٤
صالح بن بهلة : ٣٠٦
الصنماني (انظر : ابو محمد -)
صوفرونيوس (القديس) : ٣٠٢

ض

ضياء الدين الجويني (امام الحرمين) :
٢٩٣ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٣

ط

طاليس - ٨٦ ، ٨٧
الطبري : ٢٧٨
طلحة : ٢٧١ ، ٢٧٢

ظ

الظاهر برقوق : ٧٦٧
الظاهر بيبرس : ٣٦١

ع

عائشة : ٢٧١ ، ٢٧٢
عباد بن سليمان : ٢٨١

عبد القاهر الجرجاني : ١١٩
عبدالله بن سبا : ٢٧١
عبدالله بن عباس : ٢٧٢
عبدالله بن عمر : ٢٧٧
عبدالله بن المقفع (انظر ابن المقفع)
عبد المسيح بن عبدالله بن ناعمة
الحمصي : ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥

عثمان ابن عفان ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥
عطاء بن يسار : ٢٨٢
علي بن ابي طالب : ٢٦٩ - ٢٧٢ ،
٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ - ٢٧٩ ،
٢٨١ ، ٣١١ ، ٣٢٦

علي بن زياد التميمي : ٣٠٦
عمر بن ابي ربيعة : ٤٨
عمر بن الخطاب : ٢٦٩ ، ٣٠٢
عمر بن عبد العزيز : ٣٠٦
عمرو بن العاص : ٢٧١ ، ٢٧٢ ،
عمرو بن معد يكرب : ٥٩٩
علاء الدولة : ٤٧٥
عيسى (المسيح) : ٤٤٧ ، ٧٤٢

غ

الغزالي : ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٩٣ ،
٢٤٦ ، ٦٠٦ - ٧١٩ ، ٧٢٦ -
٧٢٩ ، ٧٣٢ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ،
٧٤١ ، ٧٥١ ، ٧٥٣ ، ٧٥٥ -
٧٦٢ ، ٧٧٥ ، ٧٨١
غواشون : ٤٨٨ ، ٤٩٢
غوتيه (ليون) : ٣٩٨
غورجياس : ١٣٩
غورديانوس (الامبراطور) : ٢٢٦
غورفيتش : ٣٦٦
غيلان الدمشقي : ٢٨٥
غيوم دي موربك : ٣٢٢

ف

- الفارابي (أبو نصر): ٤٤ ، ٢٦٤ ، ٣٠٨ ، ٣٤٦ ، ٣٧١ - ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧ - ٤٧٧ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠١ - ٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ٥١٠ ، ٥١٥ ، ٥٢١ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٣٤ ، ٥٤٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٧٦ ، ٧٢٦ ، ٧٣٤ - ٧٣٦ ، ٧٤٠ ، ٧٥٩ ، ٧٨١
- فالميري : ١٦
- فخر الملك : ٦١١
- فرغوريوس : ٢٢٣ ، ٢٢٦ - ٢٢٨ ، ٢٤١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٩ ، ٧٣٦
- الفزاري (انظر : ابو عبدالله محمد ابن ابراهيم بن حبيب)
- الفزاري (انظر ابراهيم بن حبيب -)
- فولتير : ٨ ، ٧٩٥
- فيثاغورس : ١١٣
- فيدون : ١٣٩ ، ١٤٠
- فيدياس : ٤٨
- فيكو : ٧٨٤ ، ٧٩٥
- فيلون : ٢٢٠ - ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٤٥ ، ٣٨١
- فيليبوس : ١٥١ ، ١٥٢
- فيلابوس : ١٣٩

ق

- قسطا بن لوقا : ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٥٤٤
- قيس بن سعد : ٢٧٨

ك

- كارادي فو : ٥٦١

كبلر : ٧٣٣

- كريزوس : ٢٩
- كليوبوس : ١٧٦
- كنط : ٩٠ ، ١٢١ ، ٢٠٤ ، ٢٦٤ ، ٦٧٣ ، ٧٨١ ، ٧٩٥
- كنفوشيوس : ٧٠ : ٧٣
- كوبر نيقوس : ٩١ ، ٧٣٣
- كومت (اوفيسيت) : ٧٨١
- كونتيليان : ١٥٣
- كوندورسيه : ٧٩٥
- كونغ - تسي : ٧٠
- الكيا ابو جعفر : ٢٢٨

ل

- لافاليه بوسان : ٦٤
- لاو - تسي : ٧٠ ، ٧٣
- لوقيوس : ٨٧
- لوك : ١٢١
- لوكلير : ٢٩٢
- ليقون : ١١٠

م

- ماركس (كارل) : ٨٢٥
- ماسر جويه : ٢٠٦
- ماسويه : ٢٠٦
- مالبرانش : ٦٧٩
- الامسون : ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣٢٢
- مانهيم (كارل) : ٣٦٣
- المتنبي : ٣٧٢
- متي بن يونس : ٣٠٦
- محمد بن ابراهيم الفوارى : ٣١٠
- محمد بن ابي بكر : ٢٧٨

ميخائيل الثالث : ٣.٣
ميكلا انج : ٤٨
ميليتوس : ١١٠
مينغ - نسي : ٧٠
مينون : ١٣٦

ن

نجدة بن عامر الحنفي : ٢٧٣
نجدة النساخ (يوسف) : ٦.٧
النسفي : ٦٣٥
النظام : ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٦٣٢
نظام الملك : ٦.٨ ، ٦.٩ ، ٦.١٠
نوبخت : ٣.٦ ، ٣.١٠ ، ٣.١١
النوبختي : ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٣.١١ ، ٣٤٤
نوح (النبي) : ٢٢٢ ، ٣٦٨ ، ٨.٤
نوح (بن منصور الساماني) : ٤٧٤
نومينوس : ٢٢٢
النوي : ٢٧٨
نيقوماخوس : ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٥
نيقولاوس الدمشقي : ١٨٧
نيوكومب : ٣٦٧

هـ

هراقليطوس : ٨٧
هرييليس : ١٥٢
هرمياس : ١٥٢
هرون الرشيد (انظر الرشيد)
هزيود : ٤٨ ، ٨٦
هشام القوطي : ٢٨٠ ، ٢٩٣
هوايتهد : ٨٦
هوراس : ٤٨
هورتن : ٣٥٨ ، ٣٥٩

محمد الفاتح : ٢٩٥ ، ٣٣٠
محمد (النبي ، الرسول) : ٢٤٩ -
٢٥٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩
٢٧١ ، ٢٧٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٧
٣٥١ ، ٣٧٩ ، ٤٤٧ ، ٦٢٢
٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٩١ ، ٦٩٢
٧٤٢ ، ٧٦٤ .

محمد بن موسى الخوارزمي (انظر
الخوارزمي)

محمود سبكتكين : ٣٤٤
مرفي : ٣٦٧
مرقس او ريلوس : ٨
مريانوس الرومي (الراهب) : ٢٩٢ ،
٣.٣ ، ٣.٦
المستعين بالله : ٣.٨
المسعودي : ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٧٨٧
معاوية : ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩
٢٨١ - ٢٨٣ ، ٨٢٢
معبد الجهنني : ٢٨٢ ، ٢٨٥
المعتصد : ٣.٧
المعتمد : ٣.٧
المعري (انظر : ابو العلاء)
الملطي : ٢٧٨
ملكشاه : ٦.٩
المنصور (ابو جعفر) : ٢٩٤ ، ٢٩٥
٢٩٩ ، ٣.٩ ، ٣.١٠ ، ٣٤٤

منكه : ٣.٦

مو - نسي : ٧٠

موسى (النسي) : ٢٢٠ - ٢٢٢ ،
٢٢٤ ، ٤٤٧ ، ٥٩٩ ، ٧٤٢ ،
٧٨٧

موسى بن شاكر النجم : ٣.٥
موسى بن عيسى : ٣٢٦
موسى بن موسى بن فرتون : ٣٦١
مونتسكيو : ٨.٥ ، ٨.٦
مونشيوس : ٧٠
مونك : ٣٤١ ، ٧٣٧

- هوميروس : ٤٨ ، ٨٤ ، ٢٢٢ ، ٣١١
 هيرودوث : ٢٩ ، ٧٨٣
 هيرونيوس : ٢٢٣
 هيوم : ١٢١ ، ٦٨٠ ، ٦٨١
- و
- واصل بن عطاء : ٢٧٧ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨٥ ، ٢٨٦
 وليم جيمس : ٢٦٤ ، ٥٣١
 ويل ديورانت : ٨١
- ي
- يافت : ٣٦٨
 ياقوت : ٣٦١
- يحيى بن عدي : ٢٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٦ ،
 ٣١٧
 يحيى البرمكي : ٣٢٦
 يسبرز : ٣٦٣
 يوحنا (يحيى) بن البطريق : ٣٢٢ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٦
 يوحنا بن حيلان : ٣٧١
 يوحنا بن ماسويه : ٣٠٤
 يوحنا الدمشقي : ٣٠٢
 يوحنا القس اليوناني المهندس
 المعروف بابي فيثلة : ٣١٧
 يوحنا النحوي : ٢٢٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،
 يودكس : ١٧٦
 يوديموس : ١٥٥
 يوربيدس : ٣١٢
 يونس بن متى : ٣١٨
 يوستينيان : ١١٤
 يوستينيان الاول : ٢٥٠

مصادر الكتاب

١ - باللغة العربية

نُشِبَت فيما يلي - بحسب ترتيب حروف الهجاء - أسماء جميع المؤلفين الذين كانوا رُفدًا لنا، في تصنيف هذا الكتاب مع ذكر مؤلفاتهم . وكُنَّا نأثرنا بهم يتفاوت بين النقل الحرفي ونقل المعنى .

تهافت التهافت ، تحقيق الدكتور
سليمان دنيا ، جزان ، القاهرة
١٩٦٤ - ١٩٦٥

- كتاب فصل المقال ، تقديم وتعليق
الدكتور البير نصري نادر ، الطبعة
الثانية ، بيروت ١٩٦٨
- مناهج الأدلة في عقائد الملة ،
القاهرة ١٩٥٥
ابن سينا :

الإشارات والتنبيهات ، تحقيق
الدكتور سليمان دنيا ، ثلاثة
مجلدات . القاهرة ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ،
١٩٦٠ .

- كتاب السياسة ، في (مقالات
فلسفية قديمة لبعض مشاهير فلاسفة
العرب) المطبعة الكاثوليكية ،
بيروت ١٩١١

- النجاة ، مطبعة السعادة بمصر
سنة ١٣٣١ هـ

- الشفاء ، تحقيق إبراهيم مذكور ،

أ

إبراهيم (د. زكريا) : مشكلة الفلسفة
القاهرة ١٩٦٢

- مشكلة الإنسان . القاهرة ١٩٥٩
ابن حزم :

الفصل في الملل والأهواء والنحل (في
خمس أجزاء) المكتبة التجارية
القاهرة ١٣١٧ - ١٣٢١ هـ

ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ،
أربعة مجلدات ، بيروت ١٣٧٣ هـ
١٩٥٤ م

ابن خلدون : المقدمة ، تحقيق الدكتور
علي عبد الواحد وافي ، أربعة
مجلدات ، القاهرة ١٣٧٦ -

١٣٨٢ هـ / ١٩٥٧ - ١٩٦٢ م
- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا
وغربا ، القاهرة ١٩٥١

ابن رشد :

اوليري (د. لاسي) : علوم اليونان
وسبل انتقالها الى العرب . ترجمة
الدكتور وهيب كامل - ١٠٠٠
كتاب . وزارة التعليم العالي .
القاهر ١٩٦٢ .
امين (احمد) : فجر الاسلام ،
الطبعة السادسة . القاهرة
١٧٧ هـ - ١٩٥٠ م
- ضحى الاسلام ثلاثة اجزاء .
القاهرة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م ،
١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م ، ١٣٦٨ هـ
- ١٩٤٩ م
- ظهر الاسلام اربعة اجزاء . القاهرة
١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م ، ١٩٥٧ م ،
١٩٥٧ م ١٩٥٥ م .
- يوم الاسلام القاهرة ١٩٥٨
امين (عثمان) : شخصيات ومذاهب
فلسفة القاهرة ١٣٦٤ هـ -
١٩٤٥ م
الاهواني (د. احمد قواد) :
افلاطون . القاهرة دار المعارف .
بدون تاريخ .
- فجر الفلسفة اليونانية ، الطبعة
الاولى القاهرة ١٩٥٤

ب

بدوي (د. عبد الرحمن) :
- افلوطين عند العرب ، القاهرة
١٩٥٥
- الافلاطونية المحدثه عند العرب ،
القاهرة ١٩٥٥
- ارسطو عند العرب ، الجزء الاول ،
القاهرة ١٩٤٧
- دور العرب في تكوين الفكر الاوربي ،
بيروت ١٩٦٥
- التراث اليوناني في الحضارة

القاهرة ١٩٦٠
- كتاب احوال النفس ، دار الاحياء ،
القاهرة ١٩٥٢
- رسالة اضحوية في امر المعاد ،
القاهرة ١٩٤٩
- مبحث عن القوى النفسية ،
القاهرة ١٩٥٢
- رسالة في معرفة النفس الناطقة ،
القاهرة ١٩٥٢
- رسالة في الكلام على النفس الناطقة
القاهرة ١٩٥٢
ابن طفيل : حي بن يقظان ، تحقيق
الدكتور جميل صليبا والدكتور
كامل عياد ، دمشق ١٣٨١ هـ -
١٩٦٢
ابو ريان (د. محمد علي) : اصول
الفلسفة الاشراقية ، الطبعة
الاولى ، القاهرة ١٩٥٩
- قراءات في الفلسفة (بلاشتراك
مع الدكتور علي سامي النشار)
القاهرة ١٩٦٧
ابو زهرة (محمد احمد) :
المذاهب الاسلامية - ١٠٠٠ كتاب
وزارة التربية والتعليم - مصر .
بدون تاريخ
ارنولد (سرتوماس . و .) :
الدعوة الى الاسلام . ترجمة
الدكتور حسن ابراهيم حسن
والدكتور عبد المجيد عابدين .
الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٥٩
الاشعري : مقالات الاسلاميين تحقيق
محمد محي الدين عبد الحميد
جزآن . الطبعة الاولى ، القاهرة
١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م
الاهواني (د. احمد قواد) : ابن سينا
القاهرة ١٩٥٨
اعمال مهرجان ابن خلدون المنعقد
في القاهرة من ٢ - ٦ يناير ١٩٦٢

ثوينبي (ارنولد) : تاريخ الحضارة
الهلينية . ترجمة رمزي عبده
جرجس . القاهرة ١٩٦٣

ج

جارالله (زهدي حسن) : المعتزلة ،
القاهرة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م
جمعة (محمد لطفي) : تاريخ فلاسفة
الاسلام في المشرق والمغرب ،
القاهرة ١٣٤٥ - ١٩٢٧
جيب : بنيه الفكر الديني في الاسلام .
ترجمة الدكتور عادل المسوا
دمشق ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م
- دراسات في حضارة الاسلام .
ترجمة الدكتور احسان عباس
والدكتور محمد نجم والدكتور
محمود زايد . بيروت نيويورك
١٩٦٤
الجندي (محمد سليم) :
الجامع في اخبار ابي العلاء المعري
واثاره الجزء الاول . مطبوعات
المجمع العلمي العربي بدمشق
١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م
جانيه (بول) وسباي (جبريل) :
مشكلات ما بعد الطبيعة . ترجمة
الدكتور يحي هويدي . القاهرة
١٩٦١

ح

حسين (طه) : مع ابي العلاء في سجنه
القاهرة ١٩٤٤ .
- تجديد ذكرى ابي العلاء . القاهرة
الطبعة الخاصة ١٣٧٧ هـ
١٩٥٨ م

الاسلامية ،
دراسات لكبار المستشرقين .
القاهرة ١٩٤٠
- من تاريخ الالحاد في الاسلام ،
القاهرة ١٩٤٥
- روح الحضارة العربية ، بيروت
١٩٤٩
- ارسطو ، الطبعة الثانية ، القاهرة
١٩٤٤
- افلاطون ، الطبعة الثانية ، القاهرة
١٩٤٤
- خريف الفكر اليوناني ، القاهرة
١٩٤٣
- ربيع الفكر العربي ، الطبعة الثالثة ،
القاهرة ١٩٥٨
بروفنسال (ليفي) : العرب في
الاندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط ،
بيروت . بدون تاريخ
بلدي (د. نجيب) : تمهيد لتاريخ
مدرسة الاسكندرية القاهرة ١٩٦٢
البي (د. محمد) : الجانب الالهي
من التفكير الاسلامي ، القاهرة ،
١٣٦٥ - ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٥ -
١٩٤٧
بلبع (د. عبد الحكيم) : ادب
المعتزلة ، القاهرة ١٩٥٩

ت

التفتازاني (د. ابو الوفا الفيني) :
دراسات في الفلسفة الاسلامية ،
القاهرة ١٩٥٧
- علم الكلام وبعض مشكلاته ،
القاهرة ، ١٩٦٦
تيمور (المرحوم احمد) : ابو العلاء
المعري . القاهرة ١٣٥٩ هـ -
١٩٤٠ م

سارطون (جورج) :
تاريخ العلم والانسية الجديدة
ترجمة اسماعيل مظهر . القاهرة
- نيويورك ١٩٦١

الحصري (ساطع) : دراسات عن
مقدمة ابن خلدون . طبعة موسعة .
القاهرة ١٩٥٢

هـ

ش

الشهرستاني : نهاية الاقدام في علم
الكلام ، حرره وصححه الفرد
جيوم (يطلب من مكتبة المثنى
ببغداد ، دون تاريخ) .
- الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد
كيلاني ، جزآن ، القاهرة ١٣٨١ هـ
١٩٦١ م
شفيتسر (البرت) : فلسفة الحضارة
ترجمة الدكتور عبد الرحمن
بدوي . القاهرة ١٩٦٢

دي بور (ت. ج) : تاريخ الفلسفة
في الاسلام ترجمة محمد عبيد
الهادي ابو ريدة . القاهرة ١٣٥٧ هـ
- ١٩٣٨ م .
دنيا (سليمان) : الحقيقة في نظر
الفزالي . القاهرة ١٣٦٧ هـ -
١٩٤٧ م
ديكارت (رينيه) : مقال عن المنهج .
ترجمة محمود محمد الخيزري .
القاهرة ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م
رفاعي (د. احمد فريد) : الفزالي .
ثلاث مجلدات . القاهرة
١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م
راندال (جون هرمان) ويخلسر
(جوستاس) مدخل الى الفلسفة .
ترجمة الدكتور ملحم قربان .
بيروت - نيويورك ١٩٦٣

ص

صليبيا (د. جميل) :
من افلاطون الى ابن سينا . الطبعة
الخامسة . دمشق ١٩٥١

ز

ط

الطويل (د. توفيق) :
اسس الفلسفة . الطبعة الرابعة
- القاهرة ١٩٦٤ .

زايد (سعيد) : الفارابي ، القاهرة
١٩٦٢ زريق (قسطنطين) :
في معركة الحضارة . الطبعة
الاولى . بيروت . ١٩٦٤ .

س

ع

علي (سيد امير) : روح الاسلام

السيوطي : الاشباه والنظائر المكتبة
التجارية ، القاهرة ١٣٥٩ هـ

- ترجمة عمير الديراوي ، بيروت ١٩٦١
- علي (محمد كرد) : الاسلام والحضارة العربية . جزآن . الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٠ و ١٩٥٩ .
- العثمان (عبد الكريم) : الدراسات النفسية عند المسلمين ، والفزالي بوجه خاص . القاهرة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م
- عنان (محمد عبدالله) : ابن خلدون القاهرة ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٣ م
- عبد الرازق (د. مصطفى) : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية، القاهرة ١٣٦٣ هـ - ١٩٤٤ م
- فيلسوف العرب والمعلم الثاني القاهرة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م
- العقاد (عباس محمود) : ابن رشد بيروت ١٩٥٣
- اثر العرب في الحضارة الاوربية الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٠
- رجعة ابي العلاء . القاهرة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٩ م
- عبد الرحمن (عائشة، بنت الشاطي) : الحياة الانسانية عند ابي العلاء ، القاهرة ١٩٤٤ .
- الففران لابي العلاء . تحقيق ودرس . القاهرة - ١٩٥٤
- ابو العلاء المعري القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م
- العوا (عادل) : الكلام والفلسفة . دمشق ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م
- مجلدات، الطبعة الازهرية المصرية الطبعة الثانية ، ١٣١٦ هـ
- ايها الولد ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٥٩
- مشكاة الانوار ، تحقيق الدكتور ، ابو العلا عفيفي، القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م
- تهافت الفلاسفة ، تحقيق سليمان دنيا ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م
- القسطاس المستقيم ، تحقيق فكتور شلحت ، بيروت ١٩٥٩
- ميزان العمل ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، الطبعة الاولى ، القاهرة سنة ١٩٦٤
- مقاصد الفلاسفة ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، القاهرة ١٩٦١
- المنقذ من الضلال، تحقيق الدكتور جميل صليبا والدكتور كامل عياد، الطبعة السادسة ، دمشق ، ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م
- فرائد الالهي من رسائل الفزالي وتحتوي على (معراج السالكين) و (منهاج العابدين) و (روضة الطالبين) مصر ١٣٤٤ هـ
- المستصفى في اصول الفقه، القاهرة ١٣٢٢
- الجامع العوام عن علم الكلام ، الطبعة المنيرة ١٣٥١ هـ
- معارج القدس في مدارج معرفة النفس القاهرة ١٩٢٧
- غولد تسيهر (اجناس) .
- العقيدة والشريعة في الاسلام ، ترجمة محمد يوسف موسى وعبد العزيز الحق وعلى حسن عبد القادر ، القاهرة ١٩٤٦

غ

الفزالي : احياء علوم الدين ، اربعة

ف

- الفارابي :
كتاب اراء اهل المدينة الفاضلة
تحقيق الدكتور البير نصري نادر ،
بيروت ١٩٥٩
- كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين ،
تحقيق الدكتور البير نصري نادر ،
بيروت سنة ١٩٦٠ .
- كتاب السياسة المدنية ، تحقيق
الدكتور فوزي متري نجار ،
بيروت ١٩٦٤
- احصاء العلوم ، تحقيق الدكتور
عثمان امين ، الطبعة الثانية ،
القاهرة ١٩٤٩

فارتن (بنيامين)
العلم الاغريقي . جزآن . القاهرة
١٩٥٨ - ١٩٥٩

فخري (ماجد) : ابن رشد . بيروت
١٩٦٠

- ارسطوطاليس . بيروت ١٩٥٨
فو (البارون كارا) : الفزالي .
ترجمة عادل زعيتر . القاهرة
١٩٥٩

فلهوزن (يوليوس) : الخوارج
والشيعة ترجمة د. عبد الرحمن
بدوي القاهرة ١٩٥٨

ق

قاسم (د. محمود) : دراسات في
الفلسفة الاسلامية ، القاهرة ،
١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م
- في النفس والعقل ، الطبعة الثانية
القاهرة ١٩٥٤ .

ك

كوريان (هنري) : تاريخ الفلسفة
الاسلامية ، ترجمة نصير مروة
وحسن قبيسي ، بيروت ١٩٦٦ ،
الكتاب الذهبي للمهرجان الالفى
لذكرى ابن سينا - القاهرة ١٩٥٢
كروم (يوسف) : تاريخ الفلسفة
اليونانية . القاهرة ١٣٥٥ هـ -
١٩٣٦ م
كيتو (ه.د.) : الاغريق ، ترجمة
عبد الرازق يسري القاهرة ١٩٦٢
كاسير (ارنست) : مدخل الى فلسفة
الحضارة الانسانية ، بيروت -
نيويورك ١٩٦١

ل

لاندو (روم) :
الاسلام والعرب ، ترجمة منير
البعلبكي . بيروت ١٩٦٢

م

مرحبا (د. محمد عبد الرحمن) :
المسألة الفلسفية ، بيروت ١٩٦١
- آشتين : حياته ، عصره ، نظرياته ،
فلسفته ، بيروت ١٩٥٨

الملطي : التنبيه في الرد على اهل
الاهواء والبدع ، استانبول ١٩٣٦
المسعودي : مروج الذهب ،
القاهرة ١٩٥٩

متز (ادم) : الحضارة الاسلامية في
القرن الرابع الهجري ، ترجمة د.
محمد عبد الهادي ابو ريدة ، جزآن

بمجموعة الرسائل ، مطبعة
تكرستان ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م
تكرستان ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م
نجاتي (محمد عثمان) : الادراك
الحسي عند ابن سينا . القاهرة
١٩٤٦

النشار (د. علي سامي) :
نشأة الفكر الفلسفي عند اليونان،
الاسكندرية ١٩٦٤

- المنطق الصوري ، الطبعة الاولى
١٩٥٥

- مناهج البحث عند مفكري الاسلام
القاهرة ١٩٦٥

- نشأة التفكير الفلسفي في الاسلام
جزآن ، القاهرة ١٩٦٥

- قراءات في الفلسفة ، (بالاشتراك
مع الدكتور محمد علي أبو ريان)
القاهرة ١٩٦٧ .

النوبختي : فرق الشيعة ، نشرة
ريتر ، ليبزج ، ١٩١٣

نعمة (الشيخ عبدالله) : فلاسفة
الشيعة منشورات دار مكتبة
الحياة ، بيروت ، دون تاريخ .

هـ

هل (ي) : الحضارة العربية ترجمة
الدكتور ابراهيم احمد المدوي
القاهرة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م

هونكه (زيفريد) :

شس العرب تسطع على الغرب ،
ترجمة فاروق بيضون وكمال
دسوقي . بيروت ١٩٦٤

الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٣٧٧ هـ
- ١٩٥٧ م

مفنية (محمد جواد) : معالم الفلسفة
الاسلامية بيروت ١٩٦٠

ماسون اورسيل (بول) : الفلسفة
في الشرق ، ترجمة محمد يوسف
موسى . القاهرة ١٣٦٤ هـ -
١٩٤٥ م

مطر (اميرة حلمي) : الفلسفة عند
اليونان القاهرة ١٩٦٥

محمود (د. عبد الحليم) :
التفكير الفلسفي في الاسلام جزآن.
القاهرة ١٩٥٥

مذكور (د. ابراهيم) : في الفلسفة
الاسلامية . القاهرة . ١٣٦٧ هـ
- ١٩٦٧ م .

المعري (ابو العلاء) :
اللزوميات ، الطبعة الثانية بيروت
١٩٦٩ .

رسالة الففران ، تحقيق وشرح
عائشة عبد الرحمن ، الطبعة
الرابعة دار المعارف بمصر (بدون
تاريخ)

تاريخ الفكر العربي : اسماعيل مظهر
القاهرة ١٩٢٨

موسى (د. محمد يوسف) :
القرآن والفلسفة . القاهرة
١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م

- بين الدين والفلسفة - القاهرة
١٩٥٩

ن

النسفي (ابو المعين) : بحر الكلام ،

- الوردي (د. علي) : منطق ابن
خلدون القاهرة ١٩٦٢
ول ديورانت : قصة الحضارة ترجمة
محمد بدران . الجزان ١٢ و ١٣ .
القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٥٧
- مباهج الفلسفة . ترجمة الدكتور
أحمد قواد الالهواني جزآن .
القاهرة ١٩٥٧ ، ١٩٥٦
واقي (د. علي عبد الواحد) : عبد
الرحمن بن خلدون (سلسلة أعلام
العرب) القاهرة بدون تاريخ
وولش (و. هـ .) : مدخل لفلسفة
التاريخ . ترجمة أحمد حمدي
محمود . القاهرة ١٩٦٢

٢ - باللغات الأجنبية :

- A**
- Aristote : La métaphysique
2 trad. J. Tricot Vrin,
Paris, 1940
— Physique: trad. Henri Car-
teron, 2t. Les Belles Lettres,
Paris, 1926
- B**
- Bouthoul (Gaston): Ibn-Khal-
doun, sa philosophie socia-
le, Librairie Orientaliste,
Paul Geuthner, Paris, 1930.
— Traité de sociologie 2 t.
Payot, Paris, 1946.
Brehier (Emile) : Les idées
philosophiques et religieu-
ses de Philon d'Alexandrie,
Vrin, Paris, 1950
Brehier (Emile) : Etudes de
philosophie antique. P.U.F.,
Paris, 1955
— La philosophie de Plotin,
Bolvin, Paris, 1923
— Histoire de la philosophie,
tome premier. 1, P.U.F. Pa-
ris, 1951
Boyd (William C.) : Génét-
que et races humaines, Pa-
yot, Paris, 1952
Blachère (Régis) : Le problè-
me de Mahomet, P.U.F.
Paris, 1952
Burns (Sir Alan): Le préjugé
de race et de couleur, Payot,
Paris, 1949
Brokelmann (C) : Histoire
des peuples et des états is-
lamiques. Traduction de M.
Tazerout, Payot, Paris, 1949

C

- Chevalier (Jacques) :** Histoire de la pensée t. I. Flammarion, Paris, 1955
Camas (J.) : Les mythes raciaux, Unesco, Paris, 1951

D

- Dugat (Gustave) :** Histoire des philosophes et des Théologiens musulmans, Maisonneuve et Cie., Paris, 1878
Dilthey : Le monde de l'esprit 2 tomes, Aubier, 1947
Deschoux (Marcel) : Initiation à la philosophie, P.U.F. Paris, 1967

F

- Fouillée (Alfred) :** Histoire de la philosophie, 14e éd., Paris, 1919.
Fougeyrollas (Pierre) : La philosophie en question éd. Denoël, 1960

G

- Gandillac (Maurice de) :** La sagesse de Plotin, Hachette, Paris, 1952
Gurvitch (Georges) : La Vocation actuelle de la sociologie, P.U.F. Paris, 1950

Girod (Roger) : Attitudes collectives et relations humaines, P.U.F. Paris, 1954

Gilson et Théry : Archives d'histoire doctrinale et littéraire du moyen-âge, Année 1929—30, Vrin, Paris, 1930

Gauthier (Léon) : La théorie d'Ibn-Rochd sur les rapports de la religion et de la philosophie, Ernest Leroux, Paris, 1909

— La philosophie musulmane, Ernest Leroux, Paris, 1900

Gauthier (Léon) : Ibn Rochd. P.U.F. Paris, 1948

Goichon (A.-M.) : La distinction de l'essence et de l'existence d'après Ibn Sina, Paris, Desclée de Brouwer, 1937

— La Philosophie d'Avicenne Adrien-Maisonneuve, Paris, 1951

Gardet (Louis) : La pensée religieuse d'Avicenne, Vrin, Paris, 1951

Gardet (Louis) et Anawati (M.-M.) : Introduction à la théologie musulmane, Vrin, Paris, 1948

Gusdorf (Georges) : Mythes et Métaphysique, Flammarion, Paris, 1955

H

Hitti (Philip K.) : Précis d'histoire des Arabes, Trad. de Maurice Planhol. Payot, Paris, 1950

J

Jurji (E.J.) : Illumination in Islamic Mysticism. Princeton University Press, 1938

M

Maquet (Jacques J.) : Sociologie de la connaissance. Institut de recherches économiques et sociales, Louvain, 1949

Moreno (J.-L.) : Fondements de la sociométrie, trad. de l'anglais par Lesage et Maucorps P.U.F. Paris, 1954

Marhaba (Mohammad Abdul Rahman): Nouvelle contribution à l'étude de l'authenticité de la philosophie musulmane. Essai de synthèse et d'interprétation psycho - socio - dynamique. Thèse principale pour le Doctorat ès-Lettres présentée à la Faculté des Lettres de l'Université de Paris, 1954

M

Munk (S.) : Mélanges de philosophie juive et arabe Vrin, Paris, 1927

Macdonald (Duncan B.) : Development of Muslim. Theologie Jurisprudence and Constitutional Theory, London, 1903

P

Plotin : Ennéades 7e trad. Emile Bréhier, Les Belles lettres, Paris, 1924

Pradines (Maurice) : Esprit de la religion. Aubier, Paris, 1941

Q

Quadri (G.) : La philosophie arabe dans l'Europe médiévale, Payot, Paris, 1947

R

La Revue du Caire Millénaire d'Avicenne, No. 141, Juin 1951

Rivaud (Albert) : Histoire de la philosophie, Tome I. P.U.F. Paris, 1948

Renan (Ernest) : Averroès et l'averroïsme, œuvres complètes, tome III, Paris, 1852

— Histoire générale et système comparé des langues sémitiques, Paris, Ve éd. 1898

S

Saliba (Djamil) : La métaphysique d'Avicenne, P.U.F. Paris, 1926

Spengler (Oswald) : Le déclin de l'occident, 2^e. Paris, N.R.F. 1948

Schuhl (Pierre Maxime) : Essai sur la formation de la formation de la pensée grecque, P.U.F. Paris, 1949

T

Toynbee (Arnold) : A study of History, Oxford University Press, London, 1935

— La civilisation à l'épreuve, Paris, N.R.F. 1951

Thomas (Bertram) : Les Arabes, trad. de l'anglais par Roland Huret, Payot, Paris, 1946

V

Vaux (R. de) : Notes et textes sur l'avicennisme latin aux confins des XII — XIII^e siècles, Vrin, Paris, 1934

Vaux (Baron Carra de) : Les penseurs de l'Islam, 5 tomes, Paris, 1923 — 26

— Avicenne, Alcan Paris, 1900

W

Wensinck (A.J.) : La pensée de Ghazali. Adrien — Maissonnaire, Paris, 1940

الفهرس

صفحة

٥

مقدمة

القسم الاول

مدخل الى دراسة الفلسفة

١٣	الفصل الاول . - الابعاد الزمكانية للانسان
١٦	الفصل الثاني . - مفارقة الذات العضوية
١٨	الفصل الثالث . - القدرة على التغيير
٢٠	الفصل الرابع . - العالم العقلي
٢٢	الفصل الخامس . - العقل والانسان
٢٦	الفصل السادس . - المعنى العميق للفلسفة
٣٨	الفصل السابع . - وظيفة الفلسفة والفائدة منها
٥٠	الفصل الثامن . - بين الفلسفة والعلم

القسم الثاني

الفلسفة اليونانية

٥٧	الفصل الاول . - اليونان وأنماط التفكير عند الشرقيين
	١ - نمط التفكير عند المصريين ٦٠؛ ٢ - نمط التفكير عند الإيرانيين ٦١؛
	٣ - نمط التفكير عند الهنود ٦٢؛ ٤ - نمط التفكير عند الصينيين ٦٩.

صفحة

٨٤

الفصل الثاني . - اطوار الفلسفة اليونانية

٨٦

الفصل الثالث . - الفلسفة اليونانية قبل سقراط

٩٣

الفصل الرابع . - سقراط (٤٦٩ ق.م. - ٣٩٩ ق.م.)

١ - حياته ٩٣؛ ٢ - مصادر معرفتنا بسقراط ٩٤؛ ٣ - منهج سقراط ٩٦؛ ٤ - الحد الكلي ١٠٠؛ ٥ - الاخلاق ١٠٣؛ ٦ - مأساة سقراط ١٠٩ .

١١٢

الفصل الخامس . - افلاطون (٤٢٧ ق.م. - ٣٤٧ ق.م.)

١ - حياته ١١٢؛ ٢ - محاورات افلاطون ١١٤؛ ٣ - فلسفة افلاطون ١١٧؛ ٤ - اقسام فلسفته ١٢٠؛ ٥ - نظرية المعرفة ١٢٠؛ ٦ - عالم المثل ١٢٦؛ ٧ - الطبيعة ١٣١؛ ٨ - النفس ١٣٤؛ ٩ - الاخلاق ١٣٨؛ ١٠ - السياسة ١٤١ .

١٥١

الفصل السادس . - ارسطو (٣٨٤ ق.م. - ٣٢٢ ق.م.)

١ - حياته ١٥١؛ ٢ - آثاره ١٥٣؛ ٣ - فلسفته ١٥٦؛ ٤ - تصنيف العلوم عند ارسطو ١٥٩؛ ٥ - نظرية المعرفة ١٦١؛ ٦ - المنطق ١٦٢؛ ٧ - الطبيعة ١٦٨؛ ٨ - النفس ١٧٨؛ ٩ - ما وراء الطبيعة ١٨٥؛ ١٠ - الاخلاق ٢٠٤؛ ١١ - السياسة ٢٠٩ .

٢١٧

الفصل السابع . - الافلاطونية المحدثه

٢٢٠

أ - فيلون (٢٥ ق.م. - ٤ ب.م.)

٢٢٦

ب - افلوطين (٢٠٥ م - ٢٧٠ م)

١ - الاول (او الواحد) ٢٣٠؛ ٢ - الفيض ٢٣٣؛ ٣ - النفس الانسانية ٢٣٩؛ ٤ - الاتحاد ٢٤١؛ ٥ - العالم المحسوس ٢٤٢ ، خاتمة ٢٤٣ .

القسم الثالث الفلسفة الإسلامية

الفصل الاول . - حركة محمد وأبعادها الخطيرة في التاريخ والحضارة ٢٤٩

الفصل الثاني . - العوامل الدينية لنشأة الفكر الاسلامي ٢٦٧

الفصل الثالث . - حركة النقل والترجمة ٢٩٠

١ - البدايات الاولى ٢٩٠ ؛ دور السريان ٢٩٤ ؛ ٣ - عيوب

النقل ٢٩٦ ؛ ٤ - اسباب النقل ٢٩٧ ؛ ٥ - العصر الذهبي للترجمة

٣٠١ ؛ ٦ - النقلة ٣٠٥ ؛ ٧ - طريقة النقل ٣١٤ ؛ ٨ - الانتحال

٣٢٠ ؛ ٩ - النقل ٣٢٩ .

الفصل الرابع . - مقدمة لدراسة الفلسفة الإسلامية ٣٣٦

الفصل الخامس . - الفارابي (٢٥٧ - ٣٣٩هـ / ٨٧٠ - ٣٩٥م.) ٣٧١

حياته ٣٧١ ؛ شخصيته ٣٧٢ ؛ أسلوبه ٣٧٦ ؛ طابع فلسفته ٣٧٧ ؛

إحصاء العلوم ٣٨١ ؛ ١ - نظرية المعرفة ٣٨٤ ؛ ٢ - المنطق ٣٨٧ ؛

٣ - وحدة الفلسفة والفلاسفة ٣٩٢ ؛ ٤ - الواجب والممكن (الله

والعالم) ٤٠٨ ؛ ٥ - الفيض ٤١٦ ؛ ٦ - الطبيعة ٤٢٢ ؛ ٧ - النفس

٤٣٣ ؛ ٨ - النبوة ٤٤٥ ؛ ٩ - التصوف العقلي ٤٥١ ؛

١٠ - الأخلاق ٤٥٣ ؛ ١١ - السياسة ٤٥٨ .

الفصل السادس . - ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨هـ / ٩٨٠ - ١٠٣٧م.) ٤٧٣

حياته ٤٧٣ ؛ شخصيته ٤٧٦ ؛ أسلوبه ٤٧٨ ؛ فلسفته ٤٧٩ ؛ تصنيف

العلوم ٤٨٣ .

١ - نظرية المعرفة ٤٨٤ ؛ ٢ - المنطق ٤٨٧ ؛ ٣ - العلم الإلهي

صفحة

٤٩٧؛ ٤ - الفيض ٥٠٥؛ ٥ - الطبيعة ٥١١؛ ٦ - النفس ٥٢١؛
٧ - النبوة ٥٥١؛ ٨ - التصوف ٥٦١؛ ٩ - الأخلاق ٥٦٦؛
١٠ - السياسة ٥٦٩.

٥٧٩ الفصل السابع . - ابو العلاء المعري (٣٦٢-٤٤٩ هـ / ٩٧٣-١٠٥٧ م.)
حياته ٥٧٩؛ آثاره ٥٨١؛ أسلوبه ٥٨٣؛ أخلاقه وسجاياه ٥٨٤؛
موقفه من العقل ٥٩٢؛ معتقد أبي العلاء في الدين والخالق ٥٩٤؛
رأيه في البعث والحشر وخلود النفس ٦٠١.

٦٠٦ الفصل الثامن . - الامام الغزالي (٤٥٠-٥٠٥ هـ / ١٠٥٨-١١١١ م.)
حياته ٦٠٦؛ مؤلفاته ٦١٢؛ أسلوبه ٦١٥؛ شخصية الغزالي وعلمه
وخصائص تفكيره ٦١٦.

٦٢٩ الغزالي وأهم مشكلات اليوم
١ - المعتزلة ٦٣٠؛ ٢ - الغزالي ٦٤١.

٦٦٣ الغزالي وأهم مشكلات الفلسفة

٦٨٩ الغزالي والتصوف

٧٢٠ الفصل التاسع . - ابن رشد (٥٢٠-٥٩٥ هـ / ١١٢٦-١١٩٨ م.)
نشأته ٧٢٠؛ آثاره ٧٢٥؛ شخصيته ٧٢٩؛ ابن رشد وأرسطو
٧٣٣؛ التوفيق بين الحكمة والشريعة ٧٤٠؛ بين ابن رشد
والغزالي ٧٥١.

أ - مسألة قدم العالم ٧٥٢؛ ب - مسألة السببية ٧٥٥؛ ج -
روحانية النفس ٧٥٩؛ خاتمة ٧٦٢.

صفحة

٧٦٤	الفصل العاشر . - ابن خلدون حياته ٧٦٤ ؛ آثاره ٧٦٨ ؛ أسلوبه ٧٦٩ ؛ أخلاقه وإطلاعه وخصائص تفكيره ٧٧٢ .
	ابن خلدون والفلسفة ٧٧٥ ؛ فلسفة التاريخ ٧٨٢ ؛ علم العمران ٧٩٥ ؛ نشأة العمران ٧٩٨ ؛ أثر الأقليم ٧٩٩ ؛ البدو والحضر ٨٠٦ ؛ العصبية ٨٠٨ ؛ الدولة ٨١٤ ؛ وجوه الكسب ٨٢٢ ؛ العلم والتعليم ٨٣٤ ؛ نقد (مقدمة ابن خلدون) ٨٤٢ ؛ إشعاع ابن خلدون بعد وفاته ٨٤٧ .
٨٥١	الفصل الحادي عشر . - مقال التراث
٨٥٩	دليل الاعلام
٨٦٩	مصادر الكتاب باللغة العربية
٨٧٦	مصادر الكتاب باللغات الاجنبية
٨٨١	فهرست

عويذات للنشر والطباعة ٢٠٠٠/١٠٢٤

موسوعة لالاند الفلسفية

أندريه لالاند

صادرة عن الدار في ثلاثة مجلدات — قياس ٢٥×١٧ — غلاف
قماش مع قميص.

المجلد الأول: A - G

المجلد الثاني: H - Q

المجلد الثالث: R - Z

موسوعة
رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء

تحقيق الدكتور عارف تامر

صادرة عن الدار لأول مرة في خمسة مجلدات، عن المخطوطة الأصلية
التي كانت في اليمن. قياس ٢٥×١٧.

1. Introduction

The purpose of this study is to investigate the effects of various factors on the performance of a system. The study is organized as follows: Section 2 describes the system and the factors being investigated. Section 3 presents the experimental design and the results of the experiments. Section 4 discusses the implications of the results and provides conclusions.

2. System Description

The system under investigation is a complex system with multiple components. The factors being investigated are the input variables that affect the system's performance. The system's performance is measured by the output variables.

3. Experimental Design

The experiments were designed to test the effects of the input variables on the system's performance. The results of the experiments are presented in Table 1.

4. Results and Discussion

The results of the experiments show that the input variables have a significant effect on the system's performance. The conclusions drawn from the results are discussed in this section.

5. Conclusion

The study has shown that the input variables have a significant effect on the system's performance. The results of the study can be used to improve the system's performance.

